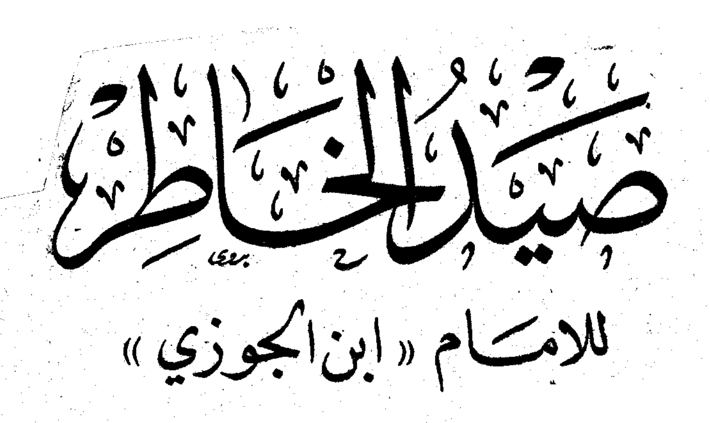


للإمام ابن الجوزي

حققه
جي الطنطاوي

راجعه
علي الطنطاوي

دار الفكر بدمشق



للامام «ابن الجوزي»

راجعه
ووضع مقدمته وعلق عليه
علي الطنطاوي

حققه
ووضع فهارسه وعناوين فصوله
ناجي الطنطاوي

الجزء الأول

دار الفكر بدمشق

الطبعة الأولى

١٣٨٠ - ١٩٦٠

مطابع دار الفكر بدمشق

☎ ١١٠٤١

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نحمده ونستعينه ونتوب اليه ونستغفره

ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ،

اللهم اجعل عملي هذا خالصاً لك ،

اللهم اني أسألك أن تنفع به ، وأن تثيبني عليه ،

وصل اللهم على سيّدنا محمد معلّم الخير وعلى آله

وصحبه ومن تبعهم باحسان .

المقدمة

كنت أعمل في بغداد نحو سنة (١٩٣٦) أدرّس في كلية العلوم الشرعية في الاعظمية ، وأقيم فيها منفرداً ، فكنت اذا طال عليّ الليل ، وأوحشت الوحدة ، أفزع الى مكتبة الكلية ، أستعير منها الكتاب بعد الكتاب أنظر فيه ، فأطالع بعضها وأكتفي من بعضها بتصفح أوراقه ، والالمام بموضوعاته ، وبعض أدرسه وألخّصه ، وبعض أختار منه . وكان فيما استعرت منها ، كتاب بلغ من اعجابي به ان استبقيته عندي ، الى ان فارقت الكلية ، أقرأ فيه كل يوم ، فلا أملّ القراءة فيه ، ولا تخلو نظرة فيه من موعظة أتعظ بها ، او فائدة أستفيدها ، او طرفة آنس بها . وفيه فوق ذلك تحليل للنفوس وفيه وصف للمجتمع . في أسلوب مبتكر ، وطريقة في التصنيف لا أعرفها لأحد من المصنفين .

وكان الكتاب « صيد الخاطر لابن الجوزي »

وفي هذا الاسم توفيق عجيب : ذلك ان الخواطر لاتفتأ

تمر على الذهن ، كأنها الطيور التي تجوز سماء الحقل ، تراهـا لحظة ثم تفتقدها ، فكأنك مارأيتها ، فاذا انت اصطدتها وقيدتها ملكتها أبداً . لذلك جعل المؤلف هذا الكتاب « قيداً لصيد الخاطر » فكان الاسم نفسه نفحة من نفحات العبقرية . وقـد قلّـده فيه (أحمد أمين) فسمّى ديوان مقالاته (فيض الخاطر) وشتان ما هما .

ولو أن كل عالم ، بل لو ان كل متعلم قيّد مايمر بذهنه من الخواطر لكان من ذلك ثروة له وللناس : يعود هو بعد سنين الى ما كتب ، فيرى فيه تاريخ تفكيره ، ويجد فيـه مافتقد من نفسه . والانسان ابداً في تبـــدل ، يذهب منه (شخص) ويولد (شخص) وحينما تقرأ وأنت (شيخ) خواطرك التي سجلتها وأنت (شاب) تجد شيئاً غريباً عنك ، كأنك ماكنت انت صاحبه ، وكأنه خطر على بال غيرك . ثم انه ان كان عالماً او مفكراً ، كان من هذه الخواطر كتـاب علم وأدب وفن ككتاب ابن الجوزي .

- ٣ -

فلما عدت الى دمشق ، فتشت عن نسخة من الكتاب — وكانت نسخه نادرة من تلك الايام — حتى وجدتها ، فجعلت أنظر فيه دائماً ، ورآه اخي ناجي (القاضي الشرعي) فأولع

به ، ولازم مطالعته ، حتى كاد يحفظه عن ظهر قلبه ، ووضع العناوين لفصوله ، واتخذ له فهارس ، يصنع ذلك لنفسه لايفكر في طبعه ولا في نشره .

فلما رأيت ذلك ، ورأيت الكتاب جيداً جداً ، ونسخه قليلة جداً ، فكرت في نشره ، وكان في الكتاب كثير من التحريف والخطأ ، ففتشنا عن نسخ منه مخطوطة وأمدّنا الصديق الدكتور صلاح الدين المنجد (مدير معهد المخطوطات) بها ، فاشتغل اخي ناجي بمقابلة المطبوع عليها ، وحققه ما استطاع ، وان لم يسلم من كثير من الغموض ، ومن آثار تحـــريف النساخ ، لانه لم يجد نسخة مخطوطة صحيحة يعتمد عليها .

وكان عملي فيه ان راجعته ، فرأيت المؤلف رحمـه الله ، يتبع في كل خـاطرة (وحي الساعة) كما يقولون ، يسجل ما يخطر على باله ، فيقع أحياناً في تناقض : يسوق الرأي قد ساق من قبل ضده ، ويذم شيئاً كان قد وقع هو فيه ، ويأتي بآراء لايسلّم له بها ، ولا يجوز السكوت عنها ، فكنت أعلق على ذلك بمـــا أبيّن به الصواب الذي أعرفه ، وان كنت لا أصلح تلميذاً لتلاميـــذ تلاميذه ، وأين انا من ابن الجوزي ؟ ولكنه الواجب . والغلام ان عرف الحق في مسألة ردّ فيها على شيخ الاسلام ، وقد تلقّى ابو حنيفة علمه (الذي

قاله هو ونسيه) من حجام في مكة ، وردّت عجوز على عمر وهو على المنبر ، فقبل منها ورجع الى رأيها .

- ٤ -

وأنا قديم التعظيم لابن الجوزي ، قديم الحب له ، ولقد كان كتابه في سيرة عمر بن عبد العزيز الذي نشره خالي الاستاذ محب الدين الخطيب سنة (١٣٣١) هـ من اوائل ما قرأت من الكتب ، وقد خلّف في نفسي أثراً لايزول ، وكان من أسباب الرشاد لي والحمد لله ؛ ولرب كلمة يسمعها الناشيء ، أو كتاب يقرؤه ، أو انسان يصحبه ، يكون سبب دخوله الجنة أو دخوله النار ، ويكون بداية سيره في طريق الخير أو في طريق الشر ، فلينتبه الشبان لما يقرؤون ولمن يصحبون ، ولينتبه قبل ذلك آباؤهم ، فليختاروا لهم المدارس التي تعلمهم ماينفعهم ، وتثبت عليهم ايمانهم واخلاقهم ، ولايكون ذلك الا ان كان القائمون عليها ، والمدرسون فيها من اهل الدين والتقوى والعلم بالشريعة والعمل بما يعلمونه منها .

- ٥ -

رأيت ابن الجوزي في هذه السيرة مؤرخاً جامعاً ، واسع الرواية ، ثم قرأت له « تلبيس ابليس » فوجدت فيه محدثاً فقيهاً ناقداً بصيراً ، يزن الناس بميزان السنة الصحيحة فيرفع من

يرجح في هذا الميزان ، ويخفض من يكون مرجوحا ، لايبالي في الحق كبيراً ولا صغيراً ، ولايخدعه عن حقيقـــة المرء سعة جاهه وشهرته بالصلاح ، ولقد كان هذا الكتاب أول مانبهني الى انحرافات بعض الصوفية عن طريق السنة .

ثم قرأت له كتاب (الاذكياء) الذي جمع فيه من أخبار أذكياء الملوك والقضاة والاطباء كل معجب مطرب ، وقرأت له كتاباً في « اخبار الحمقى والمغفلين » فيـــه من النوادر والطرائف مايضحك الحزين .

ولما أراد صديقنا (يومئذ) الاستاذ حسام الدين القدسي أن يطبع كتابه في « أخبار الظراف والمتماجنين » كلفني أن أقدم له بكلمة فكتبتها ، وهذه المقدمة من آثار الشباب التي لاأرتضيها وقد كتبتها سنة طبع الكتاب وهي سنة ١٣٤٧ هـ أي قبل ثلث قرن كامل .

- ٦ -

وعجبت من كثرة الموضوعات التي الفّ فيهـا ، ثم رأيت كتاب « عقود الجوهر في تراجم من لهم خمسون تصنيفاً فاكثر» لجميل العظم ، وقـــد ذكر ابن الجوزي ، وعدّ من مؤلفاته مئة وتسعة وعشرين مؤلفاً ، فازداد عجبي منه واعجابي به .

وقرأت ترجمته في « البداية والنهـاية » فرأيته يصفه بأنه

« أحد افراد العلماء برز في علوم كثيرة ، وانفرد بها عن غيره وجمع المصنفات الكبار والصغار نحوا من ثلاثمائة مصنف ، وكتب بيده نحواً من مئتي مجلّد ، وله في العلوم كلها اليد الطولى ، والمشاركات في سائر انواعها ، من التفسير والحديث والتاريخ والحساب والنجوم والطب والفقه وغير ذلك من اللغة والنحو . وله من المصنفات في ذلك كله مايضيق هذا المكان عن تعدادها ، وحصر افرادها ، منها كتابه في التفسير المشهور بـ « زاد المسير » وله تفسير ابسط منه – أي أوسع – لكنه ليس بمشهور ، وله جامع المسانيد استوعب غالب مسند أحمد وصحيحي البخاري ومسلم وجامع الترمذي ، وله كتاب « المنتظم في تواريخ الامم من العرب والعجم » في عشرين مجلداً ، وقد اوردنا (يقول ابن كثير) في كتابنا هذا كثيراً من حوادثه وتراجمه ولم يزل يؤرخ اخبار العالم حتى صار هو تاريخاً :

مازلت تدأب في التاريخ مجتهداً حتى رأيتك في التاريخ مكتوباً . . .

- ٧ -

وقال ابن خلكان :

« انه كان علامة عصره ، وامام وقته ، في الحديث وصناعة الوعظ ، صنف في فنون كثيرة ، منها « زاد المسير في التفسير » أربعة اجزاء أتى فيه بأشياء غريبة ، وله في الحديث تصانيف

كثيرة ، وله « المنتظـــم » في التاريخ وهو كبير ، وله « الموضوعات » في اربعة اجزاء ذكر فيها كل حديث موضوع، وله « تلقيح فهوم الاثر » على وضع كتاب المعارف لابن قتيبة – اي على طريقته ومنهاجـه – وله « لقط المنافع » في الطب .

وبالجملة فكتبه اكثر من أن تعدّ ، وكتب بخطه شيئاً كثيراً ، والناس يغالون في ذلك حتى يقولوا إنه جمعت الكراريس التي كتبها وحسبت مدة عمره ، وقسمت الكراريس على المدة ، فكان ما خص كل يوم تسع كراريس .

وهذا شيء عظيم لايكاد يقبله العقل .

ويقال : انه جمعت براية أقلامه التي كتب بها حديث رسول الله ﷺ فحصل منها شيء كثير، أوصى ان يسخن به الماء الذي يغسل به بعد موته ، ففعل ذلك فكفت .... »

وقال الحافظ الذهبي :

« ما علمت أن احداً من العلماء صنف ماصنف هذا الرجل »

وقال ابن تيمية :

« عددت له اكثر من الف مصنف ، ورأيت بعد ذلك مالم أره(١) »

وقال الموفق المقدسي :

« كان ابن الجوزي امام اهل عصره في الوعظ ، وصنّف في

---

(١) ابن رجب في الذيل

فنون العلم تصانيف حسنة وكان صاحب فنون ، وكان يدرس الفقه ويصنف فيه ، الا اننا لم نرض تصانيفه في السنة ولا طريقته فيها [١] .

-٨-

ويقول ابن الجوزي نفسه في « لفتة الكبد » :

« وقد علمت يابني أني صنفت مئة كتاب ، فمنها التفسير الكبير عشرون مجلدا ، والتاريخ عشرون مجلداً ، وتهذيب المسند عشرون مجلداً ، وباقي الكتب مابين كبار وصغار يكون خمسة مجلدات ومجلدين وثلاثة وأربعة وأقل واكثر »

وقال القطيعي :

« ناولني ابن الجوزي كتابا بخطّه فيه فهرست مؤلفاته كلها [٢] وقد عرض في « صيد الخاطر » لذكر طائفة من كتبه منها :

لقط المنافع في الطب (ذكره في الفصل ٥٣) ذم الهوى (الفصل ٦٣) تلبيس ابليس (الفصل ٧١ و ٢٤٧ و ٣٠٨ و ٣١٢) كتاب الاذكياء (الفصل ١٨٤) المنتظم (الفصل ٣٠٨) واخبار الحسن واخبار سفيان الثوري واخبار ابراهيم بن ادهم واخبار بشر الحافي واخبار احمد بن حنبل واخبار معروف الكرخي ، وكتابه في أغاليط الغزالي في الإحياء (الفصل ٣٣٦)

---

(١) لم يرض عنه على رغم عصبيته للحنابلة وتحامله على الاشاعرة ، فماذا (لعمري) يقول عنه لو كان معتدلاً ؟!

(٢) وهذا الفهرست موجود في الذيل لابن رجب (١ : ٤١٦)

- ٩ -

وقد عابوا عليه أشياء[١] : منها كثرة أغاليطه في تصانيفه ، وعذره في هذا واضح ، وهو أنه كان مكثراً من التصانيف ، فيصنف الكتاب ولايعتبره بل يشتغل بغيره ولربما كتب في الوقت الواحد تصانيف عديدة ، ولولا ذلك لم يجتمع له هذه المصنفات الكثيرة . وقد ينقل من التصانيف في علم من غير أن يكون متقناً لذلك العلم من جهة الشيوخ والبحث ، ولهذا نقل عنه أنه قال : « أنا مرتّب ولست بمصنّف »

وكان إذا رأى تصنيفاً وأعجبه ، صنّف مثله في الحال وان لم يكن قد تقدّم له في ذلك الفن عَمَل ، لقوة فهمه وحدّة ذهنه ، فربما صنف لاجل ذلك الشيء ونقيضه بحسب مايتفق له من الوقوف على تصانيف من تقدّمه .

- ١٠ -

أما منزلته في الوعظ فما اعرف من يدانيه فيها ، ولقد قرأت سير عشرات من اساتذة الوعظ ، فما رأيت من أوتي من قوة العارضة ، وحسن التصرف في فنون القول ، وشدة التأثير في النـــاس ، ماأوتيه ابن الجوزي .

---

(١) الذيل لابن رجب

ولم يكن الوعظ في صدر الاسلام صناعة ، ولا كان في الناس من ينقطع اليه ويعرف به ، ولم تكن تعقد له المجالس : يُنصب للوعاظ فيها الكراسي ، ويجتمع فيها الآلاف من الناس ، بل كان الرجل يلقى العالم فيسأله الموعظة ، فيعظه بكلمة تخرج من القلب، لا يعمد فيها الى تجويد عبارة ، ولا الى تحسين لفظ .

ثم نشأت طبقة اتخذت الوعظ حرفة ، وعقدت له المجالس ، وخلطت فيه السنة الصحيحة بالاسرائيليات ، والرواية بالخطابيات ، وكان هؤلاء الوعاظ يعرفون بـ « القصاص »(١)

فما كان عصر ابن الجوزي حتى صار الوعظ فناً له قواعده وله اصوله ، واتسعت مجالسه وارتفعت منزلة اهله ، حتى رووا أنه حضر مجلس ابن الجوزي مئة الف ؟ ولست ادرى كيف كانوا يسمعون صوته ويفهمون عنه !

– ١١ –

فلما كانت خلافة المستضيء قوي اتصال ابن الجوزي به ، وصنف له الكتاب الذي سماه « المصباح المضيء في دولة المستضيء » ولما خطب له بمصر وانقطع حكم العبيديين – الذين يدعون بالفاطميين – ألّف

---

(١) وقد ظن شفيق جبري (من جهله بهذه العلوم) ان القصاص مثل اسكندر دوما وأضرابه ، فخبط في الكلام عنهم في كتابه عن (الاغاني) خبط أعشى في ليل بهيم

كتاب « النصر على مصر » وحضر عنده وقرأه عليه .

ثم أذن له أن يجلس للوعظ فى «باب بدر» في البلاط، واعطاه مالاً

- ١٢ -

وتحت أيدينا وثيقة نادرة المثال ، فيها وصف مجلس من مجالس وعظه، حضره الرحالة النبيه الثقة ، وسجّله في رحلته القيّمة ، هو ابن جبير الاندلسي الذي قدم بغداد سنة (٥٨٠) وحضر مجالس ابن الجوزي قبل وفاته بسبع عشرة سنة ، وقد كان عمره يومئذ سبعاً وسبعين سنة ، قال :

« ثم شاهدنا مجلساً ثانياً له بكرة يوم الخميس بباب بدر في ساحة قصر الخليفة ، ومناظره مشرفة عليه ، وهذا الموضع من حرم الخليفة ، وقد خصّ ابن الجوزي بالوصول اليه ، والتكلم فيه ، ليسمعه من تلك المناظر [١] الخليفة نفسه ووالدته ومن حضر من الحرم ، ثم يفتح الباب للعامة فيدخلون الى ذلك الموضع وقدبسط بالحصر ، وجلوس ابن الجوزي بهذا الموضع كل يوم خميس .

فبكرنا لمشاهدته ، وقعدنا الى ان وصل هذا الحبر المتكلم ، فصعد المنبر وأزاح طيلسانه عن رأسه متواضعاً لحرمة المكان ؛ وقد تسطّر قُرّاء القرآن امامه على كرامي موضوعة [٢]، فابتدروا القراءة

---

(١) أي النوافذ والشرفات (٢) أي جلسوا صفوفاً كالاسطر

على الترتيب، فشوّقوا ماشاؤوا وأطربوا ماارادوا، وبادرت العيون بارسال الدموع .

فلما فرغوا من القراءة ، وقد احصينا لهم تسع آيات من سور مختلفات ، صدع ابن الجوزي بخطبته الزهراء، واتى بأوائل الآيات في اثنائها منتظمات، ومشى في الخطبة على فقرة آخر آية منها في الترتيب الى ان اكملها، وكانت الآية « الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا ان الله لذو فضل على الناس» فتمادى على هذا السين، وحسّن أي تحسين فكان يومه هذا أعجب من أمسه [١] ، ثم اخذ في الثناء على الخليفة والدعاء له ولوالدته وكنّى عنها بـ «الستر الاشرف والجناب الارأف»

وكان الخليفة يومئذ الناصر الذي جدّد شباب الخلافة العباسية بعد الهرم ، ثم شرع يسلك سبيله في الوعظ ، كل ذلك بديهة لاروية [٢] ويصل كلامه في ذلك بالآيات التي كان قرأها القراء من قبل في المجلس فأرسلت وابلها العيون ، وأبدت النفوس سر ّ شوقها المكنون ، وتطارح الناس عليه بذنوبهم معترفين [٣] وبالتوبة معلنين ، وطاشت الالباب والعقول ، وكثر الوله والذهول . وصارت الناس لاتملك تحصيلا ، ولا تميّز معقولاً ، ولا تجد للصبر سبيلا .

---

(١) وكان قدوصف مجلسه الاول في رحلته (٢) اي ارتجالاً لا إعداداً

(٣) الاعتراف من شعائر النصرانية . اما الاسلام فيرغب المذنب بستر الذنب والتوبة منه لله وحده .

ثم في اثناء مجلسه كان ينشد أشعاراً من النسيب مبرّحة التشويق، بديعة الترقيق تشعل القلوب وجـداً، ويعود موضعها الغزلي وجداً[١] وكان آخر ما أنشده من ذلك :

أين فؤادي ؟ أذابه الوجدُ وأين قلبي ؟ فما صحـا بعدُ

في أبيات، لم يزل يرددها ، والانفعال قد أثر فيه، والمدامع تكاد تمنع خروج الكلام من فيه ، الى ان خاف الافحام ، فابتدر القيام ونزل عن المنبر عجلاً ، وقد اطار القلوب وجلاً ، وترك النـاس على أحر من الجمر ، يشيّعونه بالمدامع الحمر ، فمن معلن بالانتحاب ، ومن متعفّر بالتراب ، فيالك من مشهد ماأهول مرآه ، وما أسعد من رآه» قال : « وما كنا نحسب ان متكلماً في الدنيا يعطى من امتلاك النفوس والتلاعب بها ماأعطي هذا الرجل » .

- ١٣ -

وهـذا وصف لمجلس آخر من مجالسه ، كتبـه ابن الجوزي بقلمه ، قال :

« وسألني أهل الحربية [٢] أن أعقد عندهم مجلساً للوعـظ ليلة ، فوعدتهم ليلة الجمعة سادس ربيـع الاول [٣] وانقلبت بغداد ، وعبر أهلها عبوراً زاد على نصف شعبان[٤] زيادة كبيرة ، فعبرت الى باب

---

(١) الوعظ في سنة الاسلام بالآيات والاحاديث لا بأشعار الغرام .

(٢) ضاحية في بغداد (٣) اي سنة ٥٦٩

(٤) الاحتفال بنصف شعبان والدعاء فيه بدعة مالها اصل

البصرة [١] ، فدخلتها بعد المغرب ، فتلقاني أهلها بالشموع الكثيرة ، وصحبني منها خلق عظيم ، فلما خرجت من باب البصرة ، رأيت أهل الحربية قد اقبلوا بشموع لايمكن احصاؤها ، فأضيفت الى شموع اهل باب البصرة ، فحزرت بألف شمعة ، وما رأيت البرية إلا مملوءة بالاضواء ، وخرج اهل المحال والنساء والصبيان ينظرون ، وكان الزحام كالزحام بسوق الثلاثاء ، فدخلت الحربية وقد امتلأ الشارع وأكريت الرواشن [٢] من وقت الضحى ، ولو قيل : ان الذين خرجوا يطلبون المجلس وسعوا في الصحراء بين باب البصرة والحربية مع المجتمعين في المجلس كانوا ثلاثمائة الف ماأبعد القائل .

وهذا وصف مجلس ثالث :

قال ابن الجوزي : « وتكلمت يوم الخميس ، خامس رجب من هذه السنة [٣] في قصر الخليفة ، بعد العصر ، وحضر السلطان ، واخذ الناس أماكنهم من بعد صلاة الفجر ، وأكريت دكاكين ، فكان كل موضع رجل بقيراط ، حتى انه اكتري دكان لثمانية عشر رجلاً بثمانية عشر قيراطاً ، ثم جاء رجل فأعطاهم ستة قراريط حتى جلس معهم ، وكان الناس يقفون يوم مجلسي من باب بدر [٤] الى باب النوبي كأنه العيد » .

ثم ذكر مجالسه سنة احدى وسبعين بباب بدر ، وحضور الخليفة

---

(١) وهو من ابواب بغداد
(٢) جمع روشن وهو خص النافذة
(٣) اي سنة ٥٦٩
(٤) من ابواب قصر الخليفة

عنده غير مرة وازدحام الناس من نصف الليل ، وكان يعظ هو وأبو الخير القزويني . قال :

« وكنت أتكلم اسبوعاً ، وابو الخير القزويني اسبوعاً ، وجمعي عظيم ، وعنده عدد يسير ؛ ثم شاع ان امير المؤمنين لايحضر الا مجلسي » . قال :

« وبعث الي بعض الامراء من اقارب أمير المؤمنين : (والله ما احضر انا ولا امير المؤمنين غير مجلسك ، وانما تلمّحنا مجلس غيرك يوماً وبعض يوم آخر)

وحدّثني بعض خدم الخليفة ان الخليفة حضر يوماً المجلس متحاملا لمرض حصل له ـ (قال) ولولا شدة محبتك لما حضر ، لما كان اعتراه من الالم.

وتكلمت يوم عرفة بباب بدر فكان مجلساً عظيما ، تاب فيه خلق كثير ، وقطعت شعور كثيرة ، وكان السلطان حاضراً .

ثم في يوم عاشوراء سنه اثنتين وسبعين تكلمت بباب بدر ، وامتلأ المكان من السحر ، وطلع الفجر وليس لاحد طريق ، فرجع الناس ، وامتلأت الطرق بالناس قياماً يتأسفون على فوت الحضور .

وكان يوم المجلس تغلق ابواب المكان بعد الظهر لشدة الزحام ، فاذا جئتُ بعد العصر فُتح لي ، وزاحم معي من يمكنه ان يزاحم ، حتى قال امير المؤمنين : ماهذاالرجل آدمي ، لمايقدرعليه من الكلام » .

- ١٥ -

قال ابن رجب :

« قرأت بخط ناصح الدين الحنبلي الواعظ ، انه اجتمع في ابن الجوزي من العلوم مالم يجتمع في غيره ، وكانت مجالسه الوعظية جامعة للحسن والاحسان باجتماع الظراف في بغداد ونظاف الناس ، وحسن الكلمات المسجعة ، والمعاني المودعة في الالفاظ الرائجة ، وقراءة القرآن بالاصوات المرجعة ، والنغمات المطربة ، وصيحات الواجدين [1] ودمعات الخاشعين ، وانابة النادمين ، وذل التائبين ، ووعظ وهو ابن عشر سنين الى ان مات ، ولم يشغله عن الاشتغال بالعلم شاغل ، ولا لعب ولا لها ، ولا سافر الا الى مكة ، ولقد كان فيه جمال لاهل بغداد خاصة وللمسلمين عامة »

- ١٦ -

واعانه على ذلك انه كان - كما قال الموفق - لطيف الصوت ، حلو الشمائل ، رخيم النغمة ، موزون الحركات ، لذيذ المفاكهة .

قال ابن كثير :

« وقد حضر مجلس وعظه الخلفاء والوزراء والملوك والامراء والعلماء والفقراء ، ومن سائر صنوف بني آدم ، وأقل ما كان يجتمع فيه

---

(١) وهذا كله مخالف لطريقة السلف ، لم يعرفه خير القرون .

عشرة آلاف، وربما اجتمع فيه مئة الف [1] وربما تكلم من خاطره على البديهة نظماً ونثراً.

وكان يسمع وعظه مرة الخليفة المستضيء العبّاسي، فالتفت الى ناحيته وهو في الوعظ وقال: يا أمير المؤمنين، إن تكلمت خفت منك، وان سكتّ خفت عليك، وان قول القائل لك: اتق الله، خير من قوله لكم: انكم أهل بيت مغفور لكم، وكان عمر بن الخطاب يقول: اذا بلغني عن عامل أنه ظلم فلم أغيّره فانا الظالم، وكان عمر يضرب بطنه عام الرمادة ويقول: قرقر أو لا تقرقر، والله لا ذاق عمر سمناً ولا سميناً حتى يخصب الناس [2]

فبكى المستضيء، وتصدق بمال كثير، واطلق المحبوسين وكسا خلقاً من الفقراء»

- ١٧ -

قال ابن الجوزي في «لفتة الكبد»:

ولقد وضع الله لي من القبول في قلوب الخلق فوق الحد، واوقع كلامي في نفوسهم فلا يرتابون بصحته، وقد اسلم على يدي نحو مئتين من أهل الذمة، ولقد تاب في مجالسي اكثر من مئة الف، وقد قطعت اكثر من عشرين الف سالف مما يتعاناه الجهال [3]

(١) يعني تقديراً لا تحقيقاً (٢) انظر كتابنا (اخبار عمر)

(٣) اي كما يصنع المخنثون اليوم من ترجيل الشعر وتجعيده وتلبيه وتعطيره، وحمل المشط، والتشبه في ذلك بالنساء.

وكان سرّ نجاحه في قوة بديهته، وسرعة بادرته ، وحضور ذهنه، ونوادر أجوبته ، مع كثرة محفوظه ، وسعة روايته .

ومن اندر الاجوبة أنه وقع النزاع على عهده في المفاضلة بين ابي بكر وعلي ، بين أهل السنة والشيعة ، ورضوا فيما بينهم بما يجيب به الشيخ ابو الفرج ، فأقاموا له رجلًا وسط المجلس ، فسأله عن ذلك ، فقال على الفور :

« أفضلهما من كانت ابنته تحته »

ونزل في الحال حتى لايراجع . فقالت الشيعة : يريد علياً ، لأن بنت النبي ﷺ تحته . وقال اهل السنة :يريد ابا بكر،لان ابنته تحت النبي ﷺ .

قال ابن خلكان : « ولو جاء هذا الجواب بعد الفكر التامّ ، وامعان النظر، لكان في غاية الحسن، فكيف وهو على البديهة ؟»

ومن اجوبته ان رجلا سأله : أيها افضل ، أسبح أو استغفر ؟

فقال : الثوب الوسخ احوج الى الصابون منه الى البخور

وسئل عمّن أوصى وهو في النزع فقال: هذا رجل طين سطحه في كانون

ومن قوله : « شهوات الدنيا انموذج يُعرض ولا يُقبض » اي إنها انموذج Echantillon للـّذات في الآخرة ، يراها المرء معروضة في الدنيا ، ليختار منها مايريد اقتناءه فيها ، يقدم ثمنها عملا صالحا يشتريها به من اسواق الجنة .

وقال في حديث « اعمار امتي مابين الستين الى السبعين » : انها طالت اعمار الاوائل لطول البادية ، فلما شارف الركب بلد الاقامة قيل : حثوا المطيّ

ومن كلامه : مَن قنع طاب عيشه ، ومن طمع طال طيشه .

ومن مناجاته : « الهي لاتعذّب لسانا يخبرعنك ، ولا عيناً تنظر الى علوم تدلّ عليك ، ولا قدما تمشي الى خدمتك ، ولا يداً تكتب حديث رسولك ، فبعزتك لا تدخلني النار ، فقد علم اهلها اني كنت أذبّ عن دينك »

-١٩-

وابن الجوزي عربي قرشي تيمي ، يتصل نسبه بابي بكر الصديق ابوه علي بن محمد (بن علي بن عبيد الله [١]) بن عبد الله بن حمادي بن احمد بن محمد بن جعفر ، وجعفر هذا هو الذي لقب بـ « الجوزي » نسبة الى مشرعة الجوز ، وهي فرضة [٢] نهر البصرة ، وقيل بل نسبة الى جوزة كانت في داره بواسط لم يكن بواسط جوزة غيرهـا ، وتوارث ابناؤه هذا اللقب .

وجعفر هذا هو ابن عبد الله بن القاسم بن النضر بن القاسم بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن ابن القاسم بن محمد بن ابي بكر الصديق .

وكان أهله تجاراً بالنحاس [٣] لم يشتغل منهم بالعلم غيره ، قال في

---

(١) الزيادة من ذيل الطبقات لابن رجب (٢) الفرضة المرفأ

(٣) البداية والنهاية وذيل الطبقات

« لفته الكبد » : « واعلم يابني أننا من اولاد أبي بكر الصديق ، ثم تشاغل سلفنا بالتجارة والبيع والشراء فما كان من المتأخرين من رزق همة في طلب العلم غيري .

وقد صرّح في مواضع من « صيد الخاطر » بأن أباه توفي وهو صغير ، وكان موسراً ، وقد خلف اموالا كثيرة ، فما اعطوه منها الا عشرين ديناراً ودارين ، وقالوا له : هذا نصيبك من ارث ابيك ، فاشترى بذلك كتباً . وان امه اهملته وانصرفت عنه (١)

وذكر ابن كثير ان عمته رعته وأخذته لما أدرك الى مسجد محمد بن ناصر الحافظ ، فاعتنى به واسمعه الحديث وحفظه القرآن .

وفي شذرات الذهب : ان محمدبن ناصر خاله(٢). وكان مولده في بغداد وقال : لا أحقق تاريخ مولدي غير أنه مات والدي سنة أربع عشرة ، وقالت الوالدة : كان لك من العمر ثلاث سنين .

وقد اتفق كل من ترجم له على أنه لم يكن في صغره يألف الصبيان او يلعب لعبهم وأنه نشأ على العفاف والصلاح .

قال في « لفتة الكبد » : اذكر نفسي ولي همة عالية وأنا في المكتب ابن ست سنين وأنا قرين الصبيان الكبار ، قد رزقت عقلا وافراً في الصغر ، يزيد على عقل الشيوخ فما اذكر أني لعبت في طريق مع الصبيان قط ، ولا ضحكت ضحكاً عالياً ، حتى أني ولي سبع

---

(١) قال ابن رجب : لما مات ابوه كفلته امه وعمته .

(٢) واظنه وهماً من صاحب الشذرات

سنين او نحوها أحضر رحبة الجامع ، فأطلب المحدث يتحدث فأحفظ جميع ما أسمعه ، واذهب الى البيت واكتبه ، ولقد رفق بي شيخنا أبو الفضل ابن ناصر رحمه الله ، وكان يحملني الى الشيوخ ، فأسمعني المسند وغيره من الكتب الكبار ، وأنا لا اعلم ما يُرادمني ، وضبط لي مسموعاتي الى ان بلغت ، فناولني ثبتها [١] ولازمته الى ان توفي رحمه الله ، فنلت به معرفة الحديث والنقل . ولقد كان الصبيان ينزلون الى دجلة ويتفرجون على الجسر ، وأنا في زمن الصغر آخذ جزءاً واقعد حجزة من الناس [٢] فأتشاغل بالعلم .

— ٢٠ —

وأبو الفضل محمد بن ناصر ، هو الحافظ الثقةالبغدادي ، فقيه كان شافعياً ثم مال الى مذهب الحنابلة ، وعني بالحديث فبرع فيه ، وصار شيخ المحدثين، وكان ديناً فقيراًمتعففاً نظيفاً،وقف كتبه على طلب العلم .

ووصفه ابن الجوزي بأنه كان حافظاً ضابطاً متفننا ثقة من أهل السنة لامغمز فيه ، وكان كثير الذكر سريع الدمعة . (قال) : وهو الذي تولى تسميعي الحديث ، وعنه اخذت ما أخذت من علم الحديث ، قرأت عليه ثلاثين سنة ، ولم استفد من أحداستفادتي منه .

قال ابن الجوزي : وحملني ابن ناصر الى أبي القاسم المروي في سنة عشرين فلقنني كلمات من الوعظ ، وجلس لوداع اهل بغداد

---

(١) اي اجازه بها (٢) اي مبتعدا عنهم

مستنداً الى الرباط الذى عند السور في الحلبة ، ورقّاني يومئذ المنبر، فقلت الكلمات ، وقُدّر الجمع يومئذ بخمسين الفاً .

- ٢١ -

ثم صحب أباالحسن ـ ابن الزاغوني ـ ولازمه. قال ابن الجوزي : كان له في كل فن من العلم حظ وافر ، ووعظ مدة طويلة ، وصحبته زماناً فسمعت منه الحديث ، وعلقت عنه من الفقه والوعظ ، وكانت له حلقة بجامع المنصور يناظر فيها يوم الجمعة قبل الصلاة ، ثم يعظ فيها بعد الصلاة ، ويجلس يوم السبت ايضا .

وشهد ابن ناصر للزاغوني أنه كان فقيه الوقت [1] وانـــه كان مشهورا بالصلاح والديانة ، والورع والصيانة .

وتوفي ابن الزاغوني حين بلغ ابن الجوزي سنّ الحلم [2] فطلب ابن الجوزي خلفته [3] فلم يُعط ذلك لصغره ، وأعطيت الحلقة لابي علي الرذاني ، فذهب ابن الجوزي الى الوزير ، فألقى بين يديه فصلا في المواعظ ، فأذن له بالوعظ في جامع المنصور (قال) فتكلمت فيه فحضر مجلسي أول يوم جماعة من اصحابنا الكبار من الفقهاء ، منهم عبد الواحد بن شعيب ، وابو علي بن القاضي ، وابو بكر بن عيسى وغيرهم ، ثم تكلمت في مسجد معروف [4] ، وفي باب البصرة ، ونهر

---

(١) اي في المذهب الحنبلي (٢) سنة ٥٢٨

(٣) اي ان يحل محله (٤) اي الكرخي

المعلى ، فاتصلت المجالس ، واشتد الزحام ، وقوي اشتغالي بفنون العلم ، وانقطعت مجالس أبي علي الرذاني .

-٢٢-

وقرأ بعد ابن الزاغوني الفقه والخلاف والجـدل والاصول على ابي بكر الدينورى والقاضي أبي يعلى .

وتتبّـع مشايخ الحديث والفقه ، فكان منهم القاضي ابو بكر الانصاري ، وأبو القاسم الحريري ، وابو السعادات المتوكلي ، واخوه يحيى ، وابو عبد الله البارع ، وابو الحسن علي بن احمد الموحد ، وابوغالب الماوردي ، وابو منصور بن خيرون ، وابو القاسم السمرقندي ، وعبد الوهاب الانماطي ، وعبد الملك الكرخوي ، وابو سعد الزوزني وابو سعد البغدادي ، ويحيى بن الطراح ، واسماعيل بن ابي صالح المؤذن ، وابو القاسم علي الهروي الواعظ ، وابو منصور القزاز ، وعبد الجبار بن منده ، (قال) « ولم اقنع بفن واحد ، بل كنت أسمع الفقه والحديث وأتبع الزهاد ، ثم قرأت اللغة ، ولم أترك احداً ممن يروي ويعظ ، ولاغريباً يقدم إلا واحضره واتخـير الفضائل ، ولقد كنت ادور على المشايخ لسماع الحديث فينقطع نفَسي من العدو لئـلا اسبق ، وكنت اصبح وليس لي مأكل ، وأمسي وليس لي مأكل ، مأذلني الله لمخلوق قط ، ولوشرحت احوالي لطال الشرح.»

وهو يصف شيوخه في الفصل (٩٤) بأن منهم من لم يكن يتحرج

من الغيبة وأن منهم من يأخذ على التحديث اجرة ، وأن منهم من يسرع بالجواب لئلا ينقص جاهه ، وأن منهم من كان على نهج السلف كعبد الوهاب الانماطي وابي منصور الجواليقي ، وانه لذلك انتفع بهما اكثر من انتفاعه بغيرهما .

-٢٣-

والانماطي هو المحدث الحافظ ، الفقيه الحنبلي ، كان واسع الرواية ، دائم البشر ، مريع الدمعة عند الذكر ، حسن المعاشرة ، جمع الفوائد ، وخرج التخاريج ، كان بقية الشيوخ .

ذكره ابن الجوزي في عدة مواضع من كتبه كمشيخته وطبقات الاصحاب المختصرة والتاريخ [١] وصفوة الصفوة وصيد الخاطر وأثنى عليه كثيرا ، ومما قاله عنه :

« انه كان ثقة ثبتاً ، ذا دين وورع ، كنت اقرأ عليه الحديث وهو يبكي ، فاستفدت ببكائه اكثر من استفادتي بروايته ، دخلت عليه في مرضه ، وقدبلي وذهب لحمه ، فقال : ان الله عزوجل لا يُتّهم في قضائه . ومارأينا في مشايخ الحديث اكثر سماعا منه ، ولا اكثر كتابة للحديث منه مع المعرفة به ، ولاأصبر على الاقراء ، ولاا كثر دمعة وبكاء مع دوام البشر ، وحسن اللقاء ، ولايغتاب عنده احد [٢]

---

(١) ابن رجب (٢) وكان على ذلك الشيخ بدر الدين الحسني محدث الشام في القرن الرابع عشر

وكان سهلا في اعارة الاجزاء، وكنا ننتظره يوم الجمعة بجامع المنصور، فلا يجيء من قنطرة باب البصرة، وانما يجيء من القنطرة العتيقة، فسألته عن هذا فقال: تلك دار ابن معروف القاضي، فلما غضب عليه السلطان اخذها وبنى عليها القنطرة. قال لنا: وسمعت أن ابن معروف أحلّ [1] كل من يمر عليها، إلاّ اني لا افعل. توفي يوم الخميس (١١) المحرم ٥٨٣

والجواليقي أستاذ عصره في علوم العربية، وكان مدرّسها في المدرسة النظامية [2] وكان امام الخليفة المقتفي، كان متديناً ثقة ورعاً، غزير الفضل، كامل العقل، مليح الخط كثير الضبط، له التصانيف الكثيرة.

قال ابن الجوزي: «قرأت عليه كتابه المعرب، وغيره من تصانيفه» وكان ممن تلقى عنه ابن ناصر، وله قصة طريفة مع ابن التلميذ النصراني طبيب المقتفي، مروية في الشذرات [3] توفي يوم الاحد ١٥ المحرم ٥٤٠

- ٢٤ -

وهو يكثر الكلام عن نفسه في «صيد الخاطر» فيبين انه نشأ في النعيم، وربي على الدلال، وأنه قد حبّب إليه العلم من زمن الطفولة، ولم يرغب في فن واحد من فنونه، بل رغب في كل فن،

---

(١) اي سامح
(٢) وهي اول جامعة في الدنيا (٣) ٤ : ١٢٧

وأنه يتردد أبداً بين الزهد والعبادة ، وبين العلم والبحث [١] وأن من لذاته وأصحابه من أنفق عمره في اكتساب الدنيا ، ثم لم ينل منها ماناله هو ، وأن عيشه ألين من عيشهم ، وجاهه أعلى من جاههم [٢] وبيّن كيف كان ، في زمن الطلب ، يأخذ معه أرغفة يابسة ويخرج في طلب الحديث ، فيقعد على نهر عيسى ، لايقدر على أكل هذا الخبز اليابس إلاّ عند الماء ، كلما أكل لقمة شرب عليها شربة ، وانه وجد مع ذلك من لذة العلم وحلاوة الايمان ، ما يخاف على نفسه العجب ان شرحه [٣] وبيّن أنه سلك في أول أمره طريق الزهاد ، وأنه برع في الوعظ حتى اتصل بهذه البراعة بالسلطان ففقد بصحبته ما كان يجد في قلبه من النور [٤] ووصف علو همته وطموحه [٥] .

- ٢٥ -

قال ابن العماد :

وكان يراعي حفظ صحته ، وتلطيف مزاجه ، وما يفيد عقله قوةً وذهنه حدةً ، لباسه الابيض الناعم المطيّب ، وله مجون لطيف ، ومداعبات حلوة ، ولا ينفكّ من جارية حسناء ، وما تناول مالاً من جهة لا يتيقّن حلّها ، ولا ذلّ لأحد ، قال في « لفتة الكبد » يخاطب ولده : « وماذل أبوك في طلب العلم قط ، ولا خرج يطوف في البلدان

---

(١) الفصل ٢١
(٢) الفصل ١٦٧
(٣) الفصل ١٦٧ ايضا
(٤) الفصل ٤٦
(٥) الفصل ١٧٨

كغيره من الوعاظ ، ولا بعث رقعة الى أحد يطلب منه شيئاً . » وكانت لحيته قصيرة جداً ، وقد ذكروا أنه شرب « حب البلادر[١] » فسقطت لحيته وكان يخضبها بالسواد الى أن مات ، وصنّف في جواز الخضاب بالسواد مجلداً .

- ٢٦ -

قال ابن كثير :

وكان فيه بهاء وترفّع واعجاب بنفسه ، وسموّ بها أكثر من مقامها ، وذلك ظاهر في كلامه ، في نثره ونظمه ، فمن ذلك قوله :

مازلت أدرك ماغلا بل ماعلا ‏ ‏ وأكابد النهج العسير الاطولا
تجري بي الآمال في حلباته ‏ ‏ جَرْيَ السعيد الى مدى ماأمّلا
أفضى بي التوفيق فيه الى الذي ‏ ‏ أعيا سواي توصلاً وتغلغلا
لو كان هذا العلم شخصاً ناطقاً ‏ ‏ وسألته : هل زار مثلي ؟ قال لا !

قال ابن رجب : مما عيب عليه مايوجد في كلامه من الثناء على نفسه ، والترفّع والتعاظم وكثرة الدعاوى ، ولا ريب أنه كان عنده من ذلك طرف ، سامحه الله .

- ٢٧ -

كان الوزير ابن يونس الحنبلي قد عقد مجلساً للركن عبد السلام

---

(١) هو حب البلاذر (بالذال) واسمه العلمي باللاتينية :
Semecarpuc Anardium

ابن عبد القادر الجيلي [1] ، وأحرقت كتبه ، وكان فيها من الزندقة وعبادة النجوم ، ورأي الاوائل شيء كثير ، وذلك بمحضر من ابن الجوزي وغيره من العلماء ، وانتزع الوزير منه مدرسة جدّه وسلّمها الى ابن الجوزي .

فلما ولي الوزارة ابن القصاب ـ وكان رافضياً خبيثاً ـ سعى في القبض على ابن يونس ، وتتبّع أصحابه ، فقال له الركن : أين أنت عن ابن الجوزي ؟ فانه ناصبي ومن أولاد أبي بكر ، فهو من أكبر أصحاب ابن يونس ، وأعطاه مدرسة جدي ، وأحرقت كتبي بمشورته .

فكتب ابن القصاب الى الخليفة الناصر ، وكان الناصر له ميل الى الشيعة ، ولم يكن له ميل آخر أيامه الى الشيخ أبي الفرج ، بل قد قيل انه كان يقصد أذاه ، وقيل ان الشيخ ربما كان يعرض في مجالسه بذم الناصر ، فأمر بتسليمه الى الركن عبد السلام فجاء الى دار الشيخ وشتمه واغلظ عليه ، وختم على كتبه وداره ، وشتّت عياله .

فلما كان في أول الليل ، حمل في سفينة وليس معه الا عدوّه الركن ، وعلى الشيخ غلالة بلا سراويل ، وعلى رأسه تخفيفة ، فأحدر الى واسط ، وكان ناظرها شيعياً فقال له الركن : مكنّي من عدوّي لأرميه في المطمورة ، فزبره ، فقال : يازنديق ارميه بقولك ؟ هات خط الخليفة ، والله ، لو كان من اهل مذهبي لبذلت روحي ، ومالي ، في خدمته ، فعاد الركن الى بغداد .

(١) هو عبد السلام بن عبد الوهاب بن عبد القادر الجيلاني

قال أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي، رحمة الله تعالى عليه :

الحمد لله حمداً يبلغ رضاه ، وصلى الله على أشرف من اجتباه ، وعلى من صاحبه ووالاه ، وسلم تسليما لا يدرك منتهاه .

لما كانت الخواطر تجول في تصفح أشياء تَعرض لها ، ثم تُعرض عنها فتذهب ، كان من أولى الأمور حفظ ما يخطر لكيلا ينسى . وقد قال عليه الصلاة والسلام : « قيدوا العلم بالكتابة »[1] وكم قد خطر لي شيء ، فاتشاغل عن إثباته فيذهب ، فأتأسف عليه . ورأيت من نفسي أنني كلما فتحت بصر التفكر ، سنح له من عجائب الغيب ، ما لم يكن في حساب فانثال عليه من كثيب التفهيم ما لا يجوز التفريط فيه ، فجعلت هذا الكتاب قيداً ، لصيد الخاطر . والله ولي النفع إنه قريب مجيب .

---

(١) قال الشيخ ناصر الألباني : الحديث موقوف على أنس

١ ــ في أثر الموعظة

قد يعرض عند سماع المواعظ للسامع يقظة ، فاذا انفصل عن مجلس الذكر عادت القسوة والغفلة . فتدبرت السبب في ذلك فعرفته . ثم رأيت النـــاس يتفاوتون في ذلك ، فالحالة العامة أن القلب لا يكون على صفته من اليقظة عند سماع الموعظة بعدها لسببين :

أحدهما ، أن المواعظ كالسياط ، والسياط لا تؤلم بعد انقضائها ، إيلامها وقت وقوعها .

والثاني ، أن حالة سماع المواعظ يكون الانسان فيها مُزَاح العِلّة[١] ، قد تخلى بجسمه وفكره عن أسباب الدنيا ، وأنصت بحضور قلبه ، فاذا عاد الى الشواغل اجتذبته بآفاتها ، فكيف يصح أن يكون كما كان ؟

وهذه حالة تعم الخلق ، إلا أن أرباب اليقظـــة يتفاوتون في بقاء الأثر ، فمنهم من يعزم بلا تردد ، ويمضي من غير التفات ، فلو

---

(١) أزاح علته أي هيأ له الاسباب ولم يترك له ما يتعلل به ، ومزاح العلة هنا أي خال من الشواغل . انظر الفصل (٣٣) .

توقف بهم ركب الطبع لضَجّوا ، كما قال حنظلة عن نفسه : « نافق حنظلة » . ومنهم أقوام يميل بهم الطبع الى الغفلة أحياناً ، ويدعوهم ما تقدم من المواعظ الى العمل أحيانا ، فهم كالسنبلة تميلها الرياح ، وأقوام لا يؤثر فيهم إلا بمقدار سماعه ، كماء دحرجته على صفوان[1] .

٢ ــ في جواذب الدنيا

جواذب الطبع الى الدنيا كثيرة ، ثم هي من داخل ، وذكر الآخرة أمر خارج عن الطبع ، ثم هو من خارج ، وربما ظن من لا علم له أن جواذب الآخرة أقوى ، لما يسمع من الوعيد في القرآن ، وليس كذلك ، لأن مَثَل الطبع في ميله إلى الدنيا ، كالماء الجاري فانه يطلب الهبوط ، وإنما رفعُه إلى فوق يحتاج إلى التكلف ، ولهذا أجاب معاون الشرع بالترغيب والترهيب يقوى جند العقل ، فأما الطبع فجواذبه كثيرة ، وليس العجب أن يَغلب ، إنما العجب أن يُغلب .

٣ ــ في لذة المعصية وتعب الطاعة

من عاين بعين بصيرته تناهي الأمور في بداياتها ، نال خيرها ،

---

(١) الصفاة والمروة والصفوان والمروان الصخر .

ونجا من شرها ، ومن لم ير العواقب غلب عليه الحس ، فعاد عليه بالألم ما(١) طلب منه السلامة ، وبالنصَب ما رجا منه الراحة .
وبيان هذا في المستقبل يتبين بذكر الماضي ، وهو أنك لا تخلو ، أن تكون عصيت الله في عمرك ، أو أطعته ، فأين لذة معصيتك ؟ وأين تعب طاعتك ؟

هيهات رحلَ كلٌّ بما فيه ! فليت الذنوب إذ تخلّت خلّت ! وازيدك في هذا بياناً مَثّلْ ساعة الموت ، وانظر إلى مرارة الحسرات على التفريط ، ولا أقول كيف تغلب حلاوة اللذات ، لأن حلاوة اللذات استحالت حنظلا ، فبقيت مرارة الأسى بلا مقاوم .

أتراك ما علمت أن الأمر بعواقبه ؟ فراقب العواقب تسلم ، ولا تمل مع هوى الحس تندم .

٤ ـــ في التفكر في الموت

من تفكر في عواقب الدنيا ، أخذ الحذر ، ومن أيقن بطول الطريق تأهب للسفر .

ما أعجب أمرك يا من يوقن بأمر ثم ينساه ، ويتحقق ضرر حال

---

(١) ما ، فاعل عاد .

ثم يغشاه ، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه .

تغلبك نفسك على ما تظن ، ولا تغلبها على ما تستيقن .

أعجب العجائب ، سرورك بغرورك ، وسَهْوُكَ في لَهْوِكَ عما قد خبيء لك .

تغتر بصحتك وتنسى دنوّ السقم ، وتفرح بعافيتك غافلاً عن قرب الالم ، لقد أراك مصرعُ غيرك مصرعَك ، وأبدى مضجعُ سواك قبل الممات مضجعَك ، وقد شغلك نيل لذاتك ، عن ذكر خراب ذاتك :

كأنك لم تسمع بأخبار من مضى ولم تر في الباقين مايصنع الدهر
فان كنت لاتدري فتلك ديارهم محاها مجال الريح بعدك والقبر

كم رأيت صاحب منزل ما نزل لحده ، حتى نَزَل[1] ؟ وكم شاهدت والي قصر وَلِيَه عدوه لما عُزِل ، فيا من كلّ لحظة الى هذا يسري ، وفعله فعل من لايفهم ولا يدري :

وكيف تنام العين وهي قريرة ؟ ولم تدر من أي المحلين تنزل ؟

---

(١) نزل عن منزلته .

٥ ــ في الابتعاد عن الفتنة

من قارب الفتنة بعدت عنه السلامة ، ومن ادعى الصبر وكل الى نفسه . ورب نظرة لم تناظر[١] ، وأحق الاشيــاء بالضبط والقهر اللسان والعين ، فإياك إياك أن تغتر بعزمك على ترك الهوى ، مع مقاربة الفتنة ، فان الهوى مكايد ، وكم من شجاع في صف الحرب اغتيل ، فأتاه ما لم يحتسب ممن يأنف النظر اليه ، واذكر حمزة مع وحشي :

فتبصــر ولا تَشِمِ كل برق　　رب برق فيه صواعق حَيْن[٢]
واغضض الطرف تسترحْ من غرام　　تكتسي فيه ثوب ذل وشــين
فبــلاء الفتى موافقــة النفــس　　وبدء الهوى طموح العين

٦ ــ في عقوبة العلماء

أعظم المعاقبة أن لا يحس المعاقب بالعقوبة ، وأشد من ذلك أن يقع السرور بما هو عقوبة ، كالفرح بالمال الحرام ، والتمكن من الذنوب . ومن هذه حاله لايفوز بطاعة .

---

(١) أي لم تمهل .
(٢) شام البرق يشيمه نظر اليه يرى أين يمطر . والحين الهلاك

وإني تدبرت أحوال أكثر العلماء والمتزهدين فرأيتهم في عقوبات لا يحسون بها ، ومعظمها من قبل طلبهم للرياسة . فالعـالم منهم يغضب ان رُد عليه خطؤه ، والواعظ متصنع بوعظه ، والمتزهد منافق أو مراءٍ . فأول عقوباتهم ، إعراضهم عن الحق شغلا بالخلق ، ومن خفيّ عقوباتهم سـلبُ حلاوة المنـاجاة ، ولذة التعبد .

إلاّ رجال مؤمنون ، ونساء مؤمنات ، يحفظ الله بهم الارض ، بواطنهم كظواهرهم بل أجلى ، وسرائرهم كعلانيتهم بل أحلى ، وهممهم عند الثريا بل أعلى ، إن عُرفوا تنكروا ، وإن رُئيت لهم كرامة أنكروا . فالناس في غفلاتهم ، وهم في قطع فلاتهم ، تحبهم بقـاع الأرض ، وتفرح بهم أملاك السماء . نسأل الله عز وجل التوفيق لاتباعهم ، وأن يجعلنـا من أتباعهم .

٧ ـــ في علو الهمة

من علامة كمال العقل ، علو الهمة والراضي بالدون دني :

ولم أر في عيوب النـاس عيباً   كنقص القـادرين على التمام

٨ ـــ في أحباب الله

سبحان من سبقت محبته لاحبابه ، فمدحهم على ما وهب لهم ،

واشترى منهم ما أصلحهم ، وقدم المتأخر من أوصافهم ، لموضع إيثارهم ، فباهى بهم في صومهم ، وأحب خلوف أفواههم . يا لها من حالة مصونة لايقدر عليها كل طالب ، ولا يبلغ كُنْه وصفها كل خاطب .

٩ ـــ في الاستعداد للموت

الواجب على العاقل أخذ العدة لرحيله ، فانه لايعلم متى يفجؤه أمر ربه ، ولا يدري متى يستدعى ، واني رأيت خلقاً كثيراً غرهم الشباب ونسوا فقد الاقران ، وألهاهم طول الأمل . وربما قال العالم المحض لنفسه : « اشتغلْ بالعلم ثم اعمل به » فيتساهل في الزهد بحجة الراحة ، ويؤخر الرجاء لتحقيق التوبة ، ولا يتحاشى من غيبة أوْ سماعها ، ومن كسْب شبهة يأمل أن يمحوها بالورع ، وينسى ان الموت قد يبغت .

فالعاقل من اعطى كل لحظة حقها من الواجب عليه ، فان بغته الموت رئي مستعداً ، وان نال الأمل ازداد خيراً .

١٠ ـــ في ان الشدائد لتمحيص الذنوب

خطرت لي فكرة فيما يجرى على كثير من العالم من

المصائب الشديدة ، والبلايا العظيمة ، التي تتناهى الى نهاية الصعوبة فقلت : سبحان الله . ان الله أكرم الأكرمين ، والكريم يوجب المسامحة فما وجه هذه المعاقبة ؟

فتفكرت ، فرأيت كثيراً من الناس في وجودهم كالعدم ، لا يتصفحون أدلة الوحدانية ، ولا ينظرون في أوامر الله تعالى ونواهيه ، بل يجرون على عاداتهم كالبهائم ، فإن وافق الشرع مرادهم ، وإلا فمعوّلهم على أغراضهم . وبعد الحصول على الدينار ، لايبالون أمن حلال كان أم من حرام . وان سهلت عليهم الصلاة فعلوها ، وان لم تسهل تركوها ، وفيهم من يبارز بالذنوب العظيمة ، مع نوع معرفة المناهي ، وربما قويت معرفة عالم منهم ، وتفاقمت ذنوبه ، فعلمت أن العقوبات ، وان عظمت دون اجرامهم ، فاذا وقعت عقوبة لتمحص ذنباً ، صاح مستغيثهم : ترى هذا بأي ذنب ؟ وينسى ما قد كان ، مما تتزلزل الأرض لبعضه . وقد يهان الشيخ في كبره ، حتى ترحمه القلوب ، ولا يدري أن ذلك لاهماله حق الله تعالى في شبابه ، فمتى رأيت معاقبا ، فاعلم أنه لذنوب .

١١ ــ في علماء الدنيا والآخرة

تأملت التحاسد بين العلماء ، فرأيت منشأه من حب

الدنيا ، فإن علماء الآخرة يتوادون ولا يتحاسدون ، كما قال عز وجل « ولا يجدونَ في صدورِهم حاجةً مما أوتوا » وقال تعالى : « والذين جاؤوا من بعدِهم يقولون ربّنا اغفر لنا ولإخوانِنا الذين سبقونا بالايمانِ ولا تجعلْ في قلوبِنا غلّاً للذين آمنوا » وقد كان أبو الدرداء يدعو كل ليلة لجماعة من اخوانه . وقال الامام أحمد بن حنبل لولد الشافعي : « أبوك من الستة الذين أدعو لهم كل ليلة وقت السحر » .

والأمر الفارق بين الفئتين : أن علماء الدنيا ، ينظرون الى الرياسة فيها ، ويحبون كثرة الجمع والثناء ؛ وعلماء الآخرة ، بمعزل من ايثار ذلك ، وقد كانوا يتخوفونه ، ويرحمون من بلي به .

وكان النخعي لايستند إلى سارية . وقال علقمة [١] : « أكره أن يوطأ عقبي [٢] » ، وكان بعضهم إذا جلس اليه أكثر من أربعة قام عنهم . وكانوا يتدافعون الفتوى ، ويحبون الخمول ، ومثل القوم ، كمثل راكب البحر ، وقد خب [٣]،

(١) علقمة النخعي تابعي جليل توفي سنة ٦٢ واخذ عنه ابراهيم النخعي واشتهر من قبيلة النخع جماعة ولكن اذا اطلق النخعي كان المقصود به ابراهيم ، واذا اطلق اسم ابراهيم كان هو المقصود .

(٢) أي أن يمشي الناس خلفي .

(٣) أي اضطرب وهاج .

فعنده شغل إلى أن يوقن بالنجاة ، وانما كان بعضهم يدعو لبعض ، ويستفيد منه ، لأنهم ركب تصاحبوا فتزادوا ، فالأيام والليالي مراحلهم إلى سفر الجنة .

١٢ — في أن تصفية الاحوال بتصفية الاعمال

من أحب تصفية الاحوال[١] ، فليجتهد في تصفية الاعمال . قال عز وجل : « وأنْ لو استقاموا على الطريقةِ ، لاسقيْناهم ماءً غَدَقاً » ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم فيما يروي عن ربه عز وجل : « لو أن عبادي أطاعوني لسقيتهم المطر بالليل ، وأطلعت عليهم الشمس بالنهار ، ولم اسمعهم صوت الرعد » . وقال صلى الله عليه وسلم : البر لا يبلى ، والاثم لاينسى والديان لاينام[٢] وكما تدين تدان .

وقال أبو سليمان الداراني[٣] : « من صفّى صُفّي له ومن كدر كدر عليه ، ومن أحسن في ليله كوفيء في نهاره ، ومن أحسن في نهاره كوفىء في ليله » .

وكان شيخ يدور في المجالس ويقول : « من سره أن

---

(١) اصطلاح صوفي بمعنى (حالات النفس) .

(٢) وفي رواية : والديان لايموت اعمل ما شئت كما تدين تدان .

(٣) هو عبد الرحمن بن عطية ونسبته الى قرية داريا من قرى دمشق صوفي مشهور مات سنة ٢١٥

تدوم له العافية ، فليتق الله عز وجل » ، وكان الفضيل بن عياض ، يقول : « اني لأعصي الله ، فاعرف ذلك في خلق دابتي ، وجاريتي» .

واعلم وفقك الله — انه لا يحس بضربةٍ مبنّج ، وانما يعرف الزيادة من النقصان المحاسب لنفسه ، ومتى رأيت تكديراً في حال فاذكر نعمةً ما شُكرت ، أو زلة قد فُعلت ، واحذر من نفار النعم ، ومفاجأة النقم ، ولا تغتر بسعة بساط الحلم ، فربما عجل انقباضه . وقد قال الله عز وجل : « إن الله لا يُغير ما بقوم ، حتى يغيروا ما بأنفسهم » . وكان أبو علي الروذباري[1] يقول : من الاغترار أن تسيء ، فيحسن اليك ، فتترك التوبة ، توهماً أنك تسامح في الهفوات .

١٣ — في التكليف

تفكرت يوما في التكليف ، فرأيته ينقسم إلى سهل وصعب ، فاما السهل فهو أعمال الجوارح ، إلا أن بعضاً منها هو أصعب من بعض ، فالوضوء والصلاة أسهل من الصوم ، والصوم ربما كان عند قوم أسهل من الزكاة ، وأما الصعب

---

(١) احمد بن محمد ، هو من ذرية كسرى ، بغدادي سكن مصر وتوفى بها سنة ٣٢٢ . كان من تلاميذ الجنيد .

فيتفاوت ، فبعضها أصعب من بعض ، فمن المستصعب النظر والاستدلال الموصلان إلى معرفة الخالق ، فهذا صعب عند من غلبت عليه أمور الحس ، سهل عند أهل العقل ، ومن المستصعب غلبة الهوى وقهر النفوس ، وكفّ أكُفّ الطبع عن التصرف فيما يؤثره ، وكل هذا يسهل على العاقل النظر في ثوابه ورجاء عاقبته ، وان شق عاجلا ، وانما أصعب التكاليف وأعجبها ، انه قد ثبتت حكمة الخالق عند العقل ، ثم تراه يُفقر المتشاغلَ بالعلم ، المقبلَ على العبادة حتى يعضّه الفقر بناجذيه ، فيذلّ للجاهل في طلب القوت ، ويُغني الفاسقَ مع الجهل ، حتى تفيض الدنيا عليه ، وتراه ينشىء الاجسام ويحكيها ، ثم ينقض بناء الشباب في مبدأ أمره ، وعند استكمال بنائه فإذا به قد عاد هشيما ، وتراه يؤلم الاطفال ، حتى يرحمهم كل طبع ، ثم يقال له : « إياك أن تشك في انه أرحم الراحمين » ويسمع بارسال موسى الى فرعون ، ويقال له : اعتقد ان الله تعالى اضل فرعون ، واعلم انه ما كان لآدم بدّ من أكل الشجرة ، وقد وبخ بقوله : « وعصى آدم ربه » وفي مثل هذه الاشياء تحير خلق ، حتى خرجوا إلى الكفر والتكذيب ، ولو فتشوا على سر هذه الاشياء ، لعلموا ان تسليم هذه الامور ، تكليف العقل ليذعن ، وهذا أصلٌ إذا فُهم حصل منه

السلامـة والتسليم . نسـأل الله عز وجل أن يكشف لنـا الغوامض ، التي حيرت من ضل إنه قريب مجيب .

١٤ ـــ قيمة الوقت

ينبغي للانسان أن يعرف شرف زمانه ، وقدر وقته ، فلا يضيع منه لحظة في غـير قربة ، ويقدم الافضل فالافضل من القول والعمل . ولتكن نيته في الخير قائمـــة من غـير فتور ، بما لايعجز عنه البدن من العمل ، كما جاء في الحديث : نية المؤمن خـير من عـمله[1] . وقد كان جماعة من السلف يبادرون اللحظات . فنقل عن عامر بن عبد قيس[2] : أن رجلا قال له : « كلمني » ، فقال له : « امسك الشمس » وقال ابن ثابت البناني[3] : ذهبت ألقن أبي ، فقـــال : « يابني دعني ، فاني في وردي الســادس » . ودخلوا على بعض السلف عنـد موته ، وهو يصلي ، فقيل له ، فقـال : « الآن تطوى صحيفتي » . فاذا علم الانسان وإن بالغ في الجد بان الموت يقطعه عن

---

(١) في الجامع الصغير : رواه الطبراني ، وضعفه العراقي .

(٢) عامر بن عبـد الله من عباد التابعين اخـــذ عن ابي موسى الاشعري توفي سنة ٥٥

(٣) ثابت البناني من اعلام التابعين توفي سنة ١٢٧ .

العمل ، عمل في حياته ما يدوم له أجره بعد موته ، فإن كان له شيء من الدنيا ، وقف وقفاً ، وغرس غرساً ، واجرى نهراً ، ويسعى في تحصيل ذرية تذكر الله بعده ، فيكون الأجر له ، أو أن يصنف كتابا من العلم ، فإن تصنيف العالم ولده المخلد[1] ، وأن يكون عاملا بالخير ، عالما فيه ، فينقل من فعله ما يقتدي الغير به ، فذلك الذي لم يمت :

قد مات قوم وهم في الناس أحياء

١٥ ـــ من حيل الشيطان

رأيت من أعظم حيل الشيطان ومكره ، أن يخبط ارباب الأموال بالآمال ، والتشاغل باللذات القاطعة عن الآخرة وأعمالها ، فإذا شغلهم بالمال تحريضاً على جمعه ، وحثاً على تحصيله ، أمرهم بحراسته بخلاً به ، فذلك من متين حيله ، وقوى مكره . ثم دفن في هذا الأمر من دقائق الحيل الخفية ، أن خوّف من جمعه المؤمنين ، فنفّر طالب الآخرة منه ، وبادر التائب بان يخرج مافي يده ، ولا يزال الشيطان يحرضه على الزهد ، ويأمره بالترك ، ويخوفه من طرقات الكسب ، اظهاراً لنصحه وحفظ دينه . وفي خفايا ذلك عجائب من مكره ، وربما تكلم الشيطان على لسان بعض المشايخ الذين يقتدى بهم التائب ، فيقول له . اخرج من مالك وادخل في

(١) أي كتبه هي أولاده .

زمرة الزهاد ومتى كان لك غداء أو عشاء ، فلست من أهل الزهد ، ولا تنال مراتب العزم ، وربما كرر عليه الاحاديث البعيدة عن الصحة والواردة على سبب ولمعنى ، فاذا أخرج ما في يده ، وتعطل عن مكاسبه ، عاد يعلق طمعه بصلة الاخوان ، أو يحسن عنده صحبة السلطان ، لانه لايقوى على طريق الزهد والترك إلا أياما ، ثم يعود الطبع فيتقاضى مطلوباته ، فيقع في أقبح مما فر منه ، ويبذل أول السلع في التحصيل دينه وعرضه ، ويصير متمندلا به[1] ، ويقف في مقام اليد السفلى . ولو أنه نظر في سير الرجال ونبلائهم وتأمل صحاح الاحاديث عن رؤسائهم ، لعلم ان الخليل عليه الصلاة والسلام كان كثير المال ، حتى ضاقت بلدته بمواشيه ، وكذلك لوط عليه الصلاة والسلام ، وكثير من الانبياء عليهم الصلاة والسلام ، والجم الغفير من الصحابة ، وانما صبروا عند العدم ، ولم يمتنعوا من كسب ما يصلحهم ، ولا من تناول المباح عند الوجود . وكان أبو بكر رضي الله عنه يخرج للتجارة والرسول صلى الله عليه وسلم حي . وكان أكثرهم يخرج فاضل ما يأخذ من بيت المال ، ويسلم من ذل الحاجة الى الاخوان . وقد كان ابن عمر : لا يرد شيئاً ، ولا يسأل .

---

(١) أي اتخذ الدين والعرض ممسحة (منديلا) يقال : تندل بالمنديل وتمندل.

وإني تأملت أكثر أهل الدين والعلم على هذه الحال ، فوجدت العلم شغلهم عن المكاسب في بداياتهم ، فلما احتاجوا إلى نفوسهم ذلوا ، وهم أحق بالعز ، وقد كانوا قديماً يكفيهم من بيت المال فضلات الاخوان ، فلما عدمت في هـــذا الأوان ، لم يقدر متدين على شيء إلا ببذل شيء من دينه ، وليته قدر ، فربمـــا تلف الدين ولم يحصل له شيء . فالواجب على العاقل أن يحفظ ما معه ، وأن يجتهد في الكسب ليربح مداراة ظالم ، أو مداهنة جاهل ، ولا يلتفت إلى ترهات المتصوفة ، الذين يدعون في الفقر ما يدعون . فما الفقر إلا مرض العجزة ، وللصابر على الفقر ثواب الصابر على المرض . اللهم إلا أن يكون جباناً عن التصرف، مقتنعاً بالكفاف ، فليس ذلك من مراتب الابطـــال ، بل هو من مقامات الجبناء الزهاد ، وأما الكاسب ليكون المعطِي لا المعطَى ، والمتصـــدق لا المتصدق عليـه ، فهي من مراتب الشجعان الفضـلاء . ومن تأمل هـــذا علم شـرف الغنى ومخاطرة الفقر .

١٦ ــ لا تأسف على ما فات

تأملت أحوال الفضـلاء ، فوجدتهم في الاغلب قد بخسوا من حظوظ الدنيا ، ورأيت الدنيـــا غالباً في أيدي أهل النقائص ،

فنظرت في الفضلاء ، فإذا هم يتـأسفون على ما فاتهم مما ناله ألو النقص ، وربما تقطع بعضهم أسفـاً على ذلك ، فخاطبت بعض المتأسفين فقلت له : « ويحك تدبر أمرك ، فأنت غالط من وجوه أحدها ، انه إن كانت لك همة في طلب الدنيـا ، فاجتهد في طلبها تربح التأسف على فوتها ، فان قعودك متأسفاً على ما ناله غيرك ، مع قصور اجتهادك غاية العجز . والثاني ، إن الدنيا إنما تراد لتُعبرَ لا لتعمر ، وهذا هو الذي يدلك عليه علمك ويبلغه فهمك ، وما يناله أهل النقص من فضولها يؤذي أبدانهم وأديانهم ، فاذا عرفت ذلك ثم تأسفت على فقد ما فَقْدُه أصلح لك ، كان تأسفك عقوبة لتأسفك على ما تعلم المصلحة في بعده ، فاقنع بذلك عذاباً عاجلاً ، إن سلمت من العذاب الآجل . والثالث ، انك قد علمت بخس حظ الآدمي في الجملة ، من مطاعم الدنيا ولذاتها بالاضافة إلى الحيوان البهيم ، لانه ينال ذلك أكثر مقداراً مع أمن ، وأنت تنـالـه مع خوف وقلة مقدار ، فاذا ضوعف حظك من ذلك لجنسك كان لاحقاً بالحيوان البهيم من جهة أنه يشغله ذلك عن تحصيل الفضائل ، وتخفيف المؤن يحث صـاحبه على نيل المراتب ، فاذا آثرت مع قلة الفضول الفضول ، عدت على ما علمت بالازراء فشنت علمك[1] ودلت على اختلاط رأيك » .

---

(١) اي ان عملك هذا أزرى على علمك وشانه .

١٧ ـ عصيان العلماء

تأملت إقدام العلماء بالعقاب[١] على شهوات النفس المنهي عنها ، فرأيتها مرتبة تزاحم الكفر لولا تلوّح معنى ، وهو أن الناس عند مواقعة المحظور ينقسمون ، فمنهم جاهل بالمحظور أنه محظور ، فهذا نوع عذر ، ومنهم من يظن المحظور مكروهاً لا محرماً فهذا قريب من الاول ، وربما دخل في هـذا القسم آدم ﷺ ، ومنهم من يتأول فيغلط ، كما يقال إن آدم عليه الصلاة والسلام نهي عن شجرة بعينها ، فأكل من جنسها لا من عينها[٢] ، ومنهم من يعلم التحريم ، غير أن غلبات الشهوة أنسته تذكر ذاك فشغله ما رأى عما يعلم ، ولهذا لا يذكر السارق القطع بل يغيب بكليته في نيل الحظ ، ولا يذكر راكب الفاحشة الفضيحة ولا الحد ، لان ما يرى يذهله عما يعلم . ومنهم من يعلم الخطر ويذكره ، [٣] غير أن الاخذ بالحزم أولى بالعاقل ، كيف وقد علم أن هذا الملك الحكيم قطع اليد في ربع دينار ،

---

(١) الجار والمجرور متعلقان بـ (العلماء) أي اقدام العالمين بعقاب الشهوة .

(٢) على هامش النسخة الخطية : لعل هنا سقطاً وتقديره : ومنهم من يعلم الخطر ويذكره غير أنه يغتر بالحلم والعفو . وهذا وان كان صحيحاً غير أن الاخذ بالحزم أكمل .

(٣) لعل هاهنا كلاماً ناقصاً .

وهدم بناء الجسم المحكم بالرجم بالحجارة ، لالتذاذ ساعة . وخسف . ومسخ . وأغرق .

١٨ ــ الله يمهل ولا يهمل

من تأمل أفعال الباري سبحانه ، رآها على قانون العدل ، وشاهَدَ الجزاءَ مراصداً للمجازى ، ولو بعد حين . فلا ينبغي أن يغتر مسامَح ، فالجزاء قد يتأخر . ومن أقبح الذنوب التي قد أعد لها الجزاء العظيم الاصرار على الذنب ، ثم يصانع صاحبه باستغفار وصلاة وتعبد ، وعنده ان المصانعة تنفع . وأعظم الخلق اغتراراً من أتى ما يكرهه الله ، وطلب منه ما يحبه هو ، كما روي في الحديث : « والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الاماني » . ومما ينبغي للعاقل أن يترصده ، وقوع الجزاء ، فان ابن سيرين[1] قال : عيرت رجلاً فقلت : يا مفلس ، فأفلست بعد أربعين سنة . وقال ابن الجلاء[2] : رآني شيخ لي وأنا أنظر إلى أمرد ، فقال : « ما هذا ؟ لتجدن غبها » فنسيت القرآن بعد أربعين سنة . وبالضد

---

(١) محمد بن سيرين من أعلام التابعين كان عالم البصرة في أيامه وكان من العباد توفي سنة ١١٠

(٢) أبو عبد الله أحمد بن يحيى ، بغدادي سكن الشام ، من تلاميذ ذي النون وأبي تراب ، صوفي من القرن الثالث .

من هذا كل من عمل خيراً أو صحح نيـة ، فلينتظر جزاءها الحسن ، وإن امتدت المدة . قال الله عز وجل : « إنه منْ يتّقِ ويصبرْ فإنّ اللهَ لا يُضيعُ أجرَ المحسنين » وقال عليه الصلاة والسلام : « من غضّ بصره عن محاسن امرأة أثابه الله إيماناً ، يجد حلاوته في قلبه » . فليعلم العاقل أن ميزان العدل لا يحابي .

١٩ ـــ انحراف الصوفية

تأملت أحوال الصوفية والزهاد ، فوجدت أكثرها منحرفاً عن الشريعة ، بين جهل بالشرع ، وابتداع بالرأي ، يستدلون بآيات لا يفهمون معناها ، وبأحاديث لها أسباب ، وجمهورها لا يثبت . فمن ذلك ، انهم سمعوا في القرآن العزيز : « وما الحياةُ الدنيا إلا متاعُ الغرور » . « إنما الحياةُ الدنيا لعبٌ ولهوٌ وزينة » ثم سمعوا في الحديث : « للدنيا أهون على الله من شاة ميتة على أهلها » ، فبالغوا في هجرها من غير بحث عن حقيقتها ، وذلك أنه مالم يعرف حقيقة الشيء فلا يجوز أن يمدح ولا أن يذم . فإذا بحثنا عن الدنيا رأينا هذه الارض البسيطة[١] التي جعلت قراراً للخلق ، يخرج منها أقواتهم ، ويدفن فيها أمواتهم . ومثل هذا لا يذم لموضع المصلحة فيه . ورأينا ما عليها من ماء ، وزرع ، وحيوان ،

(١) البسيطة أي الواسعة لا أنها ليست كروية ، فانه علماء المتقين يقولون بكروية الارض من قبل المؤلف بقرون .

كله لمصالح الآدمي ، وفيه حفظ لسبب بقائه ، ورأينا بقاء الآدمي سبباً لمعرفة ربه ، وطاعته إياه وخدمته ، وما كان سبباً لبقاء العارف العابد يمدح ولا يذم . فبان لنا أن الذم إنما هو لافعال الجاهل ، أو العاصي في الدنيا ، فانه إذا اقتنى المال المباح ، وأدى زكاته ، لم يلم ، فقد علم ما خلف الزبير ، وابن عوف وغيرهما ، وبلغت صدقة علي رضي الله عنه أربعين ألفاً . وخلف ابن مسعود تسعين ألفاً ، وكان الليث بن سعد يستغل كل سنة عشرين ألفاً . وكان سفيان[1] يتجر بمال ، وكان ابن مهدي يستغل كل سنة ألفي دينار . وإن أكثر من النكاح والسراري كان ممدوحاً لا ملوماً ، فقد كان للنبي ﷺ زوجات ، وسراري . وجمهور الصحابة ، كانوا على الاكثار من ذلك ، وكان لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه أربع حرائر ، وسبع عشرة أمة ، وتزوج ولده الحسن نحواً من أربعمئة . فان طلب التزوج للاولاد ، فهو الغاية في التعبد ، وإن أراد التلذذ فمباح ، يندرج فيه من التعبد ما لا يحصى ، من إعفاف نفسه والمرأة ، إلى غير ذلك . وقد أنفق موسى عليه السلام من عمره الشريف عشر سنين في مهر بنت شعيب ، فلولا أن النكاح من أفضل الاشياء ، لما ذهب كثير من زمان الانبياء فيه ، وقد قال

---

(١) هما سفيانان : الثوري وابن عيينة وكلاهما من الاعلام ، والمراد الاول عند الاطلاق لانه أكبر وأشهر .

ابن عباس رضي الله عنهما : « خيار هذه الامة أكثرها نساء » ، وكان يطأ جارية له وينزل في أخرى . وقالت سرية الربيع بن خيثم : كان الربيع يعزل . وأما المطعم فالمراد منه تقوية هذا البدن لخدمة الله عز وجل ، وحق على ذي الناقة أن يكرمها لتحمله ، وقد كان النبي ﷺ يأكل ما وجد ، فان وجد اللحم أكله ، ويأكل لحم الدجاج ، وأحب الاشياء اليه الحلوى والعسل . وما نقل عنه أنه امتنع من مباح . وجيء علي رضي الله عنه بفالوذج فأكل منه ، وقال : ما هذا ؟ قالوا : يوم النوروز ، فقال : نورزونا كل يوم . وإنما يكره الاكل فوق الشبع ، واللبس على وجه الاختيال والبطر . وقد اقتنع أقوام بالدون من ذلك ، لان الحلال الصافي لا يكاد يمكن فيه تحصيل المراد ، وإلا فقد لبس النبي ﷺ حلة اشتريت له بسبعة وعشرين بعيرا . وكان لتميم الداري[1] حلة اشتريت بألف درهم ، يصلي فيها بالليل . فجاء أقوام ، فأظهروا التزهد ، وابتكروا طريقة زينها لهم الهوى ، ثم تطلبوا لها الدليل ، وإنما ينبغي للانسان أن يتبع الدليل لا أن يتبع طريقاً ويطلب دليلها ، ثم انقسموا : فمنهم متصنع في الظاهر ، ليث الشرى في الباطن ، يتناول في خلواته الشهوات ، ويعكف على اللذات . ويُري الناس بزيه أنه متصوف متزهد ، وما تزهد إلا القميص .

---

(١) صحابي سكن القدس توفي سنة ٤٠ .

وإذا نظر إلى أحواله فعنده كبر فرعون . ومنهم سليم الباطن ، إلا أنه بالشرع جاهل . ومنهم من تصـــدر وصنف فاقتدى به الجاهلون في هذه الطريقة ، وكانوا كعمي اتبعوا أعمى ، ولو أنهم تلمحوا للامر الاول ، الذي كان عليه الرسول ﷺ والصحـــابة رضي الله عنهم ، لما زاغوا . ولقد كان جماعـــة من المحققين ، لا يبالون بمعظّم في النفوس إذا حاد عن الشريعة ، بل يوسعونه لوماً . فنقل عن أحمد أنه قال له المروزي : ما تقول في النـكاح؟ فقال سنة النبي ﷺ ، قال : قد قال ابراهيم[1] . قال : فصاح بي وقال جئتنا ببُنَيّات الطريق ! وقيل له أن سرياً السقطي قال: لما خلق الله تعالى الحروف ، وقفت الالف وسجدت الباء ، فقال: نفروا الناس عنه . واعلم أن المحقق لا يهوله اسم معظم ، كما قال رجل لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه : أتظن أنا نظن أن طلحة والزبير ، كانا على الباطل ؟ فقال له : « إن الحق لا يعرف بالرجال ، اعرف الحق تعرف أهله » . ولعمري أنه قد وقر في النفوس تعظيم أقوام ، فاذا نقل عنهم شيء فسمعه جاهل بالشرع قبله لتعظيمهم في نفســه كما ينقل عن أبي يزيد رضي الله عنه ، أنه قال : تراعنت على نفسي فحلفت لا أشرب الماء سنة . وهذا إذا صح عنه ، كان خطأ قبيحاً ، وزلة فاحشـة ، لان الماء ينفذ

«١» يريد أن يحدثه عن ابراهيم بن أدهم فا تركه يتم جملته .

الاغذية إلى البدن ، ولا يقوم مقامه شيء ، فاذا لم يشرب فقد سعى في أذى بدنه ، وقد كان يستعذب الماء لرسول الله ﷺ ، أفترى هذا فعل من يعلم أن نفسه ليست له ، وأنه لا يجوز التصرف فيها إلا عن إذن مالكها ؟ وكذلك ينقلون عن بعض الصوفية ، أنه قال : سرت الى مكة على طريق التوكل حافياً ، فكانت الشوكة تدخل في رجلي فأحكها بالارض ولا أرفعها ، وكان عليّ مِسح ، فكانت عيني اذا آلمتني أدلكها بالمسح فذهبت إحدى عينيّ . وأمثال هذا كثير وربما حملها القصاص على الكرامات ، وعظموها عند العوام ، فيخايل لهم أن فاعل هذا أعلى مرتبة من الشافعي ، وأحمد . ولعمري إن هذا من أعظم الذنوب وأقبح العيوب ، لان الله تعالى قال : « ولا تقتلوا أنفسكم » وقال النبي ﷺ : إن لنفسك عليك حقاً . وقد طلب أبو بكر رضي الله عنه ، في طريق الهجرة للنبي ﷺ ، ظلاً حتى رأى صخرة ففرش له في ظلها . وقد نقل عن قدماء هذه الامة بدايات هذا التفريط ، وكان سببه ، من وجهين . أحدهما الجهل بالعلم ، والثاني : قرب العهد بالرهبانية ، وقد كان الحسن يعيب فرقداً السبخي[١] ، ومالك بن

---

(١) في الاصل المطبوع والمخطوط وفي طبقات الشعراني وفي كثير من الكتب السنجي بنون وجيم وهو السبخي بباء وخاء نسبة للسبخة من نواحي البصرة .

دينار[١] ، في زهدهما ، فرئي عنده طعام فيه لحم،فقال : لا رغيفي مالك ، ولا صحنا فرقد . ورأى على فرقد كساء ، فقال : يا فرقد ان أكثر أهل النار أصحاب الاكسية . وكم قد زوق قاص مجلسه بذكر أقوام خرجوا الىالسياحة بلا زاد ولا ماء ، وهو لا يعلم أن هذا من أقبح الافعال ، وأن الله تعالى لا يجرّب عليه ، فربما سمعه جاهل من التائبين ، فخرج فمات في الطريق ، فصار للقائل نصيب من إثمه . وكم يروون عن ذي النون : أنه لقي امرأة في السياحة فكلمها وكلمته ، وينسون الاحاديث الصحاح : لا يحل لامرأة أن تسافر يوماً وليلة إلا بمحرم ! وكم ينقلون : أن أقواماً مشوا على الماء وقد قال ابراهيم الحربي[٢] : لا يصح أن أحداً مشى على الماء قط[٣] !

فاذا سمعوا هذا قالوا : أتنكرون كرامات الاولياء الصالحين؟

---

(١) اذا اطلق الحسن فهو البصري سيد التابعين وفرقد السبخي ومالك بن دينار من عباد المحدثين ماتا كلاهما سنة ١٣١ .

(٢) من أعلام المحدثين كان من تلاميذ احمد بن حنبل توفي سنة ٢٨٥

(٣) وقولهم « كل ماجاز أن يكون معجزة لنبي جاز أنيكون كرامةلولي» غير مسلم . راجع بحث الاستاذ السيد الخضر حسين شيخ الازهر السابق في « رسائل الاصلاح » ومنظومة الوهبانية في الفقه الحنفي وشرحها وفيها أن من ادعى لولي طي الارض جاهل وقيل بكفره . راجع « الوهبانية » و « البزازية ».

فنقول : لسنا من المنكرين لها ، بل نتبع ما صح ، والصالحون هم الذين يتبعون الشرع ، ولا يتعبدون بآرائهم . وفي الحديث : ان بني اسرائيل شددوا ، فشدد الله عليهم . وكم يحثون على الفقر حتى حملوا خلقاً على اخراج أموالهم ، ثم آل بهم الامر إما الى التسخط عند الحاجة ، وإما الى التعرض بسؤال الناس . وكم تأذى مسلم بأمرهم الناس بالتقلل ، وقد قال النبي ﷺ : « ثلث طعام ، وثلث شراب ، وثلث نفس » ، فما قنعوا حتى امروا بالمبالغة في التقلل . فحكى أبو طالب المكي[1] في قوت القلوب : ان فيهم من كان يزن قوته بكَرْبةٍ[2] رطبة ، ففي كل ليلة يذهب من رطوبتها قليل ، وكنت أنا ممن اقتدي بقوله في الصبا ، فضاق المَعْيُ وأوجب ذلك مرض سنين . أفترى هذا شيء تقتضيه الحكمة أو ندب اليه الشرع ؟ وإنما مطيـة الآدمي قواه ، فاذا سعى في تقليلها ضعف عن العبادة . فانا لو دخلنا ديار الروم ، فوجدنا أثمان الخمور واجرة الفجور ، كان لنا حلالا بوصف الغنيمة. أفتريد حلالا على معنى أن الحبة من الذهب لم تنتقل مذ خرجت من المعدن ، على وجه لا يجوز ! فهذا شيء لم ينظر فيه رسول الله ﷺ . أوليس قد سمعت أن الصدقة عليه حرام ، فلما تصدق على

---

(١) محمد بن علي من مشايخ الصوفية سكن بغداد وتوفي بها سنة ٣٨٦ .

(٢) وهي كربة النخل والطري منها يؤكل اليوم في العراق .

بُرَيْرة بلحم فاهدته ، جاز له أكل تلك العين لتغير الوصف .
وقد قال أحمد بن حنبل : أكره التقلل من الطعام ، فان أقواماً فعلوه فعجزوا عن الفرائض ، وهذا صحيح . فان المتقلل لايزال يتقلل ، الى أن يعجز عن النوافل ثم عن الفرائض ، ثم يعجز عن مباشرة أهله وإعفافهم ، وعن بذل القوى في الكسب لهم ، وعن فعل خير قد كان يفعله ، ولا يهولنك ما تسمعه من الاحاديث ، التي تحث على الجوع ، فان المراد بها إما الحث على الصوم ، وإما النهي عن مقاومة الشبع . فأما تنقيص المطعم على الدوام ، فمؤثر في القوى ، فلا يجوز . ثم في هؤلاء المذمومين من يرى هجر اللحم ، والنبي ﷺ كان يود أن يأكله كل يوم ، واسمع مني بلا محاباة ، لا تحتجن عليّ بأسماء الرجال ، فتقول قد قال بشر[1] وقال ابراهيم ابن أدهم ، وان من احتج بالرسول ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم أقوى حجة ، على أن لافعال أولئك وجوهاً نحملها عليها بحسن الظن . ولقد ذاكرت بعض مشايخنا ما يروى عن جماعة من السادات ، أنهم دفنوا كتبهم ، فقلت له : ماوجه هذا ؟ فقال : أحسن ما تقول أن نسكت ، يشير الى أن هذا جهل من فاعله ، وتأولت أنا لهم فقلت : لعل ما دفنوا من كتبهم ما فيه شيء من الرأي ، فما رأوا أن يعمل الناس به ، ولقد روينا في الحديث

---

(١) بشر بن الحارث « الحافي » المتوفي سنة ٢٢٧ .

عن أحمد بن أبي الحواري[1] : أنه أخذ كتبه فرمى بهـا في البحر وقال : نعم الدليل كنت ، ولا حاجة لنا إلى الدليل ، بعد الوصول الى المدلول . وهذا اذا أحسنا به الظن ، قلنا كان فيها من كلامهم ما لا يرتضيه ، فاما اذا كانت علوماً صحيحة ، كان هـذا من أفحش الاضاعة وأنا وإن تأولت لهم هذا ، فهو تأويل صحيح في حق العلماء منهم ، لأنا قد روينا عن سفيان الثوري : أنه قد أوصى بدفن كتبه ، وكان ندم على أشياء كتبهـا ، عن قوم ، وقال : حملني شهوة الحديث (وهذا لانه كان يكتب عن الضعفـاء والمتروكين) فكأنه لما عسر عليـه التمييز ، أوصى بدفن الكل . وكذلك من كان له رأي من كلامه ثم رجع عنه ، جاز أن يدفن الكتب التي فيها ذلك ، فهذا وجه التأويل للعلمـاء ، فاما المتزهدون ، الذين رأوا صورة فعل العلماء ، ودفنوا كتباً صـالحة لئلا تشغلهم عن التعبد ، فانه جهل منهم ، لانهم شرعوا في اطفـاء مصباح يضيء لهم ، مع الاقدام على تضييع مال لا يحل . ومن جملة من عمل بواقعة دفن كتب العلم ، يوسف بن أسباط ثم لم يصبر عن التحديث فخلط فعد في الضعفاء . أنبأنا عبد الوهاب بن المبارك ، قال أخبرنا محمد بن المظفر الشـامي ، قال أخبرنا أحمد بن محمد العتيقي ، قال حدثنا يوسف بن أحمد ، قال حدثنا محمد بن عمرو العقيلي ، قال حدثنا

---

(١) احمد بن عبد الله المحدث الزاهد احد الاعلام توفي في الشام سنة ٢٤٦

محمد بن عيسى ، قال أخبرنا أحمـــد بن خالد الخلال . قال : سمعت شعيب بن حرب يقول : قلت ليوسف بن أسباط[١] كيف صنعت بكتبك ؟ قال : جئت الى الجزيرة ، فلما نضب الماء دفنتها حتى جاء الماء عليها ، فذهبت . قلت : ماحملك على ذلك ؟ قل: أردت أن يكون الهم هماً واحداً . قال العقيلي : وحدثني آدم ، قال سمعت البخاري قال قال صدقة[٢] : دفن يوسف بن أسباط كتبه ، وكان بعد يغلب عليه[٣] ، فلا يجيء كما ينبغي، وقال المؤلف قلت : الظاهر أن هذه كتب علم ينفع ، ولكن قلة العلم أوجبت هـــذا التفريط، الذي قصد به الخير ، وهو شر . فلو كانت كتبه من جنس كتب الثوري ، فان فيها عن ضعفـاء ولم يصح له التمييز قرب الحال . إنما تعليله بجمع الهم ، هو الدليل على أنها ليست كذلك ، فانظر الى قلة العلم ، ماذا تؤثر مع أهل الخير . ولقد بلغنا في الحديث عن بعض من نعظمه ونزوره ، انه كان على شاطىء دجلة ، فبال ثم تيمم ، فقيل له الماء قريب منك ، فقال خفت أن لا أبلغه ، وهذا وإن كان يدل على قصر الامل ، إلا أن الفقهاء اذا سمعوا مثل هـذا الحديث تلاعبوا به ، من جهة أن التيمم ، إنما يصح عند عدم الماء . فاذا كان

---

(١) العالم الزاهد المجاهد المتوفي سنة ١٩٠

(٢) صدقة بن الحسين الناسخ راجـع الفصل (٢١١) .

(٣) أي يضطر الى التحديث بلا كتاب .

الماء موجوداً ، كان تحريك اليدين بالتيمم عبثـــاً . وليس من ضرورة وجود الماء ان يكون الى جانب المحدث ، بل لو كان على أذرع كثيرة ، كان موجوداً ، فلا فعل للتيمم ، ولا أثر حينئذ. ومن تأمل هـــذه الاشياء ، علم أن فقيهاً واحداً ، وإن قل اتباعه ، وخَفَتت اذامات أشياعه ، أفضل من ألوف تتمسح العوام بهم تبركاً ، ويشيـع جنائزهم ما لا يحصى . وهل النـــاس إلا صاحب أثر يتبعه ، أو فقيه يفهم مراد الشرع ويفتي به ؟ نعوذ بالله من الجهل ، وتعظيم الاسلاف تقليداً لهم بغير دليل ! فان من ورد المشرب الاول رأى سائر المشارب كدرة ، والمحنـة العظمى مدائح العوام . فـكم غرت كما قال علي رضي الله عنه : « ما أبقى خفق النعال وراء الحمقى ، من عقولهم شيئاً » . ولقد رأينا وسمعنا من العوام ، أنهم يمدحون الشخص ، فيقولون : لاينام الليل ، ولا يفطر النهار ، ولا يعرف زوجة ، ولا يذوق من شهوات الدنيا شيئـــاً ، قد نحل جسمه ، ودق عظمـه ، حتى أنه يصلي قاعداً ، فهو خير من العلماء الذين يأكلون ويتمتعون . ذلك مبلغهم من العلم ، ولو علموا أن الدنيا كلهـا لو اجتمعت في لقمة فتناولها عالم يفتي عن الله ، ويخبر بشريعته ، كانت فتوى واحدة منه يرشد بها الى الله تعالى خيراً وأفضل من عبادة ذلك العابد باقي عمره ! وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما : فقيه واحد أشد على

إبليس من ألف عابد . ومن سمع هذا الكلام فلا يظنن أنني أمدح من لا يعمل بعلمه ، وإنما أمدح العاملين بالعلم ، وهم أعلم بمصالح أنفسهم ، فقد كان فيهم من يصلح على خشن العيش ، كأحمد بن حنبل ، وكان فيهم من يستعمل رقيق العيش ، كسفيان الثوري مع ورعه ، ومالك مع تدينه ، والشافعي مع قوة فقهه ، ولا ينبغي أن يطالَب الانسان بما يقوى عليه غيره ، فيضعف هو عنه ، فان الانسان أعرف بصلاح نفسه . وقد قالت رابعة : إن كان صلاح قلبك في الفالوذج فكله ، ولا تكونن أيها السامع ممن يرى صور الزهد ، فرب متنعم لا يريد التنعم ، وإنما يقصد المصلحة . وليس كل بدن يقوى على الخشونة خصوصاً من قد لاقى الكدّ وأجهده الفكر ، أو عضه الفقر ، فانه إن لم يرفق بنفسه ، يترك واجباً عليه من الرفق . فهذه جملة لو شرحتها بذكر الاخبار والمنقولات لطالت ، غير أني سطرتها على عجل حين جالت في خاطري ؛ والله ولي النفع برحمته .

٢٠ ـــ النفس والروح

قد أشكل على الناس أمر النفس وماهيتها ، مع إجماعهم على وجودها ، ولا يضر الجهل بذاتها مع إثباتها ؛ ثم أشكل عليهم مصيرها بعد الموت ؛ ومذهب أهل الحق أن لها وجوداً بعد

موتها، وانما تُنعّم وتُعذّب ، قال أحمد بن حنبل : أرواح المؤمنين في الجنة ، وأرواح الكفار في النار[1] ، وقد جاء في أحاديث الشهداء : أنها في حواصل طير خضر تعلق[2] من شجر الجنة . وقد أخذ بعض الجهلة بظواهر أحاديث النعيم ، فقالوا: ان الموتى يأكلون في القبور ، وينكحون ، والصواب من ذلك ، ان النفس تخرج بعد الموت الى نعيم أو عذاب ، وانما تجد ذلك الى يوم القيامة ، فاذا كانت القيامة ، أعيدت الى الجسد ليتكامل لها التنعم بالوسائط . وقوله (في حواصل طير خضر) دليل على ان النفوس لاتنال لذة الا بواسطة ، ان كانت تلك لذة مطعم أو مشرب ، فأما لذات المعارف والعلوم فيجوز أن تنالها بذاتها ، مع عدم الوسائط . والمقصود من هذا المذكور أني رأيت بعض الانزعاج من الموت ، وملاحظة النفس بعين العدم عنده ، فقلت لها : ان كنت مصدقة للشريعة فقد أخبرت بما تعرفين ، ولا وجه للانكار ، وان كان هناك

---

(١) وما يقال في استحضار الارواح لادليل له من النقل ولا من العقل . على ان حضور ارواح المؤمنين ممكن لانها طليقة ؛ وان كان ليس قطعيا لاحتمال ان يكون المتكلم على لسانها جنيا او شيطاناً وان يكون الامر كله من قبيل الوهم. اما استحضار ارواح الكفار فغير ممكن لانها مسجونة مقيدة ومايدعى منه باطل قطعاً . واوسع مرجع في امر الروح كتاب ابن القيم وليس كل مافيه مسلماً له .

(٢) أي تأكل

ريب في اخبار الشريعة ، صار الكلام في بيان صحة الشريعة فقالت : لاريب عندي ، قلت ، فاجتهدي في تصحيح الايمان ، وتحقيق التقوى ، وأبشري حينئذ بالراحة من ساعة الموت ، فاني لا اخاف عليك الا من التقصير في العمل ، واعلمي أن تفاوت النعيم بمقدار درجات الفضائل فارتفعي باجنحة الجد الى اعلا أبراجها ، واحذري من قانص هوى ، أوشرك غرة ، والله الموفق .

٢١ — بين العلم والعمل

قلت يوماً في مجلسي : لو أن الجبال حملت ماحمّلت لعجزت ، فلما عدت الى منزلي ، قالت لي النفس : كيف قلت هذا ، وربما أوهم الناس أن بك بلاء وأنت في عافية في نفسك وأهلك ؟ وهل الذي حملت الا التكليف الذي يحمله الخلق كلهم ؟ فما وجه هذه الشكوى . فأجبتها أني لما عجزت عما حملت ، قلت هذه الكلمة لا على سبيل الشكوى ، ولكن للاسترواح ، وقد قال كثير من الصحابة والتابعين قبلي : ليتنا لم نخلق ! وما ذاك الا لاثقال عجزوا عنها ، ثم من ظن أن التكاليف سهلة فما عرفها ؛ أترى يظن الظان أن التكاليف غسل الاعضاء برطل من الماء ، أو الوقوف في محراب ، لاداء ركعتين ؟ هيهات ! هذا أسهل التكليف ، وإن التكليف هو الذي عجزت عنه

الجبال ، ومن جملته : أنني اذا رأيت القدر يجري بما لايفهمه العقل ، ألزمت العقل الاذعان للمقدر ، فكان من أصعب التكليف ، وخصوصاً فيما لايعلم العقل معناه كايلام الاطفال ، وذبح الحيوان ، مع الاعتقاد بأن المقدر لذلك والآمر به أرحم الراحمين . فهذا مما يتحير العقل فيه ، فيكون تكليف التسليم ، وترك الاعتراض . فكم بين تكليف البدن وتكليف العقل ! ولو شرحت هذا لطال؛ غير اني أعتذر عما قلته ، فاقول عن نفسي ، ومايلزمني حال غيري : إنني رجل حبب اليّ العلم من زمن الطفولة فتشاغلت به ، ثم لم يحبب اليّ فن واحد منه ، بل فنونه ، ثم لاتقتصر همتي في فن على بعضه ، بل أروم استقصاءه ، والزمان لايسع ، والعمر أضيق ، والشوق يقوى ، والعجز يقعد ، فيبقى وقوف بعض المطلوبات حسرات ، ثم إن العلم دلني على معرفة المعبود ، وحثني على خدمته ، ثم صاحت بي الادلة عليه اليه ، فوقفت بين يديه ، فرأيته في نعته وعرفته بصفاته ، وعاينت بصيرتي من ألطافه ما دعاني الى الهَيَمان في محبته ، وحركني الى التخلي لخدمته ، وصار يملكني أمر كالوجد كلما ذكرته ، فعادت خلوتي في خدمتي له ، أحلى عندي من كل حلاوة ، فكلما ملت الى الانقطاع عن الشواغل والى الخلوة ، صاح بي العلم : أين تمضي؟ أتعرض عني وأنا سبب معرفتك ؟ فاقول له : انما كنت دليلاً وبعد الوصول يستغنى عن الدليل ، قال : هيهات ! كلما زدت،

زادت معرفتك بمحبوبك ، وفهمت كيف القرب منه ، ودليل هذا ، انك تعلم غداً ، انك اليوم في نقصان ، أو ماسمعته يقول لنبيه ﷺ . « وقلْ ربِّ زِدني علما » . ثم ألست تبغي القرب منه ؟ فاشتغل بدلالة عباده عليه ، فهي حالات الانبياء عليهم الصلاة والسلام . أما علمت أنهم آثروا تعليم الخلق ، على خلوات التعبد ، لعلمهم أن ذلك آثر عند حبيبهم ؟ أما قال الرسول ﷺ لعلي رضي الله عنه : لأن يهدي الله بك رجلا ، خير لك من حمر النعم ؟ فلما فهمت صدق هذه المقالة ، تهوّست على تلك الحالة ، وكلما تشاغلت بجمع الناس عليّ ، تفرق همي ، واذا وجدت مرادي من نفعهم ، ضعت أنا ، فأبقى في حيز التحير متردداً ، لا أدري على أي القدمين أعتمد ، فاذا وقفت متحيراً صاح العلم ، قم لكسب العيال ، واداب في تحصيل ولد يذكر الله ، فاذا شرعت في ذلك قلص ضرع الدنيا وقت الحلب ، ورأيت باب المعاش مسدوداً في وجهي ، لان صناعة العلم شغلتني عن تعلم صناعة ، فاذا التفت الى أبناء الدنيا ، رأيتهم لايبيعون شيئاً من سلعها الا بدين المشتري وليت من نافقهم أو راياهم[1] نال من ديناهم . بل ربما ذهب دينه ولم يحصل مراده ، فان قال الضجر : اهربْ . قال الشرع : كفى بالمرء إثماً ان يضيع من يقوت . وان قال العزم : انفردْ . قال : فكيف بمن تعول ؟ فغاية

(١) أي عاملهم بالرياء

الامر الذي أشرع في التقلل من الدنيا ، وقد ربيت في نعيمها ، وغذيت بلبانها ، ولطف مزاجي فوق لطف وضعه بالعادة . فاذا غيرت لباسي وخشنت مطعمي ، لأن القوت لا يحتمل الانبساط نفر الطبع لفراق العادة ، فحل المرض فقطع عن واجبات ، واوقع في آفات . ومعلوم ان لين اللقمة بعد التحصيل من الوجوه المستطابة وتخشينها لمن لم يألف سعي في تلف النفس ، فأقول : كيف أصنع وما الذي أفعل ؟ وأخلو بنفسي في خلواتي وأتزيد من البكاء على نقص حالاتي . واقول: اصف حال العلماء وجسمي يضعف عن عادة العلم ، وحال الزهاد ، وبدني لايقوى على الزهد ، وحال المحبين ، ومخالطة الخلق تشتت همي ، وتنقش صور المحبوبات من الهوى في نفسي. فتصدأ مرآة قلبي ، وشجرة المحبة تحتاج الى تربية في تربة طيبة ، لتسقى ماء الخلوة ، من دولاب الفكرة ، وان آثرت التكسب لم أطق ، وان تعرضت لابناء الدنيا مع أن طبعي الأنفة من الذل ، وتديني يمنعني ، فلا يبقى للميل مع هذين الجاذبين أثر ، ومخالطة الخلق تؤذى النفس مع الانفاس ، فلا تحقيق التوبة أقدر عليه ، ولانيل مرتبة من علم أو عمل أو محبة يصح لي . فاذا رأيتني كما قال القائل :

القاه في الماء مكتوفاً وقال له إياك إياك أن تبتل بالماء

تحيرت في أمري ، وبكيت على عمري ، وأنادي في فلوات

خلواتي بما سمعته من بعض العوام[١] وكأنه وصف حالي :

واحسرتي كم أداري فيك تعثيري   مثل الاسير بلا حيل ولا سيرى
ماحيلتي في الهوى قد ضاع تدبيري   لما شكلت جناحي قلت لي طيري

٢٢ ـ دواء لترقيق القلب

تأملت أمر الدنيا والآخرة فوجدت حوادث الدنيا حسية طبيعية ، وحوادث الآخرة ايمانية يقينية . والحسيات أقوى جذباً لمن لم يقو علمه ويقينه . والحوادث إنما تبقى بكثرة اسبابها فمخالطة الناس ، ورؤية المستحسنات ، والتعرض بالملذوذات ،يقوي حوادث الحس والعزلة والفكر ؛ والنظر في العلم يقوي حوادث الآخرة . ويبين هذا بأن الانسان اذا خرج يمشي في الاسواق ويبصر زينة الدنيا، ثم دخل الى المقابر فتفكر ورق قلبه ، فانه يحس بين الحالتين فرقاً بيناً ، وسبب ذلك التعرض بأسباب الحوادث ، فعليك بالعزلة والذكر والنظر في العلم ، فان العزلة حمية والفكر والعلم أدوية . والدواء مع التخليط لاينفع ، وقد تمكنت منك أخلاط المخالطة للخلق ، والتخليط في الافعال . فليس لك دواء إلا ما وصفت لك ، فأما اذا خالطت الخلق وتعرضت للشهوات ، ثم رمت صلاح القلب رمت الممتنع .

---

(١) من المواليا وهو نوع من الشعر العامي

٢٣ ـ في ان الممنوع مطلوب

تأملت حرص النفس على مامنعت منه ، فرأيت حرصها يزيد على قدر قوة المنع ، ورأيت في الشرب الاول[١] أن آدم عليه السلام لما نهي عن الشجرة حرص عليها مع كثرة الاشجار المغنية عنها وفي الامثال : المرء حريص على ما منع ، وتواق الى مالم ينل . ويقال : لو أمر الناس بالجوع لصبروا ، ولو نهوا عن تفتيت البعر لرغبوا فيه ، وقالوا مانهينا عنه إلا لشيء . وقد قيل :

أحب شيء الى الانسان مامنعا

فلما بحثت عن سبب ذلك وجدت سببين ، أحدهما : ان النفس لاتصبر على الحصر فانه يكفي حصرها في البدن صورة فاذا حصرت في المعنى (بمنع) زاد طيشها ولهذا لو قعد الانسان في بيته شهراً لم يصعب عليه ، ولو قيل له : لاتخرج من بيتك يوماً طال عليه . والثاني : انها يشق عليها الدخول تحت حكم ، ولهذا تستلذ الحرام ، ولا تكاد تستطيب المباح. ولذلك يسهل عليها التعبد على ماترى وتؤثر ، لا على مايؤثر[٢]

---

(١) الشرب جمع شارب كر كب .
(٢) اي على ماترى وتؤثر هي لاعلى ما يؤثر الشرع

٢٤- في العزلة

مازالت نفسي تنازعني بما يوجبه مجلس الوعـــظ ، وتوبة التائبين ، ورؤية الزاهدين ، الى الزهـد والانقطاع عن الخلق والانفراد بالآخرة ، فتأملت ذلك فوجدت عمومه من الشيطان ، فان الشيطان يرى انه لايخلو لي مجلس من خلق لا يحصون ، يبكون ويندبون على ذنوبهم ، ويقوم في الغالب جماعة يتوبون ويقطعون شعور الصبا ، وربما بلغوا خمسين ومئة . ولقد تاب عندي في بعض الايام اكثر من مئة ، وعمومهم صبيان قد نشأوا على اللعب والانهماك في المعاصي . فكأن الشيطان لبعد غوره في الشر رآني أجتذب إليّ من أجتذب منه ، فأراد ان يشغلني عن ذلك بما يزخرفه ليخلو هو بمن أجتذبه من يده ، ولقد حسّن الي الانقطاع عن المجـــالس وقال : لايخلو من تصنع للخلق .

فقلت : اما زخرفة الالفاظ وتزويقهـا ، واخراج المعنى من مستحسن العبارة ففضيلة لارذيلة ، واما ان اقصـد الناسَ بما لايجوز في الشرع فمعاذ الله ، ثم رأيته يريني في التزهد قطع اسباب ، ظاهرها الاباحة من الاكتساب . فقلت له : فإن

ظاب لي الزهد ، وتمكنت من العزلة ، فنفد ما بيـــدي أو احتاج بعض عائلتي ، ألست اعود القهقرى ؟ فدعني اجمع مايسد خلتي ويصونني عن مسألة الناس ، فان مد عمري ، كان نعم السبب ، وإلا كان العائلة ، ولا اكون كراكب أراق ماءه لرؤيه سراب ، فلما ندم وقتَ الفوات لم ينتفع بالندم ، وانما الصواب توطئة المضجع قبل النوم ، وجمع المال الساد للخلة قبل الكبر ، اخذاً بالحزم ، وقد قال الرسول ﷺ : « لأن تترك ورثتك أغنياء خير لك من ان تتركهم عالة يتكففون الناس .» وقال « نعم المال الصالح ، للرجل الصالح .»

وأما الانقطاع فينبغي أن تكون العزلة عن الشر لا عن الخير ، والعزلة عن الشر واجبة على كل حال . وأما تعليم الطالبين وهداية المريدين ، فإنه عبادة العالم . وان من تغفيل بعض العلماء إيثاره للتنفل بالصلاة والصوم ، عن تصنيف كتاب أو تعليم علم ينفع لأن ذلك بذر يكثر ريعه ، ويمتد زمان نفعه . وانما تميل النفس الى مايزخرفه الشيطان من ذلك لمعنيين:

أحدهما : حب البطالة لأن الانقطاع عندها اسهل .

والثاني : لحب المدحة فانها اذا توسمت بالزهـد كان ميل العوام اليها اكثر ، فعليك بالنظر في الشرب الاول ، فكن مع الشرب المقدم . وهم الرسول ﷺ واصحابه ، رضي الله تعالى عنهم ، فهل نقل عن احد منهم مابتدعه جهلة المتزهدين

والمتصوفة ، من الانقطاع عن العلم ، والانفراد عن الخلق ؟ وهل كان شغل الانبياء الا معاناة الخلق ، وحثهم على الخير ونهيهم عن الشر ؟ إلا ان ينقطع من ليس بعالم يقصد الكف عن الشر ، فذاك في مرتبة المحتمي يخاف شر التخليط . فأما الطبيب العالم بما يتناول فانه ينتفع بما يناله .

٢٥ ـ المراد من الخلق

تأملت المراد من الخلق فاذا هو الذل واعتقـــاد التقصير والعجز ، ومثلت العلماء والزهاد العـاملين صنفين ، فأقمت في صف العلماء مالكا وسفيان وأبا حنيفة والشافعي واحمد ، وفي صف العباد مالك بن دينـار ورابعة ومعروفاً الكرخي وبشر ابن الحارث .

فكلما جد العباد في العبادة وصاح بهم لسان الحال : عباداتكم لا يتعداكم نفعها ، وانما يتعدى نفع العلماء وهم ورثة الانبيـاء ، وخلفاء الله في الارض وهم الذين عليهم المعول ، ولهم الفضل ، اذاً أطرقوا وانكسروا ، وعلموا صدق تلك الحال . وجاء مالك ابن دينار الى الحسن يتعلم منه ويقول : الحسن استاذنا .

واذا رأى العلماء لهم بالعلم فضلا ، صاح لسان الحال بالعلماء : وهل المراد من العلم إلا العمل ؟

وقال احمد بن حنبل : وهل يراد العلم إلا لما وصل إليه معروف ؟

وصح عن سفيان الثوري قال : وددت ان يدي قطعت ولم اكتب الحديث .

وقالت أم الدرداء لرجل : هل عملت بما علمت ؟ قال : لا . قالت : فلم تستكثر من حجة الله عليك ؟

وقال ابو الدرداء : ويل لمن لم يعلم ولم يعمل مرة ، وويل لمن علم ولم يعمل سبعين مرة ،

وقال الفضيل : يغفر للجاهل سبعون ذنباً . قبل ان يغفر للعالم ذنب واحد ، فما يبلغ من الكل قوله تعالى : « أفمن يعلم كمن لايعلم [١] » . وجاء سفيان الى رابعة : فجلس بين يديها ينتفع بكلامها .

فدل العلماءَ العلمُ على ان المقصود منه العمل به وانه آلة فانكسروا واعترفوا بالتقصير . فحصل الكل على الاعتراف والذل ، فاستخرجت المعرفة منهم حقيقة العبودية باعترافهم ، فذلك هو المقصود من التكليف .

---

(١) الآية : (هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون) . وفي التنزيل (أفمن يخلق كمن لايخلق) ؟ ولعل المؤلف التبس عليه الامر بينهما .

٣٦ ـ حب الله

تأملت قوله تعالى « يحبهم ويحبونه » ، فاذا النفس تأبى اثبات محبة الخالق توجب قلقاً[١] ، وقالت: محبته طاعته، فتدبرت ذلك فاذا بها قد جهلت ذلك لغلبة الحس . وبيان هذا ، ان محبة الحس لاتتعدى الصور الذاتية ، ومحبة العلم والعمل ترى الصور المعنوية فتحبها . فإنا نرى خلقاً يحبون أبا بكر رضي الله عنه ، وخلقاً يحبون علي بن ابي طالب رضي الله عنه ، وقوماً يتعصبون لأحمد بن حنبل ، وقوما للاشعري ، فيقتتلون ويبذلون النفوس في ذلك . وليسوا ممن رأى صور القوم ، ولا صور القوم توجب المحبة . ولكن لما تُصُوِّرت لهم المعاني فدلتهم على كمال القوم في العلوم ، وقع الحب لتلك الصور التي شوهدت بأعين البصائر ، فكيف بمن ضيع تلك الصور المعنوية وابتذلها ؟ وكيف لا أحب من وهب لي ملذوذات حسي ، وعرفني ملذوذات علمي ، فإن التذاذي بالعلم وادراك العلوم أولى من جميع اللذات الحسية ، فهو الذي علمني وخلق لي إدراكاً وهداني الى ما أدركته . ثم انه يتجلى لي في كل لحظة فيّ مخلوقٌ جديد أراه فيه باتقان ذلك الصنع وحسن ذلك المصنوع . فكل محبوباتي منه وعنه وبه : الحسية والمعنوية ، وتسهيل سبل الادراك به ، والمدركات منه ، وألذ من كل

---

(١) يريد بالقلق مانسميه نحن « الانفعال النفسي »

لذة عرفاني له ، فلولا تعليمه ماعرفته ، وكيف لا أحب من أنا به ، وبقائي منه ، وتدبيري بيده ، ورجوعي إليه ، وكل مستحسن محبوب هو صنعه وحسنه وزينه وعطف النفوس اليه ، فكذلك الكامل القدرة أحسن من المقدور ، والعجيب الصنعة اكمل من المصنوع ، ومعنى الادراك احلى عرفاناً من المُدْرَك ، ولو اننا رأينا نقشاً عجيباً لاستغرقنا تعظيم النقاش وتهويل شأنه وظريف حكمته عن حب المنقوش ، وهذا مما تترقى اليه الافكار الصافية ، اذا خرق نظرها الحسيات ونفذ الى ماوراءها ، فحينئذ تقع محبة الخالق ضرورة ، وعلى قدر رؤية الصانع في المصنوع يقع الحب له ، فإن قوي أوجب قلقاً وشوقاً ، وان مال بالعارف الى مقام الهيبة أوجب خوفاً ، وان انحرف به الى تلمح الكرم أوجب رجاء قوياً ، « وقد علم كل اناس مشربهم » .

٢٧ـ التسليم أولى

تأملت حالاً عجيبة ، وهي ان الله سبحانه وتعالى قد بنى هذه الاجسام متقنة على قانون الحكمة ، فدلّ بذلك المصنوع على كمال قدرته ، ولطيف حكمته . ثم عاد فنقضها فتحيرت العقول بعد اذعانها له بالحكمة في سر ذلك الفعل . فأعلمت أنها ستعاد للمعاد ، وان هذه البنية لم تخلق إلا لتجوز في مجاز

المعرفة وتتجر في موسم المعاملة ، فسكنت العقول لذلك . ثم رأت أشياء من هذا الجنس أظرف منه ، مثل اخترام شاب ما بلغ بعض المقصود بنيانه ، وأعجب من ذلك أخذ طفل من أكف أبويه يتململان ولا يظهر سر سلبه. والله الغني عن أخذه، وهما أشد الخلق فقراً الى بقائه . وأظرف[1] منه إبقاء هرم لا يدري معنى البقاء ، وليس له فيه إلا مجرد أذى . ومن هذا الجنس تقتير الرزق على المؤمن الحكيم ، وتوسعته على الكافر الاحمق، في نظائر لهذه المذكورات يتحير العقل في تعليلها ، فيبقى مبهوتاً . فلم أزل أتلمح جملة التكاليف ، فاذا عجزت قوى العقل عن الاطلاع على حكمة ذلك وقد ثبت لها حكمة الفاعل علمت قصورها عن درك جميع المطلوب فأذعنت مقرة بالعجز وبذلك يؤدى مفروضُ تكليفها ، فلو قيل للعقل : قد ثبت عندك حكمة الخالق بما بني أفيجوز ان ينقدح في حكمته أنه نقض ؟ لقال : إني عرفت بالبرهان أنه حكيم ، وانا أعجز عن ادراك علل حكمته ، فأسلّم على رغمي مقراً بعجزي[2].

٢٨ ـ في الحب والزواج

تأملت في فوائد النكاح ومعانيه وموضوعه . فرأيت ان الأصل الاكبر في وضعه وجود النسل ، لأن هذا الحيوان

---

(١) اي اعجب

(٢) هذا هو الحق وقد اخذه كانت الفيلسوف الالماني الاشهر فقاله بعد قرون طوال

لايزال يتحلل ثم يُخلِف المتحللَ الغذاءُ ، ثم يتحلل من الاجزاء الاصلية مالا يُخلفه شيء فاذا لم يكن بدّ من فنائه وكان المراد امتداد أزمان الدنيا جعل النسل خلفاً عن الاصل ، ولما كانت صورة النكاح تأباها النفوس الشريفة من كشف العورة وملاقاة مالا يستحسن لنفسه ، جعلت الشهوة تحثّ ليحصل المقصود .

ثم رأيت هذا المقصود الاصلي يتبعـــه شيء آخر ، وهو استفراغ هذا الماء الذي يؤذي دوام احتقـانه ، فان المنّي ينفصل من الهضم الرابع فهو أصفى جوهر الغذاء وأجوده ، ثم يجتمع ، فهو احد الذخائر للنفس فانها تدخر لبقائها وقوتهـا الدمَ ، ثم المنيّ ، فاذا زاد اجتماع المني اقلق على قدر اقلاق البول للحاقن ، إلا أن اقلاقه من حيث المعنى اكثر من اقلاق البول من حيث الصورة ، فتوجب كـثرة اجتماعه ، وطول احتباسه ، أمراضاً صعبة ، لأنه يترقى من بخـاره الى الدماغ فيؤذي ، وربما أحدث سُمّية ، ومتى كان المزاج سليماً فالطبع يطلب بروز المنيّ اذا اجتمع ، كما يطلب بروز البول ، وقد تنحرف بعض الامزجة فيقل اجتماعه عنده فيندر طلبه لإخراجه . وانما نتكلم عن المزاج الصحيح ، فأقول :

قد بينت انه اذا وقع به احتباسه أوجب أمراضاً وجدد أفكاراً رديئة ، وجلب العشق والوسوسـة الى غير ذلك من

الآفات . وقد نجد صحيح المزاج يخرج ذلك اذا اجتمع وهو بعد متقلقل ، فكأنه الآكل الذي لايشبع ، فبحثت عن ذلك فرأيته وقوع الخلل في المنكوح إما لدمامته ، وقبح منظره ، أو لآفة فيه ، أو لأنه غير مطلوب للنفس، فحينئذ يخرج منه ويبقى بعضه ؛ فاذا أردت معرفة ما يدلك على ذلك فقس مقدار خروج المنى في المحل المشتهى ، وفي المحل الذي هو دونه ، كالوطء بين الفخذين بالاضافة الى الوطء في محل النكاح ، وكوطء البكر بالاضافة الى وطء الثيب ، فعلم حينئذ ان تخيّر المنكوح يستقصي فضول المنى ، فيحصل للنفس كمال اللذة ، لموضع كمال بروز الفضول . ثم قد يؤثر هذا في الولد أيضاً ، فإنه اذا كان (أي الولد) من شابين قد حبسا انفسهما عن النكاح مُدَيْدَةً كان الولد أقوى منه من غيرهما ، أو من المدمن على النكاح في الاغلب ، ولهذا كره نكاح الاقارب لأنه مما يقبض النفس عن انبساطها ، فيتخيل الانسان أنه ينكح بعضه ، ومدح نكاح الغرائب لهذا المعنى ، ومن هذا الفن يحصل كثير من المقصود من دفع هذه الفضول المؤذية بمنكوح مستجد وان كان مستقبح الصورة مالا يحصل به في العادة.

ومثال هذا ان الطاعم اذا امتلأ خبزاً ولحماً حيث لم يبق فيه فضل لتناول لقمة ، قدمت إليه الحلوى فيتناول ، فلو

قدم اعجب منهـــا لتناول لأن الجِدّة لها معنى عجيب .

وذلك أن النفس لا تميل الى ما الفت ، وتطلب غير ماعرفت ، ويتخايل لها في الجديد نوع مراد ، فاذا لم تجد مرادها صرفت الى جديد آخر ، فكأنها قد علمت وجود غرض تام بلا كدر ، وهي تتخايله فيما تراه[١] . وفي هذا المعنى دليل مدفون على البعث لأن خَلْق مَن همته متعلقة بلا متعلق نوع عبث[٢] . فافهم هـــذا ، فاذا رأت النفس عيوب ما خالطت في الدنيـــا عادت تطلب جديداً .

ولذلك قال الحكماء : العشق العمى عن عيوب المحبوب . فمن تأمل عيوبه سلا ، ولذلك يستحب للمرأة أن لا تبعد عن زوجهـــا بعداً ينسيه إياها ، ولا تقرب منه قرباً يمله ، وكذلك يستحب له ، لئلا يملها أو يظهر لديه مكنونات عيوبها ، وينبغي له أن لا يطلع منها على عورة ، ويجتهد في أن لايشم منهـــا إلا طيب ريح ، الى غير ذلك من الخصال التي تستعملها النساء الحكيات ، فانهن يعلمن ذلك بفطرهن من غير احتياج (الى تعليم) .

فاما الجاهلات فانهن لاينظرن في هذا فيتعجل التفات الأزواج عنهن . فمن أراد نجابة الولد وقضـــاء الوطر فليتخير المنكوح إن

---

(١) في هذا اشارة الى نظرية افلاطون في المثل العليا .

(٢) اي ان الانسان كلما نال لذة في الدنيا طمع باخرى فلا يقنعه الا لذة ليست في الدنيا وهي لذات الجنة .

كان زوجة فلينظر اليها فاذا وقعت في نفسه فليتزوجها ، ولينظر في كيفية وقوعها في نفسه . فان علامة تعلق حبها بالقلب انه لايكاد يصرف الطرف عنـــه ، فاذا انصرف الطرف قلق القلب بتقاضي النظرة[١] ، فهذا الغاية . ودونه مراتب ، على مقـاديرها يكون بلوغ الاغراض ، وإن كان جارية تشـترى فلينظر اليها أبلغ من ذلك النظر ، ومن قدر على مناطقة المرأة أو مكالمتها بما يوجب التنبيه ثم ايرى ذلك منهـا فان الحُسْن في الفم وفي العينين . وقد نص أحمد على جواز أن يبصر الرجل من المرأة التي يريد نـكاحها ما هو عورة ، يشير الى ما يزيد على الوجه[٢] ، ومن أمكنه أن يؤخر العقد أو شراء الجارية لينظر كيف توقان قلبه ، فانه لا يخفى على العاقل توقان النفس لأجل المستجد ، وتوقانهـــا لأجل الحب ، فاذا رأى قلق الحب أقدم . فانه قد أخبرنا محمد بن عبد الباقي البزار قال أخبرنا حمد بن أحمد ، قال أخبرنا أبو نعيم ، قال حدثنا سليمان بن أحمد ، قال حدثنا عبد الجبار بن أبي عامر ، قال حدثني أبي ، قال حدثني خالد بن سلام ، قال حدثنا عطاء الخراساني قال : مكتوب

---

(١) أي اشتغل بطلب نظرة اخرى .

(٢) ليس في المعروف من المذهب احمد جواز ذلك .

في التوراة كل تزويج على غير هوى[1] حسرة وندامـــة الى يوم القيامة .

ثم ينبغي للمتخير أن يتفرس الأخلاق فانها من الخفي فان الصورة اذا خلت من المعنى كانت كخضـراء الدمن ، فان نجابة الولد مقصودة ، وفراغ النفـــس من الاهتمام أصل عظيم يوجب اقبال القلب على المهمات . ومن فرغ من المهمات العارضة أقبل على المهمات الأصليـة . ولهذا جاء في الحديث : « لا يقضي القاضي بين اثنين وهو غضبان » . و « اذا وضع العَشاء وحضرت العِشاء فابدؤوا بالعَشاء » . فمن قدر على امرأة صالحة في الصورة والمعنى فليغمض عن عوراتهـــا ، ولتجتهد هي في مراضيه من غير قرب يُملّ ، ولا بعد يُنسي ، وتقدم على التصنع له يحصل الغرضان منها : الولد وقضـاء الوطر ، مع الاحتراز الذي أوصيت به ، تدوم الصحبة ويحصل الغناء بها عن غيرها . فان قدر على الاستكثار فأضاف اليها سواهـــا عالماً انه يبلغ الغرض الذي يفرغ قلبه زيادة تفريغ كان أفضل لحاله ، فان خاف من وجود الغيرة ما يشغل القلب الذي قد اهتممنا بجمع همتـــه ، أو خاف وجود مستحسن يشغل قلبه عن ذكر الآخرة ، أو يطلب منه ما يوجب خروجه

---

(١) اي ميل من القلب لا الهوى بمعنى العشق ، على ان ذلك لا اصل له وليس في التوراة ، ولو كان فيها لما اخذنا به لانه مخالف لما عندنا .

عن الورع ، ويدخل فيما أوصيت به انه « يَبْعد في المستحسنات العفاف » ، فليبالغ الواجد لهن في حفظهن وسترهن ، فان وجد ما لا يرضيه عجل الاستبدال فانه سبب السلو ، فان قدر على الاقتصار فان الاقتصار على الواحدة أولى . فان كانت على الغرض قنع ، وإن لم تكن استبدل .

ونكاح المرأة المحبوبة يستفرغ الماء المجتمع ، فيوجب نجابة الولد وتمامه ، وقضاء الوطر بكماله ، ومن خاف وجود الغيرة فعليه بالسراري فانهن أقل غيرة ، والاستظرافُ لهن أمكنُ من استظراف الزوجات ، وقد كان جماعة يمكنهم الجمع وكان النساء يصبرن فكان لداود عليه الصلاة والسلام مئة امرأة ، ولسليمان عليه الصلاة والسلام ألف امرأة ، وقد علم حال نبينا ﷺ وأصحابه ، وقد كان لأمير المؤمنين علي رضي الله عنه أربع حرائر ، وسبع عشرة سرية . وتزوج ابنه الحسن رضي الله عنه بنحو من أربعمئة[1] الى غير هذا مما يطول ذكره . فافهم ما أشرت اليه تفز به ان شاء الله تعالى .

---

(١) ما رواه عن داود وسليمان من الاسرائيليات التي لم تصح وما فعله الحسن انكره عليه ابوه .

٢٩ ـــ كل ذنب له عقوبة

كل شيء خلق الله تعالى في الدنيا فهو أنموذج في الآخرة ، وكل شيء يجري فيها أنموذج ما يجري في الآخرة . فأما المخلوق منها فقال ابن عباس رضي الله عنهما : ليس في الجنة شيء يشبه ما في الدنيا إلا الأسماء . وهذا لان الله تعالى شوق بنعيم الى نعيم ، وخوف بعذاب من عذاب ، فأما ما يجري في الدنيا فكل ظالم معاقب في العاجل على ظلمه قبل الآجل وكل مذنب ذنباً ، وهو معنى قوله تعالى : « منْ يعملْ سوءاً يُجزَ به » .

وربما رأى العاصي سلامة بدنه وماله فظن ان لا عقوبة ، وغفلته عما عوقب به عقوبة ، وقد قال الحكماء : « المعصية بعد المعصية عقاب المعصية ، والحسنة بعد الحسنة ثواب الحسنة » ، وربما كان العقاب العاجل معنوياً كما قال بعض أحبار بني اسرائيل : « يا رب كم أعصيك ولا تعاقبني » فقيل له : « كم أعاقبك ولا تدري ، أليس قد حرمتك حلاوة مناجاتي ؟ » .

فمن تأمل هذا الجنس من المعاقبة وجده بالمرصاد ، حتى قال وهب بن الورد : وقد سئل أيجد لذة الطاعة من يعصي ؟ فقال : « ولا من همّ »[1] .

فرب شخص أطلق بصره فحرم اعتبار بصيرته ، أو لسانه

---

(١) يردّ هذا ، همّ يوسف ، وقصة الثلاثة الذين اغلق عليهم الغار ، وحديث السبعة الذين هم في ظل العرش .

فحرم صفاء قلبه ، أو آثر شبهة في مطعمه فأظلم سِرّه ، وحرم قيام الليل ، وحلاوة المناجاة ، الى غير ذلك . وهذا أمر يعرفه أهل محاسبة النفوس ، وعلى ضده يجد من يتقي الله تعالى من حسن الجزاء على التقوى عاجلا ، كما في حديث أبي أمامة عن النبي ﷺ يقول الله تعالى : « النظرة الى المرأة سهم مسموم من سهام الشيطان ، فمن تركه ابتغاء مرضاتي آتيته إيماناً يجد حلاوته في قلبه[١] » ، فهذه نبذة من هذا الجنس تنبه على مغفلها .

فاما المقابلة الصريحة في الظاهر فقل أن تحتبس ، ومن ذلك قول النبي ﷺ : الصُّبحة[٢] تمنع الرزق ، وان العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه . وقد روى المفسرون : أن كل شخص من الأسباط جاء باثنى عشر ولداً وجاء يوسف بأحد عشر بالهَمّة[٣] . ومثل هذا اذا تأمله ذو بصيرة رأى الجزاء وفهم ، كما قال الفضيل : إني لاعصي الله عز وجل فاعرف ذلك في خلق دابتي وجاريتي ، وعن أبي عثمان النيسابوري[٤] انه انقطع شسع نعله في مضيّه الى الجمعة فتعوق لاصلاحه ساعة ، ثم قال : إنما انقطع لاني ما اغتسلت

(١) قال الشيخ ناصر الالباني : هذا الحديث ضعيف .

(٢) الصبحة نوم الضحى . قال الشيخ ناصر : ضعيف .

(٣) يشير الى قصته مع امرأة العزيز . انظر الفصل ٢٢٩ وتعليقي عليه .

(٤) شيخ الصوفية في نيسابور توفي سنة ٢٩٨ .

غسل الجمعة . ومن عجائب الجزاء في الدنيا أنه لما امتدت أيدي الظلم من اخوة يوسف وشروه بثمن بخس امتدت أكفهم بين يديه بالطلب ، يقولون : « وتصدق علينا » ولما صبر هو يوم الهمة ملك المرأة حلالا ، ولما بغت عليه بدعواها : « ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً » أنطقها الحق بقولها : « أنا راودته » ولو أن شخصاً ترك معصية لاجل الله تعالى لرأى ثمرة ذلك ، وكذلك اذا فعل طاعة . وفي الحديث : « اذا أملقتم فتاجروا الله بالصدقة » أي عاملوه لزيادة الارباح العاجلة .

ولقد رأينا من سامح نفسه بما يمنع منه الشرع ، طلباً للراحة العاجلة ، فانقلبت أحواله الى التنغص العاجل ، وعكست عليه المقاصد .

حكى بعض المشايخ : انه اشترى في زمن شبابه جارية ، قال : فلما ملكتها تاقت نفسي اليها فما زلت أسأل الفقهاء لعل مخلوقا يرخص لي . فكلهم قال : لا يجوز النظر اليها بشهوة ، ولا لمسها ، ولا جماعها إلا بعد حيضها .

قال : فسألتها فاخبرتني أنها اشتريت وهي حائض . فقلت : قرب الامر .

فسألت الفقهاء فقالوا : لا يعتد بهذه الحيضة حتى تحيض في ملكه .

قال : فقلت لنفسي وهي شـديدة التوقان لقوة الشهوة ، وتمكن القدرة ، وقرب المصاقبة : ما تقولين ؟

فقالت : الايمان بالصبر على الجمر شئت أو أبيت .

فصبرت الى أن حان ذلك فأثابني الله تعالى على ذلك الصبر نيل ما هو أعلى منها وأرفع .

٣٠ — من دلائل الوحدانية

نظرت في الادلة على الحق سبحانه وتعالى فوجدتها أكثر من الرمل ، ورأيت من أعجبها ان الانسان قد يخفي ما لا يرضاه الله عز وجل ، فيظهره الله سبحانه عليه ولو بعد حين ، وينطق الألسنة به وان لم يشاهده الناس . وربما أوقع صـــاحبه في آفة يفضحه بها بين الخلق فيكون جواباً لكل ما أخفى من الذنوب ، وذلك ليعلم الناس أن هنالك من يجازي على الزلل ، ولا ينفع من قَدَرَه وقدرته حجاب ولا استتار ، ولا يُضاع لديه عمل . وكذلك يخفي الانسان الطاعة فتظهر عليه ويتحدث الناس بهـا وباكثر منها ، حتى أنهم لا يعرفون له ذنبـــاً ولا يذكرونه إلا بالمحاسن ، ليعلم أن هنالك رباً لا يضيع عمل عامل ، وأن قلوب الناس لتعرف حال الشخص وتحبه أو تأباه ، وتذمه أو

تمدحه ، وربما لم يتحقق ما بينه وبين الله تعالى فانه يكفيه كل هم ، ويدفع عنه كل شر ، وما أصلح عبد ما بينه وبين الخلق دون الحق ، إلا انعكس مقصوده وعاد حامده ذاماً .

٣١ ـ طبقات الغافلين

تأملت الارض ومن عليها بعين فكري ، فرأيت خرابها أكثر من عمرانها ، ثم نظرت في المعمور منهـــا ، فوجدت الكفار مستولين على أكثره ، ووجدت أهل الاسلام في الارض قليلا بالاضافة الى الكفار ، ثم تأملت المسلمين فرأيت الأكساب قد شغلت جمهورهم عن الرزاق ، وأعرضت بهم عن العلم الدال عليه . فالسلطان مشغول بالأمر والنهي واللذات العـــارضة له ، ومياه أغراضه جارية لاسكر[1] لها ، ولا يتلقاه أحد بموعظة بل بالمدحة التي تقوّي هوى النفس ، وإنما ينبغي أن تقاوم الأمراض باضدادِها. كما قال عمر بن المهاجر ، قال لي عمر بن عبد العزيز : إذا رأيتني قد حدت عن الحق فخذ بثيابي وهزني ، وقل : مالك يا عمر ؟ وقال عمر بن الخطـــاب رضي الله عنه : رحم الله من أهدى الينا عيوبنا .

فأحوج الخلق الى النصائح والمواعظ السلطان . وأما جنوده فجمهورهم في سكر الهوى ، وزينة الدنيا ، وقد انضـــاف الى

(١) السكر : سد المياه وهو من عامي الشام الفصيح .

ذلك الجهل ، وعدم العلم ، فلا يؤلمهم ذنب ، ولا ينزعجون من لبس حرير ، أو شرب خمر ، حتى ربما قال بعضهم : ايش يعمل الجندي ، أيلبس القطن ؟ ثم أخذهم للاشياء من غير وجهها ، فالظلم معهم كالطبع .

وأرباب البوادي وأهل القرى قد غمرهم الجهل فلذلك كان تقلبهم في الأنجاس ، والتهوين لأمر الصلوات ، وربما صلت المرأة منهن قاعدة .

ثم نظرت في التجار فرأيتهم قد غلب عليهم الحرص ، حتى لا يرون سوى وجوه الكسب كيف كانت ، وصار الربا في معاملاتهم فاشياً ، فلا يبالي أحدهم من أين حصلت له الدنيا ، وهم في باب الزكاة مفرطون ، ولا يستوحشون من تركها إلا من عصم الله .

ثم نظرت في أرباب المعاش ، فوجدت الغش في معاملاتهم عاماً ، والتطفيف والبخس ، وهم مع هذا مغمورون بالجهل .

ورأيت عامة من له ولد يشغله ببعض هذه الاشغال طلباً للكسب قبل أن يعرف ما يجب عليه وما يتأدب به .

ثم نظرت في النساء ، فرأيتهن قليلات الدين ، عظيمات الجهل ، ماعندهن من الآخرة خبر إلا من عصم الله .

فتلت : واعجبـــاً فمن بقي لخدمة الله عز وجل ومعرفته ؟ فنظرت فاذا العلماء ، والمتعلمون ، والعبّاد ، والمتزهدون . فتأملت العباد والمتزهدين ، فرأيت جمهورهم يتعبد بغير علم ، ويأنس الى تعظيمه ، وتقبيل يده ، وكثرة أتباعه ، حتى أن أحدهم لو اضطر الى أن يشـــتري حاجة من السوق لم يفعل ، لئلا ينكسر جاهه ، ثم تترقى بهم رتبة الناموس الى أن لا يعودوا مريضاً ، ولا يشهدوا جنـــازة ، إلا أن يكون عظيم القدر عندهم ، ولا يتزاورون ، بل ربما ظن بعضهم على بعض ، فقد صارت النواميس كالأوثان يعبدونها ولا يعلمون . وفيهم من يقدم على الفتوى بجهل لئلا يخل بناموس التصدر ، ثم يعيبون العلماء لحرصهم على الدنيـــا ولا يعلمون أن المذموم من الدنيا ما هم فيه ، لا تناول المباحات .

ثم تأملت العلماء والمتعلمين ، فرأيت القليل من المتعلمين من عليه أمارة النجابة ، لان أمارة النجابة طلب العلم للعمل به ؛ وجمهورهم يطلب ما يصيّره شبكة للكسب ، إما ليأخذ قضاة مكان أو ليصير قاضي بلد ؛ أو قدْراً ما يتميز به عن أبناء جنسه ثم يكتفي .

ثم تأملت العلماء فرأيت أكثرهم يتلاعب به الهوى ويستخدمه ، فهو يؤثر ما يصده العلم عنه ، ويقبل على ما ينهاه ، ولا يكاد يجد

فوق معاملة الله سبحـــانه ، وإنما همته أن يقول : ألا ان الله لايخلي الارض من قائم له بالحجة ، جامع بين العلم والعمل ، عارف بحقوق الله تعـالى ، خائف منه . فذلك قطب الدنيا ، ومتى مات أخلف الله عوضه ، وربما لم يمت حتى يرى من يصلح للنيابة عنه في كل نائبة . ومثل هذا لا تخلو الارض منه ، فهو في مقام النبي في الأمة ، وهـــذا الذي أصفه يكون قائماً بالاصول ، حافظاً للحدود ، وربما قل علمه أو قلت معاملته . فأما الـكاملون في جميـع الادوات فيندر وجودهم ، فيكون في الزمان البعيد منهم واحد . ولقد سبرت السلف كلهم فاردت أن استخرج منهم من جمع بين العلم حتى صار من المجتهدين ، وبين العمل حتى صار قدوة للعابدين ، فلم أر أكثر من ثلاثة : أولهم الحسن البصري ، وثانيهم سفيان الثوري ، وثالثهم أحمد بن حنبل[١] ، وقد أفردت لأخبـار كل واحد منهم كتاباً ، وما انكر على من ربَعهم سعيد بن المسيب ، وان كان في السلف سادات ، إلا أن أكثرهم غلب عليه فن ، فنقص من الآخر ، فمنهم من غلب عليه العلم ،

---

(١) لقد حجر المؤلف واسعاً وإلا فاين ابو حنيفة واين ابن المبارك واين الاوزاعي واين المئات من أمثالهم ممن كانوا في العلم مقصد الطالبين ، وكانوا في العبادة والورع ائمة المتقين ، ان طالب العلم يستطيع ان يعد منهم عشرات من غير (سبر ولا استقصاء) . وانظر شهادته للائمة الاربعة جميعـــاً بالعبادة في الفصل (٤٠) .

ومنهم من غلب عليه العمل ، وكل هؤلاء كان له الحظ الوافر من العلم ، والنصيب الأوفى من المعـــاملة والمعرفة ، ولا يؤيس من وجود من يحذو حذوهم ، وإن كان الفضل بالسبق لهم . فقد أطلع الله عز وجل الخضر على ما خفي عن موسى عليهما السلام . فخزائن الله مملوءة وعطاؤه لا يقف على شخص . ولقد حكي لي عن ابن عقيل انه كان يقول عن نفسه : أنا عمت في قارب ثم كسر . وهذا غلط . فمن أين له ؟

فـكم معجب بنفسه كشف له من غيره ما عاد يحتقر نفسه على ذلك ، وكم من متأخر سبق متقدما ، وقد قيل :

ان الليالي والايام حاملة   وليس يعلم غير الله ما تلد

٣٢ ـــ محاورة النفس

رأيت ميل النفس الى الشهوات زائداً في المقدار حتى انها اذا مالت مالت بالقلب والعقل والذهن ، فلا يكاد ينتفع بشيء من البدن . فصحت بها يوماً وقد مالت بكليتها الى شهوة : ويحك قفي لحظة أكلمك كلمات ثم افعلي ما بدا لك.

قالت : قل أسمع .

قلت : قد تقرر قلة ميلك الى المباحات من الشهوات ، وإن

جل ميلك الى المحرمات ، فأنا أكشف لك عن الامرين، فربما رأيت الحلوين مرين .

أما المباحات من الشهوات فمطلقة لك ولكن طريقها صعب ، لان المال قد يعجز عنها ، والكسب قد لايحصّل معظمها ، والوقت الشريف يذهب بذلك ، ثم شغل القلب بها وقت التحصيل ، وفي حالة الحصول ، وبحذر الفوات . ثم ينغصها من النقص ما لايخفى على مميز .

إن كان مطعماً فالشبع يحدث آفات ، وإن كان شخصاً فالملل أو الفراق ، أو سوء الخلق . ثم ألذ النكاح أكثره إيهاناً للبدن ، الى غير ذلك مما يطول شرحه .

وأما المحرمات ، فتشتمل على ما اشرنا اليه من المباحات ، وتزيد عليه خوف عقاب الدنيا وفضيحتها ، ووعيد الآخرة ، ثم الجزع كلما ذكرها التائب ، وفي قوة قهر الهوى لذة تزيد على كل لذة . ألا ترى الي كل مغلوب بالهوى كيف يكون ذليلا ، لأنه قُهر ، بخلاف غالب الهوى فإنه يكون قوي القلب عزيزاً لانه قَهر ، فالحذرَ الحذرَ من رؤية المشتهى بعين الحسن ، كما يرى اللص لذة أخذ المال من الحِرْز ، ولا يرى بعينِ فِكرِه القطعَ ؛ وليفتح عين البصيرة لتأمل العواقب واستحالة اللذة نغصة ، وانقلابها عن كونها لذة إما لملل أو لغيره من الآفات ، او لانقطاعها بامتناع الحبيب، فتكون

المعصية الأولى كلقمة تناولها جائع ، فما ردّت كَلَبَ الجوع ، بل شهّت الطعام . وليتذكر الانســـان لذة قهر الهوى مع تأمل فوائد الصـبر عنه ، فمن وفق لذلك كانت سلامته قريبة منه .

٣٣ ــ الشواغل عن الله

خطر لي خاطر والمجلس[١] قد طاب ، والقلوب قد حضرت ، والعيون جارية ، والرؤوس مطرقة ، والنفوس قد ندمت على تفريطها ، والعزائم قد نهضت لاصلاح شؤونها ، وألسنة اللوم تعمل في الباطن على تضييع الحزم وترك الحذر ، فقلت لنفسي : ما بال هذه اليقظة لاتدوم ، فاني أرى ان النفس واليقظـــة في المجلس متصافيان متصادقان ، فاذا قمنا عن هذه التربة ، وقعت الغربة ، فتأملت ذلك فرأيت ان النفس ما تزال متيقظة ، والقلب ما يزال عارفاً ، غير أن القواطع كثيرة ، والفكر الذي ينبغي استعماله في معرفة الله سبحانه وتعالى قد كلّ مما يستعمَل في اجتلاب الدنيا ، وتحصيل حوائج النفوس ، والقلب منغمس في ذلك ، والبدن أسير مستخدم ، بينا الفكر يجول في اجتلاب الطعام والشراب

---

(١) يعني مجلس وعظه . انظر الفصل (١) .

والكسوة ، وينظر في صدد ذلك ، وما يدخره لغده وسَنَته ، اهتم بخروج الحدث وتشاغل بالطهارة ، ثم اهتم بخروج الفضلات المؤذية ، ومنها المني ، فاحتاج الى النكاح ، فعلم انه لا يصح إلا باكتساب كسب الدنيا ، فتفكر في ذلك وعمل بمقتضاه ، ثم جاء الولد فاهتم به وله ، وإذا الفكر عامل في أصول الدنيا وفروعها ، فاذا حضر الانسان المجلس فانه لا يحضر جائعاً ، ولا حاقناً ، بل يحضر جامعاً لهمته ناسياً ما كان من الدنيا على ذكره ، فيخلو الوعظ بالقلب فيذكّره بما ألف ، ويجذبه بما عرف ، فينهض عمال القلب في زوارق عرفانه ، فيحضرون النفس الى باب المطالبة بالتفريط ، ويؤاخذون الحس بما مضى من العيوب ، فتجري عيون الندم ، وتنعقد عزائم الاستدراك . ولو أن هذه النفس خلت عن المعهودات التي وصفتها ، لتشاغلت بخدمة باريها ، ولو وقعت في سورة حبه ، لاستوحشت عن الكل شغلاً بقربه . ولهذا اعتمد الزهاد الخلوات ، وتشاغلوا بقطع المعوقات ، وعلى قدر مجاهدتهم في ذلك نالوا من الخدمة مرادهم ، كما أن الحصاد على مقدار البذر . غير اني تلمحت في هذه الحالة دقيقة : وهي أن النفس لو دامت لها اليقظة لوقعت فيما هو شر من فوت ما فاتها ، وهو العُجْب بحالها ، والاحتقار لجنسها ، وربما ترقت بقوة علمها وعرفانها ، الى دعوى : « لي ، وعندي ، وأستحق » ،

فتركها في حومة ذنوبها تتخبط ، فاذا وقفت على الشاطىء وقامت بحق ذلة العبودية أولى لها . هذا حكم الغالب من الخلق ، ولذلك شغلوا عن هذا المقام . فمن بذر فصلح له فلا بد له من هفوة يراقبها عين الخوف من عقابها رفقاً بها ، تصح له عبوديته ، وتسلم له عبادته ، والى هذا المعنى أشار الحديث الصحيح : « لو لم تذنبوا لذهب الله بكم وجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم » .

٣٤ — في المال

تفكرت فرأيت أن حفظ المال من المتعين ، وما يسميه جهلة المتزهدين توكلاً من إخراج ما في اليد ليس بالمشروع . فان النبي ﷺ قال لكعب بن مالك : « أمسك عليك بعض مالك » ، أو كما قال له . وقال لسعد : « لأن تترك ورثتك أغنياء خير من أن تتركهم عالة يتكففون الناس » . فإن اعترض جاهل فقال: فقد جاء أبو بكر رضي الله عنه بكل ماله . فالجواب : أن أبا بكر صاحب معاش وتجارة ، فاذا أخرج الكل أمكنه أن يستدين عليه فيتعيش . فمن كان على هذه الصفة لا أذم اخراجه لماله ، وإنما الذم متطرق الى من يخرج ماله وليس من أرباب المعايش او يكون من أولئك إلا أنه ينقطع عن المعاش فيبقى كَلاً على الناس ، يستعطيهم ويعتقد أنه على الفتوح ، وقلبه متعلق بالخلق ،

وطمعه ناشب فيهم . ومتى حُرك بابُه نهض قلبـه . وقال : رزق قد جاء .

وهذا أمر قبيـح بمن يقدر على المعاش ، وإن لم يقدر كان إخراج ما يملك أقبـح ، لانه يتعلق قلبه بما في أيدي الناس ، وربما ذل لبعضهم ، أو تزين له بالزهد . وأقلُّ أحواله أن يزاحم الفقراء والمـكافيف والزَّمْنى[١] في الزكاة . فعليك بالشرب[٢] الاول ، فانظر هل فيهم من فعل ما يفعله جهلة المتزهدين . وقد أشرت في أول هذا الى أنهم كسبوا وخلفوا الاموال ، فرِدْ المَشْرَب الاول الذي لم يُطـْرَق فانه الصافي ، واحذر من المشارع المطروقة بالآراء الفاسدة الخارجة في المعنى كالكمين على الشريعة ، مذعنة بلسان حالها أن الشرع ناقص يحتاج الى ما يتمم به .

واعلم وفقك الله تعالى ان البدن كالمطيـــة ، ولا بد من علف المطية ، والاهتمام بها . فاذا أهملت ذلك كان سبباً لوقوفك عن السير . وقد رئي سلمان رضي الله عنه يحمل طعاماً على عاتقه فقيل له : أتفعل هذا وأنت صـــاحب رسول الله ﷺ ؟ فقال : ان النفس اذا أحرزت قوتها اطمأنت . وقال سفيان الثوري: اذا حصلت قوت شهر فتعبد .

---

(١) أصحاب الامراض المزمنة .

(٢) جمع شارب مثل ركب جمع راكب والمراد السلف .

وقد جاء أقوام ليس عندهم سوى الدعاوى فقالوا : هذا شك في الرّازق والثقة به أولى . فإياك وإياهم . وربما ورد مثل هذا عن بعض صدور الزهاد من السلف فلا يعول عليه ، ولا يهولنك خلافهم . فقد قال أبو بكر المروزي : سمعت أحمد بن حنبل يرغب في النكاح ، فقلت له : قال ابن أدهم فما تركني أتمم حتى صاح علي وقال : أذكر لك حال رسول الله ﷺ وأصحابه ، وتأتيني ببنيات الطريق[1].

واعلم وفقك الله ، انه لو رفض الاسباب شخص يدعي التزهد وقال : لا آكل ولا أشرب ، ولا أقوم من الشمس في الحر ، ولا أستدفىء من البرد ، كان عاصياً بالاجماع . وكذلك لو قال وله عائلة : لا أكتسب ورزقهم على الله تعالى ، فأصابهم أذى كان آثماً . كما قال عليه الصلاة والسلام : « كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت » . واعلم أن الاهتمام بالكسب يجمع الهم ، ويفرغ القلب ، ويقطع الطمع في الخلق ، فان الطبع له حق يتقاضاه . وقد بين الشرع ذلك فقال : « إن لنفسك عليك حقاً ، وإن لعينك عليك حقاً » . ومثال الطبع مع المريد السالك ، كمثل كلب لايعرف الطارق ، فكل من رآه يمشي نبح عليه ، فان ألقى اليه

---

(١) تقدم في الفصل ١٩ وبنيات الطريق، الازقة المتفرعة عن الجادة العامة والمثال مقتبس من الحديث المشهور .

كسرة سكت عنه . فالمراد من الاهتمام بذلك جمع المهم لا غير فافهم هذه الاصول فان فهمها مهم .

٣٥ ــ الشهوات مصايد

تأملت في شهوات الدنيا فرأيتها مصايد هلاك ، وفُخُوخَ تَلَف ، فمن قوي عقله على طبعه وحكم عليه يَسْلَم ، ومن غلب طبعه فيا سرعة هلكته . ولقد رأيت بعض أبناء الدنيا كان يتوق الى التَسَرّي ، ثم يستعمل الحرارات المهيجة للباه ، فما لبث أن انحلت حرارته الغريزية وتلف . ولم أر في شهوات النفس أسرع هلاكاً من هذه الشهوة ، فانه كلما مال الانسان الى شخص مستحسن أوجب ذلك حركة الباه زائداً عن العادة ، وإذا رأى أحسن منه زادت الحركة وكثر خروج المني زائداً عن الاول ، فيفنى جوهر الحياة أسرع شيء ، وبالضد من هـــذا أن تكون المرأة مستقبحة فلا يوجب نكاحها خروج الفضلة المؤذية كما ينبغي ، فيقع التأذي بالاحتباس وقوة التوْق الى منكوح .

وكذلك المفرط في الاكل فانه يجني على نفسه كثيراً من الجنايات ، والمقصر في مقدار القوت كذلك . فعلمت أن أفضل الامور أوساطها ، والدنيا مفازة فينبغي أن يكون السابق فيها

العقل ، فمن سلّم زمام راحلته الى طبعه وهواه ، فياعجلة تلفه . هـــذا فيا يتعلق بالبدن والدنيا ، فقس عليه أمر الآخرة . فافهم .

٣٦ ــ زهد السلف

بلغني عن بعض زهاد زماننا انه قدم اليه طعام فقال : لا آكل . فقيل له : لم ؟ قال : لان نفسي تشتهيه ، وأنا منذ سنين مابلّغت نفسي ما تشتهي .

فقلت : لقد خفيت طريق الصواب عن هذا من وجهين ، وسبب خفائها عدم العلم .

أما الوجه الاول : فان النبي ﷺ لم يكن على هـــذا ولا أصحابه ، وقد كان عليه الصلاة والسلام يأكل لحم الدجاج ، ويحب الحلوى والعسل ، ودخل فرقد السبخي على الحسن وهو يأكل الفالوذج . فقال : يا فرقد ما تقول في هذا ؟ فقال : لا آكله ولا أحب من أكله . فقال الحسن : لعاب النحل . بلباب البر . مع سمن البقر . هل يعيبه مسلم ؟

وجاء رجل الى الحسن فقال : ان لي جاراً لا يأكل الفالوذج . فقال : ولم ؟ قال ، يقول لا أؤدي شكره ، فقال : انجارك جاهل وهل يؤدي شكر الماء البارد ؟

وكان سفيان الثوري يحمل في سفره الفالوذج ، والحمل المشوي . ويقول : ان الدابة اذا أحسن اليها عملت .

وما حدث في الزهاد بعدهم من أمور هـــذا الفن مسروقة من الرهبانية وأنا خائف عليهم من قوله تعالى : « لا تحرموا طيبات ما أحل الله لـكم » . « ولا تعتدوا » . ولا يحفظ عن أحد من السلف الاول من الصحابة من هذا الفن شيء إلا أن يكون ذلك لعارض ، وسبب ما يروى عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه اشتهى شيئاً فآثر به فقيراً ، وأعتق جاريته رميثة[١] ، وقال : انها أحبّ الخلق اليّ ، فهذا وأمثاله حسن ، لانه إيثار بما هو أجود عند النفس من غيره ، وأكثر لها من سواه ، فاذا وقع في بعض الاوقات ، كسرت بذلك الفعل سورة هواها أن تطغى بنيل كل ما تريد ، فأما من دام على مخالفتها على الاطلاق ، فانه يُعمي قلبها ، ويبلّد خواطرها ، ويشتت عزايمهـا ، فيؤذيها أكثر مما ينفعها ، وقد قال ابراهيم بن أدهم : إن القلب اذا أكره عمي ، وتحت مقالته سر لطيف ، وهو أن الله عز وجل قد وضع طبيعة الآدمي على معنى عجيب ، وهو انها تختار الشيء من الشهوات مما يصلحها ، فتعلم باختيارها له صلاحه ، وصلاحهـا به . وقد قال

---

(١) انظر كتابنا (اخبار عمر) طبع دار الفكر ، صفحة(٥٧٦)

حكماء الطب : ينبغي أن يفسح للنفس فيما تشتهي من المطاعم ، وإن كان فيه نوع ضرر ، لانها إنما تختار ما يلايمها ، فاذا قمعها الزاهد في مثل هذا عاد على بدنه بالضرر ، ولولا جواذب في الباطن من الطبيعة مابقي البدن ، فان الشهوة للطعام تبور ، فاذا وقعت الغنية بما يتناول كفت الشهوة ، فالشهوة مريد ورائد ، ونعم الباعث على مصلحة البدن ، غير أنها إذا أفرطت وقع الاذى ، ومتى منعت ما تريد على الاطلاق مع الامن من فساد العاقبة عاد ذلك بفساد أحوال النفس ، ووهن الجسم ، واختلاف السقم ، الذي تتداعى به الجملة ، مثل ان يمنعها الماء عند اشتداد العطش ، والغذاء عند الجوع ، والجماع عند قوة الشهوة ، والنوم عند غلبته ، حتى ان المُغْتَمّ اذا لم يتروح بالشكوى قتله الكمد .

فهذا أصل اذا فهمه هذا الزاهد علم انه قد خالف طريق الرسول ﷺ وأصحابه ، من حيث النقل ، وخالف الموضوع في الحكمة، ولا يلزم على هذا قول القائل : فمن أين يصفو المطعم ؟ لانه اذا لم يصفُ كان الترك ورعاً ، وإنما الكلام في المطعم الذي ليس فيه ما يؤذي في باب الورع ، وكان ماشرحته جوابا للقائل: ماأبلغ نفسي شهوة على الاطلاق .

والوجه الثاني : اني أخاف على الزاهد أن تكون شهوته انقلبت الى الترك فصار يشتهي أن لا يتناول ، وللنفس في هذا مكر

خفي ، ورياء دقيق ، فان سلمت من الرياء للخلق ، كانت الآفة من جهة تعلقها بمثل هذا الفعل ، وادلالها في الباطن به ، فهذه مخاطرة وغلط ، وربما قال بعض الجهال : هذا صَدّ عن الخير والزهد . وليس كذلك ، فان الحديث قد صح عن النبي ﷺ أنه قال : « كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد » ، ولا ينبغي أن يغتر بعبادة جريج ، ولا بتقوى ذي الخويصرة ، ولقد دخل المتزهدون في طرق لم يسلكها الرسول ﷺ ، ولا أصحابه ، من إظهار التخشع الزائد في الحد ، والتَنَوُّق في تخشين الملبس ، وأشياء صار العوام يستحسنونها ، وصارت لاقوام كالمعاش يجتنون من أرباحها تقبيل اليد ، وتوفير التوقير ، وحراسة الناموس ، وأكثرهم في خلوته على غير حالته في جلوته ، وقد كان ابن سيرين يضحك بين الناس قهقهة ، وإذا خلا بالليل فكأنه قتل أهل القرية .

فنسأل الله تعالى علماً نافعاً فهو الاصل ، فمتى حصل أوجب معرفة المعبود عز وجل ، وحرك الى خدمته بمقتضى ما شرعه وأحبه ، وسلك بصاحبه طريق الاخلاص ، وأصل الاصول العلم ، وأنفع العلوم النظر في سير الرسول ﷺ وأصحابه . « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » .

٣٧ — جهاد النفس

تأملت جهاد النفس فرأيته أعظم الجهاد ، ورأيت خلقاً من العلماء والزهاد لا يفهمون معناه ، لان فيهم من منعها حظوظها على الاطلاق ، وذلك غلط من وجهين ، أحدهما : انه رب مانع لها شهوة ، أعطاها بالمنع أوفي منها ، مثل أن يمنعها مباحاً فيشتهر بمنعه إياها ذلك فيرضي النفس بالمنع لانها قد استبدلت به المدح ، وأخفى من ذلك أنْ يرى (بمنعه إياها ما مَنَع) انه قد فَضَل سواه ممن لم يمنعها ذلك ، وهذه دفائن تحتاج الى منقاش[١] فهم يخلصها .

والوجه الثاني : أننا قد كلفنا حفظها ومن أسباب حفظها ميلها الى الأشياء التي تقيمها ، فلا بد من اعطائها ما يقيمها ، وأكثر ذلك أو كله ما تشتهيه ، ونحن كالوكلاء في حفظها . لانها ليست لنا بل هي وديعة عندنا ، فمنعها حقوقها على الاطلاق خطر ، ثم رب شدّ أوجب استرخاء ، ورب مضيّق على نفسه فرّتْ منه فصعب عليه تلافيها ، وإنما الجهاد لها كجهاد المريض العاقل ، يحملها على مكروهها في تناول ما ترجو به العافية ، ويذوّب في المرارة

---

(١) أي ملقط دقيق .

قليلا من الحلاوة ، ويتناول من الاغذية مقدار ما يصفه الطبيب . ولا تحمله شهوته على موافقة غرضها من مطعم ربما جرّ جوعاً ، ومن لقمة ربما حرمت لقمات ، فكذلك المؤمن العاقل لا يترك لجامها ، ولا يهمل مقودها ، بل يرخي لها في وقت والطِوَل[١] بيده ، فما دامت على الجادة لم يضايقهـا في التضييق عليها ، فاذا رآها قد مالت ردها باللطف ، فان وَنَتْ وأبَتْ فبالعنف ، ويحبسها في مقام المداراة ، كالزوجة التي مبني عقلها على الضعف والقلة ، فهي تدارى عند نشوزها بالوعظ ، فان لم تصلح فبالهجر ، فان لم تستقم فبالضرب . وليس في سياط التأديب أجود من سوط عزم .

هذه مجاهدة من حيث العمل ، فاما من حيث وعظها وتأنيبها، فينبغي لمن رآها تسكن للخلق ، وتتعرض بالدناءة من الاخلاق أن يعرفها تعظيم خالقها لها فيقول : ألست التي قال فيك: خلقتك بيدي، وأسجدت لك ملائكتي ، وارتضاك للخلافة في أرضه ، وراسلك ، واقترض منك[٢] واشترى[٣] ؟

---

(١) الطول الزمام قال لبيد : (كالطول المرخى وثنياه في اليد) .

(٢) اشارة الى من يقرض الله قرضاً حسنا .

(٣) ان الله اشترى من المؤمنين — الآية .

فان رآها تتكبر ، قال لها : هل أنت إلا قطرة من ماء مهين ، تقتلك شَرْقة ، وتؤلمك بَقّة . وإن رأى تقصيرها عرفها حق الموالي علي العبيد ، وإن ونت في العمل ، حدثها بجزيل الأجر . وإن مالت الى الهوى ، خوفها عظيم الوزر . ثم يحذرهـــا عاجل العقوبة الحسية ، كقوله تعـالى : « قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم » . والمعنوية كقوله تعالى : « سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الارض بغير الحق ، فهذا جهاد بالقول ، وذاك جهاد بالفعل .

٣٨ — في الدعاء

رأيت من البلاء أن المؤمن يدعو فلا يجاب ، فيكرر الدعاء وتطول المدة ولا يرى أثراً للاجابة ، فينبغي له أن يعلم أن هذا من البلاء الذي يحتاج الى الصبر ، وما يعرض للنفس من الوسواس في تأخير الجواب مرض يحتاج الى طب ، ولقد عرض لي شيء من هــذا الجنس ، فانه نزلت بي نازلة ، فدعوت وبالغت ، فلم أر الاجابة ، فأخذ إبليس يجول في حلبـات كيده ، فتارة يقول : الكرم واسع والبخـل معدوم ، فما فائدة تأخـير الجواب ؟

فقلت له : اخسأ بالعين ، فما أحتاج الى تقاضٍ ، ولا أرضاك وكيلا .

ثم عدت الى نفسي فقلت : إياك ومساكنة وسوسته ، فانه لو لم يكن في تأخير الاجابة إلا أن يبلوك المقدر في محاربة العدو لكفى في الحكمة .

قالت : فسلّني عن تأخير الاجابة في مثل هذه النازلة .

فقلت : قد ثبت بالبرهان أن الله عز وجل مالك، والمالك التصرف بالمنع والعطاء ، فلا وجه للاعتراض عليه .

والثاني : انه قد ثبتت حكمته بالأدلة القاطعة ، فربما رأيت الشيء مصلحة والحكمة لا تقتضيه ، وقد يخفى في الحكمة فيما يفعله الطبيب ، من أشياء تؤذي في الظاهر يقصد بها المصلحة ، فلعل هذا من ذاك .

والثالث : انه قد يكون التأخير مصلحة ، والاستعجال مضرة، وقد قال النبي ﷺ : « لا يزال العبد بخير ما لم يستعجل ، يقول : دعوت فلم يُستجب لي » .

والرابع . انه قد يكون امتناع الاجابة لآفة فيك فربما يكون في مأكولك شبهة ، أو قلبك وقت الدعاء في غفلة ، أو تزاد عقوبتك في منع حاجتك لذنب ماصدقتِ في التوبة منه ،

فابحثي عن بعض هذه الأسباب لعلك تقعي بالمقصود ، كما روي عن أبي يزيد رضي الله عنه : انه نزل بعض الأعاجم في داره ، فجاءه فرآه ، فوقف بباب الدار ، وأمر بعض أصحابه فدخل ، فقلع طيناً جديداً قد طيّنه ، فقام الاعجمي وخرج ، فسئل أبو يزيد عن ذلك فقال : هذا الطين من وجه فيه شبهة ، فلما زالت الشبهة زال صاحبها . وعن ابراهيم الخواص رحمة الله عليه : انه خرج لانكار منكر ، فنبحه كلب له فمنعه أن يمضي ، فعاد ودخل المسجد ، وصلى ثم خرج ، فبصبص الكلب له فمضى وأنكر فزال المنكر ، فسئل عن تلك الحال فقال : كان عندي منكر ، فمنعني الكلب ، فلما عدت تبت من ذلك ، فكان مارأيتم .

والخامس : انه ينبغي أن يقع البحث عن مقصودك بهذا المطلوب ، فربما كان في حصوله زيادة إثم ، أو تأخير عن مرتبة خير ، فكان المنع أصلح ، وقد روي عن بعض السلف انه كان يسأل الله الغزو ، فهتف به هاتف : إنك إن غزوت أسرت ، وإن أسرت تنصرت .

والسادس : انه ربما كان فقد مافقدته سبباً للوقوف على الباب واللَّجْءِ[1] وحصوله سبباً للاشتغال به عن المسؤول ، وهذا الظاهر

---

(١) اللجء مصدر لجأ وهو على وزن منع يمنع منعاً .

بدليل انه لولا هذه النازلة ما رأيناك على باب اللَّجْءِ، فالحق عز وجل علم من الخلق اشتغالهم بالبر عنه ، فلذعهم في خلال النعم بعوارض تدفعهم الى بابه ، يستغيثون به ، فهذا من النعم في طي البلاء ، وإنما البلاء المحض ، ما يشغلك عنه ، فأما ما يقيمك بين يديه ، فبِهِ جمالك . وقد حكي عن يحيى البكاء انه رأى ربه عز وجل في المنام، فقال : يارب كم أدعوك ولا تجيبني . فقال : يا يحيى إني أحب أن أسمع صوتك .

وإذا تدبرت هذه الاشياء تشاغلت بما هو أنفع لك ، من حصول ما فاتك من دفع خلل ، أو اعتذار من زلل ، أو وقوف على الباب الى رب الارباب .

٣٩ ــ تهوين المصيبة

من نزلت به بلية ، فاراد تمحيقها ، فليتصورها أكثر مما هي تهن ، وليتخايل ثوابها وليتوهم نزول أعظم منها ، يرى الربح في الاقتصار عليها ، وليتلمح سرعة زوالها ، فانه لولا كرب الشدة ، ما رجيت ساعة الراحة ، وليعلم أن مدة مقامها عنده ، كمدة مقام الضيف فليتفقد حوائجه في كل لحظة ، فيا سرعة انقضاء مقامه ، ويا لذة مدايحه وبشره في المحافل ، ووصف المضيف بالكرم . فكذلك الشدة ، ينبغي أن تراعى الساعات ، ويتفقد فيها أحوال

النفس ، ويتلمح الجوارح ، مخافة أن يبدو من اللسان كلمة ، أو من القلب تسخط ، فكأن قد لاح فجر الأجر ، فانجاب ليل البلاء ، ومدح الساري بقطع الدجى ، فما طلعت شمس الجزاء ، إلا وقد وصل منزل السلامة .

٤٠ ــ في الخوف

لما رأيت رأي نفسي في العلم حسناً ، فهي تقدمه على كل شيء ، وتفضل ساعة التشاغل به على ساعات النوافل ، وتقول ، أقوى دليل لي على فضله على النوافل ، اني رأيت كثيراً ممن شغلهم نوافل الصلاة والصوم عن نوافل العلم ، عاد ذلك عليهم بالقدح في الاصول ، فرأيتها في هذا على الجادة السهلة والرأي الصحيح ، إلا أني رأيتها واقفة مع صورة التشاغل بالعلم ، فصحت بها : فما الذي أفادك العلم ؟ أين الخوف ؟ أين القلق ؟ أين الحذر ؟ أوما سمعت بأخبار أخيار الأحبار في تعبدهم واجتهادهم ؟ أما كان الرسول ﷺ سيد الكل ، ثم انه قام حتى ورمت قدماه ؟ أما كان أبو بكر رضي الله عنه شجي النشيج ، كثير البكاء ؟ أما كان في خد عمر رضي الله عنه خطان من آثار الدموع ؟ أما كان عثمان رضي الله عنه يختم القرآن في ركعة ؟[1]

---

(١) لا أدري من أين جاء المؤلف بهذا ؟

أما كان علي رضي الله عنه يبكي بالليل في محرابه حتى تخضل لحيته بالدموع ، ويقول : يا دنيا غري غيري ؟ أما كان الحسن البصري على قوة القلق ؟ أما كان سعيد بن المسيب ملازماً للمسجد فلم تفته صلاة في جماعة أربعين سنة ؟ أما صام الاسود بن يزيد[١] حتى اخضر واصفر ؟ أما قالت بنت الربيع بن خيثم[٢] له : مالي أرى الناس ينامون وأنت لا تنام ؟ فقال : إن أباك يخاف البيات ؟ أما كان أبو مسلم الخولاني[٣] يعلق سوطاً في المسجد يؤدب نفسه إذا فتر ؟ أما صام يزيد الرقاشي[٤] أربعين سنة ، وكان يقول : والهفاه سبقني العابدون ، وقطع بي ؟ أما صام منصور بن المعتمر[٥] أربعين سنة ؟ أما كان سفيان الثوري يبكي الدم من الخوف[٦] ؟ أما كان

---

(١) الاسود بن يزيد بن قيس النخعي من التابعين ، وقد نشأ من قبيلة النخع جلة من الاعلام أشهرهم ابراهيم ، وقد أخذ عن الاسود ، ومنهم علقمة وشريك القاضي ، توفي الاسود سنة ٧٥ .

(٢) تابعي متعبد أخذ عنه الشعبي وابراهيم النخعي ، توفي سنة ٦٤ .

(٣) ابو مسلم الخولاني اليماني الزاهد ، هاجر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يدركه ، نزل الشام ، توفي سنة ٦٢ .

(٤) يزيد بن ابان الرقاشي المحدث البصري الزاهد ضعفه ابن معين .

(٥) السلمي الكوفي أحد الاعلام ، من تلاميذ ابراهيم (واذا أطلق اسم ابراهيم فهو النخعي) ثقة متعبد توفي سنة ١٣٢ .

(٦) المؤلف نفسه في هذا الكتاب وفي (منهاج القاصدين) وفي (تلبيس ابليس) يكثر اللوم على مثل هذا ، ويدعو الى اتباع السنة ، والقصد في العبادة .

ابراهيم بن أدهم[١] يبول الدم من الخوف ؟ أما تعلمين أخبار الأئمة الاربعة في زهدهم وتعبدهم ، أبو حنيفة ، ومالك ، والشافعي ، وأحمد ؟ فاحذري من الاخلاد الى صورة العلم ، مع ترك العمل به ، فانها حالة الكسالى الزّمْنَى :

وخذ لك منك على مهلة ومقبل عيشك لم يـــدبر
وخف هجمة لاتقيل العثا روتطوي الورود على المصدر
ومثل لنفسك أي الرعيـ ـل يضمك في حلبة المحشر

٤١ - العلم والعبادة

مما يزيد العلم عندي فضلا ، أن قوماً تشاغلوا بالتعبد عن العلم . فوقفوا عن الوصول الى حقائق الطلب ، فروي عن بعض القدماء أنه قال لرجل : « ياأبا الوليد ، ان كنت أبا الوليد » يتورع أن يكنيه ولا ولد له . ولو أوغل هذا في العلم لعلم أن النبي ﷺ كنى صهيباً أبا يحيى ، وكنى طفلا فقال : ياأبا عمير ، مافعل النُّغَيْر[٢] . وقال بعض المتزهدين : قيل لي يوماً ، كل من هذا اللبن . فقلت : هذا يضرني . ثم وقفت بعد مدة عند الكعبة فقلت : اللهم انك تعلم اني ماأشركت بك طرفة عين ،

(١) الزاهد المشهور المتوفي سنة ١٦١ .
(٢) هو طائر . اسمه النغر والنغير على التصغير

فهتف بي هاتف : ولايوم الابن ؟ وهذا لو صح جاز أن يكون تأديباً له ، لئلا يقف مع الاسباب ناسياً للمسبب ، والا فالرسول ﷺ قد قال : مازالت أكلة خيبر تعاودني حتى قطعت أبهري[1] . وقال : مانفعني مال كمال أبي بكر .

ومن المتزهدين أقوام يرون التوكل قطع الاسباب كلها ، وهذا جهل بالعلم . فان النبي ﷺ : دخل الغار ، وشاور الطبيب ، ولبس الدرع ، وحفر الخندق ، ودخل مكة في جوار المطعم بن عدي وكان كافراً ، وقال لسعد : لأن تدع ورثتك أغنياء خير لك من أن تدعهم عالة يتكففون الناس ، فالوقوف مع الاسباب مع نسيان المسبب غلط ،وكل هذه الظلمات انما تقطع بمصباح العلم ، ولقد ضل من مشى في ظلمة الجهل أو في زقاق الهوى .

٤٢ ـ الملائكة والشر

ماأزال أتعجب ممن يرى تفضيل الملائكة على الانبياء والاولياء . فان كان التفضيل بالصور ، فصورة الآدمي أعجب من ذوي أجنحة ، وان تركت صورة الآدمي لاجل اوساخها المنوطة بها فالصورة ليست الآدمي ، انما هي قالب . ثم قد

---

(١) الشريان الابهر

استحسن منهـا مايستقبح في العبادة ، مثـل خلوف فم الصائم ، ودم الشهداء ، والنوم في الصلاة ، فبقيت صورة معمورة ، وصار الحكم للمعنى . أَلَهم مرتبة يجبهم[١] ، او فضيلة يباهي بهم وكيف دار الامر فقد سجدوا لنا . وهو صريح في تفضيلنا عليهم ، فان كانت الفضيلة بالعلم فقد علمت القصة ، يوم « لا علم لنا » « يا آدم أنبئهم » . وان فضلت الملائكة بجوهرية ذواتهـــم فجوهرية أرواحنا من ذلك الجنس ، وعلينا اثقال أعباء الجسم ، بالله لولا احتياج الراكب الى الناقة فهو يتوقف لطلب علفهـا ويرفق في السير بها لطرق أرض منى قبل العشر[٢] . واعجبا اتفضل الملائكة بكثرة التعبد ! فما ثَمَّ صعاد[٣] ، أو يتعجب من الماء اذا جرى ، او من منحدر يسرع ؟ انمـا العجب من مصاعد ؟ بلى قد يتصور منهم الخلاف ، ودعوى الالهيَّـــة . لقدرتهم على دك الصخور ، وشق الارض لذلك توعـدوا : « ومن يقـــل منهم اني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم » ، لكنهم يعلمون عقوبة الحق فيحذرونه . فأما بعدنا عن المعرفة الحقيقية وضعف يقيننا بالناهي ، وغلبة شهوتنا مع الغفلة ، يحتاج

(١) كذا في الاصل (٢) اي قبل عشر ذي الحجة

(٣) لم اجد « صعاد » بمعنى « صعود » وهي في بعض النسخ « صاد » ويستقيم بها المعنى ، ولكن يأتي بعدها « مصاعد » فلا تخلو الجملة في الحالين من اضطراب لعله من تحريفات النساخ .

الى جهاد أعظم من جهادهم ، تالله لوابتلي احد المقربين بما ابتلينا به ، لم يقدر على التماسك ، يصبح احدنا وخطاب الشرع يقول له : اكسب لعائلتك ، واحذر في كسبك . وقد تمكن منه ماليس من فعله ، كحب الاهل ، وعلوق الولد بنياط القلب ، واحتياج بدنه الى مالا بد منه ، فتارة يقال للخليل عليه السلام : اذبح ولدك بيدك ، واقطع ثمرة فؤادك بكفك ثم قم الى المنجنيق لترمى في النار . وتارة يقال لموسى عليه السلام : صم شهراً ليلا ونهاراً ، ثم يقال للغضبان : اكظم ، وللبصير : اغضض ، ولذي المِقْوَل : اصمت ، ولمستلذ النوم : تهجد ولمن مات حبيبه : اصبر ، ولمن أصيب في بدنه : اشكر ، وللواقف في الجهاد بين اثنين : لايحل ان تفر . ثم اعلم أن الموت يأتي بأصعب المرارات فينزع الروح عن البدن ، فاذا نزل فاثبت ، واعلم أنك تمزق في القبر فلا تتسخط لأنه مما يجرى به القدر وان وقع بك مرض فلا تَشْكُ الى الخلق ، فهل للملائكة من هذه الاشياء شيء ? وهل ثم إلاعبادة ساذجة ليس فيها مقاومة طبع ، ولارد هوى ، وهل هي إلا عبادة صورية بين ركوع وسجود وتسبيح ، فأين عبادتهم المعنوية من عبادتنا ? ثم اكثرهم في خدمتنا بين كتبة علينا ، ودافعين عنا ، ومسخرين لارسال الريح والمطر ، واكبر وظائفهم الاستغفار لنا ، فكيف

يفضلون علينا بلا علة ظاهرة ، أما حُكَتْ على محك التجارب ومنهم هاروت وماروت ، فخرجوا أقبح من بهرج[١]، ولاتظنن أني أعتقد في تعبد الملائكة نوع تقصير ، لانهم شديدو الاشفاق والخوف ، لعلمهم بعظمة الخالق ، لكن طمأنينة من لم يخطىء تقوّي نفسه ، وانزعاج الغائص في الزلل يرقي روحه الى التراقي ، فاعرفوا اخواني شرف أقداركم وصونوا جواهركم عن تدنيسها بلوم الذنوب ، فأنتم معرض الفضل على الملائكة فاحذروا أن تحطكم الذنوب الى حضيض البهائم ، ولا حول ولاقوة إلا بالله العلي العظيم .

٤٣ ـ النجاة في التسليم

رأيت كثيراً من الخلق وعالماً من العلماء ، لاينتهون عن البحث عن اصول الاشياء التي أمروا بعلم جُلها ، ومن غير بحث عن حقائقها ، كالروح مثلا ؛ فالله تعالى سترها بقوله : « قل الروحُ من أمرِ ربي » فلم يقنعوا . وأخذوا يبحثون

(١) هاروت وماروت عند كثيرمن المفسرين لم يكونا من الملائكة ، يؤيد هذا قراءة «الملكين» بكسر اللام. وما ادري كيف يصفهم المؤلف بمثل هذا والله يصفهم بأنهم عباد مكرمون؟ وهذه امور غيبية لامجال للعقل فيها ولم يرد فيها نص صريح ، والسكوت عن الكلام فيها اولى .

عن ماهيتها ولايقعون بشيء ، ولايثبت لأحد منهم برهان على مايدعيه ، وكذلك العقل . فانه موجود بلا شك ، كما أن الروح موجودة بلا شك ؛ كلاهما يعرف بآثاره لابحقيقة ذاته فان قال قائل : فما السر في كتم هذه الاشياء ؟ قلت : لان النفس مازال تترقى من حالة الى حالة فلو اطلعت على هـذه الاشياء لترقت الى خالقها ، فكان ستر مادونه زيادة في تعظيمه ، لانه اذا كان بعض مخلوقاته يعلم جملة فهو أجل وأعـلى ، ولوقال قائل : ما الصواعق ؟ وما البرق ؟ وما الزلازل ؟ قلنـا : شيء مزعج ويكفي . والسر في ستر هذا أنه لوكشفت حقائقه خف مقدار تعظيمه ، ومن تلمح هـذا الفصل علم أنه فصل عزيز فاذا ثبت هذا في المخلوقات ، فالخالق أجل وأعلى .

فينبغي أن يوقف في اثباته على دليل وجوده ، ثم يستدل على جواز بعثـه رسله ، ثم تتلقى أوصافه من كتبه ورسله ، ولايزاد على ذلك . ولقد بحث خلق كثير عن صفاته بآرائهم فعاد وبال ذلك عليهم ، واذا قلنا ، انه موجود ، وعلمنـا من كلامه أنه سميع ، بصير ، حي ، قادر ، كفانا هـذا في صفاته ، ولانخوض في شيء آخر . وكذلك نقول : متكلم والقرآن كلامه ، ولا نتكلف مافوق ذلك ، ولم يقل السلف تلاوة ومتلو ، وقراءة ومقروء ، ولا قالوا استوى على العرش

بذاته ، ولا قالوا ينزل بذاته[١] ، بل أطلقوا ماورد من غير زيادة. وهذه كلمات كالمثال فقس عليهـــا جميع الصفات ، تفز سليماً من تعطيل ، متخلصاً من تشبيه .

٤٤ ـ غفلة الخلق

رأيت اكثر الخلق في وجودهم كالمعدومـين ، فمنهم من لايعرف الخالق ، ومنهم من يثبته على مقتضى حسه ، ومنهم من لايفهم المقصود من التكليف . فترى المتوسمين بالزهد يدأبون في القيام والقعود ، ويتركون الشهوات ، وينسون ما قد أنسوا بـه من شهوة الشهرة ، وتقبيل الايادي . ولو كُلم أحدهم لقال : « ألمثلي يقال هذا ؟ ومَنْ فلان الفاسق ؟ » فهؤلاء لايفهمون المقصود . وكذلك كثير من العلماء ، في احتقارهم غيرهم ، والتكبر في نفوسهم ، فتعجبت كيف يصلح هؤلاء لمجاورة الحق ، وسكنى الجنة ؟ فرأيت ان الفائدة في وجودهم في الدنيا ، تجانس الفائدة في دخولهم الجنة ، فانهم في الدنيـا بين معتَبر به ، يعرف عارفُ اللهِ سبحانه نعمةَ الله عليـه ، بما كشف له مما غطي عن ذاك ، ويتم النظـــام بالاقتداء . تصور اولئك ، فان العارف لايتسع وقته لمخالطـة من يقف

---

(١) هذا هو الحق ، ومن اراد اتباع السلف آمن بما جاء من عند الله على مراد الله تفويض، وأوّل مالايفهمه العربي الا مؤوّلا .

مع الصورة ، فالزاهد كراعي البهم . والعالم كمؤدب الصبيان ، والعارف ملقن الحكمة ، ولولا نقاط[١] الملك وحارسه ، ووقاد أتونه ، ماتم عيشه ، فمن تمام عيش العارف استعمال أولئك بحسبهم ، فاذا وصلوا اليه حرر مانعهم ، وفيهم من لايصل اليه ، فيكون وجود أولئك كزيادة (لا) في الكلام هي حشو ، وهي مؤكدة ، فان قال قائل : فهب هذا يصح في الدنيا ، فكيف في الجنة ؟ والجواب. ان الانس بالجيران مطلوب ، ورؤية القاصر من تمام لذة الكامل،ولكل شرب . ومن تأمل ما اشرت اليه كفاه رمز لفظي عن تطويل الشرح[٢]

٤٥ ـ معرفة الله

لما تلمحت تدبير الصانع في سوق رزقي بتسخير السحاب ، وانزال المطر برفق ، والبذر تحت الارض كالموتى ، قد عفن ينتظر نفخة من صور الحياة ، فاذا به اهتز خضراً ، وانقطع عنه الماء ، مديد الطلب يستعطي ، وأمال رأسه خاضعاً ، ولبس حلل التغير ، فهو محتاج الى ما أنا محتاج اليه من حرارة الشمس ، وبرودة الماء ، ولطف النسيم ، وتربية الارض

(١) اي الموكل بالنفط

(٢) تأملت فرأيت انهذا الرمز لم يكف وكانخيراً لوعمد الى تطويل الشرح

فسبحان من أراني فيما يربّيني به ، كيف تربيتي في الاصل

فيا أيتها النفس التي قد اطلعت على بعض حكمه ، قبيح بك والله الاقبال على غيره ، ثم العجب كيف تقبلين على فقير مثلك ، يناديني لسان حاله : « بي مثل ما بك ، ياحمام !» فارجعي الى الاصل الاول ، واطلبي من المسبب ، وياطوبي لك أن عرفتيه ، فان عرفانه ملك الدنيا والآخرة .

٤٦ ـ تحذير الاخوان

كنت في بداية الصبوة . قد ألهمت سلوك طريق الزهاد، بادامة الصوم والصلاة ، وحببت الي الخلوة . فكنت أجد قلباً طيباً . وكانت عين بصيرتي قوية الحــدة تتأسف على لحظة تمضي في غير طاعة ، وتبادر الوقت في اغتنام الطاعات ، ولي نوع انس وحلاوة مناجاة . فانتهى الامر الى أن صار بعض ولاة الامور يستحسن كلامي ، فأمالني اليه فمال الطبــع . ففقدت تلك الحلاوة ، ثم استمالني آخر ، فكنت اتقي مخالطته ومطاعمه ، لخوف الشبهات ، وكانت حالي قريبة ، ثم جـــاء التأويل فانبسطت فيما يباح ، فعدم ما كنت أجد ، وصارت المخالطة توجب ظلمة في القلب الى ان عدم النور كله ، فـكان حنيني ال ماضاع مني يوجب انزعاج أهل المجلس ، فيتوبون ويصلحون . واخرج مفلساً فيما بيني وبين حالي . وكثر

ضجيجي من مرضي ، وعجزت عن طب نفسي ، فلجأت الى قبور الصالحين (١) ، وتوسلت في صلاحي فاجتذبني لطف مولاي بي الى الخلوة على كراهة مني ، ورد قلبي عليّ بعد نفوره مني، وأراني عيب ماكنت اؤثره ، فافقت من مرض غفلتي ! وقلت في مناجاة خلوتي : سيدي كيف اقدر على شكرك ؟ وبأي لسان انطق بمدحك ؟ اذ لم تؤاخذني على غفلتي ، ونبهتني من رقدتي ، واصلحت حالي على كره من طبعي ، فما اربحني فيما سلب مني إذ كانت ثمرته اللجأ اليك ، وماأوفر جمعي اذ ثمرته اقبالي على الخلوة بك ، وما اغناني اذ أفقرتني اليك ، وما آنسني اذ أوحشتني من خلقك ، آه على زمان ضاع في غير خدمتك ! أسفا لوقت مضى في غير طاعتك ! قد كنت اذا انتبهت وقت الفجر لايؤلمني نومي طول الليل ، واذا انسلخ عني النهار لايوجعني ضياع ذلك اليوم ، وماعلمت ان عدم الاحساس لقوة المرض . فالآن قد هبت نسائم العافية ، فاحسست بالالم فا ستدللت على الصحة . فياعظيم الانعام تمم لي العافية ، آه من سكر لم يعلم قدر عربدته الا في وقت الافاقة ؟ لقد فتقتُ مايصعب رتقه . فوا اسفا على بضاعة ضاعت ، وعلى ملاّح تعب في موج الشمال مصاعداً

---

(١) أي لزيارتها الزيارة المشروعة والاعتبار بها .

مدة ثم غلبه النوم فرد الى مكانه الاول .

يامن يقرأ تحذيري من التخليط . فاني وان كنت خنت نفسي بالفعل ، نصيح لاخواني بالقول ، احذروا اخواني من الترخيص فيما لايؤمن فساده ، فان الشيطان يزين المباح في أول مرتبة . ثم يجر الى الجناح . فتلمحوا المآل ، وافهموا الحال ، وربما أراكم الغاية الصالحة ، وكان في الطريق اليها نوع مخالفة ، فيكفي الاعتبار في تلك الحال بابيكم : « هل أدلك على شجرة الخلد وملك لايبلى » ؟ انمـــا تأمل آدم الغاية وهي الخلد . ولكنه غلط في الطريق .

وهذا أعجب مصايد إبليس يصيد بها العلماء ، يتأولون لعواقب المصالح ، فيستعجلون ضرر المفاسد . مثاله أن يقول للعالم ادخل على هذا الظالم فاشفع في مظلوم ، فيستعجل الداخل رؤية المنكرات ، ويتزلزل دينه . وربما وقع في شرك صار به أظلم من ذلك الظالم ، فمن لم يثق بدينه فليحذر من المصائد ، فانها خفية . وأسلم مالجبان العزلة ، خصوصاً في زمان قد مات فيه المعروف ، وعاش المنكر ، ولم يبق لاهل العلم وقع عند الولاة ، فمن داخلهم دخل معهم فيما لايجوز ، ولم يقدر على جذبهم مما هم فيه .

ثم من تأمل العلماء الذين يعملون لهم في الولايات يراهم منسلخين من نفع العلم قد صاروا كالشرَط . فليس الا العزلة

عن الخلق ، والاعراض عن كل تأويل فاسد في المخالطة ، ولان أنفع نفسي وحدي ، خير لي من أن انفع غيري واتضرر ، فالحذر الحذر من خوادع التأويلات ، وفواسد الفتاوى ، والصبر الصبر على ماتوجبه العزلة [1] فانه ان انفردت بمولاك فتح لك باب معرفته . فهان كل صعب ، وطاب كل مر ، وتيسر كل عسر ، وحصلت كل مطلوب ، والله الموفق بفضله ولاحول ولا قوة إلا به .

٤٧ - في الورع

تأملت على نفسي تأويلا في مباح اانال به شيئاً من الدنيا إلا أنه في باب الورع كدر ، فرأيته أولا قد احتلب دَرّ الدين فذهبت حلاوة المعاملة لله تعالى ، ثم عاد فقلص ضرع حلبي له فوقع الفقد للحالين ، فقلت لنفسي : مامثلك إلا كمثل وال ظالم جمع من غير حله ، فصودر ، فأُخذ منه الذي جمع وأُلزم مالم يجمع . فالحذر الحذر من فساد التأويل ، فان الله تعالى لايخادع ، ولاينال ماعنده بمعصيته .

---

(١) الحق في امر العزلة ماجاء في الاحياء وماذكره المؤلف في الكتاب الذي اختصره فيه وهو « منهاج القاصدين » وقد تكون العزلة مطلوبة لناس دون ناس وفي زمان دون زمان وانظر الفصل « ٢٤ » و « ٤٨ » و «٨٢» و «٩١» من هذا الكتاب

٤٨ - من حديث النفس

رأيت نفسي كلما صفا فكرها ، أو اتعظت بدارج ، او زاوت قبور الصالحين ، تتحرك همتها في طلب العزلة ، والاقبال على معاملة الله تعالى . فقلت لها يوماً ، وقد كلمتني في ذلك : حدثيني مامقصودك ؟ ومانهاية مطلوبك ؟ أتراك تريدين مني أن أسكن قفراً لاانيس به فتفوتني صلاة الجماعة . ويضيع مني ماقد علمته لفقد من أعلّمه ، وان آكل الجشِبَ [١] الذي لم أتعوده ، فيقع نضوى ظلحا [٢] في يومين . وان ألبس الخشن الذي لاأطيقه . فلا أدري من كرب محولي أين أنا ؟ وان أتشاغل عن طلب ذرية تتعبد بعدي مع بقاء القدرة على الطلب بالله ! مانفعني العلم الذي بذلت فيه عمري ان وافقتك ؟ .

وانا اعرفك غلط ماوقع لك بالعلم . اعلمي ان البدن مطية ، والمطية اذا لم يرفق بها لم تصل براكبها الى المنزل ، وليس مرادي بالرفق الاكثار من الشهوات ، وانما اعني اخذ البُلغة الصالحة للبدن ، فحينئذ يصفو الفكر ، ويصح العقل ، ويقوى الذهن ألاترى الى تأثير المعوقات عن صفاء الذهن في قوله عليه

---

(١) اي الخلط من الطعام

(٢) طلح البعير فهو طلح أي اعيا وتعب والنضو المهزول .

الصلاة والسلام : « لايقضي القاضي بين اثنين وهو غضبان » ، وقاس العلماء على ذلك الجوع ومايجري مجراه من كونه حاقناً أو حاقبا [١] . وهل الطبع الاككلبَ يشغلُ الآكل ، فاذا رمى له مايتشاغل به طاب له الأكل . فاما الانفراد والعزلة فعن الشر لاعن الخير ، ولو كان فيها الك وقع خير لنقل عن رسول الله ﷺ وعن اصحابه رضي الله عنهم . هيهات لقد عرفت ان اقواماً دام بهم التقلل واليبس الى ان تغير فكرهم وقوي الخلط السوداوي عليهم ، فاستوحشوا من الناس .

ومنهم من اجتمعت له من المآكل الردّية اخلاط َمجّة ، فبقي اليوم واليومين والثلاثة لايأكل وهو يظن ذلك من امداد اللطف ، واذا به من سوء الهضم . وفيهم من ترقى به الخلط الى رؤية الاشباح فيظنها الملائكة ، فالله الله في العلم والله الله في العقل ، فان نور العقل لاينبغي ان يتعرض باطفائه ، والعلم لايجوز الميل الى تنقيصه ، فاذا حُفظا حَفظا وظائف الزمان ودفعا مايؤذي ، وجلبا مايصلح ، وصارت القوانين مستقيمة في المطعم والمشرب والمخالطة .

فقالت لي النفس : فوظف لي وظيفة واحسبني مريضاً قد كتبت له شربة . فقات لهـا قد دللتك على العلم وهو طبيب

---

(١) الحاقن بالبول والحاقب بالغائط .

ملازم ، يصف كل لحظة لكل داء يعرض، دواء يلائم .

وفي الجملة ينبغي لك ملازمة تقوى الله عز وجل في المنطق والنظر ، وجميع الجوارح ، وتحقق الحلال في المطعم، وايداع كل لحظة مايصلح لها من الخير ، ومناهبة الزمان في الافضل ومجانبة مايؤدي الى مايؤذي من نقص ربح أو وقوع خسران ولاتعملي عملا إلا بعد تقديم النية ، وتأهبي لمزعج الموت فكأنه قد [1]؛ وماعندك من مجيئه في أي وقت يكون ، ولاتتعرضي لمصالح البدن ، بل وفريها عليه وناوليه اياها على قانون الصواب لاعلى مقتضى الهوى ، فان اصلاح البدن سبب لاصلاح الدين . ودعي الرعونة التي يدل عليها الجهل لا العلم ، من قول النفس فلان يأكل الخل والبقل ، وفلان لاينـــام الليل ، فاحملي ماتطيقين [2] . وماقد علمت قوة البدن عليـه فان البهيمة إذا أقبلت الى نهر او ساقية فضربت لتقفز لم تفعل حتى تزن نفسها فان علمت فيها قوة الـطفر [3] طـفرت ، وان علمت أنها لاتطيق لم تفعل ولو قتلت . وليس كل الابدان تتساوى في الاطاقـه ولقد حمل اقوام من المجاهـــدات في بداياتهم اشياء أوجبت

---

(١) اي فكأنه قد جاء

(٢) هذا هو الحق لا ماجر اليه القلم في الفصل «٤٠»

(٣) اي الوثب .

امراضاً قطعتهم عن خير ، وتسخطت قلوبهم بوقوعها ، فعليك بالعلم فانه شفاء من كل داء والله الموفق .

٤٩ ـ الرد على المشبهة

عجبت من اقوام يدعون العلم ، ويميـــلون الى التشبيه بحملهم الاحاديث على ظواهرها ، فلو أنهم أمرّوها كما جاءت سلموا . لأن من أمرّ ماجاء من غير اعتراض ولاتعرض ، فما قال شيئاً لاله ولا عليـه ، ولكنّ اقواما قصرت غلومهم ، فرأت أن حمل الكلام على غير ظاهره نوع تعطيل ، ولوفهموا سعة اللغة لم يظنوا هذا . وماهم الا بمثابة قول الحجاج لـكاتبه وقد مدحته الخنساء فقالت :

اذا هبط الحجاج ارضاً مريضة تتبـع أقصى دائها فشفاهـــا
شفاها من الداءالعضال الذي بها غلام اذا هز القناة شفاهـــا

فلما أتمت القصيدة قال لـكاتبه : اقطع لسانها . فجاء ذاك الـكاتب المغفل بالموسى . فقالت له : ويلك انمـا قال اجزل لها العطاء . ثم ذهبت الى الحجاج فقالت : كاد والله يقطع مقولي. فكذلك الظاهرية الذين لم يسلموا بالتسليم ، فانه من قرأ الآيات والاحاديث ولم يزد لم ألمه . وهـذه طريقة السلف . فأما من قال : الحديث يقتضي كذا ، ويحمل على كذا ، مثل أن

يقول استوى على العرش بذاته ، وينزل الى السماء الدنيا بذاته فهذه زيادة فهمها قائلها من الحس لامن النقل ، ولقد عجبت لرجل أندلسي يقال له ابن عبد البر صنف كتاب التمهيد فذكر فيه حديث النزول الى السماء الدنيا فقال : هذا يدل على أن الله تعالى على العرش لانه لولا ذلك لما كان لقوله ينزل معنى وهذا كلام جاهل بمعرفة الله عز وجل ، لأن هـذا استسلف من حسه مايعرفه من نزول الاجسام فقاس صفة الحق عليه .

فأين هؤلاء واتباع الاثر ، ولقد تكلموا بأقبح مايتكلم به المتأولون ، ثم عابوا المتكلمين .

واعلم أيها الطالب الرشاد . انه قد سبق الينا من العقل والنقل أصلان راسخان . عليهما مر الاحاديث كلها[١] ، أما النقل فقوله سبحانه وتعالى : « ليس كمثله شيء » . ومن فهم هـذا لم يحمل وصفا له على مايوجبه الحس . وأما العقل فانه قد علم مباينة الصانع للمصنوعات ، واستدل على حدوثها بتغيرها ، ودخول الانفعال عليها ، فثبت له قدم الصانع ، واعجبا كل العجب من راد لم يفهم ؟ أليس في الحديث الصحيح أن الموت يذبح بين الجنة والنار ، أو ليس العقل اذا استغنى في هـذا صرف الامر عن حقيقته لما ثبت عند من يفهم ماهية الموت فقال : الموت عرض يوجب بطلان الحياة . فكيف يمات الموت ؟

(١) لا تثبت المقيدة الا بالدليل القطعي : بالآية او الحديث المتواتر تواتراً حقيقياً ، ان كان هذا الدليل لا يحتمل التأويل .

فاذا قيل له : فما تصنع بالحديث؟ . قال : هذا ضرب مثلا باقامة صورة ليعلم بتلك الصورة الحسية فوات ذلك المعنى . قلنا له : فقد روي في الصحيح « تأتي البقرة وآل عمران كأنها غمامتان » فقال : الكلام لايكون غمامة ، ولا يتشبه بها ، قلنا له : أفتعطل النقل ، قال : لا ، ولكن يأتي ثوابها ، قلنا : فما الدليل الصارف لك عن هذه الحقائق . فقال : علمي : بان الكلام لايتشبه بالاجسام ، والموت لايذبح ذبح الانعام ، ولقد علمتم سعة لغة العرب . ماضاقت أعطانكم من سماع مثل هذا ، فقال العلماء : صدقت. هكذا نقول في تفسير مجيء البقرة ، وفي ذبح الموت ، فقال : واعجبا لكم صرفتم عن الموت والكلام مالايليق بها ، حفظاً لما علمتم من حقايقها فكيف لم تصرفوا عن الاله القديم مايوجب التشبيه له بخالقه [1] ، بما قد دل الدليل على تنزيهه عنه ، فما زال يجادل الخصوم بهذه الادلة ، ويقول : لا أقطع حتى أقطع ، فما قَطع حتى قُطع .

---

(١) كقوله تعالى « وجاء ربك » وقوله « انا نسيناكم » و« الله يستهزئ بهم » فان العربي الذي نزل القرآن بلغته لايفهمه الا مؤولا مصروفا عن ظاهره ومثلها « يد الله فوق ايديهم » وآية الاستواء على العرش فان قيل ان الله اثبت لنفسه يدين بقوله « بل يداه مبسوطتان » قلنا : وفي القرآن : (بين يدي رحمته) و (بين يدي عذاب شديد) فهل للرحمة والعذاب يدان ؟ لا وانما هو تمثيل يفهمه العربي ، هذا مع العلم ان اتباع السلف في السكوت عن الخوض في هذا كله وتفويض امره الى الله احسن .

٥٠ ـ السّر في حذف آية الرجم من القرآن لفظاً

تفكرت في السر الذي أوجب حذف آية الرجم[١] من القرآن لفظاً . مع ثبوت حكمها إجماعا ، فوجدت لذلك معنيين . أحدهما : لطف الله تعالى بعباده في أنه لايواجههم باعظم المشاق ،بل ذكر الجلد وستر الرجم ، ومن هذا المعنى قال بعض العلماء: ان الله تعالى قال في المكروهات « كتب عليكم الصيام » . على لفظ لم يسم فاعله ، وان كان قد علم أنه هو الكاتب ، فلما جاء الى مايوجب الراحة قال « كتب على نفسه الرحمة » والوجه الثاني : أنه يبين بذلك فضل الامة في بذلها النفوس قنوعاً ببعض الادلة فان الاتفاق لما وقع على ذلك الحكم كان دليلا . الا أنه ليس كالدليل المتفق لاجله ، ومن هذا الجنس شروع الخليل عليه الصلاة والسلام ، في ذبح ولده بمنام ، وان كان الوحي في اليقظة آكد .

٥١ ـ الاسباب التي تنافي التوكل

عرضت لي حالة لجأت فيها بقلبي الى الله تعالى وحده ، عالما بانه لايقدر على جلب نفعي ودفع ضري سواه ، ثم قمت أتعرض بالاسباب . فانكر عليّ يقيني . وقال : هذا قدح في

(١) نسخ آية بلفظها كما يروى في آية الرجم لم يثبت بدليل يفيد العلم .

التوكل ، فقلت : ليس كذلك . فان الله تعالى وضع من الحِكَم ، وكان معنى حالي ان ما وضعت لا يفيد وان وجوده كالعدم[١] . وما زالت الاسباب في الشرع[٢] كقوله‌تعالى : « وإذا كنتَ فيهم فأقمتَ لهم الصلاةَ فلتقمْ طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم » . وقال تعـــالى : « فذروه في سنبله » وقد ظاهر النبي ﷺ بين درعين ، وشاور طبيبين ، ولما خرج الى الطائف لم يقدر على دخول مكة حتى بعث الى المطعم بن عدي فقال : أدخل في جوارك ، وقد كان يمكنه أن يدخل متوكلا بلا سبب . فاذا جعل الشرع الامور منوطة بالاسباب ، كان إعراضي عن الأسباب دفعاً للحكمة ، ولهذا أرى أن التداوي مندوب اليه ، وقد ذهب صاحب مذهبي[٣] الى أن ترك التداوي أفضل ، ومنعني الدليل من اتباعه في هذا ، فان الحديث الصحيـح أن النبي ﷺ قال : ما أنزل الله داء إلا وأنزل له دواء فتداووا . ومرتبة هذه اللفظة الأمر ، والامر إما أن يكون واجباً ، أو ندباً ولم يسبقه حظر فيقال ، هو أمر إباحة ، وكانت عائشة رضي الله عنها تقول : تعلمت الطب من كثرة أمراض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما ينعت له .

---

(١) يوجز المؤلف أحيانا حتى يغيب المعنى، وهو يريد ان يقول هنا ان الحكم والاسباب من خلق الله ، فان كان الاخذ بها لايفيد كان وجودها كعدمها .

(٢) أي مازالت موجودة معترفاً بها (٣) يعني به الامام احمد بن حنبل .

وقال عليه الصلاة والسلام لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه : « كل من هذا فانه أوفق لك من هذا » ومن ذهب الى أن تركه أفضل احتج بقوله عليه الصلاة والسلام : « يدخل الجنة سبعون الفاً بلا حساب » ثم وصفهم فقال : « لا يكتوون ، ولا يسترقون ، ولا يتطيرون ، وعلى ربهم يتوكلون » وهذا لا ينافي التداوي ، لانه قد كان أقوام يكتوون لئلا يمرضوا ويسترقون لئلا تصيبهم نكبة ، وقد كوى عليه الصلاة والسلام سعد بن زرارة ، ورخص في الرقية في الحديث الصحيح ، فعلمنا ان المراد ما أشرنا اليه .

وإذا عرفت الحاجة الى اسهال الطبع ، رأيت أن أكل البلوط مما يمنع منه علمي ، وشرب ماء التمر هندي أوفق ، وهذا طب ، فاذا لم أشرب ما يوافقني ، ثم قلت : اللهم عافني ، قالت لي الحكمة : أما سمعت : « اعقلها وتوكل ؟ » اشرب وقل عافني ، ولا تكن كمن بين زرعه وبين النهر كف من تراب ، تكاسل أن يرفعه بيده ، ثم قام يصلي صلاة الاستسقاء ، وما هذه الحالة إلا كحال من سافر على التجريد[1] ، وإنما سافر على التجريد لانه يجرب بربه عز وجل

---

(١) أي بلا زاد ولا رفقة ، وهذا السفر معصية لانه مخالف للسنة والمدار في الطاعات كلها على الاتباع واقتفاء أثر الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا خير فيما خالف السنة . انظر (الفصل ١٤٠) .

هل يرزقه أو لا ، وقد تقدم الامر اليه : « وتزودوا » فقال : لا أتزود . فهذا هالك قبل أن يهلكه ، ولو جاء وقت صلاة وليس معه ماءٌ ليم على تفريطه ، وقيل له : هلا استصحبت الماء قبل المفازة ، فالحذرَ الحذر من أفعال أقوام دققوا فمرَّقوا عن الاوضاع الدينية ، وظنوا أن كمال الدين بالخروج عن الطباع ، والمخالفة للاوضاع ، ولولا قوة العلم والرسوخ فيه ، لما قدرت على شرح هذا ولا عرفته . فافهم ما أشرت اليه ، فهو أنفع لك من كراريس تسمعها ، ولكن مع أهل المعاني لا مع أهل الحشو .

٥٢ ـ النظافة

تلمحت على خلق كثير من الناس اهمال أبدانهم ، فمنهم من لا ينظف فمه بالخلال بعد الأكل ، ومنهم من لاينقي يديه في غسلها من الزهم ، ومنهم من لايكاد يستاك ، وفيهم من لايكتحل ، وفيهم من لا يراعي الابط الى غير ذلك . فيعود هذا الاهمال بالخلل في الدين والدنيا ، أما الدين فانه قد أمر المؤمن بالتنظف والاغتسال للجمعة لأجل اجتماعه بالناس ، ونهي عن دخول المسجد إذا أكل الثوم ، وأمر الشرع بتنقية البراجم[1] ، وقص الأظفار . والسواك ، والاستحداد[2] ، وغير ذلك من الآداب ، فاذا أهمل ذلك ترك

(١) مفاصل الاصابع (٢) يريد التعطر والتطيب .

مسنون الشرع . وربما تعدى بعض ذلك الى فساد العبادة ، مثل أن يهمل أظفاره فيجمع تحته الوسخ المانع للماء في الوضوء أن يصل ، وأما الدنيا فاني رأيت جماعة من المهملين أنفسهم ، يتقدمون الى السرار[١] والغفلة التي أوجبت اهمالهم أنفسهم ، أوجبت جهلهم بالأذى الحادث عنهم . فاذا أخذوا في مناجاة السر ، لم يمكن أن أصدف عنهم ، لأنهم يقصدون السر ، فألقى الشدائد من ريح أفواههم ، ولعل أكثرهم من وقت انتباههم ما أمر أصبعه على أسنانه ، ثم يوجب مثل هذا نفور المرأة ، وقد لا تستحسن ذكر ذلك للرجل ، فيثمر ذلك التفاتها عنه .

وقد كان ابن عباس رضي الله عنهما يقول : إني لأحب أن أتزين للمرأة ، كما أحب أن تتزين لي ، وفي الناس من يقول : هذا تصنع وليس بشيء ، فان الله تعالى زيننا لما خلقنا ، لان للعين حظاً في النظر ، ومن تأمل أهداب العين والحاجبين ، وحسن ترتيب الخلقة ، علم أن الله تعالى زين الآدمي ، وقد كان النبي ﷺ أنظف الناس وأطيب الناس . وفي الحديث عنه ﷺ يرفع يديه ، حتى تبين عفرة ابطيه ، وكانت ساقه ربما انكشفت فكأنها جمّارة[٢] ، وكان لا يفارقه السواك ، وكان يكره أن يشم منه ريح

(١) أي يدنو منك ليكلمك سراً فيؤذيك بريحه .
(٢) جمارة النخلة باطن جذعها ، وهو يؤكل اليوم غضاً في العراق .

ليست طيبة . وفي حديث أنس الصحيح : ما شانه الله ببيضاء[١].
وقد قالت الحكماء : من نظف ثوبه قل همه ، ومن طاب ريحه زاد عقله ، وقال عليه الصلاة والسلام لأصحابه : « مالكم تدخلون عليّ قُلْحاً[٢] . استاكوا » وقد فضلت الصلاة بالسواك على الصلاة بغير سواك ، فالمتنظف ينعم نفسه ، ويرفع منها عندها، وقد قالت الحكماء : من طال ظفره قصرت يده . ثم إنه يقرب من قلوب الخلق ، وتحبه النفوس ، لنظافته وطيبه ، وقد كان النبي ﷺ يحب الطيب ، ثم إنه يؤنس الزوجة بتلك الحال ، فان النساء شقايق الرجال ، فكما أنه يكره الشيء منها فكذلك هي تكرهه ، وربما صبر هو على ما يكره وهي لاتصبر ، وقد رأيت جماعة يزعمون أنهم زهاد ، وهم من أقذر الناس ، وذلك أنهم ما قوّمهم العلم ، وأما ما يحكى عن داود الطائي : أنه قيل له لو سرحت لحيتك ، فقال : اني عنها مشغول ، فهذا قول معتذر عن العمل بالسنة ، والاخبار عن غيبته عن نفسه بشدة خوفه من الآخرة ، ولو كان مفيقاً لذلك لم يتركه ، فلا يحتج بحال المغلوبين، ومن تأمل خصائص الرسول ﷺ رأى كاملا في العلم والعمل ، فبه يكون الاقتداء وهو الحجة على الخلق .

---

(١) أي انه لم يشب . والحديث في مسلم .
(٢) القلحة صفرة الاسنان .

٥٣ ـــ خطأ المبالغة في اتقاء الحر والبرد

تأملت مبالغة أرباب الدنيا في اتقاء الحر والبرد . فرأيتها تعكس المقصود في باب الحكمة . وإنما تحصل بجرد لذة ولا خير في لذةٍ تُعقبُ ألماً . فأما الحرّ فانهم يشربون الماء المثلوج ، وذلك على غاية في الضرر ، وأهل الطب يقولون : انه يحدث أمراضاً صعبة يظهر أثرها في وقت الشيخوخة . ويصنعون الخيوش[1] المضاعفة ، وفي البرد يصنعون اللبود المانعة للبرد ، وهذا من حيث الحكمة يضادّ ما وضعه الله تعالى . فانه جعل الحر لتحلل الاخلاط ، والبرد لجمودها ، فيجعلون هم جميع السنة ربيعاً ، فتنعكس الحكمة التي وضع الحر والبرد لها ، ويرجع الأذى على الابدان ، ولا يظنه سامع هذا أني آمره بملاقاة الحر والبرد وإنما أقول له : لا يفرط في التوقي ، ويعرض في الحر لما يحلل بعض الأخلاط ، الى حد لا يؤثر في القوة ، وفي البرد بأن يصيبك منـــه الأمر القريب لا المؤذي ، فان الحر والبرد لمصالح البدن . وقد كان بعض الامراء يصون نفسه من الحر والبرد أصلا فمات عاجلا ،وقد ذكرت قصته في كتاب لقط المنافع في علم الطب .

---

(١) عادة عراقية باقية الى الآن هي وضع الخيش على النوافذ ورشه بالماء باستمرار لترطيب الجو في حرارة الصيف .

٥٤ ـ الصبر على القضاء

ليس في التكليف أصعب من الصبر على القضاء ، ولا فيه أفضل من الرضى به ، فأما الصبر فهو فرض ، وأما الرضا فهو فضل، وإنما صعب الصبر لان القدر يجري في الاغلب بمكروه النفس ، وليس مكروه النفس يقف على المرض والاذى في البدن ، بل هو يتنوع ،حتى يتحير العقل في جريان القدر ، فمن ذلك : أنك إذا رأيت مغموراً بالدنيا قد سالت له أوديتها حتى لا يدري ما يصنع بالمال ، فهو يصوغه أواني يستعملها ، ومعلوم أن البلور والعقيق والشَّبَه ، قد يكون أحسن منها صورة ، غير أن قلة مبالاته بالشريعة جعلت عنده وجود النهي كعدمه ، ويلبس الحرير ، ويظلم الناس ، والدنيا منصبّة عليه ، ثم يرى خلقاً من أهل الدين، وطلاب العلم ، مغمورين بالفقر والبلاء ، مقهورين تحت ولاية ذلك الظالم ، فحينئذ يجد الشيطان طريقاً للوسواس، ويبتدي بالقدح في حكمة القدر ، فيحتاج المؤمن الى الصبر على ما يلقى من الضر في الدنيا ، وعلى جدال ابليس في ذلك ، وكذلك في تسليط الكفار على المسلمين والفساق على أهل الدين . وأبلغ من هذا إيلام الحيوان ، وتعذيب الاطفال ، ففي مثل هذه المواطن يتمحض الايمان ، ومما يقوي الصبر على الحالتين النقل والعقل : أما النقل فالقرآن والسنة .

أما القرآن فمنقسم الى قسمين : أحدهما بيان سبب إعطاء الكافر والعاصي ، فمن ذلك قوله تعالى : « إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً » ، « ولولا أن يكون الناس أمة واحدة ، لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة » ، « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها » . وفي القرآن من هذا كثير .

والقسم الثاني : ابتلاء المؤمن بما يلقى كقوله تعالى: «أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم » ، « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا » ، « أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم » . وفي القرآن من هذا كثير .

وأما السنة فمنقسمة الى قول وحال . أما الحال : فانه ﷺ كان يتقلب على رُمال حصير تؤثر في جنبه ، فبكى عمر رضي الله عنه . وقال : كسرى وقيصر في الحرير والديباج ، فقال له ﷺ : « أفي شك أنت يا عمر ؟ ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا ؟ » ، وأما القول فكقوله عليه الصلاة والسلام : « لو أن الدنيا تساوي عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء » .

وأما العقل : فانه يقوي عساكر الصبر بجنود، منها أن يقول:

قد ثبتت عندي الادلة القاطعة على حكمة المقدّر ، فلا أترك الاصل الثابت لما يظنه الجاهل خللا .

ومنها أن يقول : ماقد استهولته أيهـــا الناظر من بسط يد العاصي هي قبض في المعنى ، وما قد أثر عندك من قبض يد الطائع بسط في المعنى ، لان ذلك البسط يوجب عقابا طويلا ، وهـــذا القبض يؤثر انبســاطاً في الاجر جزيلا ، فزمان الرجلين ينقضي عن قريب ، والمراحل تطوى ، والركبان في الحثيث .

ومنها أن يقول : قد ثبت أن المؤمن بالله كالاجير ، وأن زمن التكليف كبياض نهار ، ولا ينبغي للمستعمل في الطين أن يلبس نظيف الثياب ، بل ينبغي أن يصابر ساعات العمل ، فاذا فرغ تنظّف ولبس أجود ثيابه . فمن ترفه وقت العمل ندم وقت تفريق الاجرة ، وعوقب على التواني فيما كلف ، فهذه النبذ تقوي أزْرَ الصبر ، وأزيدها بسطاً فأقول : أترى إذا أريد اتخاذ شهداء ، فكيف لا يُخلق أقوام يبسطون أيديهم لقتل المؤمنين ، أفيجوز أن يفتك بعمر إلا مثل أبي لؤلؤة ؟ وبعليّ إلا مثل ابن ملجم ؟ أفيصح أن يقتل يحيى بن زكريا إلا جبار كافر ؟ ولو أن عين الفهم زال عنها غشاء العشا لرأت المسبب لا الاسباب ، والمقدّر لا الاقدار ، فصبرت على بلائه ، إيثاراً لما يريد ، ومن

ههنا ينشأ الرضى ، كما قيل لبعض أهل البلاء : ادع الله بالعافية ، فقال : أحَبُّه إليّ أحبه الى الله عز وجل .

ان كان رضاكم في سهري فسلام الله على وَسَني

٥٥ ـــ درجات الرضى بالقضاء

لما أنهيت كتابة الفصل المتقدم ، هتف بي هاتف من باطني : دعني من شرح الصبر على الاقدار ، فاني قد اكتفيت بانموذج ما شرحت ، وصف حال الرضا فاني أجد نسيماً من ذكره فيه رَوْح للرُّوح ، فقلت : أيها الهاتف اسمع الجواب ، وافهم الصواب . إن الرضى من جملة ثمرات المعرفة ، فاذا عرفته رضيت بقضائه ، وقد يجري في ضمن القضاء مرارات ، يجد بعض طعمها الراضي ، أما العارف فتقل عنده المرارة لقوة حلاوة المعرفة ، فاذا ترقى بالمعرفة الى المحبة ، صارت مرارة الاقدار ، حلاوة كما قال القائل :

عذابه فيك عذب وبُعده فيك قرب
وأنت عندي كروحي بل أنت منها أحب
حسبي من الحب أني لما تحب أحب

وقال بعض المحبين في هذا المعنى :

ويقبح من سواك الفعل عندي فتفعله فيحسن منك ذاكا

فصـــاح بي الهاتف : خدثني بماذا أرضى ؟ قدر اني أرضى في أقداره بالمرض والفقر ، أفأرضى بالكسل عن خدمته ، والبعد عن أهل جنته ؟ فبين لي ما الذي يدخل تحت الرضا ، مما لا يدخل، فقلت له : نعم ما سألت ، فاسمع الفرق سماع من ألقى السمع وهو شهيد ، ارض بما كان منه ، فأما الكسل والتخلف فذاك منسوب اليك ، فلا ترض به من فعلك ، وكن مستوفياً حقه عليك ، مناقشاً نفسك فيما يقربك منه ، غير راض منها بالتواني في المجاهدة ، فأما ما يصدر من أقضيته المجردة التي لا كسب لك فيها ، فكن راضياً بها ، كما قالت رابعة رحمة الله عليها ، وقد ذكر عندها رجل من العباد يلتقط من مزبلة فيأكل ، فقيل: هلا سأل الله تعالى أن يجعل رزقه من غير هذا ؟ فقالت : ان الراضي لا يتخير ومن ذاق طعم المعرفة ، وجد فيه طعم المحبة ، فوقع الرضا عنده ضرورة[١] ، فينبغي الاجتهاد في طلب المعرفة بالأدلة ، ثم العمل بمقتضى المعرفة بالجد في الخدمة ، لعل ذلك يورث المحبة ، فقد قال سبحانه وتعالى (أي في الحديث القدسي) : « لا يزال العبد يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه ، فاذا أحببته كنت سمعه

---

(١) هذا اذا بذل الجهد في اتخاذ الاسباب للوصول الى أطيب من هذا المطعم وسلك كل طريق حلال يوصل اليه ، وسأل الله خيراً منه، ثم لم يجد غيره ، أما من غير سعي ولا عمل فلا .

الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصـــر به » . فذلك الغنى الاكبر ، وافتقراه .

٥٦ ـــ حاجة طالب العلم الى المعاش

رأيت جمهور العلماء يشغلهم طلبهم العلم في زمن الصبا عن المعاش ، فيحتاجون الى ما لا بد منه ، فلا يصلهم من بيت المال شيء ، ولا من صلات الاخوان ما يكفي ، فيحتاجون الى التعرض بالاذلال ، فلم أر في ذلك من الحكمة إلا سببين ، أحدهما : قمع إعجابهم بهذا الاذلال ، والثاني : نفع اولئك بثوابهم ، ثم أمعنت الفكر فتلمحت نكتة لطيفة ، وهو أن النفس الابية إذا رأت حال الدنيا كذلك لم تساكنها بالقلب ، ونَبَتْ عنها بالعزم ، ورأت أقرب الاشياء شبهاً بها مزبلةٌ عليها الكلاب ، أو غائطـــاً يؤتى لضرورة ، فاذا نزل الموت بالرحلة عن مثل هذه الدار ، لم يكن للقلب بهـــا متعلق متمكن فتهون حينئذ .

٥٧ ـــ وجوب التلطف بالبدن والرد على المتزهدين

ما زال جماعة من المتزهدين يزرون على كثير من العلماء إذا انبسطوا في مُباحات ، والذي يحملهم على هـذا الجهلُ ، فلو

كان عندهم فضل علم ما عابوهم ، وهذا لان الطباع لاتتساوى ، فرب شخص يصلح على خشونة العيش ، وآخر لا يصلح على ذلك ، ولا يجوز لأحد أن يحمل غيره على ما يطيقه هو ، إن لنا ضابطاً هو الشرع ، فيه الرخصة وفيه العزيمة ، فلا ينبغي أن يلام من حصر نفسه في ذلك الضابط ، ورب رخصة كانت أفضل من عزائم، لتأثير نفعها ، ولو علم المتزهدون أن العلم يوجب المعرفة بالله تعالى ، فتنبتّ القلوب من خوفه ، وتنحلّ الاجسام للحذر منه فوجب التلطف بالاجسام حفظاً لقوة الراحلة ، ولأن آلة العلم والحفظ، القلبُ والفكرُ ، فاذا رفهت الآلة جاد العمل ، وهـذا أمر لا يُعلم إلا بالعلم ، فلجهل المتزهدين بالعلم أنكروا ما لم يعلموا ، وظنوا أن المراد إتعاب الابدان ، وانضاء الرواحل ، وما علموا أن الخوف المضني يحتاج الى راحة مقاومة ، كما قال القائل : روحوا القلوب تعي الذكر .

٥٨ ــ عِلم الوَرَق وعلم الخرق

ليس في الوجود شيء أشرف من العلم ، كيف لا وهو الدليل ، فاذا عدم وقع الضلال ، وان من خفي مكائد الشيطان أن يزين في نفس الانسان التعبد ليشغله عن أفضل التعبد وهو العلم ، حتى إنه زين لجماعة من القدماء أنهم دفنوا كتبهم ورموها في البحر ، وهذا

قد ورد عن جماعة ، وأحسن ظني بهم أن أقول : كان فيها شيء من رأيهم وكلامهم فما أحبوا انتشاره ، وإلا فمتى كان فيها علم مفيد صحيح لا يخاف عواقبه ، كان رميها إضاعة للمال لا يحل ، وقد دنت حيلة ابليس الى جماعة من المتصوفة حتى منعوا من حمل المحابر تلامذتهم ، حتى قال جعفر الخلدي : لو تركني الصوفية جئتكم بأسناد الدنيا . كتبت مجلساً عن أبي العباس الدوري فلقيني بعض الصوفية فقال : دع علم الورق ، وعليك بعلم الخِرق . ورأيت محبرة مع بعض الصوفية ، فقال له صوفي : استر عورتك .

وقد أنشدوا الشبلي :

إذا طالبوني بعلم الورق   برزت عليهم بعلم الخرق

وهذا من خفي حيل ابليس ، ولقد صدق عليهم ابليس ظنه ، وإنما فعل وزينه عندهم لسببين ، أحدهما : أنه أرادهم يمشون في الظلمة ، والثاني : ان تصفح العلم كل يوم يزيد في العالم ، ويكشف له ما كان خفي عنه ، ويقوي إيمانه ومعرفته ، ويريه عيب كثير من مسالكه ، إذا تصفح منهاج الرسول ﷺ والصحابة ، فأراد إبليس سد تلك الطرق بأخفى حيلة ، فأظهر أن المقصود العمل لا العلم لنفسه ، وخفي على المخدوع أن العلم عمل وأي عمل ،

فاحذر من هذه الخديعة الخفية ، فان العلم هو الاصل الأعظم ، والنور الاكبر ، وربما كان تقليب الاوراق أفضل من الصوم والصلاة والحج والغزو ، وكم من معرض عن العلم يخوض في عذاب من الهوى في تعبده ، ويضيع كثيراً من الفرض بالنفل ، ويشتغل بما يزعمه الافضل عن الواجب ، ولو كانت عنده شعلة من نور العلم لاهتدى ، فتأمل ماذكرت لك ترشد إن شاء الله تعالى .

٥٩ — وجوب تعليل النفس لتصبر على ما حُمّلت

مرّ بي حمالان تحت جذع ثقيل وهما يتجاوبان بانشاد التنغم ، وكلمات الاستراحة ، فأحدهما يصغي الى ما يقوله الآخر ، ثم يعيده أو يجيبه بمثله ، والآخر همته مثل ذلك ، فرأيت انهما لو لم يفعلا هذا زادت المشقة عليهما ، وثقل الامر ، وكلما فعلا هذا هان الامر ، فتأملت السبب في ذلك ، فاذا به تعليق فكر كل واحد منهما بما يقوله الآخر ، وطربه به ، واحالة فكره في الجواب بمثل ذلك ، فينقطع الطريق ، وينسى ثقل المحمول ، فأخذت من هذا اشارة عجيبة ، ورأيت الانسان قد حمل من التكليف أموراً صعبة ، ومن أثقل ما حمل مداراة نفسه ، وتكليفها الصبر عما تحب ، وعلى ما تكره ، فرأيت الصواب قطع طريق الصبر

بالتسلية والتلطف للنفس ، كما قال الشاعر :

فان تشكت فعللها المجرة من ضوء الصباح وعدها بالرواح ضحى

ومن هذا ما يحكى أن بشراً الحافي رحمة الله عليه سار ومعه رجل في طريق فعطش صاحبه فقال له : أنشرب من هذه البئر ؟ فقال بشر : اصبر إلى البئر الاخرى ، فلما وصلا اليها ، قال له : البئر الاخرى . فما زال يعلله . ثم التفت اليه فقال له : هكذا تنقطع الدنيا .

ومن فهم هذا الاصل علل النفس وتلطف بها ووعدها الجميل لتصبر على ما قد حملت ، كما كان بعض السلف يقول لنفسه : والله ما أريد بمنعك من هذا الذي تحبين إلا الاشفاق عليك .

وقال أبو يزيد رحمة الله عليه : ما زلت أسوق نفسي إلى الله تعالى وهي تبكي ، حتى سقتها وهي تضحك ، واعلم أن مداراة النفس والتلطف بها لازم ، وبذلك ينقطع الطريق فهذا رمز الى الاشارة. وشرحه يطول .

٦٠ ــ المنكرات في مجالس الصوفية والوعاظ

تأملت أشياء تجري في مجالس الوعظ يعتقدها العوام وجهال العلماء قربة وهي منكر وبُعد ، وذاك أن المقرىء يطرب

ويخرج الالحان الى الغناء ، والواعظ ينشد بتطريب أشعار المجنون وليلى ، فيصفق هـــذا ، ويخرق ثوبه هذا ، ويعتقد أن ذلك قربة ومعلوم أن هذه الالحان كالموسيقى ، توجب طرباً للنفوس ، فالتعرض بما يوجب الفساد غلط عظيم . وينبغي الاحتســـاب على الوعاظ في هذا[1] ، وكذلك المقابريون منهم، فانهم يهيجون الاحزان ليكثر بكاء النساء ، فيعطون على ذلك الاجرة ، ولو أنهم أمروا بالصبر لم ترد النسوة ذلك ، وهـــذه أضداد الشرع ، قال ابن عقيل : حضرنا عزاء رجل قد مات له ولد ، فقرأ المقرىء : يا أسفي على يوسف ، فقلت له : هذه نياحة بالقرآن .

وفي الوعاظ من يتكلم على طريق المعرفة والمحبة ، فترى الحائك والسوقي الذي لايعرف فرائض تلك الصـــلاة يمزق أثوابه دعوى لمحبة الله تعالى ، والصافي حالاً منهم وهو أصلحهم يتخايل بوهمه شخصاً هو الخالق ، فيبكيه شوقه اليه لما يسمع من عظمته ورحمته وجماله ، وليس ما يتخايلونه المعبود ، لان المعبود لايقع في خيال ، وبعد هذا فالتحقيق مع العوام صعب ، ولا يكادون ينتفعون بمر الحق ، إلا أن الواعظ مأمور بان لايتعدى الصواب ، ولا يتعرض لما يفسدهم ، بل يجذبهم الى ما يصلح بالطف وجه ، وهذا يحتاج الى صناعة ، فان من العوام من يعجبه حسن اللفظ ، ومنهم من يعجبه الاشـــارة ، ومنهم من ينقاد ببيت من

(١) أي ينبغي للمحتسب ان يمنعهم منه - وقد بطلت الآن وظيفة المحتسب ، وانظر الكلام عنها في كتاب (الاحكام السلطانية) .

الشعر ، وأحوج الناس الى البلاغة الواعظ ليجمع مطالبهم ، لكنه ينبغي أن ينظر في اللازم الواجب ، وأن يعطيهم من المباح في اللفظ ، قدر الملح في الطعام ، ثم يجتذبهم الى العزائم ، ويعرفهم الطريق الحق .

وقد حضر أحمد بن حنبل فسمع كلام الحارث المحاسبي فبكى . ثم قال : لا يعجبني الحضور . وإنما بكى لان الحال أوجبت البكاء ، وقد كان جماعة من السلف يرون تخليط القصاص[1] فينهون عن الحضور عندهم ، وهذا على الاطلاق لايحسن اليوم ، لانه كان الناس في ذلك الزمان متشاغلين بالعلم ، فرأوا حضور القصص صاداً لهم ، واليوم كثر الاعراض عن العلم ، فانفع ما للعامي مجلس الوعظ ، يرده عن ذنب ، ويحركه الى توبة ، وإنما الخلل في القاص. فليتق الله عز وجل .

٦١ ـ الرد على المتأولين

من أضر الاشياء على العوام كلام المتأولين والنفاة للصفات والاضافات ، فان الانبياء عليهم الصلاة والسلام بالغوا في الاثبات ليتقرر في أنفس العوام وجود الخالق ، فإن النفوس تأنس بالاثبات

(١) القصاص في الاصطلاح القديم الوعاظ . وقد غلط من لا فهم له ولا علم عنده فحسبهم مثل اهل القصص من أدباء الغرب – من ذلك ما كتب شفيق جبري في كتابه الذي درس فيه الاغاني لأبي الفرج وهو كتاب فيه دعوى عريضة وجهل بين.

فاذا سمع العامي ما يوجب النفي طرد عن قلبه الاثبات ، فكان أعظم ضرر عليه ، وكان هذا المنزه من العلماء على زعمه ، مقاوماً لاثبات الانبياء عليهم الصلاة والسلام بالمحو ، ومشارعاً في إبطال ما يفتون به ، وبيان هذا أن الله تعالى أخبر باستوائه على العرش ، فأنست النفوس الى اثبات الالـه ووجوده ، قال تعالى: « ويبقى وجه ربك » وقال تعالى : « بل يداه مبسوطتان » وقال : « غضب الله عليهم » و « رضي الله عنهم » . وأخبر أنه ينزل الى السماء الدنيا وقال : قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن ، وقال كتب التوراة بيده ، وكتب كتاباً فهو عنده فوق العرش ، الى غير ذلك مما يطول ذكره . فاذا امتلأ العامي والصبي من الاثبات ، وكاد يأنس من الاوصاف بما يفهمه الحسّ قيل له : « ليس كمثله شيء » فمحى من قلبه ما نقشه الخيال ، وتبقى ألفاظ الاثبات متمكنة ، ولهذا أقر الشرع على مثل هذا ، فسمع منشداً يقول : وفوق العرش رب العالمينا ، فضحك وقال له آخر : أويضحك ربنا ؟ فقال نعم ، وقال : إنه على عرشه هكذا ، كل هذا ايقرر الاثبات في النفوس ، وأكثر الخلق لا يعرفون الاثبات إلا على ما يعلمون من الشاهد ، فيقنع منهم بذلك الى أن يفهموا التنزيه ، فأما إذا ابتدأ بالعامي الفارغ من فهم الاثبات . فقلنا : ليس في السماء ، ولا على العرش ، ولا يوصف بيد ، وكلامه صفة قائمة

بذاته ، وليس عندنا منه شيء ، ولا يتصور نزوله ، امّحى من قلبه تعظيم المصحف ، ولم يتحقق في سره اثبات إله .

وهذه جناية عظيمة على الانبياء ، توجب نقض ماتعبوا في بيانه، ولا يجوز لعالم أن يأتي الى عقيدة عامي قد أنس بالاثبات فيهوشها ، فانه يفسده ويصعب صلاحه ، فأما العالم فذنا قد أمناه ، لانه لايخفى عليه استحالة تجدد صفة الله تعالى ، وأنه لايجوز أن يكون استوى كما يعلم ، ولا يجوز أن يكون محمولا ، ولا أن يوصف بملاصقة ومس ، ولا أن ينتقل ، ولا يخفى عليه أن المراد بتقليب القلوب بين أصبعين الاعلام بالتحكم في القلوب، فان ما يدبره الانسان بين اصبعين هو متحكم فيه الى الغاية .

ولا يحتاج الى تأويل من قال الاصبع الاثر الحسن ، فالقلوب بين أثرين من آثار الربوبية ، وهما : الاقامة والازاغة . ولا الى تأويل من قال : يداه نعمتاه ، لانه اذا فهم أن المقصود الاثبات . وقد حدثنا بما نعقل ، وضربت لنا الامثال بما نعلم ، وقد ثبت عندنا بالاصل المقطوع به أنه لا يجوز عليه ما يعرفه الحس ، علمنا المقصود بذكر ذلك .

وأصلح مانقول للعوام : أمرّوا هــذه الاشياء كما جاءت ، ولا تتعرضوا لتأويلها ، وكل ذلك يقصد به حفظ الاثبات ، وهذا الذي قصده السلف . وكان أحمد يمنع من أن يقال : لفظي بالقرآن

مخلوق أو غير مخلوق ، كل ذلك ليحمل على الاتباع ، وتبقى ألفاظ الاثبات على حالها ، وأجهل الناس من جاء الى ما قصد النبي ﷺ تعظيمه ، فأضعف في النفوس قوى التعظيم ، قال النبي ﷺ : لا تسافروا بالقرآن الى أرض العدو ، يشير الى المصحف . ومنع الشافعي أن يحمله المحدث بعلاقته تعظيما له ، فاذا جاء متحذلق فقال : الكلام صفة قائمة بذات المتكلم ، فمعنى قوله هذا ان ما ههنا شيء يحترم ، فهذا قد ضادّ بما أتى به مقصود الشرع ، وينبغي أن يفهم أوضاع الشرع ومقاصد الانبياء عليهم الصلاة والسلام ، وقد منعوا من كشف ما قد قنّع الشرع ، فنهى رسول الله ﷺ عن الكلام في القدر ، ونهى عن الاختلاف ، لان هذه الاشياء تخرج الى ما يؤذي ، فان الباحث عن القدر اذا بلغ فهمه الى أن يقول : قضى وعاقب تزلزل إيمانه بالعدل ، وإن قال : لم يقدر ولم يقض تزلزل إيمانه بالقدرة والملك ، فكان الاولىَ ترك الخوض في هذه الاشياء ، ولعل قائلًا يقول : هذا منع لنا عن الاطلاع على الحقائق ، وأمر بالوقوف مع التقليد .

فأقول : لا . إنما أعلمك أن المراد منك الايمان بالجمل ، وبما أمرت بالتنقير ، مع أن قوى فهمك تعجز عن ادراك الحقائق ، فان الخليل عليه الصلاة والسلام قال : أرني كيف تحيي ، فأراه ميتاً حيي ، ولم يره كيف أحياه . لان قواه تعجز عن ادراك

ذلك . وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم الذي بُعث ليبين للناس ما نزل اليهم ، يقنع من الناس بنفس الاقرار واعتقاد الجُمَل .

وكذلك كانت الصحابة ، فما نقل عنهم أنهم تكلموا في تلاوة ومتلو ، وقراءة ومقروء ، ولا أنهم قالوا استوى بمعنى استولى وينزل بمعنى يرحم ، بل قنعوا باثبات الجمل التي تثبت التعظيم عند النفوس ، وكفوا كف الخيال بقوله : « ليس كمثله شيء » . ثم هذا منكر ونكير، إنما يسألان عن الاصول المجملة فيقولان : من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ ومن فهم هذا الفصل سلم من تشبيه المجسمة ، وتعطيل المعطلة ، ووقف على جادة السلف الاول ، والله الموفق .

٦٢ - فوائد السمع والبصر

قرأت هذه الآية : « قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم به » فلاحت لي منها إشارة كدت أطيش منها ، وذلك أنه ان كان عني بالآية نفس السمع والبصر فان السمع آلة لادراك المسموع ، والبصر آلة لادراك المبصرات ، فهما يعرضان ذلك على القلب ، فيتدبر ويعتبر ، فاذا عرضت المخلوقات على السمع والبصر ، أوصلا الى القلب أخبارها

من أنها تدل على الخالق ، وتحمل على طاعة الصانع ، وتحذّر من بطشه عند مخالفته ، وان عنى معنى السمع والبصر ، فذلك يكون بذهولهما عن حقائق ما أدركا ، شغلا بالهوى ، فيعاقب الانسان بسلب معاني تلك الآلات ، فيرى وكأنه ما رأى ، ويسمع وكأنه ما سمع ، والقلب ذاهل عما يتأدى به ، لا يدري ما يراد به ، لا يؤثر عنده أنه يبلى ، ولا تنفعه موعظة تجلى ، ولا يدري أين هو ، ولا المراد منه ، ولا الى أين يحمل ، وانما يلاحظ بالطبع مصالح عاجلته ولا يتفكر في خسران آجلته ، لا يعتبر برفيقه ، ولا يتعظ بصديقه ، ولا يتزود لطريقه كما قال الشاعر :

الناس في غفلة والموت يوقظهم ... وما يفيقون حتى ينفد العمر
يشيعون أهاليهم بجمعهم ... وينظرون الى ما فيه قد قبروا
ويرجعون الى أحلام غفلتهم ... كأنهم ما رأوا شيئاً ولا نظروا

وهذه حالة أكثر الناس ، فنعوذ بالله من سلب فوائد الآلات ، فانها أقبح الحالات .

٦٣ ــ في العشق

نظرت فيما تكلم به الحكماء في العشق وأسبابه وأدويته وصنفت في ذلك كتابا سميته بـ (ذم الهوى)، وذكرت فيه عن الحكماء أنهم

قالوا : سبب العشق حركة نفس فارغة ، وأنهم اختلفوا ، فقال قوم منهم: لايعرض العشق إلا لظراف الناس . وقال آخرون : بل لاهل الغفلة منهم عن تأمل الحقائق .

إلا أنه خطر لي بعد ذلك معنى عجيب أشرحه ههنا : وهو أنه لا يتمكن العشق إلا مع واقف جامد ، فاما أرباب صعود الهمم فانها كلما تخايلت ما توجبه المحبة فلاحت عيوبه لها ، إما بالفكر فيه أو بالمخالطة له ، تسلت وتعلقت بمطلوب آخر ، فلا يقف على درجة العشق الموجب للتَمسّك بتلك الصورة ، العامِي عن عيوبها ، إلا جامد واقف ، وأما أرباب الانفة من النقائص ، فانهم أبداً في الترقي ، لا يصدهم صاد ، فاذا علقت الطباع محبة شخص لم يبلغوا مرتبة العشق المستأثر ، بل ربما مالوا ميلًا شديداً ؛ اما في البداية لقلة التفكر أو لقلة المخالطة والاطلاع على العيوب ، واما لتشتت بعض الخلال الممدوحة بالنفوس من جهة مناسبة وقعت بين الشخصين ، كالظريف مع الظريف ، والفطن مع الفطن ، فيوجب ذلك المحبة ، فاما العشق فلا . فهم أبداً في السير ، فلا يوقف وابل الطبع يتبع حادي الفهم ، فان للطبع متعلقاً لانجده في الدنيا ، لانه يروم ما لايصح وجوده من الكمال في الاشخاص ، فاذا تلمح عيوبها نفر ، وأما متعلق القلوب من محبة الخالق الباريء ، فهو مانع لها من الوقوف مع سواه ، وان كانت محبته لا تجانس

محبة المخلوقين ، غير أن أرباب المعرفة بالله ، قد شغلهم حبه عن حب غيره ، وصارت الطباع مستغرقة لقوة معرفة القلوب ومحبتها كما قالت رابعة :

أحب حبيباً لا أعاب بحبه   وأحببتمُ من في هواه عيوب

ولقد روي عن بعض فقراء الزهاد أنه مر بإمرأة فأعجبته ، فخطبها الى أبيها ، فزوجه وجاء به الى المنزل والبسه غير خلقانه ، فلما جن الليل صاح الفقير : ثيابي ثيابي ، فقدت ما كنت أجده . فهذه عثرة في طريق هذا الفقير دلته على أنه منحرف عن الجادة ، وانما تعتري هذه الحالات أرباب المعرفة بالله عز وجل وأهل الانفة من الرذائل . وقد قال ابن مسعود : إذا أعجبت أحدكم امرأة فليتذكر مناتنها .

ومثال هذه الحال أن العقل يغيب عند استحلاء تناول المشتهى من الطعـــام ، عن التفكر في تقليبه في الفم وبلعه ، ويذهل عند الجماع عن ملاقاة القاذورات لقوة غلبة الشهوة ، وينسى عند بلع الرضاب استحالته عن الغذاء ، وفي تغطية تلك الاحوال مصالح ، إلا أن أرباب اليقظـة يعتريهم من غير طلب لها في غالب أحوالهم ، فينغص عليهم لذيذ العيش ، ويوجب الانفة من رذالة الهوى ، وعلى قدر النظر في العواقب يخف العشق عن قلب العاشق ، وعلى

قدر جمود الذهن يقوى القلق ، قال المتنبي[١] :

لو فكر العاشق في منتهى حسن الذي يسبيه لم يسبه

ومجموع ما أردت شرحه ، أن طباع المتيقظين تترقى فلا تقف مع شخص مستحسن ، وسبب ترقيها التفكر في نقص ذلك الشخص وعيوبه ، أو في طلب ما هو أهم منه ، وقلوب العارفين تترقى الى معروفها ، فيعتبر في معبر الاعتبار ، فاما أهل الغفلة فجمودهم في الحالتين ، وغفلتهم عن المقامين ، يوجب أسرهم وقسرهم وحيرتهم .

٦٤ ـ بين الخوف والرجاء

عرض لي أمر يحتاج الى سؤال الله عز وجل ودعائه ، فدعوت وسألت ، فأخذ بعض أهل الخير يدعو معي ، فرأيت نوعاً من أثر الاجابة ، فقالت لي نفسي : هذا بسؤال ذلك العبد لا بسؤالك ، فقلت لها : أما أنا فاني أعرف من نفسي من الذنوب والتقصير ما يوجب منع الجواب ، غير أنه يجوز أن يكون أنا الذي أجيب ، لان هذا الداعي الصالح سليم مما أظنه من نفسي ، إذ معي انكسار تقصيري ومعه الفرح بمعاملته ، وربما كان

(١) من قصيدته التي يعزي بها عضد الدولة بعمته .

الاعتراف بالتقصير أنجح في الحوائج ، على أنني أنا وهو نطلب من الفضل لا باعمالنا ، فاذا وقفت أنا على قدم الانكسار معترفاً بذنوبي، وقلت : أعطوني بفضلكم ، فمالي في سؤالي شيء أمتّ به ، وربما تلمح ذاك حسن عمله وكان صاداً له ، فلا تكسريني أيتها النفس فيكفيني كسر علمي بي لي ، ومعي من العلم الموجب للأدب ، والاعتراف بالتقصير ، وشدة الفقر الى ما سألت ، ويقيني بفضل المطلوب عنه ، ما ليس مع ذلك العابد ، فبارك الله في عبادته ، فربما كان اعترافي بتقصيري أوفى .

٦٥ ـ اختلاف الأفهام

قرأت من غرائب العلم ، وعجائب الحكم ، على بعض من يدعي العلم ، فرأيته يتلوى من سماع ذلك ، ولا يطلع على غوره ، ولا يشرئب الى ما يأتي ، فصدفت عن إسماعه شيئاً آخر وقلت : إنما يصلح مثل هذا لذي لب يتلقاه تلقي العطشان الماء ، ثم أخذت من هذا إشارة هي أن لو كان هذا يفهم ما جرى ، ومَدَحني لحُسْن ما صنعت لعظُمَ قدرُه عندي ، ولأريته محاسن مجموعاتي وكلامي، ولكنه لما لم أره أهلاً صرفتها عنه ، وصدفت بنظري اليه ، وكانت الاشارة أن الله عز وجل قد صنف هذه المخلوقات فأحسن التركيب، وأحكم الترتيب ، ثم عرضها على الالباب ، فأي لب أوغل في

النظر مدح على قدر فهمه فاحبه المصنف ، وكذلك أنزل القرآن يحتوي على عجائب الحكم ، فمن فتشه بيد الفهم ، وحادثه في خلوة الفكر ، استجلب رضى المتكلم به وحظى الزلفى لديه ، ومن كان ذهنه مستغرق الفهم بالحسيات ، صرف عن ذلك المقام ، قال الله عز وجل : « سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الارض بغير الحق » .

٦٦ - زيادة عمر المؤمن خير

دعوت يوماً فقلت اللهم بلغني آمالي من العلم والعمل ، وأطل عمري لابلغ ما أحبّ من ذلك ، فعـــارضني وسواس من ابليس ، فقـــال : ثم ماذا ؟ أليس الموت ؟ فما الذي ينفع طول الحياة ؟

فقلت له : يا أبله . لو فهمت ما تحت سؤالي علمت أنه ليس بعبث ، أليس في كل يوم يزيد علمي ومعرفتي ، فتكثر ثمار غرسي يوم حصـادي ؟ أفيسرني أني مت منذ عشرين سنة ، لا والله ؟ لاني ما كنت أعرف الله تعالى عشر معرفتي به اليوم وكل ذلك ثمرة الحياة التي فيها اجتنيت أدلة الوحدانية ، وارتقيت عن حضيض التقليد الى يَفاع البصيرة ، واطلعت على علوم زاد بهـــا قدري ،

وتَجَوْهَرَتْ بها نفسي ، ثم زاد غرمي لآخرتي ، وقويت تجارتي في انقاذ الباضعين من المتعلمين ، وقد قال الله تعالى لسيد المرسلين : « وقل ربي زدني علما » . وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه . عن النبي ﷺ أنه قال : « لا يزيد المؤمن عمره إلا خيراً » . وفي حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما . قال : قال رسول ﷺ : « إن من السعادة أن يطول عمر العبد ويرزقه الله عز وجل الإنابة » . فيا ليتني قدرت على عمر نوح ، فان العلم كثير ، وكلما حصل منه حاصل رفع ونفع .

* * *

٦٧ - العارفون واتخاذ الأسباب

قلوب العارفين يغار عليها من الاسباب وان كانت لا تساكنها لانها لما انفردت لمعرفتها انفرد لها بتولي أمورهــــا ، فاذا عرضت بالاسباب محي أثر الاسباب : « ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغنِ عنكم شيئاً » . وتأمل في حال يعقوب وحذره على يوسف عليهما السلام . حتى قال : أخاف أن يأكله الذئب . فقــالوا : « أكله الذئب » فلما جاء أوان الفرج ، خرج يهوذا بالقميص فسبقته الريح « إني لأجد ريح يوسف » وكذلك قول يوسف عليـه السلام للساقي : « اذكرني عند ربك » فعوقب بان لبث سبع سنين ، وإن كان يوسف عليه السلام يعلم أنه لاخلاص إلا باذن الله ، وأن التعرض بالاسباب مشروع ، غير أن الغيرة أثرت في العقوبة ، ومن هذا قصة مريم عليها الســلام « وكفّلها زكريا » فغار المسبب من مســاكنة الاسباب : « كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا » ومن هذا القبيل ما يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أبى الله أن يرزق عبده المؤمن إلا من حيث لا يحتسب » .

والاسباب طريق ، ولا بد من سلوكها ، والعارف لا يساكنها غير أنه[١] يحلى له أمرها ما لا يحلى لغيره من أنها لا تساكن ، وربما عرفت أن مال اليها وان كان ميله لايقبله ، غير أنه أقل المفوات يوجب الادب . . . .[٢] لأطوفن الليلة على مئة امرأة ، تلد كل واحدة منهن غلاما . ولم يقل ان شاء الله ، فما حملت إلا واحدة جاءت بشق غلام ، ولقد طرقتني حالة أوجبت التشبث ببعض الاسباب ، إلا أنه كان من ضرورة ذلك لقاء بعض الظلمة ، ومداراته بكلمة ، فبينا أنا أفكر في تلك الحال دخل عليّ قارىء فاستفتح ، فتفاءلت بما يقرأ فقرأ : « ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون » . فبهتّ من إجابتي على خاطري ، وقلت لنفسي : اسمعي فاني طلبت النصر في هذه المداراة فأعلمني القرآن أنني إذا ركنت إلى ظالم فاتني ما ركنت لاجله من النصر ، فياطوبى لمن عرف المسبب وتعلق به ، فانها الغاية القصوى ، فنسأل الله أن يرزقنا .

٦٨ ـ درجات قوة الايمان

المؤمن لايبالغ في الذنوب وإنما يقوى الهوى وتتوقد نيران

---

(١) ما يلي من الكلام مضطرب ولعل تحريفاً عراه من النساخ او شيئاً سقط منه ولم نهتد لوجه اصلاحه .

(٢) بياض في الأصل .

الشهوة فينحدر وله مداد ،لا يعزم المؤمن على مواقعته، ولا على العود بعد فراغه ، ولا يستقصي في الانتقام ان غضب ، وينوي التوبة قبل الزلل ، وتأمل إخوة يوسف عليهم السلام ، فانهم عزموا على التوبة قبل إبعاد يوسف فقالوا : « اقتلوا يوسف» ثم زاد ذلك تعظيماً فقالوا : « أو اطرحوه أرضاً » . ثم عزموا على الإنابة فقالوا : « وتكونوا من بعده قوماً صالحين » . فلما خرجوا به الى الصحراء هموا بقتله بمقتضى ما في القلوب من الحسد ، فقال كبيرهم : « لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب » ولم يرد أن يموت بل يلتقطه بعض السيارة ، فأجابوا الى ذلك ، والسبب في هذه الاحوال أن الايمان على حسب قوته ، فتارة يردها عند الهمّ ، وتارة يضعف فيردها عند العزم ، وتارة عند بعض الفعل ، فاذا غلبت الغفلة ، وواقع الذنب ، فتر الطبع ، فنهض الايمان، فينغّص بالندم أضعاف ما التذ .

٦٩ ـ إذا عظّم العالم نفسه خفيت عليه أخطاؤه

أفضل الاشياء التزيد من العلم ، فانه من اقتصر على ما يعلمه فظنه كافياً استبد برأيه ، وصـــار تعظيمه لنفسه مانعاً له من الاستفادة ، والمذاكرة تبين له خطأه ، وربما كان معظماً في النفوس فلم يتجاسر على الرد عليه ، ولو أنه أظهر الاستفـــادة

لأهديت اليه مساويه فماد عنها ، ولقد حكى ابن عقيل عن أبي المعالي الجويني أنه قال : ان الله تعالى يعلم جمل الاشياء ولا يعلم التفاصيل[١] ، ولا أدري أي شبهة وقعت في وجه هذا المسكين حتى قال هـذا ، وكذلك أبو حامد حين قال : النزول التنقل ، والاستواء مماسة . وكيف أصف هذا بالفقه والزهد وهو لايدري ما يجوز على الله مما لا يجوز[٢] ، ولو أنه ترك تعظيم نفسه لرد صبيان الكتاب رأيه عليه ، فبان له صدقهم . ومن هـذا الفن أبو بكر بن مقسم : فانه عمل كتاب الاحتجاج للقراء ، فأتى فيه بفوائد ، إلا أنه أفسد عله باجازته أن يقرأ بما لم يقرأ به ، ثم تفاقم ذلك منه حتى أجاز ما يفسد المعنى ، مثل قوله تعالى : « فلما استيأسوا منه خلصوا » . فقال: يصلح أن يقال هنا نُجُباً أي خلصوا كراماً برءاء من السرقة ، وهذا سوء فهم للقصة ، فان الذي نسب الى السرقة فظهرت معه ما خلص ، فما الذي ينفع خلاصهم ، وإنما سيقت القصة ليبين أنهم انفردوا وتشاوروا فيما يصنعون ، وكيف يرجعون الى أبيهم وقد احتبس أخوهم ، فأي وجه للنجاة ها هنا ، ومن تأمل كتابه رأى فيه من هذا الجنس ما يزيد على الاحصاء أكثر من هـذا الفن القبيح ، ولو

---

(١) أعوذ بالله ، انه لايمكن أن يقولها ، وهذه كتبه وهـذه مباحثه ، (فتبينوا عـى أن تصيبوا قوماً) .

(٢) متى قال هذا ؟ وأين ؟ واذا لم يوصف الغزالي بالفقه والزهد فمن لعمري يوصف بهما بعده ؟

أنه أصغى الى علماء وقته ، وترك تعظيم نفسه لبان له الصواب، غير أن اقتصار الرجل على علمه إذا مازجه نوع رؤية النفس حبس من إدراك الصواب ، نعوذ بالله من ذلك .

٧٠ ـ إذا عملت خيراً فاحمد الله

تأملت قوله عز وجل : « يمنون عليك أن أسلموا ، قل لاتمنوا عليّ إسلامكم ، بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان » . فرأيت فيه معنى عجيبا ، وهو أنهم لما وهبت لهم العقول فتدبروا بها عيب الأصنام ، وعلموا أنها لا تصلح للعبادة ، فوجهوا العبادة الى من فطر الاشياء ، كانت هذه المعرفة ثمرة العقل الموهوب لهم الذي به باينوا البهائم ، فاذا آمنوا بفعلهم الذي ندب اليه العقل الموهوب ، فقد جهلوا قدر الموهوب ، وغفلوا عمّن وهب ، وأي شيء لهم في الثمرة والشجرة ليست ملكاً لهم[١] ، فعلى هذا كل متعبد ومجتهد في علم وعمل إنما رأى بنور اليقظة ، وقوة الفهم والعقل ، صواباً ، فوقع على المطلوب . فينبغي أن يوجه الشكر الى من بعث له في ظلام الطبع القبس . ومن هذا الفن حديث الثلاثة الذين دخلوا الغار ، فانحطت عليهم صخرة فسدت باب الغار ،

---

(١) أي انه مادام العقل نفسه من خلق الله ، وهو ملك له ، فليس لصاحب العقل شيء يدعيه لنفسه ويفتخر به .

فقالوا : تعالوا نتوسل بصالح أعمالنا ، فقال كل منهم : فعلت كذا وكذا ، وهؤلاء ان كانوا لاحظوا نعمة الواهب للعصمة عن الخطأ فتوسلوا بانعامه عليهم الذي أوجب تخصيصهم بتلك النعمة عن أبناء جنسهم ، فبه توسلوا اليه ، وان كانوا لاحظوا أفعالهم فلمحوا جزاءها ظناً منهم أنهم هم الذين فعلوا فهم أهل غيبة لا حضور، ويكون جواب مسألتهم لقطع منهم الدائة . ومثل هذا رؤية المتقي تقواه حتى انه يرى انه أفضل من كثير من الخلق ، وربما احتقر أهل المعاصي وشمخ عليهم ، وهذه غفلة عن طريق السلوك ، وربما اخرجت ، ولا أقول لك خالط الفساق احتقاراً لنفسك ، بل اغضب عليهم في الباطن وأعرض عنهم في الظاهر وتلمح جريان الأقدار عليهم في الباطن فأكثرهم لا يعرف مَن عصى ، وجمهورهم لا يقصد العصيان ، بل يريد موافقة هواه ، وعزيز عليه أن يعصي ، وفيهم من غلب عليه تلمح العفو والحلم فاحتقر ما يأتي لقوة يقينه بالعفو ، وهذه كلها ليست بأعذار لهم ، ولكن تلمحه أنت يا صاحب التقوى ، واعلم أن الحجة عليك اوفى من الحجة عليهم ، لأنك تعرف من تعصي ، وتعلم ما تأتي ، بل انظر الى تقليب القلوب بين اصبعين فربما دارت الدائرة فصرت المنقطع ، ووصل المقطوع ، فالعجب ممن يُدل بخيرِ عمله ، وينسى من أنعم ووفق .

٧١ ـ الرد على المبتدعة والمشبهة

اعلم ان شرعنا مضبوط الاصول ، محروس القواعد ، لاخلل فيه ولا دخل ، وكذلك كل الشرائع ، إنما الآفة من المبتدعين في الدين أو الجهال ، مثل ما أثر عن النصارى حين رأوا إحياء الموتى على يد عيسى عليه السلام ، فتأملوا الفعل الخارق للعادة الذي لا يصلح للبشر ، فنسبوا الفاعل الى الآلهية ، ولو تأملوا ذاته لعلموا أنها مركبة على النقائص والحاجات ، وهذا القدر يكفي في عدم صلاح إلـهيته ، فيعلم حينئذ أن ما جرى على يديه فعل غيره ، وقد يؤثر ذلك في الفروع ، مثل ما روي انه فرض على النصارى صوم شهر فزادوا عشرين يوماً ، ثم جعلوه في فصل من السنة بآرائهم . ومن هـذا الجنس تخبيط اليهود في الاصول والفروع ، وقد قارب الضلال في أمتنا هذه المسالك ، وان كان عمومهم قد حُفظ من الشرك والشك والخلاف الظاهر الشنيع ، لأنهم أعقل الأمم وأفهمها ، غير أن الشيطان قارب بهم ولم يطمع في إغراقهم ، وإن كان قد أغرق بعضهم في بحار الضلال . فمن ذلك أن الرسول ﷺ جاء بكتاب عزيز من الله عز وجل قيل في صفته : « ما فرطنا في الكتاب من شيء » ، وبين ما عساه يشكل مما يحتاج الى بيانه بسنته كما قيل له : « لتبين للناس

ما نُزّل اليهم » ، فقال بعد البيان : تركتكم على بيضاء نقية ، فجاء أقوام فلم يقنعوا بتبيينه ، ولم يرضوا بطريقة أصحابه ، فبحثوا ثم انقسموا ، فمنهم من تعرض لما تعب الشرع في إثباته في القلوب فمحاه منها ، فان القرآن والحديث يثبتان الإله عز وجل بأوصاف تقرر وجوده في النفوس ، كقوله تعالى : « ثم استوى على العرش » وقوله تعالى « بل يداه مبسوطتان » وقوله تعالى « ولِتصنَع على عيني » ، وقول النبي صلى الله عليه وسلم : ينزل الله الى السماء الدنيا ويبسط يده لمسيء الليل[1] والنهار ، ويضحك ويغضب ، وكل هذه الأشياء وإن كان ظاهرها يوجب تخايل التشبيه ، فالمراد منها إثبات موجود ، فلما علم الشرع ما يطرق القلوب من التوهمات عند سماعها قطع ذلك بقوله : « ليس كمثله شيء » . ثم ان هؤلاء القوم عادوا الى القرآن الذي هو المعجز الأكبر . وقد قصد الشرع تقرير وجوده فقال : « إنّا أنزلناه » « نزل به الروح الأمين » « فذرني ومن يُكذب بهذا الحديث » « وهذا كتاب أنزلناه » . واثبته في القلوب بقوله تعالى : « في صدور الذين أوتوا العلم » وفي المصاحف بقوله تعالى : « في لوح محفوظ » وقول الرسول صلى الله عليه وسلم : لا تسافروا

---

(١) انظر الفصل « ٤٩ » والفصل « ٦١ » .

بالقرآن الى أرض العدو ، فقال قوم من هؤلاء: «مخلوق» فأسقطوا حرمته من النفوس ، وقالوا : لم ينزل ولا يتصور نزوله ، وكيف تنفصل الصفة عن الموصوف ، وليس في المصحف إلا حبر وورق ، فعادوا على ما تعب الشـــارع في إثباته بالمحو ، كما قالوا : إن الله عز وجل ليس في السماء ، ولا يقال استوى على العرش ، ولا ينزل الى السماء الدنيا ، بل ذاك رحمته ، فمحوا من القلوب ما أريد إثباته فيها ، وليس هذا مراد الشارع . وجاء آخرون فلم يقفوا على ما حده الشرع ، بل عملوا فيه بآرائهم فقالوا : الله على العرش ، ولم يقنعوا بقوله : « ثم استوى على العرش » ، ودفن لهم أقوام من سلفهم دفائن ، ووضعت لهم الملاحدة أحاديث ، فلم يعلموا ما يجوز عليه مما لا يجوز ، فأثبتوا بها صفاته . وجمهور الصحيح منها آت على توسع العرب فأخذوه هم على الظاهر ، فكانوا في ضرب المثل كجحا ، فان أمه قالت له : احفظ الباب ، فقلعه ومشى به ، فأخذ ما في الدار ، فلامته أمه فقال : إنما قلتِ احفظ الباب ، وما قلتِ احفظ الدار ، ولما تخايلوا صورة عظيمة على العرش ، أخذوا يتأولون ما ينافي وجودها على العرش ، مثل قوله : « ومن أتاني يمشي أتيته هرولة » . فقالوا : ليس المراد به دنو البـاب ، وإنما المراد قرب المنزل والحظ ، وقالوا في قوله تعـــالى : « إلا أن يأتيهم الله فى ظلل » ، هو محمول على

ظاهرها في مجيء الذات ، فهم يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ، ويسمون الاضافات الى الله تعالى صفات ، فانه قد أضاف اليه النفخ والروح . وأثبتوا خلقه باليد ، فلو قالوا خلقه لم يمكن انكار هذا بل قالوا هي صفة تولى بها خلق آدم دون غيره ، فأي مزية كانت تكون لآدم ؟ فشغلهم النظر في فضيلة آدم ، عن النظر الى ما هو يليق بالحق مما لا يليق به ، فانه لا يجوز عليه المس ، ولا العمل بالآلات ، وإنما آدم أضافه اليه . فقالوا : نطلق على الله تعالى اسم الصورة لقوله : «خلق آدم على صورته» وفهموا هذا الحديث وهو قوله عليه السلام : إذا ضرب أحدكم فليجتنب الوجه، ولا يقل قبّح الله وجهك ولا وجهاً أشبه وجهك ، فان الله خلق آدم على صورته . فلو كان المراد به الله عز وجل لكان وجه الله سبحانه يشبه وجه هذا الخاصم لان الحديث كذا جاء ، ولا وجهاً أشبه وجهك ، ورووا حديث خولة بنت حكيم : «وان آخر وطئة وطئها الله بوج » وما علموا النقل ولا السير وقول الرسول صلى الله عليه وسلم : «اللهم اشدد وطأتك على مضر » ، وان المراد به آخر وقعة قاتل فيها المسلمون بوج ، وهي غزاة حنين . فقالوا : نحمل الخبر على ظاهره وأن الله وطىء ذلك المكان ، ولا شك ان عندهم أن الله تعالى كان في الارض ثم صعد الى السماء ، وكذلك قالوا في قوله : « ان الله لا يمل حتى تملوا » ، قالوا : يجوز

أن الله يوصف بالملل فجهلوا اللغة وما علموا أنه لو كانت حتى ههنا للغاية لم تكن بمدح. لأنه إذا مل حين مَل فأي مدح. وإنما هو كقول الشاعر :

جلبت مني هذيل بخرق لا تمل الشـــر حتى يملوا

والمعنى لا يمل وإن ملوا ، وقالوا في قوله عليه الصلاة والسلام : الرحم شجنة من الرحمن تتعلق بحقوي الرحمن . فقالوا : الحقو ، صفة ذات وذكروا أحاديث لو رويت في نقض الوضوء ماقبلت وعمومها وضعته الملاحدة ، كما يروى عن عبد الله بن عمرو . قال : خلق الله الملائكة من نور الذراعين والصدر . فقالوا : نثبت هذا على ظاهره . ثم أرضوا العوام بقولهم ولا نثبت جوارح ، فكأنهم يقولون فلان قائم وما هو قائم ، فاختلف قولهم هل يطلق على الله عز وجل انه جالس أو قائم كقوله تعالى : « قائماً بالقسط » وهؤلاء أخس فهماً من جحا لأن قوله قائماً بالقسط لا يراد به القيام وإنما هو كما يقال الامير قائم بالعدل . وإنما ذكرت بعض أقوالهم لئلا يسكن الى شيء منها فالحذرُ من هؤلاء عبادةٌ ، وإنما الطريق طريق السلف على أنني أقول لك قد قال أحمد بن حنبل رحمة الله عليه : من ضيق علم الرجل أن يقلد في دينه الرجال ، فلا ينبغي أن تسمع من معظّم في النفوس شيئاً في الاصول فتقلده فيه ، ولو سمعت عن أحد ما لا يوافق الاصول الصحيحة فقل هذا من الراوي

لانه قد ثبت عن ذلك الامام انه يقول بشيء من رأيه . فلو قدرنا صحته عنه فانه لا يقلّد في الاصول ، ولا أبو بكر ولا عمر رضي الله عنهما ، فهذا أصل يجب البنـــاء عليه فلا يهولنك ذكر معظم في النفوس ، وكان المقصود من شرح هذا أن ديننا سليم ، وإنما أدخل أقوام فيه ما تأذينا به ، ولقد أدخل المتزهدون في الدين ما ينفر الناس ، حتى أنهم يرون أفعالهم فيستبعدون الطريق ، وأكثر أدلة هذه الطريق القصّاص ، فان العامي اذا دخل الى مجلسهم وهو لا يحسن الوضوء كلموه بدقائق الجنيد ، واشارات الشبلي ، فرأى ذلك العاميُّ أن الطريق الواضح لزوم زاوية وترك الكسب للعائلة ومناجاة الحق في خلوة على زعمه ، مع كونه لايعرف أركان الصلاة ولا أدّبه العلم ، ولا قوّم أخلاقه مخالطة العلماء ، فلا يستفيد من خلوته إلا كما يستفيد الحمار من الاصطبل . فان امتد عليه الزمان في تقلله زاد يبسه فربما خايلت له الماليخوليا أشبـــاحاً يظنهم الملائكة ثم يطاطيء رأسه ، ويمد يده للتقبيل ، فكم قد رأينا من أكـار ترك الزرع وقعد في زاوية فصـار الى هذه الحالة فاستراح من تعبه ، فلو قيل له عد مريضاً . قال : مالي عادة . فلعن الله عادة تخالف الشريعـة ، فيرى العـــامي بما يورده القصاص طريق الشرع هـذه لا التي عليها الفقهاء ، فيقعون في الضلال .

ومن المتزهدين من لا يبالي عمل بالشرع أم لا، ثم تتفاوت جهالهم، فمنهم من سلك مذهب الاباحة ويقول: «الشيخ لا يعارَض»، وينهمك في المعاصي .

ومنهم من يحفظ ناموسه فيفتي بغير علم ، لئلا يقال : الشيخ لا يدري . ولقد حدثني الشيخ أبو حكيم رحمة الله عليه : أن الشريف الدحاقي وكان يقصد فيزار ويتبرك به حضر عنده يوماً فسئل أبو حكيم : هل تحل المطلقة ثلاثاً اذا ولدت ذكراً ؟ قال : فقلت لا والله . فقال لي الشريف : اسكت فوالله لقد أفتيت الناس بأنها تحل من ههنا الى البصرة .

وحكى لي الشيخ أبو حكيم أن جد آذاد الحداد وكان يتوسم بالعلم جاءت اليه امرأة فزوجها من رجل ولم يسأل عن انقضاء العدة ، فاعترضها الحاكم وفرّق بينها وبين الزوج ، وأنكر علي المزوج ، فلقيته المرأة ، فقالت : ياسيدي أنا امرأة لا أعلم فكيف زوجتني ؟ فقال : دعي حديثهم ما أنت إلا طاهرة مطهرة .

وحدثني بعض الفقهاء عن رجل من العباد أنه كان يسجد للسهو سنين ، ويقول : والله ما سهوت ولكن أفعله احترازاً ، فقال له الفقيه : قد بطلت صلاتك كلها لأنك زدت سجوداً غير مشروع .

ثم من الدَّخَل الذي دَخَل في ديننا طريق المتصوفة ، فانهم سلكوا طرقاً أكثرها ينافي الشريعة . وأهل التدين منهم يتقللون ويتخففون ، وهذا ليس بشرع حتى أن رجلا كان قريباً من زماني يقال له كثير دخل الى جامع المنصور وقال : عاهدت الله عهداً ونقضته ، فقد ألزمت نفسي أن لا تأكل أربعين يوماً ، فحدثني من رآه أنه بقي عشرة أيام ثم في العشر الرابع أشرف على الموت ، قال : فما انقضت حتى تفرغ ، فصب في حلقه ماء فسمعنا له نشيشاً كنشيش المقلاة ثم مات بعد أيام .

فانظروا الى هذا المسكين وما فعله به جهله .

ومنهم من فسح لنفســـه في كل ما يحب من التنعم واللذات واقتنع من التصوف بالقميص والفوطة والعمامة اللطيفة ، ولم ينظر من أين يأكل ولا من أين يشـرب ، وخالط الأمراء من أرباب الدنيا ولُبّاس الحرير ، وشُرّاب الخمور ، حفظاً لماله وجاهه .

ومنهم أقوام عملوا سننـــاً لهم تلقوها من كلمات أكثرها لا يثبت .

ومنهم من أكب على سماع الغناء والرقص واللعب ثم انقسموا فمنهم من يدعي العشق فيـــه ، ومنهم من يقول بالحلول ، ومنهم

بسمع على وجه الهوى واللعب . وكلا الطريقين يفسد العوام الفساد العام .

وهذا الشرح يطول ، وقد صنفت كتباً ترى فيها البسط الحسن ان شاء الله تعالى . منها (تلبيس إبليس)،والمقصود أن تعلم أن الشرع تام كامل فان رزقت فهماً له فأنت تتبع الرسول ﷺ وأصحابه ، وتترك بنيات الطريق ولا تقلد في دينك الرجال ، فان فعلت فانك لا تحتاج الى وصية أخرى ، واحذر جمود النقلة ، وانبساط المتكلمين ، وجموع المتزهدين ، وشره أهل الهوى ، ووقوف العلماء على صورة العلم من غير عمل ، وعمل المتعبدين بغير علم ، ومن أيده الله تعالى بلطفه ورزقه الفهم ، وأخرجه عن ربقة التقليد ، وجعله أمة وحده في زمانه ، لايبالي بمن عبث ولا يلتفت الى من لام ، قد سلم زمامه الى دليله في واضح السبيل ، عصمنا الله وإياكم من تقليد المعظمين ، وألهمنا اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ، فانه درة الوجود ، ومقصود الكون[1] صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه وأتباعه ورزقنا اتباعه مع أتباعه .

---

(١) ما معنى (مقصود الكون) ؟ ان الكون بمعنى الخلق ، والله بين انه انما خلق الجن والانس لعبادته ، وليس في النقل ولا في العقل ان مقصود الكون محمد صلى الله عليه وسلم .

٧٢ ـ التقوى أصل السلامة

اعلم أن الزمان لا يثبت على حال كما قال عز وجل : « وتلك الأيام نداولها بين الناس » ، فتارة فقر وتارة غنى ، وتارة عز وتارة ذل ، وتارة يفرح الموالي وتارة يشمت الأعادي ، فالسعيد من لازم أصلاً واحداً على كل حال ، وهو تقوى الله عز وجل فانه ان استغنى زانته ، وان افتقر فتحت له أبواب الصبر ، وان عوفي تمت النعمة عليه ، وان ابتلي حملته ، ولا يضره ان نزل به الزمان أو صعد ، أو أعراه أو أشبعه أو أجاعه ، لأن جميع تلك الأشياء تزول وتتغير ، والتقوى أصل السلامة حارس لا ينام ، يأخذ باليد عند العثرة ، ويواقف على الحدود ، والمنكر من غرته لذة حصلت مع عدم التقوى فانها ستحول وتخليه خاسرا ، ولازم التقوى في كل حال فانك لا ترى في الضيق إلا السعة ، وفي المرض إلا العافية ، هذا نقدها العاجل والآجل معلوم .

٧٣ ـ قوة الإيمان

تأملت أمراً عجيباً ، وأصلاً ظريفاً ، وهو انهيال الابتلاء على المؤمن ، وعرض صور اللذات عليه مع قدرته على نيلها ، وخصوصاً ما كان في غير كلفة من تحصيله كمحبوب موافق في خلوة

حصينة . فقلت : سبحان الله ههنا يبين اثر الايمان لا في صلاة ركعتين ، والله ماصعد يوسف عليه السلام ولا سعد الا في مثل ذلك المقام ، فبالله عليكم ياخواني تأملوا حاله لو كان وافق هواه من كان يكون . وقيسوا بين تلك الحالة وحالة آدم عليه السلام ، ثم زنوا بميزان العقل عقبى تلك الخطيئة ، وثمرة هذا الصبر . واجعلوا فهم الحال عدة لكم عند كل مشتهى ، وان اللذات لتعرض على المؤمن فمتى لقيها في صف حربه وقد تأخر عنه عسكر التدبر للعواقب هزم ، وكأني أرى الواقع في بعض اشراكها ولسان الحال يقول له : قف مكانك ، أنت وما اخترت لنفسك ، فغاية أمره الندم والبكاء فان أمن اخراجه من تلك الهوة لم يخرج إلا موهونا بالخدوش ، وكم من شخص زلت قدمه فما ارتفعت بعدها . ومن تأمل ذل اخوة يوسف عليهم السلام يوم : « وتصدق علينا » عرف شؤم الزلل ، ومن تدبر أحوالهم قاس مابينهم وبين أخيهم من الفروق ، وان كانت توبتهم قبلت ، لانه ليس من رقع وخاط لمن ثوبه صحيح ، ورب عظم هيض لم ينجبر ، فان جبر فعلى وَهْي . فتيقظوا اخواني لعرض المشتبهات على النفوس ، واستوثقوا من لجم الخيل ، وانتبهوا للغيم إذا تراكم بالصعود الى تلعة فربما مدّ الوادي فراح بالركب .

٧٤ـ تأخر إجابة الدعاء

تأملت حالة عجيبة وهي أن المؤمن تنزل به النازلة فيدعو ويبالغ فلا يرى أثراً للاجابة ، فاذا قارب اليأس نظر حينئذ الى قلبه فإن كان راضياً بالاقدار غير قنوط من فضل الله عزوجل فالغالب تعجيل الاجابة حينئذ لأن هنـاك يصلح الايمان ويهزم الشيطان[١] ، وهناك تبين مقادير الرجال ، وقد أشير الى هذا في قوله تعالى : « حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه : متى نصر الله ؟ » . وكذلك جرى ليعقوب عليه السلام فانه لما فقد ولداً وطال الامر عليه لم ييأس من الفرج فأخذ ولده الآخر ولم ينقطع أمله من فضل ربه « أن يأتيني بهم جميعاً » . وكذلك قال زكريا عليه السلام « ولم أكن بدعائك رب شقياً » فاياك أن تستطيل مدة الاجابة . وكن ناظراً الى أنه المالك ، والى أنه الحكيم في التدبير ، والعالم بالمصالح ، والى أنه يريد اختبارك ليبلو أسرارك ، والى أنه يريد أن يرى تضرعك ، والى أنه يريد أن يأجرك بصبرك ، الى غير ذلك . والى أنه يبتليك بالتأخير لتحارب وسوسة إبليس ، وكل واحدة من هذه الاشياء تقوي

---

(١) على هامش النسخة الخطية : لعله وتبعد وسوسة الشيطان .

الظن في فضله ، وتوجب الشكر له إذ أهّلك بالبلاء للالتفات الى سؤاله ، والفقر المضطر إلى اللجوء اليه غِنىً كله .

٧٥ ـ اللذة والمنفعة

لما كان بدن الآدمي لايقوم إلا باجتلاب المصالح ودفع المؤذي ، ركب فيه الهوى ليكون سبباً لجلب النافع ، والغضب ليكون سبباً لدفع المؤذي ، ولولا الهوى في المطعم ، ماتناول الطعام فلم يقم بدنه ، فجعل له اليه ميل وتوق . فاذا حصل له قدر ما يقيم بدنه زال التوق ، وكذلك في المشرب والملبس والمنكح . وفائدة المنكح من وجهين . احدهما : إبقاء الجنس وهو معظم المقصودين . والثاني : دفع الفضلة المحتقنة المؤذي احتقانها ، ولولا تركيب الهوى المائل بصاحبه الى النكاح ماطلبه احد ، ففات النسل وآذى المحتقن . فأما العارفون فانهم فهموا المقصود ، وأما الجاهلون فانهم مالوا مع الشهوة والهوى ولم يفهموا مقصود وضعها فضاع زمانهم فيما لاطائل فيه ، وفاتهم ماخلقوا لأجله وأخرجهم هواهم الى فساد المال وذهاب العرض والدين ، ثم أداهم إلى التلف . وكم قد رأينا من متنعم يبالغ في شراء الجواري ليحرك طبعه بالمستجد فما كان بأسرع من أن وهنت قواه الاصلية فتعجل تلفه . وكذلك رأينا من زاد غضبه لخرج عن الحد ففتك بنفسه وبمن يحبه . فمن علم ان هذه

الاشياء إنما خلقت اعانة البدن على قطع مراحل الدنيا ، ولم تخلق لنفس الالتذاذ وإنما جعلت اللذة فيها كالحيلة في إيصال النفع بها ، إذ لو كان المقصود التنعم بها لما جعلت الحيوانات البهيمية أوفى حظاً من الآدمي منها ، فطوبى لمن فهم حقائق الوضع ، ولم يمل به الهوى عن فهم حكم المخلوقات .

٧٦ ـ المعاصي

من تأمل عواقب المعاصي رآها قبيحة ، ولقد تفكرت في أقوام أعرفهم يقرّون بالزنا وغيره ، فأرى من تعثرهم في الدنيا مع جلادتهم مالايقف عند حد ، وكأنهم قد البسوا ظلمة ، فالقلوب تنفر عنهم . فإن اتسع عليهم شيء فأكثره من مال الغير[١] ، وان ضاق بهم أمر أخذوا يتسخطون على القدر ، هذا وقد شغلوا بهذه الاوساخ عن ذكر الآخرة ، ثم عكستُ فتفكرتُ في أقوام صابروا الهوى ، وتركوا مالايحل . فمنهم من قد أينعت له ثمرات الدنيا من قوت مستلذ ، ومهاد مستطاب ، وعيش لذيذ ، وجاه عريض ، فإن ضاق بهم أمر وسعه الصبر ، وطيّبه الرضا ، ففهمت بالحال معنى قوله تعالى : « انه من يتق ويصبر فان الله لايضيع أجر المحسنين » .

---

(١) غير لاتعرف ولايقال فيها « الغير » لانها ابلغ الالفاظ في التنكير ، وربما الحق « كل » و « بعض » فمع انه يقال « الكل » و « البعض »

٧٧ ـ الأنس بالله

ينبغي للعاقل أن يلازم باب مولاه على كل حال ، وانه يتعلق بذيل فضله ان عصى وان أطاع ، وليكن له انس في خلوته به ، فان وقعت وحشة فليجتهد في رفع الموحش ، كما قال الشاعر :

أمستوحش أنت مما جنيـ ـت فاحسن اذا شئت واستأنس

فان رأى نفسه مائلا الى الدنيا طلبها منه ، أو الى الآخرة سأله التوفيق للعمل لها ، فان خاف ضرر مايرومه من الدنيا سأل الله اصلاح قلبه ، وطب مرضه ، فانه اذا صلح لم يطلب مايؤذيه . ومن كان هكذا كان في العيش الرغد غير أن من ضرورة هذه الحال ملازمة التقوى ، فانه لايصلح الانس إلا بها ، وقد كان أرباب التقوى يتشاغلون عن كل شيء إلا عن التلجيء والسؤال ، وفي الخبر ، ان قتيبة بن مسلم لما صافّ[1] الترك هاله امرهم فقال : اين محمد بن واسع ؟ فقيل هـو في اقصى الميمنة جانح على سِيَةِ قوسه يومي باصبعه نحو السماء ، فقال قتيبة : تلك الاصبع الفاردة ، أحب إلي من مائة الف سيف شهير ، وسنان طرير . فلما فتح عليهم قال له : ما كنت تصنع ؟ قال : آخذ لك بمجامع الطرق .

---

(١) اي لما وقف حيالهم في الحرب .

٧٨ـ كتمان الامور

ينبغي لمن تظاهرت نعم الله عز وجل عليه ان يظهر منها مايبين أثرها ، ولا يكشف جملتها ، وهذا من أعظم لذات الدنيا التي يأمر الحزم بتركها ، فان العين حق . واني تفقدت النعم فرأيت إظهارها حلواً عند النفس إلا أنها ان أظهرت لوَديد لم يؤمن تشفّت باطنه بالغيظ ، وان أظهرت لعدو فالظاهر إصابته بالعين لموضع الحسد ، إلا أنني رأيت بُعد الحسود كاللازم ، فانه في حال البلاء يتشفى ، وفي حـــال النعم يصيب بالعين ولعمري إن المنعم عليه يشتهي غيظ حسوده ، ولكنه لايؤمن أن يخاطر بنعمته ، فان الغالب اصابة الحاسد لهـــا بالعين ، فلا يساوي الالتذاذ باظهار ماغيظ به مافسدت عينه باصابتها ، وكتمان الامور في كل حال فعل الحازم ، فانه ان كشف مقدار سنه استهرموه ان كان كبيراً ، واحتقروه ان كان صغيراً ، وان كشف مايعتقده ناصبه الاضدادُ بالعداوة ، وان كشف قدر ماله استحقروه ان كان قليلا ، وحسدوه ان كان كثيراً ، وفي هذه الثلاثة يقول الشاعر :

احفظ لسانك لاتبح بثلاثة سن ومال ما استطعت ومذهب

فعلى الثلاثة تبتلى بثلاثة بمموه وبمخرق ومكذب

وقس على ماذكرت مالم اذكره ، ولاتكن من المذاييع الغر الذين لايحملون أسرارهم حتى يفشوها الى من لايصلح ، ورب كلمة جرى بها اللسان ، هلك بها الانسان .

٧٩ ـ عبرة العثرة

رأيت كل من يعثر بشيء أو يزلق في مطر يلتفت الى ما عثر به ، فينظر اليه ، طبعاً موضوعاً في الخلق ، إما ليحذر منه إن جاز عليه مرة اخرى من مثله ، أو لينظر مع احترازه وفهمه كيف فاته التحرز من مثل هذا ، فاخذت من ذلك اشارة وقلت : يامن عثر مراراً هلاّ أبصرت ماالذي عثرك فاحترزت من مثله ، أو قبحت لنفسك مع حزمها تلك الواقعة ، فإن الغالب ممن يلتفت أن معنى التفاته : كيف عثر مثلي مع احترازه بمثل ما ارى ؟ فالعجب لك كيف عثرت بمثل الذنب الفلاني والذنب الفلاني ؟ كيف غرك زخرف تعلم بعقلك باطنه ، وترى بعين فكرك مآله ؟ كيف آثرت فانياً على باق ؟ كيف بعت بِوَكْس[1] ؟ كيف اخترت لذة رقدة على انتباه معاملة ؟ آه لك لقد اشتريت بما بعت أحمال ندم لا يُقِلـّها ظهر[2] ، وتنكيس رأس أمسى بعيد الرفع ، ودموع حَزَن على قبح فعل مالمددها انقطاع ، واقبح الكل أن يقال لك : بماذا ؟ ومن أجل ماذا ؟

---

(١) اي بغبن (٢) اي لاتحملها دابة .

وهذا على ماذا ؟ يامن قلب الغرور عليه الصنبحة ، ووزن له والميزان راكب[١] .

٨٠ - اتباع القرآن والسنة

تأملت قوله تعالى : « فمَن اتّبعَ هُدايَ فلا يَضلُّ ولا يشقى » قال المفسرون : هداي رسول الله ﷺ وكتابي . فوجدته على الحقيقة أن كل من تبع القرآن والسنة وعمل بما فيهما ، فقد سلم من الضلال بلا شك . وارتفع في حقه شقاء الآخرة بلا شك ، اذا مات على ذلك . وكذلك شقاء الدنيا فلا يشقى أصلا . ويبين هذا قوله تعالى : « ومن يتق الله يجعلْ له مخرجا » . فان رأيته في شدة فله من اليقين بالجزاء مايصير الصاب[٢] عنده عسلا ، والا غلب طيب العيش في كل حال ، والغالب أنه لاينزل به شدة الا اذا انحرف عن جادة التقوى . فاما الملازم لطريق التقوى فلا آفة تطرقه ، ولا بلية تنزل به ، هذا هو الاغلب . فان ندر من تطرقه البلايا مع التقوى فذاك في الاغلب لتقدم ذنب يجازى عليه ، فان قدرنا عدم الذنب ، فذاك لادخالِ ذَهَبِ صَبْرِه كِيرَ البلاء حتى يخرج تبراً أحمر فهو يرى عذوبة العذاب ، لانه يشاهد المبتلى في البلاء الآلمَ . قال الشبلي : أحبك الناس لنعمائك ، وانا أحبك لبلائك .

---

(١) الصنبحة مايوزن به ، والميزان راكب ، اي متملق لايتحرك ولايزن .

(٢) الصاب : المر كالعلقم والصبر .

٨١- لذة المعصية ساعة

لاينال لذة المعاصي الا سكران الغفلة ، فاما المؤمن فانه لايلتذ لأنه عند التذاذه يقف بازائه علم التحريم ، وحذرالعقوبة فان قويت معرفته رأى بعـــين علمه قرب الناهي ، فيتنغص عيشه في حال التذاذه ، فان غلب سكر الهوى كان القلب متنغصاً بهذه المراقبات ، وان كان الطبع في شهوته وما هي الا لحظة ، ثم خذ من غريم ندم ملازم ، وبـكاء متواصل ، واسف على ما كان مع طول الزمان ، حتى أنه لو تيقن العفو وقف بازائه حذار العتاب ، فأفٍّ للذنوب ما أقبح آثارها ، وما أسوأ اخبارها ، ولا كانت شهوة لاتنال الا بمقدارقوةالغفلة.

٨٢ - حق البدن

بكرت يوماً أطلب الخلوة الى جامع الرصافة . فجعلت اجول وحدي واتفكر في ذلك المـكان ومن كان به من العلماء والصالحين ، ورأيت أقواماً قد جاوروا فيه فسألت أحدهم : منذ كم أنت هاهنا ؟ فأومأ الى قريب من أربعين سنة ،فرأيته في بيت كثير الدرن والوسخ وجعلت أتفكر في حبسه لنفسه عن النـكاح هذه المدة . فأخذت النفس تحسن ذلك ، وتذم

الدنيا والاغترار بها ، فأقبل العلم ينكر على النفس ، ونهض الفهم لحقائق الامور ، وموضوع الشرع يقوي ما قال العلم فينحل من ذلك أن قلت للنفس : اعلمي أن هؤلاء على ضربين : منهم من يجاهد نفسه في الصبر على هذه الاحوال فتفوته فضائل المخالطة لاهل العلم والعمل وطلب الولد ، ونفع الخلق ، وانتفاع نفسه بمجالسة أهل الفهم ، فيحدث له من نفسه حالة تشابه فيها الوحش ، فيؤثر الانفراد لنفس الانفراد وربما حبس الطبع ، وساء الخلق ، وربما حدث من حبس مائه المحتقن سُمّيّة أفسدت بدنه وعقله ، وربما أورثته الخلوة وسوسة ، وربما ظن أنه من الاولياء واستغنى بما يعرفه ، وربما خيل له الشيطان أشياء من الخيالات وهو يعدها كرامات ، وربما ظن أن الذي هو فيه الغاية ولايدري أنه الى الكراهة اقرب ، فان رسول الله ﷺ : نهى أن يبيت الرجل وحده ، وهؤلاء كل منهم يبيت وحده ، ونهى عن التبتل وهذا تبتل ، ونهى عن الرهبانية وهذا من خفي خدع ابليس التي يوقع بها في ورطات الضلال بألطف وجه وأخفاه .

والضرب الثاني : مشايخ قد فنوا فانقطعوا ضرورة ، اذ ليس لاحدهم مأرب فهم في مقام الزمنى ، وإن كان الضرب الاول قطعوا حبل نفوسهم في العلم والعمل والكسب وتعلقت

همهم بفتوح[١] يطرق عليهم الباب ، فرضوا بالعمى بعدالبصر، وبالزمن[٢] بعد الاطلاق .

فقالت لي النفس : لا أرضى هذا الذي تقوله ، فانك انما تميل الى ايثار نكاح المستحسنات والمطاعم والمشتهيات ، فاذا لم تكن من أهل التعبد فلا تطمن فيهم .

فقلت لها : ان فهمت حدثتك ، وان كنت تقلدين صور الاحوال فلا فهم لك .

أما المستحسنات فان المقصود من النكاح اشياء منها طلب الولد ، ومنها شفاء الفنس باخراج الفضلة المؤذية[٣] ، وكمال خروجها لايكون الا بوجود المستحسن . واعتبر هذا بالوطء دون الفرج فانه يخرج من الفضلات ما لايخرج بالوطء في الفرج وبتمام خروج تلك الفضلة تفرغ النفس عن شواغلها ، فتدري أين هي ، كما نأمر القاضي بالاكل قبل الحكم ، وننهاه عن الحكم وهو غضبان أو حاقن . وبكمال بلوغ هذا الغرض يكون كمال الولد لتمام النطفة التي تخلق منها ، ثم للنفس حظ فهو يستوفيه استيفاء الناقة حظها من العلف في السفر ، وذلك يعين على سيرها .

---

(١) اي بشيء يفتح به عليهم : عطية او هدية

(٢) اي الزمنة : المرض المزمن المقعد (٣) تقدم هذا المعنى مرارا

واما المطاعم فالجاهل من يطلبها لذاتها أو لنفس لذاتها . وإنما المراد إصلاح عدم الناقة بجمع همها ،ونيل مرادها من غرضها الصارف لها عن الفكر في هواها .

واذا تأملت حال الشرب الاول رأيت من هذا عجباً ، فان النبي ﷺ اختار لنفسه عائشة رضي الله عنها وكانت مستحسنة ، ورأى زينب فاستحسنها فتزوجها ، وكذلك اختار صفية[١] وكان اذا وصفت له امرأة بعث يخطبها [٢].

وكان لعلي رضي الله عنه اربع حرائر . وسبع عشرة سرية مات عنهن ، وقبل هذه الامة فقد كان لداود عليه السلام مائة امرأة ولسليمان عليه السلام الف امرأة . فمن ادعى خللا في هذه الطرق ، او أن هؤلاء آثروا هواهم ، وانفقوا بضائع العمر في هذه الاغراض وغيرها أفضل ، فقد ادعى على الكاملين النقصان وانما هو الناقص فهمه لاهم ؟

وقد كان سفيان الثوري اذا سافر ففي سفرته حمل مشوي وفالوذج ، وكان حسن المطعم ، وكان يقول إن الدابة اذا لم

---

(١) كلا ، ولكن اختيار عائشة لمكانة ابي بكر ، وزينب امتثالا للامر ، وصفية لمصلحة سياسية ، ولو كان قصده الجمال ما كانت زوجاته الباقيات كلهن كبيرات ثيبات ، ولما رضي وهو في شرخ الشباب ، وهو قبل النبوة بخديجة وهي اكبر منه ولم يجمع معها غيرها على ان ابتغاء الجمال في الزواج مطلوب شرعا وهو من السنة ، وهو أدعى للالفة والاحصان . (٢) متى كان ذلك ؟

تحسن اليها لم تعمل ، وهذه الفنون التي أشرت اليها ان قصدت الحاجة اليها ، أو لقضاء وطر النفس منها ، او لبلوغ الاغراض الدينية والدنيوية منها ، فكله قصد صحيح لايعكر عليه حاله.

ومن يقوم ويقعد في ركعات لايفهم معناها ، وفي تسبيحات أكثر الفاظها ردية[١] ، كلا ليس الا العـــلم الذي هو أفضل الصفات ، وأشرف العبادات ، وهو الآمر بالمصالح ، والناطق بالنصائح ، ثم منفعة العلم معروفة ، وزهد الزاهد لايتعدي عتبة بابه ، وقد قال ﷺ : « لأن يهدي الله بك رجلاً خير لك مما طلعت عليه الشمس . »

ثم اعتبر فضل الرسل على الانبياء عليهم الصلاة والسلام ، والجوارح[٢] على التي لاتصيد ، والطين الذي يعمل منه ماينتفع به على الطين في المقلع ، وغاية العلماء تصرفهم بالعلم في المباح ، وأكثر المتزهـــدين جهلة يستعبدهم تقبيل اليد لأجل تركهم ما أبيح ، فكم فوتت العزلة علماً يصلح به أهل الدين . وكم أوقعت في بلية هلك بها الدين ، وانما عزلة العـالم عن الشر فحسب[٣] ، والله الموفق .

---

(١) لم يرد في المخطوط ولا المطبوع خبر المبتدأ ، وتقديره ظاهر

(٢) اي الطيور التي كانوا يدربونها ويصطادون بها كالبازي والصقر ، انظر كتاب (البيزرة) . وكتاب (حياة الحيوان للدميري) .

(٣) انظر الفصل «٦٤»

٨٣ ـ لاتغتر بحلم الله

ينبغي لكل ذي لب وفطنة أن يحذر عواقب المعاصي . فإنه ليس بين الآدمي وبين الله تعالى قرابة ولا رحم ، وإنما هو قائم بالقسط ، حاكم بالعدل ، وان كان حلمه يسع الذنوب ، إلا أنه اذا شاء عفا فعفا عن كل كثيف من الذنوب ، واذا شاء أخذ باليسير ، فالحذر الحذر . ولقد رأيت أقواماً من المترفين كانوا يتقلبون في الظلم والمعاصي باطنة وظاهرة ، فتعبوا من حيث لم يحتسبوا ، فقلعت اصولهم ، ونقض ما بنوا من قواعد أحكموها لذراريهم ، وما كان ذلك إلا أنهم أهملوا جانب الحق عز وجل ، وظنوا أن مايفعلونه من خير يقاوم مايجري من شر ، فمالت سفينة ظنونهم ، فدخلها من ماء الكيد ما أغرقهم .

ورأيت أقواماً من المنتسبين الى العلم أهملوا نظر الحق عز وجل إليهم في الخلوات ، فمحا محاسن ذكرهم في الجلوات فكانوا موجودين كالمعدومين ، لا حلاوة لرؤيتهم ، ولا قلب يحن الى لقائهم .

فالله الله في مراقبة الحق عز وجل ، فإن ميزان عدله تبين فيه الذرة ، وجزاؤه مراصد للمخطىء ولو بعد حين ،

وربما ظن أنه العفو وإنما هو إمهال ، وللذنوب عواقب سيئة ، فالله الله . الخلوات الخلوات . البواطن البواطن . النيات النيات . فإن عليكم من الله عيناً ناظرة ، وإياكم والاغترار بحلمه وكرمه ، فكم قد استدرج .

وكونوا على مراقبة الخطايا مجتهدين في محوها ، وما شيء ينفع كالتضرع مع الحمية عن الخطايا فلعله !

وهذا فصل اذا تأمله المعامل لله تعالى نفعه ، ولقد قال بعض المراقبين لله تعالى : قدرت على لذة وليست بكبيرة ، فنازعتني نفسي إليها اعتماداً على صغرها ، وعظم فضل الله تعالى وكرمه . فقلت لنفسي : ان غلبت هذه فأنت أنت ، واذا اتيت هذه فمن أنت ؟ وذكرتها حالة أقوام كانوا يفسحون لأنفسهم في مسامحة كيف انطوت أذكارهم ، وتمكنت عقوبة الاعراض منهم ، فارعوت ورجعت عما همت به والله الموفق .

٨٤ ـ لاتستصغر الذنوب

كثير من الناس يتسامحون في أمور يظنونها قريبة ، وهي تقدح في الاصول ، كاستعارة طلاب العلم جزءاً لايردونه ، وقصد الدخول على من يأكل ليؤكل معه ، والتسامح بعرض العدو التذاذاً بذلك ، واستصغاراً لمثل هذا الذنب ، وإطلاق

البصر استهانةً بتلك الخطيئة ، وفتوى من لايعلم لئلا يقال هو جاهل ، ونحو ذلك مما يظن صغيراً وهو عظيم ، وأهون مايصنع ذلك بصاحبه ان يحطه من مرتبة المتميزين بين الناس ، ومن مقام رفعة القدر عند الحق ، وربما قيل له بلسان الحال: يامن اؤتمن على امر يسير فخان ، قال بعض السلف : تسامحت بلقمة فتناولتها فأنا اليوم اربعين سنة الى خلف ، فالله الله ! اسمعوا ممن قد جرّب ، كونوا على مراقبة ، وانظروا في العواقب ، واعرفوا عظمة الناهي ، واحذروا من نفخة تحتقر ، وشررة تستصغر فربما أحرقت بلداً .

وهذا الذي أشرت إليه يسير يدل على كثير ، وأنموذج يعرف باقي المحقرات من الذنوب ، والعلم والمراقبة يعرفانك ما أخللت بذكره ، ويعلمانك ان تلمحت بعين البصيرة أثر شؤم فعله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

٨٥ـ وجوب التوبة

رأيت من نفسي عجباً تسأل الله عز وجل حاجاتها ، وتنسى جناياتها ، فقلت : يا نفس السوء أو مثلك ينطق ؟ فان نطق فينبغي ان يكون السؤال العفو فحسب .

فقالت : فممّن أطلب مرادي ؟

قلت : ما أمنعك من طلب المراد ، انما اقول حققي التوبة وانطقي ، كما تقول في القاصي بسفره اذا اضطر الى الميتة لايجوز له ان يأكل ، فإن قيل لنا : أفيموت .؟

قلنا لا بل يتوب ويأكل ؟

فالله الله من جراءة على طلب الاغراض مع نسيان ماتقدم من الذنوب التي توجب تنكيس الرأس ، ولئن تشاغلت بإصلاح مامضى والندم عليه جاءتك مراداتك ، كما روى : «من كان شغله ذكري عن مسألتي اعطيته أفضل ما أعطي السائلين» ، وقد كان بشر الحافي يبسط يديه للسؤال ثم يسلبها ويقول : مثلي لايسأل ، ما أبقت الذنوب لي وجهاً .

وهذا يختص ببشر لقوة معرفته . كان وقت السؤال كالخاطب كفاحاً فاستحيا للزلل ، فأما أهل الغفلة فسؤالهم على بعد .

فافهم ما ذكرته وتشاغل بالتوبة من الزلل . ثم العجب من سؤالاتك فإنك لا تكاد تسأل مهما من الدنيا ، بل فضول العيش ، ولا تسأل صلاح القلب والدين مثل ماتسأل صلاح الدنيا ، فاعقل أمرك فانك من الانبساط والغفلة على شفا جرف وليكن حزنك على زلاتك شاغلاً لك عن مراداتك ، فقد كان الحسن البصري شديد الخوف ، فلما قيل له في ذلك قال : وما يؤمنني ان يكون اطلع على بعض ذنوبي فقال اذهب لاغفرت لك.

٨٦ ـ من عرف الله خافه

أعجب العجب دعوى المعرفة مع البعد عن العرفان بالله ، ماعرفه إلا من خاف منه ، فاما المطمئن فليس من أهل المعرفة ، وفي المتزهدين أهل تغفيل يكاد أحدهم يوقن أنه ولي محبوب ومقبول ، وربما توالت عليه ألطاف ظنها كرامات ، ونسي الاستدراج الذي لقت مساكنته الألطاف ، وربما احتقر غيره وظن ان محلته محفوظة به . تغره رُكَيْعات ينتصب فيها ، او عبادة يَنْصَب بها ، وربما ظن انه قطب الارض وأنه لاينال مقامه بعده أحد . وكأنه ماعلم أنه بينا موسى مكالم نبيٌ يوشع ، وبينا زكريا عليه السلام بجاب نشر بالمنشار ، وبينا يحيى عليه السلام يوصف بأنه سيدسلط عليه كافر احتز رأسه ، وبينا بلعام معه الاسم الأعظم صار مثله كمثل الكلب ، وبينا الشريعة يعمل بها نسخت وبطل حكمها ، وبينا البدن معمور خرب وسلط البلى عليه ، وبينا العالم يدأب حتى ينال مرتبة يعتقدها ، نشأ طفل في زمان ترقى الى سبر عيوبه وغلطه ، وكم من متكلم يقول : ما مثلي لو عاش فسمع ما حدث بعده من الفصاحة عد نفسه أخرس هذا وعظ ابن السماك ، وابن عمار ، وابن سمعون ، لايصلح لبعض

تلامذتنا ولا يرضاه[١] ، فكيف يعجب من ينفق[٢] شيئاً ؟ وربما اتى بعدنا من لا يعدنا .

فالله الله من مساكنة مسكن ، ومخالفة مقام . وليكن المتيقظ على انزعاج محتقراً الكثير من طاعاته ، خائفا على نفسه من تقلباته ، ونفوذ الاقدار فيه . واعلم ان تلمح هذه الاشياء التي أشرت اليها يضرب عنق العجب ، ويذهب كبر الكبر[٣].

٨٧ ـ اذكر ربك في زمن البلاء

من عاش مع الله عز وجل طيب العيش في زمن السلامة خفت عليه في زمن البلاء ، فهناك المحك . ان الملك عز وجل بينا يبني نقض ، وبينا يعطي سلب ، فطيب العيش والرضى هناك يبين ، فاما من تواصلت لديه النعم فانه يكون طيب القلب لتواصلها ، فاذا مسته نفحة من البلاء فبعيد ثباته .

قال الحسن البصري : كانوا يتساوون في وقت النعم فإذا نزل البلاء تباينوا .

فالعاقل من أعد ذخراً ، وحصل زاداً ، وازداد من العدد

(١) انا لم اكد اسمع كلاما لواعظ اعلى طبقة من كلام ابن السماك وهو ابلغ من كل من قرأت له من ائمة الترسل واساتذة البيان .

(٢) أي ينفق سوقه ، من النفاق « بفتح النون »

(٣) اي جله ومعظمه قال تعالى (والذي تولى كبره)

لقاء حرب البلاء ، ولابد من لقاء البلاء ، ولو لم يكن إلا عند صرعة الموت ، فانها إن نزلت والعياذ بالله فلم تجد معرفة توجب الرضى أو الصبر ، اخرجت الى الكفر ، ولقد سمعت بعض من كنت أظن فيه كثرة الخير وهو يقول في ليالي موته : ربي هو ذا يظلمني . فلم أزل منزعجاً مهتماً بتحصيل عدة ألقى بها ذلك القرن . كيف وقد روي أن الشيطان يقول لأعوانه في تلك الساعة : عليكم بهذا ، فان فاتكم لم تقدروا عليه . وأي قلب يثبت عند امساك النفس ، والاخذ بالكظم ونزع النفس والعلم بمفارقة المحبوبات الى مالايدري ماهو ، وليس في ظاهره الا القبر والبلاء .

فنسأل الله عزوجل يقيناً يقينا شر ذلك اليوم ، لعلنا نصبر القضاء ، أو نرضى به ، ونرغب الى مالك الامور في أن يهب لنا من فواضل نعمه على أحبابه ، حتى يكون لقاؤه أحب الينا من بقائنا ، وتفويضنا الى تقديره اشهى لنا من اختيارنا ، ونعوذ بالله من اعتقاد الكمال لتدبيرنا ، حتى إذا انعكس علينا امر عدنا الى القدر بالتسخط . وهذا هو الجهل المحض ، والخذلان الصريح أعاذنا الله منه .

٨٨ ــ صفة العارف بالله

ليس في الدنيا ولا في الآخرة أطيب عيشاً من العارفين بالله

عز وجل ، فان العارف به مستأنس به في خلوته ، فإن عمت نعمه علم من أهداها ، وان مَرّ مُرٌّ حلا مذاقُه في فيه ، لمعرفته بالمبتلي . وان سأل فتعوق مقصودُه ، صار مرادَه ماجرى به القدر علماً منه بالمصلحة بعد يقينه بالحكمة ، وثقته بحسن التدبير . وصفة العارف أن قلبه مراقب لمعروفه[1] ، قائم بين يديه ، ناظر بعين اليقين اليه ، فقد سرى من بركة معرفته الى الجوارح ماهذبها :

فإن تكلمت لم انطق بغيركم وان سكت فانتم عقد إضماري

إذا تسلط على العارف أذى أعرض نظره عن السبب ولم يرى سوى المسبب ، فهو في أطيب عيش معه ، ان سكت تفكر في اقامة حقه ، وان نطق تكلم بما يرضيه[2] لايسكن قلبه الى زوجة ولا الى ولد ، ولايتشبث بذيل محبة احد ، وانما يعاشر الخلق ببدنِه وروحهُ عند مالك روحِه . فهذا الذي لاهمّ عليه في الدنيا ولاغمّ عنده وقت الرحيل عنها ، ولا وحشة له في القبر ولا خوف عليه يوم المحشر .

فأما من عَدِم المعرفة فانه معثر لايزال يضج من البلاء لانه لايعرف المبتلي ويستوحش لفقد غرضه لأنه لايعرف المصلحة ، ويستأنس بجنسه لانه لامعرفة بينه وبين ربه ، ويخاف من الرحيل لانه لازاد له ولا معرفة بالطريق .

---

(١) يعني الله جل جلاله   (٢) اي يرضى الله

وكم من عالم وزاهد لم يرزقا من المعرفة الا مارزقه العامي البطال ، وربما زاد عليها !.

وكم من عامي رزق منها مالم يرزقاه مع اجتهادهما ، وانما هي مواهب وأقسام[1]. ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

٨٩ ـ الصبر على التقوى

بالله عليك يامرفوع القدر بالتقوى لاتَبِعْ عزّها بذلّ المعاصي ، وصابر عطشَ الهوى في هجير المُشتهى وان أمضّ وأرمض ، فاذا بلغت النهاية من الصبر فاحتكم وقل . فهو مقام من لوأقسم على الله لابره .

تالله لولا صبر عمر ماانبسطت يده بضرب الارض بالدِرّة ، ولولا جِدّ انس بن النضرفي ترك هواه . وقد سمعت من آثار عزمته « لئن اشهدني الله مشهداً ليرين الله ما اصنع » فاقبل يوم أحد يقاتل حتى قتل فلم يعرف الا ببنانه . فلولا هذا العزم ما كان للانبساط ، يوم « والله لانكسر سن الربيع[2] » وجه ، بالله عليك تذوق حلاوة كَفّ الكِفّ عن المنهي ، فانها شجرة تثمر عز الدنيا وشرف

---

(١) الاقسام جمع قسم وهو النصيب

(٢) راجع القصة في سيرة ابن هشام

الآخرة ، ومتى اشتد عطشك الى ماتهوى فابسط أنامل الرجاء الى من عنده الرِيّ الكامل ، وقل قد عيل صبر الطبع في سنيه العجاف ، فعجل لي العام (١) الذي فيه اغاث وأعصر .

بالله عليك تفكر فيمن قطع أكثر العمر في التقوى والطاعة ثم عرضت له فتنة في الاخير ، كيف نطح مركبهُ الجرفَ فغرق وقت الصعود .

أفٍ والله للدنيا لابل للجنة إن أوجب نيلها اعراض الحبيب ! انما نسبُ العامي باسمه واسم أبيه ، فاماذوو الاقدار فالالقاب قبل الانساب .

قل لي من أنت وماعملك والى أي مقام ارتفع قدرك ، يامن لايصبر لحظة عمايشتهي . بالله عليك أتدري من الرجل ؟

الرجل والله من اذا خلا بما يحب من المحرم وقدر عليه وتقلقل عطشاً اليه نَظَرَ الى نَظَر الحق اليه فاستحى من اجالة همه فيما يكرهه ، فذهب العطش .

كأنك لاتترك لنا الاما لاتشتهي ؟ أو مالاتصدق الشهوةُ فيه ؟ أو مالاتقدر عليه ؟ كذا والله عادتك إذا تصدقت اعطيت كسرة لاتصلح لك ، أو في جماعة يمدحونك ؟ هيهات والله لانلت ولايتنا حتى تكون معاملتك لنا خالصة . تبذلُ اطايبَك ، وتتركُ مشتهياتِك ، وتصبرُ على مكروهاتِك ،

---

(١) السنة لايام الجدب ومن ذلك قوله « اسنت القوم » و« اصابتهم السنة » والعام لاياب الخصب ، اذكر آيات سورة يوسف .

مقتاً منك ان كنت معاملا بأنك اجير وماغربت الشمس [١].
فان كنت محباً رأيت ذلك قليلا في جنب رضا حبيبك عنك ،
وما كلا منا مع الثالث [٢].

٩٠ ــ إذاً عليك بالتسليم

رأيت في العقل نوع منازعة لتطلع الى جميع حِكَمِ الحق عز وجل في حُكْمِهِ ، فربما لم يتبين له بعضها مثل النقض بعد البناء ، فيقف متحيراً وربمـــا انتهز الشيطان تلك الفرصة ، فوسوس اليه : أين الحكمة من هذا ؟

فقلت له : احذر أن تخدع يامسكين ، فانه قد ثبت عندك بالدليل القاطع لما رأيت من اتقان الصانع حكمة الصانع ، فان خفي عليك بعض الحكم فلضعف ادراكك . ثم مازالت للملوك اسرار ، فمن انت حتى تطلـــع بضعفك على جميع حكمه . يكفيك الجمل [٣] وإياك إياك أن تتعرض لما يخفى عليك . فانك بعض موضوعاته وذرة من مصنوعاته . فكيف تتحكم على من صدرت عنه ، ثم قد ثبتت عندك حكمته في حكمه وملكه ؟

---

(١) اي لم يفته يوم العمل

(٢) اي الذي لايرى نفسه عبد الله اجيراً . ولا محباً له مطيعاً .

(٣) اي فهم جملة الامر . وقد تقدم هذا المعنى مرارا ـ وهو الطريق المأمون لمن يريد الوصول الى حقيقة الايمان بالقضاء والقدر .

فاعمل آلتك على قدر قوتك في مطالعة ما يمكن من الحكم ، فانه سيورثك الدهش . وغمض عما يخفى عليك فحقيق بذي البصر الضعيف ألا يقاوي [1] نور الشمس !

٩١ ـــ مجاهدة النفس

أعجب الاشياء مجاهدة النفس ، لأنها تحتاج الى صناعة عجيبة ، فان أقواماً اطلقوها فيما تحب ، فاوقعتهم فيما كرهوا وإن أقواماً بالغوا في خلافها حتى منعوها حقها ، وظلموها . وأثر ظلمهم لها في تعبداتهم . فنهم من أساء غذاءها فأثر ذلك ضعف بدنها عن اقامة واجبها ، ومنهم من افردها في خلوة أثمرت الوحشة من الناس ، وآلت الى ترك فرض أو فضل من عيادة مريض ، أو بر والدة ، وانما الحازم من تعلم منه نفسه الجد وحفظ الاصول ، فاذا فسح لها في مباح لم تتجاسر أن تتعداه فيكون معها كالملك اذا مازح بعض جنده ، فانه لاينبسط اليه الغلام ، فان انبسط ذكر هيبة المملكة . فكذلك المحقق يعطيها حظها ويستوفي منها ماعليها .

٩٢ ـ لاتضيّع ساعات العمر

رأيت عموم الخلائق يدفعون الزمان دفعاً عجيباً . إن طال

---

(١) اي يسابقها بقوله . ووزن (فاعلته) بهذا المعنى قياسي ، يقال : جاريته اي سابقته في الجري وكاتبته اي سابقته في الكتابة . وراميتــه اي سابقته في الرمي .

الليل فبحديث لاينفع ، أو بقراءة كتاب فيه غزاة وسمر ، وان طال النهار فبالنوم ، وهم في أطراف النهار على دجلة أوفي الاسواق فشبهتهم بالمتحدثين في سفينة وهي تجري بهم ، وما عندهم خبر. ورأيت النادرين قد فهموا معنى الوجود ، فهم في تعبية الزاد والتأهب للرحيل ، الا أنهم يتفاوتون ، وسبب تفاوتهم قلة العلم وكثرته بما يَنْفُق في بلد الاقامة[١] ، فالمتيقظون منهم يتطلعون الى الاخبار بالنافق هناك ، فيستكثرون منه فيزيد ربحهم . والغافلون منهم يحملون ما اتفق ، وربما خرجوا لا مع خفير[٢] . فكم ممن قد قطعت عليه الطريق فبقي مفلساً .

فالله اللهَ في مواسم العمر ، والبدارَ البدارَ قبل الفوات ، واستشهدوا العلم ، واستدلّوا الحكمة ، ونافسوا الزمان ، وناقشوا النفوس ، واستظهروا بالزاد . فكأنْ قد حدا الحادي فلم يفهم صوته مِنْ وَقْعِ دمع الندم .

٩٣ ـ تخليط العلماء والزهاد

أضر ما على المريض التخليط ، وما من أحـــد الا وهو

---

(١) يريد ببلد الاقامة الدار الآخرة ، اما الدنيا فهي دار ممر اليها .

(٢) بلا خفير ، اي انفردوا بانفسهم فتعرضوا للمهالك يريد بذلك من لايمشي على هدي الشرع .

مريض بالهوى ، والحمية عنه رأس الدواء ، والتخليط يديم المرض . وتخليط أرباب الآخرة على ضربين :

أحدهما تخليط العلماء ، وهو إما لمخالطة الاضداد كالسلاطين فانهم يضعفون قوى يقينهم كلما زادت المخالطة ، ويقدحون دليلهم عند المريدين . فاني اذا رأيت طبيباً يخلط ويحميني شككت أو وقفت .

والثاني تخليط الزهاد ، وقد يكون بمخالطة أرباب الدنيا . وقد يكون بحفظ الناموس في اظهار التخشع ، لاجتلاب محبة العوام . فالله الله فان ناقد الجزاء بصير ، والاخلاصَ في الباطن ، والصدقَ في القلب ، ونعم طريق السلامة ستر الحال.

٩٤ ـ يصف بعض شيوخه

لقيت مشايخ أحوالهم مختلفة ، يتفاوتون في مقاديرهم في العلم ، وكان أنفعهم لي في صحبته العامل منهم بعلمه ، وان كان غيره أعلم منه .

ولقيت جماعة من علماء الحديث يحفظون ويعرفون ولكنهم كانوا يتسامحون بغيبة يخرجونها مخرج جرح وتعديل . ويأخذون على قراءة الحديث أجرة[1] ، ويسرعون الجواب لئلا ينكسر

---

(١) فكيف بمن يأخذ الاجرة على تلاوة القرآن ، ويتخذ ذلك مهنة يعيش منها ، وقد نص ابن عابدين واقام الدليل على ان ذلك حرام . كما أن قراءة القرآن بأنغام الغناء كما يقرأ اليوم لاتجوز ، نص على ذلك فقهاؤنا .

الجاه وان وقع خطأ . ولقيت عبد الوهاب الانماطي فكان على قانون السلف لم يسمع في مجلسه غيبة ، ولا كان يطلب اجراً على سماع الحديث ، وكنت اذا قرأت عليه أحاديث الرقائق [١] بكى واتصل بكاؤه ، فكنت وانا صغير السن حينئذ يعمل بكاؤه في قلبي ، ويبني قواعد . وكان على سمت المشايخ الذين سمعنا أوصافهم في النقل ، ولقيت الشيخ أبا منصور الجواليقي ، فكان كثير الصمت ، شديد التحري فيما يقول ، متقناً محققاً ، وربما سئل المسألة الظاهرة التي يبادر بجوابها بعض غلمانه فيتوقف فيها حتى يتيقن ، وكان كثير الصوم والصمت . فانتفعت برؤية هذين الرجلين أكثر من انتفاعي بغيرهما ففهمت من هذه الحالة أن الدليل بالفعل أرشد من الدليل بالقول ، ورأيت مشايخ كانت لهم خلوات في انبساط ومزاح ، فراحوا عن القلوب ، وبدد تبديدهم ما جمعوا من العلم ، فقل الانتفاع لهم في حياتهم ، ونسوا بعد مماتهم ، فلا يكاد احد أن يلتفت الى مصنفاتهم .

فالله الله في العلم بالعمل فانه الاصل الاكبر والمسكين كل المسكين من ضاع عمره في علم لم يعمل به ، ففاته لذات الدنيا وخيرات الآخرة ، فقدم مفلساً على قوة الحجة عليه .

---

(١) هي مايرقق القلب من الاخبار .

٩٥ ـ الخالق يمهل ولا يهمل

سبحان الملك العظيم الذي من عرفه خافه ، وما أمن مكره قط من عرفه .

لقد تأملت أمراً عظيما أنه عز وجل يمهل حتى كأنه يهمل فترى أيدي العصاة مطلقة كأنه لامانع ، فاذا زاد الانبساط ولم تَرْعَوِ العقول أخذ أخذ جبار ، وانما كان ذلك الامهال ليبلو صبر الصابر ، وليملي في الامهال الظالم ، فيثبت هذا على صبره ، ويجزى هـذا بقبيح فعله . مع أن هنـالك من الحلم في طي ذلك ما لا نعلمه ، فاذا أخذَ أخْذَ عقوبةٍ رأيت على كل غلطة تبعة . وربما جمعت فضرب العاصي بالحجر الدامغ . وربما خفي على الناس سبب عقوبته فقيل : فلان من اهل الخير فما وجه ماجرى له ؟ فيقول القدر : حدود لذنوب خفية صار استيفاؤها ظاهراً . فسبحان من ظهر حتى لاخفاء به ، واستتر حتى كأنه لايعرف ، وأمهل حتى طُمع في مسامحته ، وناقش حتى تحيرت العقول من مؤاخذته . لاحول ولا قوة إلا بالله .

٩٦ ـ الاشتغال بالعلم مع ترقيق القلب

تأملت العلم والميل اليـــه والتشاغل به ، فاذا هو يقوي

القلب قوة يميل به الى نوع قساوة ، ولولا قوة القلب وطول الامل لم يقع التشاغل به ، فاني أكتب الحديث أرجو أن أرويه ، وأبتدىء بالتصنيف أرجو ان أتمه ، فإذا تأملت الى باب المعاملات[١] قلّ الامل ، ورق القلب ، وجاءت الدموع ، وطابت المناجاة ، وغشيت السكينة ، وصرت كأني في مقام المراقبة . إلا ان العلم أفضل واقوى حجة ، وأعلى رتبة ، وان حدث منه ماشكوت منه . والمعاملة وان كثرت الفوائد التي أشرت إليها منها فانها قريبة الى أحوال الجبان الكسلان ، الذي قد اقتنع بصلاح نفسه عن هداية غيره ، وانفرد بعزلته عن اجتذاب الخلق الى ربهم . فالصواب العكوف على العلم مع تلذيع النفس بأسباب المرققات تلذيعاً لايقدح في كمال التشاغل بالعلم . فإني لأكره لنفسي من جهة ضعف قلبي ورقته أن أكثر زيارة القبور وأن احضر المحتضرين . لأن ذلك يؤثر في فكري ويخرجني من حيز المتشاغلين بالعلم الى مقام الفكر في الموت ، ولا أنتفع بنفسي مدة . وفصل الخطاب في هذا أنه ينبغي ان يقاوم المرض بضده ، فمن كان قلبه قاسياً شديد القسوة وليس عنده من المراقبة مايكفه عن الخطأ قاوم ذلك

---

(١) يريد المعاملة مع الله - اي الذكر والعبادة ، لامعاملات الناس المعروفة في كتب الفقه .

بذكر الموت ومحاضرة المحتضرين . فأما من قلبه شديد الرقة فيكفيه مابه بل ينبغي له ان يتشاغل بما ينسيه ذلك لينتفع بعيشه ، وليفهم ما يفتي به ، وقد كان الرسول ﷺ يمزح ويسابق عائشة ، ويتلطف بنفسه فمن سار سيرته عليه الصلاة والسلام فهم من مضمونها ما قلته من التلطف بالنفس .

٩٧ - إفاقة المحتضر

أظرف الاشياء إفاقة المحتضر عند موته ، فإنه ينتبه انتباهاً لايوصف ويقلق قلقاً لايحد ، ويتلهف على زمانه الماضي ، ويود لو تُرِك والتدارك ، ويصدق توبته على مقدار يقينه بالموت ، ويكاد يقتل نفسه قبل موتها بالاسف [١] ، ولو وجدت ذرة من تلك الاحوال في أوان العافية حصل كل مقصود من العمل بالتقوى ، فالعاقل من مثّل تلك الساعة وعمل بمقتضى ذلك . فإن لم يتهيأ تصوير ذلك على حقيقته تخايله على قدر يقظته ، فانه يكف كفّ الهوى ويبعث على الجد . فأما من كانت تلك الساعة نصب عينيه كان كالأسير لها ، كما روي عن حبيب

(١) احسست بذلك كله مرتين : مرة لما كدت اغرق في بحر بيروت، ومرة لما أشرف بي المرض على الموت سنة ١٩٥٧ ووصفته في كتابي «من حديث النفس» ولو دام لي ذلك الشعور لكنت من الصالحين . ولكني انغمست في خضم الحياة فلم اعد اقدر على استنشاق ذلك النسيم . اسألوا الله لي ولكم المغفرة

العجمي انه كان اذا أصبح يقول لامرأته : اذا مت اليوم فلان يغسلني ، وفلان يحملني .

وقال معروف لرجل : صلّ بنا الظهر .

فقال : إن صليت بكم الظهر لم أصلّ بكم العصر .

فقال : وكأنك تؤمل أن تعيش الى العصر . نعوذ بالله من طول الامل . وذكر رجل رجلاً بين يديه بغيبة فجعل معروف يقول له : اذكر القطن اذا وضعوه على عينيك .

٩٨ـ المتيقظ يأخذ إشارات من كل مايسمع

وربما أخذ المتيقظ بيت شعر فأخذ منه اشارة فانتفع بها ، قال الجنيد : ناولني سَريّ[١] رقعة فيها مكتوب .

سمعت حادياً في طريق مكة شرفها الله تعالى يقول :

أبكي وما يدريكِ مايبكيني أبكي حذاراً أن تفارقيني

وتقطعي حبلي وتهجريني

فانظر رحمك الله ووفقك الى تأثير هذه الابيات عند سري احب أن يطلع منها الجنيد على ما اطلع عليه ، ولم يصلح للاطلاع على مثلها إلا الجنيد ، فان أقواماً فيهم كثافة طبع

---

(١) سرى السقطي

وخشونة فهم . قال بعضهم لما سمع مثل هذه : إلام يشار بهذه؟ إن كان إلى الحق فالحق عز وجل لايشار اليه بلفظ تأنيث . وإن كان الى امرأة فأين الزهد ؟

ولعمري ان هذا حداء أهل الغفلة اذا سمعوا مثل هذا ، ولذلك ينهى عن سماع القصائد وأقوال أهل الغناء ، لأن الغالب حمل تلك الابيـات على مقاصد النفس ، وغلبات الهوى ومن أين لنا مثل الجنيد وسرى ، وإذا وجدنا مثلهما فهما خبيران بما يسمعان . واما اعتراض هذا الكثيف الطبع فالجواب : أن سريا لم يأخذ الاشارة من اللفظ ، ولم يقس ذلك على مطلوبه فيعتبره تأنيثاً أو تذكيراً ، وإنما أخـذ الاشارة من المعنى ، فكأنه يخاطب حبيبه بمعنى الابيات ، فيقول : ابـكي حـذاراً من إعراضك وإبعادك . فهذا الحاصل له . وماالتفت قط الى تذكير ولا إلى لفظ تأنيث فافهم هذا .

وما زال المتيقظون يأخذون الاشارة من مثل هـذا حتى كانوا يأخذونها من هـذا الذي تقوله العامة ويلقبونه بـكان وكان[1] فرأيت بخط ابن عقيل عن بعض مشايخه الكبار أنه سمع امرأة تنشد :

غسلتْ لهُ طول الليل   فركتْ لهُ طول النهارْ

(١) نوع معروف من الشعر العامي أي انه كالزجل والمواليا

خرج يعاينْ غــيري   زلقْ وقــع في الطينْ

فأخذ من ذلك اشارة معناها : ياعبدي اني حسنت خلقك وأصلحت شأنك ، وقومت بنيتك ، فأقبلت على غــيري ، فانظر عواقب خلافك لي .

وقال ابن عقيل : وسمعت امرأة تقول ، من هذا (السكان وكان) كلمة بقيتُ في قلقها [١] مدة :

كم كنتْ بالله أقلْ لكْ   لذا التواني غــائلَهْ

والقبيــح خــيره   تبين بعـــد قليـــل

قال ابن عقيل : فما أوقعه من تخجيل على إهمالنـا لامور غداً تبين خمايرها بين يدي الله تعالى .

٩٩ ـ مراقبة الله وترك الترخص

أمكنني تحصيل شيء من الدنيا بنوع من أنواع الرخص ، فكنت كلمـا حصل شيء منه فاتني من قلبي شيء ، فكلما استنارت لي طريق التحصيل تجدد في قلبي ظلمة . فقلت : يانفس السوء ، الاثم حزاز القلوب ، وقد قال : استفت نفسك ، فلا خير في الدنيا كلها إذا كان في القلب من تحصيلها شيء أوجب نوع كدر ، وإن الجنة لوحصلت بسبب يقدح في الدين أو في

---

(١) القلق منها : التفكير فيها

المعاملة مالذت ، والنوم على المزابل مـــع سلامة القلب من الكدر ألذ من تكآت الملوك .

ومازلت أغلب نفسي تارة وتغلبني أخـــرى ، ثم تدعي الحاجة إلى تحصيل مالابدلها منه . وتقول : فما اتعدى في الكسب المباح في الظاهر .

فقلت لها : أوليس الورع يمنع من هذا .

قالت : بلى

قلت : اليس القسوة في القلب تحصل به .

قالت : بلى

قلت : فلا خير لك في شيء هذا ثمرته .

فخلوت يوماً بنفسي فقلت لها : ويحك اسمعي احـدثك . إن جمعت شيئاً من الدنيا من وجه فيه شبهة أفانت على يقين من إنفاقه ؟.

قالت : لا

قلت : فالمحنة أن يحظى به الغير ولا تنالين الا الـكدر العاجل ، والوزر الذي لايؤمن . ويحك اتركي هذا الذي يمنع منه الورع لأجل الله فعامليه بتركه ، وكأنك لاتريدين الا تتركي إلا ماهو محرم فقط أو مالايصح وجهه ، أو ما سمعت أن من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه ؟ أمالك عبرة في أقوام جمعوا

فحازه سواهم ، واملوا فما بلغوا منام ؟ كم من عالم جمع كتباً كثيرة ما انتفع بها ، وكم من منتفع ما عنـده عشرة اجزاء ؟ كم من طيب العيش لايملك دينارين ، وكم من ذي قناطير منغّص ؟ أمالك فطنة تتلمح أحوال من يترخص في وجه فيسلب منه من أوجه؟

ربما نزل المرض بصاحب الدار أو ببعض من فيها فانفق في سنته اضعاف ما ترخص في كسبه ، والمتقي معافى .

فضجت النفس من لومي . وقالت : اذا لم اتعد واجب الشرع فما الذي تريد مني ؟

فقلت لها : أضنّ بك عن الغبن وانت أعرف بباطن امرك .

قالت : فقل لي ما أصنع .

قلت : عليك بالمراقبـة لمن يراك ، ومثلي نفسك بحضرة معظّم من الخلق ، فانك بين يدي الملك الاعظـم يرى من باطنك ما لايراه المعظّمون من ظاهرك ، فخذي بالاحوط ، واحذري من الترخص في بيع اليقين ، والتقوى بعاجل الهوى، فان وقع الطبع بما تلقين فقولي له : مهلا ، فما انقضت مدة الاشارة ، والله مرشدك الى التحقيق ، ومعينك بالتوفيق .

١٠٠ ـ العقوبة بالمرصاد

مازلت أسمع عن جماعة من الاكابر ، وارباب المناصب ،

انهم يشربون الخمور ، ويفسقون ويظلمون ، ويفعلون أشياء توجب الحدود فبقيت اتفكر أقول : متى يثبت على مثل هؤلاء ماوجب حداً ؟ فلو ثبت فمن يقيمه ؟

وأستبعد هذا في العادة لانهم في مقـــام احترام لاجل مناصبهم ، فبقيت اتفكر في تعطيل الحد الواجب عليهم ، حتى رأيناهم قد نكبوا وأخذوا مرات ، ومرت عليهم العجائب ، فقوبل ظلمهم بأخذ أموالهم ، وأخذت منهم الحدود مضاعفة بعد الحبس الطويل ، والقيد الثقيل ، والذل العظيم . وفيهم من قتل بعد ملاقاة كل شدة ، فعلمت أنه مايهمل شيء .

فالحذر الحذَر فان العقوبة بالمرصاد .

١٠١ - من ادعى بغض الدنيا فهو كاذب

اجتهاد العاقل فيما يصلحه لازم له بمقتضى العقل والشرع ، فمن ذلك حفظ ماله وطلب تنميته والرغبة في زيادته ، لان سبب بقاء الانسان ماله [1] فقد نهى عن التبذير فيه ، فقيل له « ولاتؤتوا السفهاء أموالكم » وأعلم أنه سبب لبقائه « التي جعل الله لكم قياما » أي قوامـــاً لمعاشكم وقال عز وجل « ولا تبسطها كل البسط » وقال تعالى « ولا تبذر تبذيراً »

---

(١) انظر فصل (٣٠)

وقال تعالى « لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما »

ومن فضيلة المال أن الله تعالى قال « من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً » وقال تعالى « وأنفقوا في سبيل الله » وقال تعالى «ينفقون أموالهم » وقال « لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح » وجعل المال نعمة وزكاته تطهيرا ، فقال تعالى : « خذ من اموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » وقال ﷺ : « نعم المال الصالح للرجل الصالح » . وقال : « ما نفعني مال كمال أبي بكر »

وكان أبو بكر رضي الله عنه يخرج الى التجارة ويترك رسول الله ﷺ فلا ينهاه عن ذلك . وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « لان أموت بين شعبتي جبل اطلب كفاف وجهي احب الى من أن اموت غازيا في سبيل الله » وكان جماعة من الصحابة رضي الله عنهم يتجرون ، ومن سادات التابعين سعيد بن المسيب ، فمات وخلف مالا وكان يحتكر (١) الزيت ومازال السلف على هذا . ثم تعرض نوائب كالمرض يحتاج فيها الى شيء من المال فلا يجد الانسان بداً من الاحتيال في طلبته ، فيبذل عرضه أو دينه ، ثم للنفس قوة بدنية عند وجود المال وهو معدود عند الاطباء من الادوية ، حكمة وضعها الواضع ثم نبغ اقوام طلبوا طريق الراحة فادعوا انهم متوكلة ، وقالوا نحن لا نمسك شيئاً ، ولا نتزود لسفر ، ورزق الابدان يأتي .

---

(١) لا يعني الاحتكار بالمعنى المعروف اليوم فانه مذموم

وهذا على مضادة الشرع فإن رسول الله ﷺ نهى عن اضاعة المال ، وموسى عليه السلام لما سافر في طلب الخضر تزود ، ونبينا ﷺ لما هاجر تزود ، وأبلغ من هذا قوله تعالى (وتزودوا فإن خيرَ الزاد التقوى) ثم يدعي هؤلاء المتصوفة بغض الدنيا فلا يفهمون ماالذي ينبغي أن يبغض[1] ، ويرون زيادة الطلب للمال حرصاً وشرهاً ، وفي الجملة انما اخترعوا بآرائهم طريقاً فيها شيء من الرهبانية اذا صدقوا ، وشيء من البهرجة اذا نصبوا شباك الصيد بالتزهد فسموا ما يصل اليهم من الارزاق فتوحاً .

قال ابن قتيبة في غريب الحديث في قوله ﷺ : واليد العليا [2] . قال هي المعطية . قال : فالعجب عندي من قوم يقولون هي الآخذة ، ولا أرى هؤلاء القوم إلا قوماً استطابوا السؤال ؛ فهم يحتجون للدناءة ، فأما الشرائع فإنها بريئة من حالهم .

وفي الحديث : ضاق البلد بمواشي ابراهيم ولوط عليهما السلام فافترقا . وكان شعيب عليه السلام كثير المال ، ثم قد تد طمعه في زيادة الاجر من موسى عليه السلام فقال : « فإن

(١) وضح هذا المعنى مراراً في الفصول السابقة

(٢) اليد العليا خير من اليد السفلى

أتممت عشراً فمن عندك »[١] ، وكان ابن عقيل رحمه الله يقول: من قال اني لا أحب الدنيا فهو كذاب ، فإن يعقوب عليه السلام لما طلب منه ابنه يامين قال : « هل آمنكم عليه » . فقالوا : « ونزداد كيل بعير » . فقال : خذوه .

وقال بعض السلف : من ادعى بغض الدنيا فهو عندي كذاب الى ان يثبت صدقه ، فإذا ثبت صدقه فهو مجنون ، وقد نفّر جماعة من المتصوفة خلقاً من الخلق عن الكسب ، وأوحشوا بينهم وبينه ، وهو دأب الأنبياء والصالحين . وإنما طلبوا طريق الراحة وجلسوا على الفتوح . فإذا شبعوا رقصوا ، فاذا انهضم الطعام أكلوا . فإن لاحت لهم حيلة على غنيّ أوجبوا عليه دعوة ، إما بسبب منكر أو بسبب استغفار ، وأطمّ الطامات ادعاؤهم ان هذا قربة ، وقد انعقد إجماع العلماء أن من ادعى الرقص قربة الى الله تعالى كفر[٢] ، فلو أنهم قالوا : « مباح » كان أقرب حالاً ، وهذا لأن القُرَب لاتعرف إلا بالشرع ، وليس في الشرع أمر بالرقص ولا ندب إليه ، ولقد بلغني عن جماعة منهم أنهم كانوا يوقدون الشمع

(١) اظن ان الادب الواجب مع الانبياء يمنع من اطلاق مثل هذه الالفاظ.
(٢) ذكر ذلك ابن عابدين في الحاشية (الجزء الثالث آخر باب المرتد) وفي المنظومة الوهبانية :

ومن يستحل الرقص قالوا بكفره ولاسيا بالدف يلهو ويزمر

والمرادبالرقص مايسمى اليوم بالذكر ، قال ذلك ابن عابدين وبينه في الحاشية اوضح بيان

في وجوه المردان وينظرون اليهم ، فاذا سئلوا عن ذلك سخروا بالسائل فقالوا : نعتبر بخلق الله ، افتراهم أقوى من النبي ﷺ حين أجلس الشاب الذي وفد عليه من وراء ظهره وقال : « وهل كانت فتنة داوود إلا من النظر[1] » .

هيهات لقد تملك الشيطان تلك الأزمة[2] فقادها الى ما أراد والعجب ممن يذم الدنيا وهو يأكل فيشبع ، ولا ينظر من أين المطعم ، وما زال صالحو السلف يفتشون عن المطعم حتى كان ابراهيم بن ادهم يسهر هو وأصحابه ويقولون : مع من نعمل غداً ؟ وكان سري السقطي يعرف بطيب الغذاء ، وله في الورع مقامات . فجاء قوم يتسمون بالصوفية يدعون اتباع أولئك السادة ، ويأكلون من مال فلان . وهم يعرفون أصول تلك الاموال ، ويقولون : « رِزْقُنا » فواعجباً اذا كان الآكل لا يبالي به من أين ؟ ولا امتناع من شهرة ولا تقلل ، ولا يخلو الرباط[3] من المطبخ ، ولا ينقطع ليلة ، وأصله من مال قد عرف من أين هو ، والحمام دائر والمغني يدق بدف فيه جلاجل ورفيقه بالشبابة ، وسعدى وليلى في الانشاد ، والمردان في الشمع ، ثم يذم الدنيا بعد هذا ،

---

(١) قال الاستاذ الشيخ ناصر وهو المرجع اليوم في رواية الحديث في الشام : هذا الحديث ضعيف

(٢) جمع زمام　　(٣) الرباط التكية

فقولوا لنا : من يتلهى بالناس ، ولكن من مرت عليه زوجنتهم[1] فانه أخس منهم .

١٠٢ ـ عظمة الخالق

عرض لي في طريق الحج خوف من العرب ، فسرنا على طريق خيبر ، فرأيت من الجبال الهائلة والطرق العجيبة ماأذهلني[2] ، وزادت عظمة الخالق عز وجل في صدري . فصار يعرض لي عند ذكر تلك الطرق نوع تعظيم لاأجده عند ذكر غيرها ، فصحت بالنفس: ويحك اعبري الى البحر وانظري اليه والى عجائبه بعين الفكر، تشاهدي أهوالاً هي أعظم من هذه ، ثم اخرجي الى الكون والتفتي اليه فإنك ترينه بالاضافة الى السموات والافلاك كذرة في فلاة ، ثم جولي في الافلاك وطوفي حول العرش وتلمحي مافي الجنان والنيران ، ثم اخرجي عن الكل والتفتي اليه ، فانك تشاهدينه في قبضة القادر الذي لاتقف قدرته عند حد ، ثم التفتي اليك فتلمحي بدايتك ونهايتك ، وتفكري فيما قبل البداية ، وليس إلا العدم ، وفيما بعد البلى وليس إلا التراب ، فكيف يأنس بهذا الوجود من نظر بعين فكره المبدأ والمنتهى ؟ وكيف يغفل أرباب القلوب عن ذكر هذا الاله العظيم ؟

---

(١) اي تدجيلهم:

اقال الله حين عبدتموه　　　كلوا اكل البهائم وارقصوا لي ؟

(٢) ترى وصفها في كتابي « من نفحات الحرم » لأنها متصلة بجبال « الملا » التي مررت بها ووصفتها .

بالله لوصحت النفوس عن سُكر هواها لذابت من خوفه او لغابت من حبّه ، غير أن الحس غلب فعظمت قدرة الخالق عند رؤية جبل ، وان الفطنة لوتلمحت المعاني لدلت القدرة عليه أوفى من دليل الجبل .

سبحان من شغل اكثر الخلق بما هم فيه عما خلقوا له ! سبحانه !

١٠٣ - وجوب الصبر على البلاء

البلايا نهايات معلومة الوقت عند الله عزوجل . فلابد للمبتلى من الصبر الى أن ينقضي أوان البلاء ، فإن تقلقل قبل الوقت لم ينفع التقلقل ، كما أن المادة اذا انحدرت الى عضو فإنها لن ترجع ، فلابد من الصبر إلى حين البطالة . فاستعجال زوال البلاء مع تقدير مدته لاينفع . فالواجب الصبر وإن كان الدعاء مشروعاً ولاينفع إلا به ، إلا أنه لاينبغي للداعي أن يستعجل بل يتعبد بالصبر والدعاء والتسليم الى الحكيم ، ويقطع المواد التي كانت سبباً للبلاء ، فان غالب البلاء أن يكون عقوبة فأما المستعجل فمزاحم للمدبر وليس هذا مقام العبودية وإنما المقام الاعلى هو الرضا والصبر هو اللازم ، والتلافي بكثرة الدعاء نعم المعتمد ، والاعتراض حرام ، والاستعجال مزاحمة التدبير ، فافهم هذه الاشياء فإنها تهون البلاء .

١٠٤ ـ فوائد الصبر

ليس في الوجود شيء أصعب من الصبر اما عن المحبوب او على المكروهات ، وخصوصاً إذا امتد الزمان أو وقع اليأس من الفرج ، وتلك المدة تحتاج الى زاد يقطع به سفرها ، والزاد يتنوع من أجناس .

فمنه تلمح مقدار البلاء ، وقد يمكن أن يكون أكثر[١] .

ومنه أنه في حال فوقها أعظم منها مثل أن يبتلى بفقد ولد وعنده أعز منه ، ومن ذلك رجاء العوض في الدنيا .

ومنه تلمح الأجر في الآخرة .

ومنه التلذذ بتصوير المدح والثناء من الخلق فيما يمدحون عليه والأجر من الحق عز وجل .

ومن ذلك أن الجزع لايفيد بل يفضح صاحبه .

الى غير ذلك من الاشياء التي يقدحها العقل والفكر ، فليس في طريق الصبر نفقة سواها ، فينبغي للصابر أن يشغل بها نفسه ويقطع بها ساعات ابتلائه وقد صبّح المنزل[٢] .

---

(١) مر هذا المعنى مرارا

(٢) شبه البلاء بطريق لم يبق منه الامسيرة ليلة ونهايته الصباح

١٠٥ - قد تتأخر الاجابة بعد الدعاء

ينبغي لمن وقع في شدة ثم دعا أن لايختلج في قلبه أمر من تأخير الاجابة او عدمها ، لان الذي اليه [١] أن يدعو والمدعوّ مالك حكيم ، فإن لم يجبْ فعل مايشاء في ملكه ، وان أخّر فعل بمقتضى حكمته ، فالمعترض عليه في سره خارجٌ عن صفة عبدٍ ، مزاحمٌ لمرتبةٍ مستحق ، ثم ليعلم أن اختيار الله عز وجل له خير من اختياره لنفسه . فربما سأل سَيْلًا سال به وفي الحديث : « ان رجلًا كان يسأل الله عز وجل أن يرزقه الجهاد فهتف به هاتف ، إنك إن غزوت اسرت وان اسرت تنصرت » . فإذا سلّم العبد تحكيما لحكمته وحُكْمه ، وأيقن أن الكل ملكه ، طاب قلبه قضيت حاجته أو لم تقض .

وفي الحديث : « مامن مسلم دعا الله تعالى الا وأجابه . فاما أن يعجلها واما أن يؤخرها وإما أن يدخرها له في الآخرة » . فاذا رأى يوم القيامة ان ما اجيب فيه قد ذهب ومالم يجب فيه قد بقي ثوابه ، قال : ليتك لم تجب لي دعوة قط .

---

(١) العبد ، اى ليس من الامر الا ان يدعو

فافهم هذه الاشياء وقد سلم قلبك من أن يختلج فيه ريب أو استعجال .

١٠٦ ـ العلماء أفضل من الزهاد

من أراد أن يعرف رتبة العلماء على الزهاد فلينظر في رتبة جبريل وميكائيل ومن خص من الملائكة بولاية تتعلق بالخلق ، وباقي الملائكة قيام التعبد في مراتب الرهبان في الصوامع[1] . وقد حظي اولئك بالتقريب على مقادير علمهم بالله تعالى . فاذا مرّ أحدهم بالوحي انزعج أهل السماء حتى يخبرهم بالخبر ، فاذا فزع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحق . كما اذا انزعج الزاهد من حديث يسمعه سأل العلماء عن صحته ومعناه. فسبحان من خص الخصوص بخصائص شرفوا بها على جنسهم ، ولاخصيصة أشرف من العلم . بزيادته صار آدم مسجودا له وبنقصانه صارت الملائكة ساجدة . فأقرب الخلق من الله العلماء.

وليس العلم بمجرد صورته هو النافع بل معناه وإنما يَنالُ معناه من تَعَلّمه للعمل به ، فكلما دله على فضل اجتهد في نيله وكلما نهاه عن نقص بالغ في مباعدته ، فحينئذ يكشف العلم له سره ، ويسهل عليه طريقه ، فيصير كمجتذب بحث الجاذب فاذا حركه عجل في سيره . والذي لايعمل بالعلم لايطلعه

(١) شبه انقطاعهم للعبادة بانقطاع الرهبان ، لا أن الرهبان كالملائكة ولاانهم على حق ، الحق اليوم ماجاء به خاتم الرسل صلى الله عليه وسلم ، ولقد كان كل رسول في ايامه على حق ، صلوات الله عليهم اجمعين .

العلم على غوره ، ولا يكشف له عن سره فيكون كمجذوب لجاذب ٍ جاذ َبَه . فافهم هذا المثل وحسّنْ قصدك وإلا فلا تتعب .

١٠٧ ـ الاعتدال بين الدنيا والآخرة

اعلم أن أصلح الامور الاعتدال في كل شيء واذا رأينا أرباب الدنيا قد غلبت آمالهم ، وفسدت في الخير اعمالهم ، امرناهم بذكر الموت والقبور والآخرة . فاما اذا كان العالم لا يغيب عن ذكره الموت وأحاديث الآخرة تقرأ عليه وتجري على لسانه ، فتذكاره الموت زيادة على ذلك لاتفيد الا انقطاعه بمرة . بل ينبغي لهذا العالم الشديد الخوف من الله تعالى ، الكثير الذكر للآخرة ، أن يشاغل نفسه عن ذكر الموت ليمتد نَفَس أمله قليلا فيصنف ويعمل أعمال خير ، ويقدر على طلب ولد . فاما اذا لهج بذكر الموت كانت مفسدته عليه اكثر من مصلحته ، ألم تسمع أن النبي ﷺ سابق عائشة رضي الله عنها فسبقته ، وسابقها فسبقها ، وكان يمزح ويشاغل نفسه . فان مطالعة الحقائق على التحقيق تفسد البدن وتزعج النفس . وقد روي عن احمد بن حنبل رحمة الله عليه : أنه سأل الله تعالى ان يفتح عليه باب الخوف ففتح عليه فخاف على عقله . فسأل الله أن يرد ذلك عنه .

فتأمل هـــذا الاصل فانه لابد من مغالطة النفس وفي ذلا صلاحها والله الموفق والسلام .

تم الجزء الأول
ويليه الجزء الثاني وأوله

١٠٨ - طلب معالي الأمور

١٠٨ - طلب معالي الأمور

من أعمل فكره الصافي دله على طلب أشرف المقامات ، ونهاه عن الرضى بالنقص في كل حال . وقد قال أبو الطيب المتنبي :

ولم أر في عيوب الناس عيباً   كنقص القادرين على التمام

فينبغي للعاقل ان ينتهي الى غاية ما يمكنه ، فلو كان يتصور للآدمي صعود السموات لرأيت من اقبح النقائص رضاه بالارض ، ولو كانت النبوة تحصل بالاجتهاد رأيت المقصر في تحصيلها في حضيض ، غير أنه اذا لم يمكن ذلك فينبغي أن يطلب الممكن ، والسيرة الجميلة عند الحكماء خروج النفس الى غاية كمالها الممكن لها في العلم والعمل . وانا اشرح من ذلك ما يدل مذكوره على مغفله .

أما في البدن ، فليست الصورة داخلة تحت كسب الآدمي بل يدخل تحت كسبه تحسينها وتزيينها ، فقبيح بالعاقل إهمال نفسه وقد نبه الشرع على الكل بالبعض ، فأمر بقص الاظفار ، ونتف الابط ، وحلق العانة ، ونهى عن أكل الثوم والبصل النيء لاجل الرائحة . وينبغي له ان يقيس على ذلك ويطلب

غاية النظافة ونهاية الزينة ، وقد كان النبي ﷺ يعرف بمجيئه بريح الطيب فكان الغاية في النظافة والنزاهة ، ولست آمر بزيادة التقشف الذي يستعمله الموسوسون أو المترفون ولكن التوسط هو المحمود . ثم ينبغي له ان يرفق ببدنه الذي هو راحلته ولا ينقص من قوتها فتنقص قوتها . ولست آمر بالشبع الذي يوجب الجشاء إنما آمر بالتوسط فإن قوى الآدمي كعين جارية كم فيها من منفعة لصاحبها ولغيره ، ويعين صانعاً ولا يلتفت الى قول الموسوسين من المتزهدين الذين جدوا في التقلل فضعفوا عن الفرائض ، وليس ذلك من الشرع ولا نقل عن الرسول ﷺ ولا أصحابه .

إنما كان الرسول ﷺ وأصحابه اذا لم يجدوا جاعوا ، وربما آثروا فصبروا ضرورة ، وكذلك ينبغي ان ينظر لهذه الراحلة في علفها ، فرب لقمة منعت لقمات ، فلا يعطيها ما يؤذيها بل ينظر لها في الاصلح ، ولا يلتفت لمتزهد يقول : لا أبلغها الشهوات ، فإن النظر ينبغي ان يكون في حِلّ المطعم ، وأخذ ما يصلح بمقدار .

ولم ينقل عن الرسول ﷺ ولا أصحابه رضي الله عنهم ما أحدثه الموسوسون في ترك المشتهيات على الاطلاق ، إنما

نقل عنهم تركها لسبب . إما النظر في حلها ، او الخوف من مطالبة النفس بها في كل وقت ويجوز ذلك .

وينبغي له أن يجتهد في التجارة والكسب ليفضل على غيره ولا يفضل غيره عليه ، وليبلغ من ذلك غاية لاتمنعه عن العلم، ثم ينبغي له ان يطلب الغاية في العلم ومن أقبح النقص التقليد فإن قويت همته رقته الى ان يختار لنفسه مذهباً ولا يتمذهب لأحد[1] ، فإن المقلد أعمى يقوده مقلّده . ثم ينبغي أن

---

(١) اي يستمد بالعلم والدأب ليصل الى القدرة على الاجتهاد وترك التقليد لا ان يجتهد لنفسه وهو لايعرف من عدة الاجتهاد الا حفظ الاحاديث او معرفة مكان وجودها والبحث في كتب الرجال عن احوال رواتها .

والناس في هذه المسألة بين مفرط في اتباع المذاهب لايفرق بين الحكم المؤيد بالنص الصريح وما هو رأي للفقيه . وبين مفرط فيها يتركها جملة ويحاول ان يأخذ من الاحاديث رأساً ولولم يكن عنده ادوات الاخذ من الحديث .

والحق ان على المسلم ان يتفقه اولا على مذهب معين ، فيعرف احكام دينه ، ثم ينظر في دليلها ويحاول ان يتعلم مايعين على معرفة طرق الاستدلال وقوة الدليل ثم ينظر. فان رأى دليلا ثابتا اقوى من دليل مذهبه اخذ به ، وقد بين ابن عابدين في اول الحاشية ان الحنفي المقلد الذي يجد حديثاً صحيحاً على خلاف مذهبه عليه ان يأخذ به (لاسيا في العبادات) ولايخرج في ذلك عن كونه حنفياً .

والله قد اوجب على المسلم اتباع الكتاب والسنة ، ولم يلزمه بمذهب من المذاهب الاربعة ولا غيرها ، وما التقليد الا رخصة للعاجز عن الأخذ من الكتاب والسنة. والمتأخرون الذين قالوا باتباع احد المذاهب الاربعة انما قالوا ذلك لما رأوا من غلبة العجز على الناس ، ولئلا يصير الامر فوضى ، كل واحد يدعى الاقتصار ابا حنيفة او الشافعي كما هي الحال الآن .

يطلب الغاية في معرفة الله تعالى ومعاملته ، وفي الجملة لايترك فضيلة يمكن تحصيلها إلا حصلها . فإن القُنوع بما نزل المبارك[١] حالة الاراذل .

فكن رجلاً رجله في الثرى   وهامـــة همته في الـثريا

ولو أمكنك عبور[٢] كل أحد من العلماء والزهاد فافعل ، فإنهم كانوا رجالاً وأنت رجل ، وما قعد من قعد إلا لدناءة الهمة وخساستها . واعلم انك في ميـــدان سباق والاوقات تنتهب . ولا تخلد الى كسل . فما فات من فات إلا بالكسل ، ولا نال من نال إلا بالجد والعزم ، وأن الهمة لتغلي في القلوب غليان مافي القدور ، وقد قال بعض من سلف :

ليس لي مال سوى كرمي   فبـه أمني من العـــدم
قنعت نفسي بمـا رزقت   وتمطت في العـــلا هممي

١٠٩ ـ منفعة المال

ليس في الدنيا أنفع للعلماء من جمع المال للاستغنـاء عن الناس ، فانه اذا ضم الى العلم حِيزَ الكمال ، وأن جمهور العلماء شغلهم العلم عن الكسب ، فاحتاجوا الى مالا بد منه ،

---

(١) اي مبارك الابل   (٢) اي سبق واجتياز

وقل الصبر فدخلوا مداخل شانتهم وإن تأولوا فيها [١] ، إلا أن غيرها كان أحسن لهم ، فالزهري مع عبد الملك ، وأبو عبيدة مع طاهر بن الحسين ، وابن ابي الدنيا مؤدب المعتضد . وابن قتيبة صدر كتابه بمدح الوزير . وما زال خلف من العلماء والزهاد يعيشون في ظل جماعة من المعروفين بالظلم . وهؤلاء وإن كانوا سلكوا طريقاً من التأويل فانهم فقدوا من قلوبهم وكمال دينهم اكثر مما نالوا من الدنيا . وقد رأينا جماعة من المتصوفة والعلماء يَغْشَوْن الولاة لاجل نيل مافي أيديهم . فمنهم من يداهن ويرائي ، ومنهم من يمدح بمالا يجوز ، ومنهم من يسكت عن منكرات الى غير ذلك من المداهنات . وسببها الفقر ، فعلمنا أن كمال العز وبعد الرياء انما يكون في البعد عن العمال الظلمة ، ولم نر من صح له هذا الا في أحد رجلين :

اما من كان له مال كسعيد بن المسيب كان يتجر في الزيت وغيره ،وسفيان الثوري كانت له بضائع ، وابن المبارك .

واما من كان شديد الصبر قنوعاً بما رزق وان لم يكفه كبشر الحافي ، وأحمد بن حنبل .

ومتى لم يجد الانسان كصبر هذين ، ولا كمال أولئك ،فالظاهر تقلبه في المحن والآفات ، وربما تلف دينه .

---

(١) تقدم هذا المعنى مرارا

فعليك يا طالب العلم بالاجتهاد في جمع المال للغنى عن الناس ، فانه يجمع لك دينك ، فما رأينا في الأغلب منافقاً في التدين والتزهد والتخشع ولا آفة طرأت على عالم إلا بحب الدنيا ، وغالب ذلك الفقر ، فان كان من له ما يكفيه ثم يطلب بتلك المخالطة الزيادة ، فذلك معدود في أهل الشره ، خارج عن حيز العلماء ، نعوذ بالله من تلك الأحوال .

١١٠ ــ الفقه أفضل العلوم

أعظم دليل على فضيلة الشيء النظر الى ثمرته ، ومن تأمل ثمرة الفقه علم أنه أفضل العلوم ، فان أرباب المذاهب فاقوا بالفقه الخلائق أبداً ، وان كان في زمن أحدهم من هو أعلم منه بالقرآن أو بالحديث أو باللغة .

واعتبر هذا بأهل زماننا ، فانك ترى الشاب يعرف مسائل الخلاف الظاهرة فيستغني ، ويعرف من حكم الله تعالى في الحوادث ما لا يعرفه النحرير من باقي العلماء ، وكم رأينا مبرزاً في علم القرآن أو في الحديث أو في التفسير أو في اللغة لا يعرف مع الشيخوخة معظم أحكام الشرع ، وربما جهل علم ما ينويه في صلاته .

على أنه ينبغي للفقيه ألا يكون أجنبياً عن باقي العلوم ، فانه

لايكون فقيهاً ، بل يأخذ من كل علم بحظ ، ثم يتوفر على الفقه فانه عز الدنيا والآخرة .

١١١ ـ حفظ الفروع وتضييع الأصول

رأيت كثيراً من الناس يتحرزون من رشاش نجاسة ولا يتحاشون من غيبة ، ويكثرون من الصدقة ولا يبالون بمعاملات الربا ، ويتهجدون بالليل ويؤخرون الفريضة عن الوقت ، في أشياء يطول عدّها من حفظ فروع وتضييع أصول ، فبحثت عن سبب ذلك ، فوجدته من شيئين :

أحدهما العادة ، والثاني غلبة الهوى في تحصيل المطلوب ، فانه قد يغلب فلا يترك سمعاً ولا بصراً .

ومن هذا القبيل أن إخوة يوسف قالوا حين سمعوا صوت المنادي ، « إنكم لسارقون » : « لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين » ، فجاء في التفسير أنهم لما دخلوا مصر كموا أفواه إبلهم لئلا تتناول ما ليس لهم ، فكأنهم قالوا: قد رأيتم ما صنعنا بإبلنا فكيف نسرق ؟ ونَسُوا هم تفاوت ما بين الورع واختطاف أكلة لا يملكونها ، وبين القاء يوسف عليه السلام في الجب وبيعه بثمن بخس .

وفي الناس من يطيع في صغار الأمور دون كبارها ، وفيما

كُلْفَتُه عليه خفيفة أو معتادة ، وفيا لا ينقص شيئاً من عادته في مطعم وملبس .

نرى أقواماً يأخذون بالربا ويقول أحدهم : كيف يراني عدوي بعين اني بعت داري ، أو تغير ملبوسي ومركوبي ! ونرى أقواماً يوسوسون في الطهارة ، ويستعملون الكثير ، ولا يتحاشون من غيبة ، وأقواماً يستعملون التأويلات الفاسدة في تحصيل أغراضهم مع علمهم أنها لا تجوز ، حتى إني رأيت رجلاً من أهل الخير والتعبد أعطاه رجل مالاً ليبني به مسجداً ، فأخذه لنفسه وأنفق عوض الصحيح قراضة ، فلما احتضر قال لذلك الرجل : اجعلني في حل فاني فعلت كذا وكذا .

ونري أقواماً يتركون الذنوب لبعدهم عنها ، فقد ألفوا الترك ، وإذا قربوا منها لم يتمالكوا[١] ، وفي الناس من هذه الفنون عجائب يطول ذكرها .

وقد علمنا أن خلقاً من علماء اليهود كانوا يحملون ثقل التعبد في دينهم ، فلما جاء الاسلام وعرفوا صحته لم يطيقوا مقاومة أهوائهم في محو رياستهم ، وكذلك قيصر فانه عرف رسول الله ﷺ بالدليل ثم لم يقدر على مقاومة هواه وترك ملكه ، فاللهَ اللهَ في تضييع الأصول ، ومن اهمال سرح الهوى ، فانه ان أهملت ماشية نفشت في زروع التقى ، وما مثل الهوى إلا كسبع في عنقه سلسلة فان

(١) لذلك كان اول ما ينبغي للمسلم الابتعاد عن مواطن الفتن ، واسباب الاغراء ، بذلك يستريح قلبه في الدنيا ، وينجو من العذاب في الآخرة.

استوثق منه ضابطهُ كفّه ، وربما لاحت له شهواته الغالبة عليه فلم تقاومها السلسلة فأفلت .

على أن من النـاس من يكف هواه بسلسلة ، ومنهم من يكفه بخيط ، فينبغي للعاقل أن يحذر شيـاطين الهوى ، وأن يكون بصيراً بما يقوى عليه من أعدائه ، وبمن يقوى عليه .

١١٢ ـ لاتثق باحد مما تعاشره

من أعظم الغلط الثقة بالناس والاسترسال الى الاصدقاء فان أشد الأعداء وأكثرهم أذى الصديق المنقلب عدواً ، لأنه قد اطلع على خفي السر ، قال الشاعر :

احـذر عدوك مرةً واحذر صديقك ألف مرّه

فلربما انقلب الصـديـ ـق فكان أدرى بالمضرّه

واعلم أن من الأمر الموضوع في النفوس الحسدَ على النعم ، أو الغبطة وحب الرفعة ، فاذا رآك من يعتقدك مثيلاً له وقد ارتقيت عليه فلا بد أن يتأثر وربما حسد ، فان إخوة يوسف عليهم السلام من هذا الجنس جرى لهم .

فان قلت : كيف يبقى الانسان بلا صديق ؟

قلت لك : أتراك ما تعلم أن المجانس يحسد ، وأن أكثر العوام يعتقدون في العالم أنه لا يتبسم ولا يتناول من شهوات الدنيا شيئاً ، فاذا رأوا بعض انبساطه في المباح هبط من أعينهم ، فاذا كانت هذه حالة العوام ، وتلك حالة الخواص ، فمع من تكون المعاشرة ؟ لا بل والله ما تصح المعاشرة مع النفس لأنها متلونة ، وليس إلا المداراة للخلق والاحتراز منهم[١] ، واتخاذ المعارف من غير طمع في صديق صادق ، فان ندر فليكن غير مماثل ، لأن الحسد اليه[٢] أسبق ، وليكن مرتفعاً عن رتبة العوام ، غير طامع في نيل مقامك ، وان كانت معاشرة هذا لا تشفي لأن المعاشرة ينبغي أن تكون بين العلماء المجانسين ، لزمهم من الاشارات في المخالطة ما تطيب به المجالسة ، ولكن لا سبيل الى الوصال[٣] ، ومثل هذه الحال انك ان استخدمت الاذكياء عرفوا باطنك ، وان استخدمت الابله انعكست مقاصدك ، فاجعل الاذكياء لحوائجك الخارجة ، والبُله لحوائجك في منزلك لئلا يعلموا أسرارك ، واقنع من الأصدقاء ، بمن وصفته لك ، ثم لا تلقه إلا متدرعاً

---

(١) من كلام عمر : خالطوا الناس وزايلوهم .

(٢) أي الى المماثل .

(٣) كأن في العبارة شيئاً من تحريف النساخ .

درع الحذر ، ولا تطلعه على باطن يمكن أن يُستر عنه ، وكن كما يقال عن الذئب :

ينام بإحدى مقلتيه ويتقي بأخرى الأعادي فهو يقظان هاجع

١١٣ - على طالب العلم كسب المعاش

رأيت جماعة ممن أفنى أوائل عمره وريعان شبابه في طلب العلم ، صَبَرَ على أنواع الأذى ، وهجر فنون الراحات ، أنفة من الجهل ورذيلته ، وطلباً للعلم وفضيلته ، فلما نال منه طرفاً رفعه عن مراتب أرباب الدنيا ومن لا علم له إلا بالعاجل ، ضاق به معاشه ، فسافر في البلاد يطلب من الأراذل ، ويتواضع للسفلة وأهل الدناءة والمُكّاس[1] وغيرهم ، فخاطبت بعضهم وقلت : ويحك أين تلك الأنفة من الجهل التي سهرت لأجلها ، وأظمأت نهارك بسببها ، فلما ارتفعتَ وانتفعتَ عدتَ الى أسفل سافلين ؟

أفما بقي عندك ذرة من الأنفة تنبو بها عن مقامات الأراذل ، ولا معك يسيرٌ من العلم يسيرُ بك عن مناخ الهوى ،

(١) أصحاب المكوس . والمراد بالمكوس هنا المظالم بأنواعها كلها .

ولا حصلت بالعلم قوة تجذب بهـــا زمام النفس عن مراعي السوء ؟

غير أنه تبين لي أن سهرك وتعبك كأنه كان لنيل الدنيا ، ثم اني أراك تزعم أنك تريد شيئاً من الدنيا تستعين به على طلب العلم . فاعلم أن التفاتك الى نوع كسب تستغني به عن الأراذل أفضل من التزيد في علمك ، فلو عرفت ما ينقص به لم تر ما قد عزمت عليه زيادة مما يحتوي عليه هذا العزم: السفر الذي كله مخاطرة بالنفس ، وبذل الوجه الذي طالما صين لمن لا يصلح التفات مثلك الى مثله ، وبعيد أن تقنع بعد شروعك في هذا الأمر بقدر الكفاف ، وقد علمت ما في السؤال بعد الكفاف من الإثم ، وأبعد منه أن تقدر على الورع في المأخوذ ، ومن لك بالسلامة والرجوع الى الوطن ، وكم رمى قفر في بواديه من هالك ، ثم ما يحصله يفني ويبقى منه ما أعطى ، وعيب المتقين إياك ، واقتداء الجاهلين بك ، ويكفيك انك عدت على ما علمت من ذم الدنيا بشينه إذ فعلت ما يناقضه ، خصوصاً وقد مر أكثر العمر ، ومن أحسن فيما مضى يحسن فيما بقي .

١١٤ ــ طريق الدرس لطالب العلم

رأيت الشَّرَه في تحصيل الاشياء يفوّت الشَّرِهَ مقصودَه ،

وقد رأينا من كان شرهاً في جمع المال فحصل له الكثير منه وهو حريص على الازدياد ، ولو فهم علم أن المراد من المال انفاقه في العمر ، فاذا أنفق العمر في تحصيله فات المقصودان جميعا ، وكم رأينا من جمع المال ولم يتمتع به فأبقاه لغيره وأفنى نفسه كما قال الشاعر :

كدودة القز ما تبنيه يهدمها وغيرها بالذي تبنيه ينتفع

وكذلك رأينا خلقاً كثيراً يحرصون على جمع الكتب فينفقون أعمارهم في كتابتها ، وكدأب أهل الحديث ينفقون الأعمار في النسخ والسماع الى آخر العمر ، ثم ينقسمون ، فمنهم من يتشاغل بالحديث وعلمه وتصحيحه ولعله لا يفهم جواب حادثة ، ولعله عنده حديث «أسلم سالمها الله» منة طريق .

وقد حكي لي عن بعض أصحاب الحديث انه سمع جزء ابن عرفة عن منة شيخ ، وكان عنده سبعون نسخة ، ومنهم من يجمع الكتب ويسمعها ولا يدري ما فيها لا من حيث صحتها ، ولا من فهم معناها ، فتراه يقول الكتاب الفلاني سماعي وعندي به نسخة ، والكتاب الفلاني والفلاني فلا يعرف علم ما عنده من حيث فهم صحيحه من سقيمه ، وقد صده اشتغاله بذلك عن المهم من العلم فهم كما قال الحطيئة :

زوامل للاخبار لاعلم عندها　　بمثلها الا كعلم الاباعر
لعمرك مايدري البعير اذاغدا　　بأوساقه أوراح مافي الغرائر(١)

ثم ترى منهم من يتصدر ويفتقر الزمان الى تصدره للرواية فيمد يده الى ما ليس من شغله ، فان أفتى أخطأ ، وإن تكلم في الاصول خلط ، ولو لا اني لا أحب ذكر الناس لذكرت من أخبار كبار علمائهم وما خلطوا ما يعتبر به ، ولكنه لايخفى على المحقق حالهم .

فان قال قائل : اليس في الحديث : « منهومان لايشبعان ، طالب علم وطالب دنيا » .

قلت : أمـــا العالم فـلا أقول له اشبع من العلم ، ولا اقتصر على بعضه ، بل أقول له قدم المهم فإن العاقل من قدر عمره وعمل بمقتضاه . وإن كان لاسبيل الى العلم بمقدار العمر غير انه يبني على الاغلب . فان وصل فقدأعد لكل مرحلة زاداً،وان مات قبل الوصول فحسبه ذلك ، فاذا علم العاقل أن العمر قصير وأن العلم كثير ، فقبيح بالعاقل الطالب لكمال الفضائل أن يتشاغل مثلا بسماع الحديث ونسخه ليحصل كل طريق ، وكل رواية ، وكل غريب . وهـذا لايفرغ من مقصوده منه في خمسين سنة خصوصاً ان تشاغل بالنسخ ، ثم لايحفظ القرآن .

أو يتشاغل بعلوم القرآن ولايعرف الحديث .

---

(١) الاوساق جمع وسقَ : الحمل . والغرائر جمع غراره : الكيس «الشوال»

أو بالخلاف في الفقه ولا يعرف النقل[١] الذي عليه مدار المسألة.

فان قال قائل : فدبر لي ماتختار لنفسك .

فأقول : ذو الهمة لايخفى من زمـــان الصبي كما قال سفيان بن عيينة :

قال لي أبي وقد بلغت خمس عشرة سنة ، إنه قد انقضت عنك شرائع الصبا فاتبـع الخير تكن من أهله . فجعلت وصية أبي قبلة أميل اليها ولا أميل عنها .

ثم قبل شروعي في الجواب أقول : ينبغي لمن له أنفة أن يأنف من التقصير الممكن دفعـه عن النفس ، فلو كانت النبوة مثلاً تأتي بكـسب لم يجز له أن يقنع بالولاية [٢] ، أو تصور أن يكون مثلا خليفة لم يحسن به أن يقتنع بامارة ، ولوصح له أن يكون ملَكا لم يرض أن يكون بشراً [٣]

والمقصود أن ينتهي بالنفس الى كمالها الممكن لهـا في العلم والعمل ، وقد علم قصر العمر وكثرة العلم فيبتدي بالقرآن وحفظه [٤] ، وينظر في تفسيره نظراً متوسطاً لايخفى عليه بذلك منه شيء ، وإن صح له قراءة القراءات السبع وأشـياء من النحو وكـتب اللغة ، ابتدأ باصول الحديث من حيث النقـل

---

(١) اي الدليل النقلي : : الآية او الحديث

(٢) انظر الفصل « ١٠٨ »

(٣) نسي المؤلف أنه فضل فيا مضى من الفصول البشر على الملائكة !!

(٤) انظر الفصل « ١٢٠ » و « ١٢١ »

كالصحاح والمسانيد والسنن ، ومن حيث علم الحديث كمعرفة الضعفاء والاسماء ، فلينظر في أصول ذلك ، وقد رتبت العلماء من ذلك مايستغني به الطالب عن التعب ، ولينظر في التواريخ ليعرف مالايستغنى عنه كنسب الرسول ﷺ وأقاربه وأزواجه وما جرى له ، ثم ليقبل على الفقه فلينظر في المذهب والخلاف وليكن اعتماده على مسائل الخلاف فلينظر في المسألة وماتحتوي عليه فيطلبه من مظانه ، كتفسير آية وحديث وكلمة لغة ، ويتشاغل باصول الفقه وبالفرائض . وليعلم أن الفقه عليه مدار العلوم [١] ويكفيه من النظر في الاصول [٢] مايستدل به على وجود الصانع ، فإذا أثبته بالدليل وعرف مايجوز عليه مما لايجوز ، وأثبت ارسال الرسل وعلم وجوب القبول منهم ، فقد احتوى على المقصود من علم الاصول فإن اتسع الزمان للتزيد من العلم فليكن من الفقه فانه الا نفع ومهما فسح له في المهل فأمكنه تصنيف في علم فانه يخلف بذلك خلفه خلفاً صالحاً مع اجتهاده في التسبب الى اتخاذ الولد .

ثم يعلم ان الدنيا مَعْبَرَة فيلتفت الى فهم معاملة الله عز وجل ، فان مجموع ما حصله من العلم يدله عليه ، فاذا تعرض

---

(١) انظر الفصل « ١١٠ »

(٢) يريد علم اصول الدين وهو التوحيد لا علم اصول الفقه

لتحقيق معرفته ووقف على باب معاملته قلَّ أن يقف صادق إلا ويجذب الى مقام الولاية ، ومن أريد ُوفّق .

وان لله عز وجل ، أقواماً يتولى تربيتهم ويبعث اليهم في زمن الطفولية مؤدباً ويسمى العقل ، ومقوماً ، ويقال له الفهم ، ويتولى تأديبهم وتثقيفهم ، ويهيء لهم اسباب القرب منه ، فإن لاح قاطع قطعهم عنه . وان تعرضت بهم فتنة دفعها عنهم . فنسأل الله عز وجل ان يجعلنا منهم ، ونعوذ به من خذلان لاينفع معه اجتهاد .

١١٥ ـ تقوى الله في الخلوات

إن للخلوة تأثيرات تبين في الجلوة ، كم من مؤمن بالله عز وجل يحترمه عند الخلوات فيترك مايشتهي حذراً من عقابه ، أو رجاء لثوابه ، او إجلالاً له ، فيكون بذلك الفعل كأنه طرح عوداً هندياً على مجمر فيفوح طيبه فيستنشقه الخلائق ، ولا يدرون أين هو . وعلى قدر المجاهدة في ترك ما يقوي محبته ، أو على مقدار زيادة دفع ذلك المحبوب المتروك يزيد الطيب ، ويتفاوت تفاوت العود ، فترى عيون

الخلق تعظم هــذا الشخص وألسنتهم تمدحه ولايعرفون لم ؟ ولا يقدرون على وصفه لبعدهم عن حقيقة معرفته وقد تمتد هذه الأرابيح بعد الموت على قدرها ، فمنهم من يذكر بالخير مدة مديدة ثم ينسى ، ومنهم من يذكر مائة سنة ثم يخفى ذكره وقبره . ومنهم أعلام يبقى ذكرهم أبداً .

وعلى عكس هذا من هاب الخلق ، ولم يحترم خلوته بالحق ، فانه على قدر مبارزته بالذنوب وعلى مقادير تلك الذنوب ، تفوح منه ريح الكراهة فتمقته القلوب ، فان قل مقدار ماجنى قل ذكر الألسن له بالخير ، وبقي بجرد تعظيمه . وإن كثر كان قصارى الامر سكوت الناس عنه لايمدحونه ولايذمونه . ورب خالٍ بذنب كان سبب وقوعه في هوة شقوة في عيش الدنيا والآخرة ، وكأنه قيل له : ابق بمــا آثرت ، فيبقى أبداً في التخبيط . فانظروا إخواني إلى المعاصي أثّرت وعثّرت . قال أبو الدرداء رضي الله عنه : إن العبد ليخلو بمعصية الله تعــالى فيلقي الله بغضَه في قلوب المؤمنين من حيث لايشعر .

فتلمحوا ماسطرته ، واعرفوا ماذكرته ولاتهملوا خلواتكم ولا سرائركم ، فان الاعمال بالنية ، والجزاء على مقدار الاخلاص .

١١٦ ـــ الرضى بالقدر

من عرف جريان الاقدار ثبت لها ، وأجهل الناس بعد هذا من قاواها . لان مراد المقدّر الذل له .

فاذا قاويت القدر فنلت مرادك من ذلك لم يبق لك ذل .

مثال هذا ، أن يجوع الفقير فيصبر قـدر الطاقة ، فاذا عجز خرج الى سؤال الخلق مستحياً من الله كيف يسألهم ، وان كان له عذر بالحاجة التي ألجأته ، غير انه يرى أنه مغلوب الصبر فيبقى معتذراً مستحياً وذاك المراد منه . أوليس بخروج النبي ﷺ من مكة فلا يقدر على العود اليهـا حتى يدخل في خفارة المطعم بن عدي وهو كافر ، عبرة في ذلك ؟

فسبحان من ناط الامور بالأسباب ، ليحصل ذل العـارف بالحاجة الى التسبب .

١١٧ - يختبر الله صبر عباده

سبحان المتصرف بخلقه بالاغتراب والاذلال ليبلو صبرهم ، ويظهر جواهرهم في الابتلاء ، هذا آدم ﷺ تسجد له الملائكة ثم بعد قليل يخرج من الجنة ، وهذا نوح عليه السلام يضرب حتى يغشى عليه ثم بعد قليل ينجو في السفينة ويهلك أعداؤه ،

وهذا الخليل عليه السلام يلقى في النار ثم بعد قليل يخرج الى السلامة ، وهذا الذبيح يضجع مستسلماً ثم يسلم ويبقى المدح، وهذا يعقوب عليه السلام يذهب بصره بالفراق ثم يعود بالوصول وهذا الكليم عليه السلام يشتغل بالرعي ثم يرقى الى التكليم ، وهذا نبينا محمد ﷺ يقال له بالامس اليتيم ويقلب في عجائب يلاقيها من الاعداء تارة ومن مكايد الفقر أخرى ، وهو أثبت من جبل حراء . ثم لما تم مراده من الفتح ، وبلغ الغرض من أكبر الملوك وأهل الارض نزل به ضيف النقلة ، فقال : واكرباه .

فمن تلمّح بحر الدنيا وعلم كيف تُتلقى الامواج ، وكيف يُصبر على مدافعة الايام لم يستهول نزول بلاء ، ولم يفرح بعاجل رخاء .

١١٨ - لاتقدم على عمل لاتطيقه

ينبغي العاقل أن لايقدم على العزائم حتى يزن نفسه هل يطيقها ، ويجرب نفسه في ركوب بعضها سراً من الخلق فانه لا يأمن أن يرى في حالة لايصبر عليها ، ثم يعود فيفتضح .

مثاله ، رجل سمع بذكر الزهاد فرمى ثيابه الجميلة ولبس الدون ، وانفرد في زاوية ، وغلب على قلبه ذكر الموت

والآخرة ، فلم يلبث متقاضي الطبع أن ألح بما جرت به العادة ، فمن القوم من عاد بمرة [١] الى أكثر مما كان عليه كآكل الناقه من مرض ، ومنهم من توسط الحال فبقى كالمذبذب ، وانما العاقل هو يستر نفسه بين الناس بثوب وسط لايخرجه من اهل الخير ، ولايدخله في زي اهل الفاقة ، فان قويت عزيمته عمل في بيته مايطيق ، وترك ثوب التجمل لستر الحال ، ولم يظهر شيئاً للخلق ، فانه ابعد من الرياء ، واسلم من الفضيحة .

وفي الناس من غلب عليه قصر الامل وذكر الآخرة حتى دفن كتب العلم ، وهذا الفعل عندي من اعظم الخطأ وان كان منقولا عن جماعة من الكبار ولقد ذكرت هذا لبعض مشايخنا فقال : أخطؤوا كلهم ، وقد تأولت لبعضهم بانه كان فيها احاديث عن قوم ضعفاء ولم يميزوها ، كما روي عن سفيان في دفن كتبه ، او كان فيها شيء من الرأي فلم يحبوا ان يؤخذ عنهم [١] فكان من جنس تحريق عثمان رضي الله عنه المصاحف لئلا يؤخذ بشيء مما فيها من الجمع على غيره وهذا التأويل يصح في حق علمائهم .

فاما غسل احمد بن ابي الحواري كتبه وابن اسباط فتفريط محض .

فالحذَر الحذَر من فعل يمنع منه الشرع او من ارتكاب

---

(١) اي عاد اليها تماماً كما يقال اليوم : « بالمرة »

(٢) مر هذا المعنى مراراً ، انظر الفصل «١٩٠»

مايظن عزيمة وهو خطيئة ، او من اظهار مالا يقوى عليه المظهر فيرجع القهقرى وعليكم من العمل بما تطيقون كما قال ﷺ.

١١٩ - لا خير في لذة من بعدها النار

اجهل الجهال من آثر عاجلاً على آجل لا يأمن سوء مغبته ، فكم قد سمعنا عن سلطان وأمير وصاحب مال أطلق نفسه في شهواتها ، ولم ينظر في حلال وحرام ، فنزل به من الندم وقت الموت أضعاف ماالتذ ، ولو كان هذا فحسب لكفى حزناً ، وكيف ؟ والجزاء الدائم بين يديه ، فالدنيا محبوبة للطبع ، لا ريب في ذلك ، ولا أنكر على طالبها ومؤثر شهواتها ، ولكن ينبغي له أن ينظر في كسبها ، ويعلم وجه أخذها ، ليسلم له عاقبة لذته ، وإلا فلا خير في لذة من بعدها النار .

وهل عد في العقلاء قط من قيل له : اجلس في المملكة سنة ثم نقتلك ؟ هيهات ، بل الامر بالعكس ، وهو أن العاقل من صابر مرارة الجهد سنة بل سنين ليستريح في عاقبته ، وفي الجملة ، أف للذة أعقبت عقوبة .

وقد أخبرنا عبد الرحمن بن محمد القزاز قال أخبرنا ابو بكر الخطيب قال أخبرنا الحسن بن أبي طالب قال حدثنا يوسف بن عمر

القواس قال حدثنا الحسين بن اسماعيل املاء قال حدثنا عبد الله بن أبي سعد قال حدثنا محمد بن مسلمة البلخي قال حدثنا محمد بن علي القوهستاني قال حدثنا دلف بن أبي دلف . قال : رأيت كأن آتياً أتى بعد موت أبي فقال : أجب الامير .

فقمت معه فادخلني دار وحشةٍ وعرةً سوداءَ الحيطان مقلّعةَ السقوف والابواب ، ثم أصعدني درجاً فيها ، ثم أدخلني غرفة فاذا في حيطانها أثر النيران ، وإذا في أرضها أثر الرماد ، وإذا أبي عريان واضعاً رأسه بين ركبتيه فقال لي كالمستفهم : دُلَف ؟

قلت : نعم أصلح الله الامير .

فأنشأ يقول :

أبلغن أهلنا ولا تخفِ عنهم ما لقينا في البرزخ الخفاق
قد سئلنا عن كل ما قد فعلنا فارحموا وحشتي وماقدألاقي

أفهمت ؟ قلت : نعم . فانشأ يقول :

فلو أنا إذا مِتنا تُرِكنا لكان الموت راحة كل حيّ
ولكنا إذا متنا بعثنـا ونسـأل بعده عن كل شيّ

١٢٠ ـ نصائح لطالب العلم

اللذات كلها بين حسي وعقلي ، فنهاية اللذات الحسية وأعلاها

النكاح ، وغاية اللذات العقلية العلم ، فمن حصلت له الغايتان في الدنيا فقد نال النهاية ، وأنا أرشد الطالب الى أعلى المطلوبين ، غير أن للطالب المرزوق علامة وهو أن يكون مرزوقاً علوّ الهمة ، وهذه الهمة تولد مع الطفل ، فتراه من زمن طفولته يطلب معالي الامور ، كما يروى في الحديث أنه كان لعبد المطلب مفرش في الحِجْر فكان النبي صلى الله عليه وسلم يأتي وهو طفل فيجلس عليه فيقول عبد المطلب : إن لابني هذا شأنا .

فان قال قائل : فاذا كانت لي همة ولم أرزق ما أطلب فما الحيلة؟ فالجواب ، انه إذا امتنع الرزق من نوع لم يمتنع من نوع آخر ، ثم من البعيد أن يرزقك همة ولا يعينك ، فانظر في حالك فلعله أعطاك شيئاً ماشكرته ، أو ابتلاك بشيء من الهوى ما صبرت عنه ، واعلم أنه ربما زَوى عنك من لذات الدنيا كثيرا ليوفرك على لذات العلم فانك ضعيف ربما لا تقوى على الجمع ، فهو أعلم بما يصلحك .

وأما ما أردت شرحه لك فان الشاب المبتدىء في طلب العلم ينبغي له أن يأخذ من كل علم طرفاً ، ويجعل علم الفقه الاهم[١] ، ولا يقصر في معرفة النقل[٢] ، فبه تبين سير الكاملين ، واذا رزق

---

(١) انظر آخر الفصل «١١٤» .

(٢) أي الأحاديث التي هي ادلة احكام الفقه .

فصاحة من حيث الوضع ثم أضيف اليهـــا معرفة اللغة والنحو فقد شحذت شفرة لسانه على أجود مسن ، ومتى أدى العلم لمعرفة الحق وخدمة الله عز وجل فتحت له أبواب لا تفتح لغيره ، وينبغي له بالتلطف أن يجعل جزءاً من زمانه مصروفاً الى توفير الاكتســاب والتجارة ، مستنيباً فيها غير مباشر لها ، مع التدبير في العيش المتنع من الاسراف والتبذير ، فان رواية العلم والعمل به الى درجة المعرفة لله عز وجل ، فربما شغلته لذة ما وصل اليه عن كل شيء ، ويالها حالة سليمة من آفة ، وان وجد من طبعه منازعاً الى الشوق في النـكاح فليتحر السراري ، فان الحرائر في الاغلب غل ، وليعزل[1] عن المملوكات الى أن يجرب خلقهن ودينهن ، فان رضين طلب الولد منهن ، وإلا فالاستبدال بهن سهل ، ولا يتزوج حرة الا أن يعلم أنها تصبر على التزويج عليهـــا والتسري ، وليكن قصده الاستمتاع بها لا إجهاد النفس في الانزال ، فان ذلك يهدم قوته فيضعف الاصـــل ، فهذه الجامعة من لذتي الحس والعقل ذكرتها على وجه الاشارة وفهم الذكي يملي عليه ما لم أشرحه .

---

(١) العزل القاء الماء خارج (الموضع) لمنع الحمل .

١٢١ - على طالب العلم أن لايجهد نفسه

اعلم أن المتعلم يفتقر الى دوام الدراسة ، ومن الغلط الانهاك على الاعادة ليلا ونهاراً ، فانه لا يلبث صاحب هـذه الحال إلا أياما ثم يفتر أو يمرض ، وقد روينا أن الطبيب دخل على أبي بكر بن الانباري في مرض موته فنظر الى مائه[1] وقال : قد كنت تفعل شيئاً لا يفعله أحد ، ثم خرج فقـال : ما يجيء منه شيء .

فقيل له : ما الذي كنت تفعل ؟

قال: كنت أعيد كل اسبوع عشرة آلاف ورقة .

ومن الغلط حفظ الكثير أو الحفظ من فتور ، فان القلب جارحة من الجوارح ، وكما ان من الناس من يحمل المئة رطل[2]، ومنهم من يعجز عن عشرين رطلًا ، فكذلك القلوب ، فليأخذ الانسان على قدر قوته ودونها ، فانه اذا استنفدها في وقت ضاعت منه أوقات ، كما أن الشَّرِه بأكل فضل لقيمات يكون سبباً الى منع أكلات ، والصواب أن يأخذ قدر ما يطيق ، ويعيد في

---

(١) اي بوله ، وكان جمع البول في قوارير وعرضه على الطبيب هو الاسلوب الشائع في الفحص الطبي عند اطباء العرب من قبل تسعمئة سنة !

(٢) الفصيح ان يقال : مئة الرطل . او المئة الرطل .

وقتين من النهار والليل ، ويرفّه القوى في بقية الزمان ، والدوام أصل عظيم ، فكم ممن ترك بعد الحفظ فضاع زمن طويل في استرجاع محفوظ قد نسي ، وللحفظ أوقات من العمر ، فأفضلها الصبا وما يقاربه من أوقات الزمان ، وأفضلها إعادة الاسحار وأنصاف النهار ، والغَدَوات خير من العَشيّات ، وأوقات الجوع[1] خير من أوقات الشبع .

ولا يحمد الحفظ بحضرة خضرة ولا على شاطىء نهر ، لان ذلك يلهي ، والاماكن العالية للحفظ خير من السوافل ، والخلوة أصل وجمع الهمّ أصل الاصول ، وترْفيه النفس من الاعادة يوماً في الاسبوع ليثبت المحفوظ وتأخذ النفس قوة كالبنيان يترك أياما حتى يستقر ثم يبنى عليه ، وتقليل المحفوظ مع الدوام أصل عظيم ، وألاّ يشرع في فن حتى يحكم ما قبله ، ومن لم يجد نشاطاً للحفظ فليتركه ، فان مكابرة النفس لاتصلح ، وإصلاح المزاج من الاصول العظيمة فان للمأكولات أثراً في الحفظ .

قال الزهري : ما أكلت خلاً منذ عالجت الحفظ .

وقيل لابي حنيفة : بم يستعان على حفظ الفقه ؟

قال : بجمع الهم .

---

(١) يريد مابين الطعامين لا وقت الجوع الشديد .

وقال حماد بن سلمة : بقلّة الغم .

وقال مكحول : من نظف ثوبه قلّ همه ، ومن طابت ريحه زاد عقله ، ومن جمع بينهما زادت مروءته .

وأختار للمبتدي في طلب العلم أن يدافع النكاح مهما أمكن فان أحمد بن حنبل لم يتزوج حتى تمت له اربعون سنة ، وهذا لأجل جمع الهم ، فان غلب عليه الامر[1] تزوج ، واجتهد في المدافعة بالفعل لتتوفر القوة على إعادة العلم ، ثم لينظر ما يحفظ من العلم فان العمر عزيز والعلم غزير ، وان أقواماً يصرفون الزمان الى حفظ ما غيره أولى منه ، وان كان كل العلوم حسناً ولكن الاولى تقديم الاهم والافضل ، وأفضل ما تشوغل به حفظ القرآن، ثم الفقه وما بعد هذا بمنزلة تابع ، ومن رزق يقظة دلّته يقظته فلم يحتج الى دليل ، ومن قصد وجه الله تعالى بالعلم دله المقصود على الاحسن « واتقوا الله ويعلّمكم الله »[2] .

---

(١) كما هي الحال في زماننا الذي كثرت فيه المغريات والمغويات .

(٢) يحتج بعض الجهلة بهذه الآية ، على أن التصوف يغني عن الطلب ، فينال صاحبه العلم وهو قاعد ، وذلك غلط لان الله يعلم من يتقي ، والتقوى إنما تكون في اتباع الاوامر واجتناب النواهي ، ومما امرنا به طلب العلم ، فمن لم يطلب العلم لم يكن من اهل التقوى .

١٢٢ — اتق الله ولا تغتر بالسلامة

من أراد دوام العافية والسلامة فليتق الله عز وجل ، فانه ما من عبد أطلق نفسه في شيء ينافيه التقوى وإن قل إلا وجد عقوبته عاجلة أو آجلة ، ومن الاغترار أن تسيء فترى إحسانا فتظن انك قد سومحت ، وتنسى : « من يعمل سوءاً يُجز به » . وربما قالت النفس انه : «يَغْفر» فتسامحت، ولا شك أنه يَغفر ولكن لمن يشاء ، وأنا أشرح لك حالاً فتأمله بفكرك تعرف معنى المغفرة .

وذلك أن من هفا هفوة لم يقصدها ولم يعزم عليها قبل الفعل ، ولا عزم على العود بعد الفعل ، ثم انتبه لما فعل فاستغفر الله ، كان فعله وإن دخله عمداً في مقام خطأ ، مثل أن يعرض له مستحسن فيغلبه الطبع فيطلق النظر ، ويتشاغل في حال نظره بالتذاذ الطبع ، عن تلمح معنى النهي ، فيكون كالغائب أو كالسكران ، فاذا انتبه لنفسه ندم على فعله ، فقام الندم بغسل تلك الاوساخ التي كانت كأنها غلطة لم تُقصد . فهذا معنى قوله تعالى : « إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون» .

فأما المداوم على تلك النظرة ، المردد لها ، المصر عليها ، فكأنه في مقام متعمد النهي مبارز بالخلاف ، فالعفو يبعد عنه بمقدار

إصراره ، ومن البعد ألاّ يرى الجزاء على ذلك كما قال ابن الجلاء: رآني شيخي وأنا قائم أتأمل حدَثاً نصرانياً فقال :

ما هذا ؟ لترين غبها ولو بعد حين .

فنسيت القرآن بعد أربعين سنة .

واعلم أنه من أعظم المحن الاغترار بالسلامة بعد الذنب ، فانه العقوبة تتأخر ، ومن أعظم العقوبة ألاّ يحسّ الانسان بها ، وأن تكون في سلب الدين ، وطمس القلوب ، وسوء الاختيار للنفس ، فيكون من آثارها سلامة البدن وبلوغ الاغراض .

قال بعض المعتبرين : أطلقت نظري فيما لا يحل لي ، ثم كنت أنتظر العقوبة فألجئت الى سفر طويل لا نية لي فيه ، فلقيت المشاق، ثم أعقب ذلك موت أعز الخلق عندي ، وذهاب أشياء كان لها وقع عظيم عندي ، ثم تلافيت أمري بالتوبة فصلح حالي ، ثم عاد الهوى فحملني على إطلاق بصري مرة أخرى ، فطمس قلبي وعدمت رقته ، واستلب مني ما هو أكثر من فقد الاول ، ووقع لي تعويض عن المفقود ما كان فقده أصلح ، فلما تأملت ماعوضت وما سلب مني ، صحت من ألم تلك السياط ، فها أنا أنادي من على[1] الساحل : إخواني احذروا لجة هذا البحر ، ولا تغتروا بسكونه، وعليكم بالساحل ، ولازموا حصن التقوى فالعقوبة مرة ، واعلموا

(١) الفصيح : فهأنذا انادي من الساحل .

أن في ملازمة التقوى مرارات من فقد الاغراض والمشتهيات ، غير انهـــا في ضرب المثل كالحمية تعقب صحة ، والتخليط ربما جلب موت الفجأة .

وبالله لو نمتم على المزابل مع الكلاب في طلب رضى المبتلي كان قليلاً في نيل رضاه ، ولو بلغتم نهاية الاماني من أغراض الدنيا مع إعراضه عنـكم كانت سلامتـكم هلاكاً ، وعافيتـكم مرضاً ، وصحتكم سقماً ، والامر بآخره ، والعاقل من تلمح العواقب، وصابروا رحمكم الله تعالى هجير البلاء فما أسرع زواله .

والله الموفق إذ لاحول إلا به ، ولا قوة إلا بفضله .

١٢٣ ـ الرد على أهل البدع والصوفية والمتكلمين والمشبهة

قدم الى بغداد جمــاعة من أهل البدع الأعاجم فارتقوا منابر التذكير للعوام ، فكان معظم مجالسهم أنهم يقولون ليس لله في الأرض كلام ، وهل المصحف إلا ورق وعفص وزاج ؟ وان الله ليس في السماء ، وأن الجارية التي قال لها النبي ﷺ أين الله ؟ كانت خرساء فأشارت الى السماء أي ليس هو من الأصنام التي تعبد في الارض[١]

---

(١) نعم . ومن اعتقد أن الله في السماء حقيقة أي ان السماء مشتملة عليه ، اخذاً بظاهر الحديث كان مشبهاً كافراً ، هذا والحديث حديث آحاد ، لا تثبت بمثله عقيدة ولا يفيد العلم باتفاق علماء الأصول .

ثم يقولون أين الحروفية الذين يزعمون أن القرآن حرف وصوت ؟ هذا عبارة جبريل .

فما زالوا كذلك حتى هان تعظيم القرآن في صــــدور أكثر العوام ، وصار أحدهم يسمع فيقول : هذا هو الصحيـح ، وإلا فالقرآن شيء يجيء به جبريل في كيس . فشـكا إليّ جماعة من أهل السنة ، فقلت لهم : اصبروا فلا بد للشبهات أن ترفع رأسها في بعض الأوقات ، وان كانت مدموغة ، وللباطل جولة وللحق صولة والدجالون كثير ، ولا يخلو بلد ممن يضرب البهرج على مثل سكة السلطان .

قال قائل : فما جوابنا عن قولهم ؟ قلت : اعلم وفقك الله تعالى أن الله عز وجل ورسوله قنعا من الخلق بالإيمان بالجمل ولم يكلفا معرفة التفاصيل ، إما لان الاطلاع على التفاصيل يخبط العقائد ، وإما لان قوى البشر تعجز عن مطالعة ذلك ، فأول ما جاء به الرسول ﷺ إثبات الخالق ، ونزل عليه القرآن بالدليل على وجود الخالق بالنظر في صنعه فقــال تعالى : « أمّن جعل الارض قراراً وجعل خلالها أنهــاراً » وقال تعالى : « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » . وما زال يستدل على وجوده بمخلوقاته ، وعلى قدرته بمصنوعاته ، ثم أثبت نبوة نبيه بمعجزاته ، وكان من أعظمها القرآن الذي جاء به فعجز الخلائق عن مثله ، واكتفى

بهذه الادلة جماعة من الصحابة ، ومضى على ذلك القرن الاول والمشرب صاف لم يتكدر[١] ، وعلم الله عز وجل ما سيكون من البدع فبالغ في إثبات الادلة وملأ بها القرآن ، ولما كان القرآن هو منبع العلوم ، وأكبر المعجزات للرسول ، أكد الامر فيه فقال تعالى : « وهذا كتاب أنزلناه مبارك » « وننزل من القرآن ما هو شفاء » ، فأخبر أنه كلامه بقوله تعالى : « يريدون أن يبدلوا كلام الله » ، وأخبر أنه مسموع بقوله تعالى : « حتى يسمع كلام الله » ، وأخبر أنه محفوظ فقال تعالى : « في لوح محفوظ » وقال تعالى: « بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم » ، وأخبر أنه مكتوب ومتلو فقال تعالى: « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك» الى ما يطول شرحه من تعدد الآيات في هذه المعاني التي توجب إثبات القرآن .

ثم نزّه نبيه ﷺ عن أن يكون أتى به من قبل نفسه فقال تعالى : « أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك » وتوعده لو فعل فقال تعالى : « ولو تقوّل علينا بعض الاقاويل » ، وقال في حق الزاعم أنه كلام الخلق حين قال : « إنْ هذا إلا قول البشر ، سأصليه سقر » ، ولما عذب كل أمة بنوع عذاب تولاه بعض الملائكة كصيحة جبريل عليه

---

(١) فلم يقولوا أنه في السماء ولم ينفوا ، ولم يحققوا الاستواء ولم يؤولوا ، ولم يتكلموا في ذلك بشيء ، ولكن فوضوا وسلموا .

السلام بثمود ، وإرسال الريح على عاد ، والخسف بقارون ، وقلب جبريل دار لوط عليها السلام ، وإرسال الطير الأبابيل على من قصد تخريب الكعبة . تولى هو بنفسه عقاب المكذبين بالقرآن فقال تعالى : « ذرني ومن يكذب بهذا الحديث » . « ذرني ومن خلقت وحيداً » . وهذا لأنه أصل هذه الشرائع والمثبت لكل شريعة تقدمت ، لأن جميع الملل ليس عندهم مايدل على صحة ما كانوا فيه إلا كتابنا ، لأن كتبهم غيرت وبدلت ، وقد علم كل ذي عقل أن القائل : « إن هذا إلا قول البشر » انما أشار الى ماسمعه . ولايختلف أولو الالباب وأهل الفهم للخطاب ، أن قوله « وأنه » كناية عن القرآن ، وقوله : « تنزل به » كناية أيضا عنه وقوله : « هذا كتاب » إشارة إلى حاضر . وهذا أمر مستقر لم يختلف فيه أحد من القدماء في زمن الرسول ﷺ والصحابة رضوان الله عليهم ، ثم دس الشيطان دسائس البدع فقال قوم : هذا المشار اليه مخلوق، فثبت الامام احمد رحمه الله ثبوتا لم يثبته غيره على دفع هذا القول لئلا يتطرق الى القرآن مايمحو بعض تعظيمه في النفوس، ويخرجه عن الاضافة إلى الله عز وجل . ورأى أن ابتداع مالم يقل فيه لايجوز استعماله فقال : كيف أقول مالم يقل .

ثم لم يختلف الناس في غير ذلك ، الى أن نشأ علي بن اسمعيل الاشعري ، فقال مرة بقول المعتزلة ، ثم عنّ له فادعى أن الكلام صفة قائمة بالنفس . فأوجبت دعواه هذه أن ماعندنا مخلوق وزادت فخبطت العقائد فما زال اهل البدع يجوبون في تيارها الى اليوم[1] .

والكلام في هذه المسألة مرتب بذكر الحجج والشبه في كتب الاصول فلا أطيل به ههنا بل أذكر لك جملة تكفي من أراد الله هداه ، وهو أن الشرع قنع منا بالايمان جملة وبتعظيم الظواهر ، ونهى عن الخوض فيما يثير غبار شبهته ، ولايقوى

---

(١) الطعن في الاشعري طعن في عقيدة جمهور المسلمين من سبعمئة سنة الى اليوم ، لأنهم جميعاً على مذهب الاشعري في العقائد، «او الماتريدي وهو قريب منه» يدينون بذلك ، ويؤلفون فيه كتبهم ، ويعلمونها في مدارسهم ، ومايضر الاشاعرة ان يسميهم ابن تيمية او ابن القيم الجهمية « لاسيا في كتابه اجتماع الجيوش الاسلامية » ، ولايضرهم ان وافقوا المعتزلة في شيء ، فانه ليس كل ماقال المعتزلة او قال الجهمية باطلا ، بل ان فيه مالايخلو من حق ، وممن انصفهم من العلماء المتأخرين العالم السلفي الشيخ جمال الدين القاسمي رحمه الله « انظر رسالته : الجهمية والمعتزلة » ، وليس معنى قولي هذا ان الاشاعرة فوق النقد او انهم اهدى الناس ، او ان اتباع مذهبهم واجب ، فان الاشاعرة كغيرهم يؤخذ منهم ويرد عليهم ، ولايجب وجوباً اتباع مذهبهم ، والخير فيما كان عليه السلف قبل ان تكون هذه المذاهب الكلامية كلها ، فمن استطاع ذلك فبها ونعمت ، ومن ابى الا احد هذه المذاهب فليكن اشعريا ماتريديا وليكن مع جمهور المسلمين .

على قطع طريقه اقدام الفهم ، وإذا كان قد نهى عن الخوض في القدر فكيف يجوز الخوض في صفات المقدر ؟ وما ذاك إلا لاحد الامرين اللذين ذكرتهما ، إمـا لخوف اثارة شبهة تزلزل العقائد ، أو لأن قوى البشر تعجز عن إدراك الحقائق ، فاذا كانت ظواهر القرآن تثبت وجود القرآن فقال قائل ليس ههنا قرآن ، فقد رد الظواهر التي تعب الرسول ﷺ في إثباتها وقرر وجودها في النفوس ، وبمـاذا يحل ويحرم ، ويبت ويقطع ، وليس عندنا من الله تعالى تقدم[1] بشيء ، وهل للمخالف دليل إلا أن يقول : « قال الله » فيعود فيثبت ما نفى . فليس الصواب لمن وفق إلا الوقوف مع ظاهر الشرع[2] فان اعترضه ذو شبهة ، فقال : هذا صوتك وهذا خطك ، فأين القرآن ؟ فليقل له : قد أجمعنا أنا وأنت على وجود شيء به نحتج جميعاً ، وكما أنك تنكر علي أن أثبت شيئاً لايتحقق لي إثباته حساً ، فأنا أنكر عليك كيف تنفي وجود شيء قد ثبت شرعاً ، وأمـا قولهم هل في المصحف إلا ورق وعفص وزاج ، هذا كقول القـائل : هل الآدمي الا لحم ودم ؟ هيهات إن معنى الآدمي هو الروح ، فمن نظر الى اللحم والدم وقف مع الحسّ . فان قال : فكذا

---

(١) اي أمر (٢) اي وقوف تفويض وتسليم لاتشبيه وتجسيم

أقول أن المكتوب غير الكتابة ، قلنا له : وهذا مما ننكره عليك لانه لايثبت تحقيق هذا لك ولالخصمك ، فان أردت بالكتابة الحبر وتخطيطه فهذا ليس هو القرآن ، وان أردت المعنى القائم بذلك فهذا ليس هو الكتابة ، وهــذه الاشياء لايصلح الخوض فيها فان مادونها لايمكن تحقيقه عــلى التفصيل كالروح مثلا[١] ، فانا نعلم وجودها في الجملة ، فاما حقيقتها فلا . فاذا جهلنا حقائقها كنا لصفات الحق أجهل ، فوجب الوقوف مع السمعيات مع نفي مايليق بالحق ، لان الخوض يزيد الخائض تخبيطاً ولا يفيده تحصيلاً بل يوجب عليه نفي مايثبت بالسمع من غير تحقيق أمر عقلي ، فلا وجه السلامة إلا طريق السلف والسلام.

وكذلك أقول ان اثبات الاله بظواهر الآيات والسنن ألزم العوام من تحديثهم بالتنزيه وان كان التنزيه لازماً . وقد كان ابن عقيل يقول : الأصلح لاعتقاد العوام ظواهر الآي والسنن ، لأنهم يأنسون بالاثبات فمتى محونا ذلك من قلوبهم زالت السياسات والحشمة وتهافت العوام في الشبهة أحب الي من اغراقهم في التنزيه ، لأن التشبيه يغمسهم في الاثبات[٢].

---

(١) هذا صحيح ، ولكن المؤلف يخالف فعله قوله ، فلم يفوض تفويض السلف ولا قال بالمجاز كما فعل علماء الخلف ولكنه مال الى التأويل تارة والى التشبيه تارة

(٢) اعوذ بالله ، كيف والمؤلف نفسه صاحب كتاب « دفع شبهة التشبيه » ؟

فيطمعوا ويخافوا شيئاً قد أنسوا الى ما يخاف مثله ويرجى ، فالتنزيه يرمي بهم الى النفي ولا طمع ولا مخافة من النفي ، ومن تدبر الشريعة رآها عامة للمكلفين في التشبيه بالالفاظ التي لايعطي ظاهرها سواه كقول الاعرابي : أوَ يضحك ربنا ، قال : نعم
فلم يكفره من هذا القول[1].

١٢٤ ـ العلم والفقر

أعظم البلايا أن يعطيك همة عاليـــة ويمنعك من العمل بمقتضاها ، فيكون من تأثير همتك الأنفة من قبول ارفاق الخلق استقـلالاً لحمـــل منتهم ، ثم يبتليك بالفقر فتأخـذ منهم ، ويلطف مزاجك فـلا تقبل من المأكولات ما سهل احضاره ، فتحتاج الى فضل نفقـة ، ثم يقلل رزقك ويعلق همتك بالمستحسنات ، ويقطع بالفقـــر السبيل الى العين ، ويريك العلوم في مقام معشوق ، ويضعف بدنك عن الاعادة ويخلي يديك من المال الذي تحصل به الكتب ، ويقوّي توقك الى درجات العارفين والزهاد ، ويحوجك الى مخالطـة أرباب الدنيا وهذا البلاء المبين ، وأما الحبس الهمة الذي لايستنكف

(١) اذا اخذه احد على ظاهره وقال بانه يضحك « اي كضحكنا » كفر.

من سؤال الخلق ، ولا يرى الاستبدال[1] بزوجته ، ويكتفي بيسير من العلم ، ولا يتوق الى احوال العارفين ، فذاك لايؤلمه فقد شيء ، ويرى ماوجد هو الغاية . فهو يفرح فرح الاطفال بالزخارف ، فما أهون الامر عليه . انما البلاء على العارف ذي الهمة العالية ، الذي تدعوه همته الى جمع الاضداد للتزيد من مقام الكمال ، وتقصير خطاه عن مدارك مقصوده فياله من حال ينفد في طريقه زاد الصابرين ، ولولا حالات غفلة تعتري هذا المبتلي يعيش بهـا ، لكان دوام ملاحظته للمقامات يعمي بصره ، واجتهاده في السلوك يحفي قدمه ، لكن ملاحظات الامداد له تارة ببلوغ بعض مراده وتارة بالغفلة عما قصد ، وهذا كلام عزيز لايفهمه إلا أربابه ، ولا يعلم كنهه إلا أصحابه .

١٢٥ ـ فضيلة الصبر على مافيه شبهة

تراعَنَتْ عليّ نفسي في طلبها شيئاً من أغراضها بتأويل فاسد . فقلت لها : بالله عليك تصبري إنّ في الصبر شغلاً يحذر الغرق من كثرة الموج عن التنزه في عجائب البحر . اذا هممت بفعل فقدري حصوله ثم تلمحي عواقبه وما تجتنين من ثمرته ؛ فأقل ذلك الندم على ما فعلت ، ولا يؤمن ان يثمر

(١) كأن الزوجة عنده متاع اذا رث جدده . لا ، ولكن رفيقة العمر ، لايستبدل بها الا ان اساءت او تعذرت معاشرتها .

غضب الحق عز وجل وإعراضه عنك ، فأف للقاطع عنه ولو كان الجنة .

ثم اعلمي أيتها النفس انه مايمضي شيء جزافاً ، وان ميزان العدل تبين فيه الذرة فتلمحي الاموات والاحياء ، وانظري الى من نشر ذكره بالخير والشر ، وزيادة ذلك ونقصانه ، فسبحان من أظهر دليل الخلوات على اربابها ، حتى أن حبات القلوب تتعلق بأهل الخير ، وتنفر من أهل الشر ، من غير مطالعة لشيء من أعمال الكل .

قال ابليس : أو تترك مرادك لاجل الخلق ؟

قلت : لا ، إنما هذا بعض الثمرات الحاصلة من طريق الغرض . ونحن نرى من يمشي ثلاثين فرسخاً ليقال : ساعٍ ، فالمتقي قد نال شرف الذكر وان لم يقصد نيل ذلك مترجماً له في وزن الجزاء « سيجعل لهم الرحمن وداً » . قالت النفس : لقد أمرتني بالصبر على العذاب ، لأن ترك الاغراض عذاب .

قلت : لك عن الغرض عوض ، ومن كل متروك بدل ، وانت في مقام مستعبد ولايصح للاجير أن يلبس ثياب الراحة في زمان الاستئجار ، وكل زمان المتقي نهار صوم ، ومن خاف العقاب ترك المشتهى ، ومن رام القرب استعمل الورع ، وللصبر حلاوة تبين في العواقب .

١٢٦ ـ اترك عاجل الهوى لآجل الثواب

من نازعته نفسه الى لذة محرمة فشغله نظره اليها عن تأمل عواقبها وعقابها ، وسمع هتاف العقل يناديه : ويحك لاتفعل ، فانك تقف عن الصعود ، وتأخذ في الهبوط ويقال لك : ابق بما اخترت . فان شغله هواه ، فلم يلتفت الى ماقيل له ، لم يزل في نزول ، وكان مثله في سوء اختياره كالمثل المضروب ، ان الكلب قال للاسد : ياسيد السباع ، غيّر اسمي فانه قبيح.

فقال له : أنت خائن ، لايصلح لك غير هذا الاسم .

قال : فجربني .

فاعطاه شقة لحم وقال : احفظ لي هذه الى غد وأنا أغير اسمك ، فجاع وجعل ينظر الى اللحم ويصبر ، فلما غلبته نفسه قال : وأي شيء باسمي ، وما كلب الا اسم حسن ؟ فأكل .

وهكذا الخسيس الهمة ، القنوع بأقلّ المنازل ، المختار عاجل الهوى على آجل الفضائل . فالله الله في حريق الهوى اذا ثار ، وانظر كيف تطفئه ، فربَ زلة في بئر بوار ، ورب أثر لم يتقلع ، والفائت لايستدرك على الحقيقة ، فابعد عن اسباب الفتنة ، فان المقاربة محنة لايكاد صاحبها يسلم والسلام .

١٢٧ - مجاهدة المتقين

رأيت الخلق كلهم في صف محاربة ، والشياطين يرمونهم بنبل الهوى . ويضربونهم باسياف اللذة . فاما المخلطون فصرعى من أول وقت اللقاء ، واما المتقون ففي جهـــد جهيد من المجاهدة ، فلا بُدّ مع طول الوقوف في المحاربة من جراح فهم يجرحون ويداوون ، الا ان القتل محفوظ ، بلى ، إن الجراحة في الوجه شين باق[1] فليحذر ذلك .

١٢٨ـ الدنيا فخ

الدنيا فخ ، والجاهل بأول نظرة وقع ، فاما العاقل المتقي فهو يصابر المجاعة ، ويدور حول الحَبّ[2] ، والسلامة بعيدة ، فكم من صابر واجتهد سنين ثم في آخر الامر وقع ، فالحذر الحذر ، فقد رأينا من كان على سنن الصواب ، ثم زل على شفير القبر .

---

(١) يريد انهم امنوا القتل ، ولم يأمنوا الجراح ، مثل بذلك للمتقين ، لايقعون في الكفر لكن لايخلصون من المعاصي ـ وهذه الجمـــلة مثال على تعقيد المؤلف وتصور تعبيره احيانا .

(٢) الحب الموضوع في الفخ ، مثل بالفخ للمعصية وبالحب للذتها .

١٢٩ ـ مرارة الذنوب وعواقبها

اعلموا اخواني ومن يقبل نصيحتي ، أن للذنوب تأثيرات قبيحة ، مراراتها تزيد على حلاوتها أضعافاً مضاعفة ، والمجازي بالمرصاد ،لايسبقه شيء ولايفوته ، أو ليس يروى في التفسير أن كل واحد من أولاد يعقوب عليهم السلام (وكانوا اثني عشر) ولد له اثنا عشر ولدا . الا يوسف فانه ولد له أحد عشر وجوزي بتلك الهَمّة فنقص ولداً[١] ، فوا أسفا لمضروب بالسياط مايحس بالالم ، ولمثخن بالجراح وما عنده من نفسه خبر، ولمتقلب في عقوبات مايدرى بها ، ولعمري إن أعظم العقوبة أن لايدري بالعقوبة ، فواعجبا للمغالط نفسه يرضي ربه بطاعة ويسرق معصية ، ويقول : حسنة وسيئة . وَيْكَ من كيسك تنفق ، ومن بضاعتك تهدم ، ووجه جاهك تشين ، ورب جراحة قتلت ، ورب عثرة أهلكت ، ورب فارط لايستدرك ، ويحك انتبه لنفسك ماالذي تنتظر باوبتك ؟ وماذا تترقب

---

(١) مر هذا المعنى وهو رجم بالغيب بلا دليل . ذلك لان يوسف عليه السلام رأى برهان ربه فكف . ولو كان المجال مجال عقوبة لكان ذنبهم فيما صنعوا به اكبر من همه الذي هم به . وانظر ماقاله المؤلف عنهم في الفصل «١١١» . ولو كان الفضل بكثرة الولد لكان اخوة يوسف افضل من ابراهيم عليه السلام .

بتوبتك ؟ المشيب ؟ فما هو أوهن العظم ، وهل بعد رحيل الاهل والاولاد والاقارب ، إلا اللحاق ؟ قدر أن ما تؤمله من الدنيا قد حصل ، فكان ماذا ؟ اما هو عاجل فشغلك عاجلا ، ثم آخر جرعة اللذة شرقة ، وإما أن تفارق محبوبك ويفارقك فيالها جرعة مريرة توه عندها أن لو لم تره .

آه لمحجوب العقل عن التأمل ، ولمصدود عن الورود وهو يرى المنهل ، أما في هذه القبور نذير ؟ أما في كرور الزمان زاجر ؟ أين من ملك وبلغ المنى فيا أمل ؟ ناداهم في ناديهم . هيهات صموا عن مناديهم . فلو أن مابهم الموت . انما القبور هنية . العملَ حصّل يامعدوماً بالأمس ، يامتلاشي [1] الاشلاء في الغد بأي وجه تلقى ربك ؟ أيساوي ماتناله من الهوى لفظ عتاب ؟ بالله ان الرحمة بعد المعاتبة ، ربما لم تستوف قلع البغضة من صميم القلب ، فكيف إن أعقب العتابَ عقاب ؟

وقد أخبرنا عبد الرحمن بن محمد القزاز قال ، أخبرنا أبو بكر الخطيب قال ، أخبرنا محمد بن الحسين المعدل قال ، أخبرنا أبو الفضل الزهري قال ، أخبرنا أحمد بن محمد الزعفراني قال ، حدثنا أبو العباس بن واصل المقري قال ، سمعت محمد بن عبد

---

(١) كلمة تلاشى لا اصل لها في الفصيح وفي كلام المؤلف كثير جدا من امثالها

الرحمن الصيرفي قال : رأى جار لنا يحيى بن أكثم بعد موته في منامه فقال : مافعل بك ربك ؟

فقال : وقفت بين يديه فقال لي ، سوأة لك ياشيخ .

فقلت : يارب إن رسولك قال إنك لتستحي من ابناء الثمانين أن تعذبهم وأنا ابن ثمانين أسير الله في الارض .

فقال لي : صدق رسولي قد عفوت عنك .

وفي رواية أخرى عن محمـــد بن سلم الخواص . قال : رأيت يحيى بن أكثم في المنام فقلت : مافعل الله بك ؟ فقال: أوقفني بين يديه وقال لي ياشيخ السوء لولا شيبتك لأحرقتك بالنار (١) .

والمقصود من هذا النظرُ بعين الاعتبار ، هل يفي هـذا بدخول الجنة فضلا عن لذات الدنيا ؟ فنسأل الله عز وجل أن ينبهنا من رقدات الغافلين ، وأن يرينا الاشياء كما هي لنعرف عيوب الذنوب والله الموفق .

١٣٠ — ومن يتق الله يجعل له مخرجاً

ضاق بي أمر أوجب غماً لازما دائما ، وأخذت أبالغ في

---

(١) لايبنى على مثل هذه المنامات حكم شرعي ، فلا يغتر ذو شيب بشيبه فيقدم على معصية .

الفكر في الخلاص من هذه الهموم بكل حيلة وبكل وجه. فما رأيت طريقاً للخلاص، فعرضت لي هذه الآية: «ومن يتق الله يجعل له مخرجاً». فعلمت أن التقوى سبب المخرج من كل غم، فما كان إلا أن هممت بتحقيق التقوى فوجدت المخرج، فلا ينبغي لمخلوق أن يتوكل أو يتسبب أو يتفكر إلا في طاعة الله تعالى، وامتثال أمره، فإن ذلك سبب لفتح كل مُرْتَج[1]، ثم أعجبُه أن يكون من حيث لم يقدره المتفكر المحتال المدبر، كما قال عز وجل: «ويرزقه من حيث لا يحتسب».

ثم ينبغي للمتقي أن يعلم أن الله عز وجل كافيه فلا يعلق قلبه بالاسباب، فقد قال عز وجل: «ومن يتوكل على الله فهو حسبه».

١٣١ ـ عدم إجابة الدعاء وأسبابه

من العجب إلحاحك في طلب أغراضك وكلما زاد تعويقها زاد إلحاحك، وتنسى أنها قد تمتنع لأحد أمرين، إما لمصلحتك

(١) أي مغلق، ورتاج الباب غلقه، ومنه قولهم ارتج على الخطيب اذا حصر وعجز عن الكلام.

فربما طلبت معجل أذى ، وإما لذنوبك فإن صاحب الذنوب بعيد من الاجابة ، فنظف طرق الاجابة من أوساخ المعاصي وانظر فيما تطلبه هل هو لاصلاح دينك ، أو لمجرد هواك . فان كان للهوى المجرد ، فاعلم أن من اللطف بك والرحمه لك تعويقه ، وأنت في إلحاحك بمثابة الطفل يطلب ما يؤذيه فيُمنع رفقاً به ، وان كان لصلاح دينك فربما كانت المصلحة تأخيره ، او كان صلاح الدين بعدمه وفي الجملة تدبير الحق عز وجل لك خير من تدبيرك ، وقد يمنعك ماتهوى ابتلاءً ليبلوَ صبرك . فأرِهِ الصبر الجميل تر عن قرب مايَسُرّ ، ومتى نظفت طرق الاجابة من أدران الذنوب ، وصبرت على مايقضيه لك ، فكل مايجري اصلح لك ، عطاء كان أو منعا .

١٣٢ ـ الاستعداد للموت وقصر الأمل

يجب على من لايدري متى يبغته الموت ان يكون مستعداً. ولا يغترّ بالشباب والصحة ، فإن أقل من يموت الاشياخ ، واكثر من يموت الشبان . ولهذا يندر من يكبر ، وقد انشدوا:

يُعَمَّر واحد فيغر قوماً ... ويُنسى من يموت من الشباب

ومن الاغترار طول الامل ، وما من آفة أعظم منه . فإنه لولا طول الامل ماوقع اهمال اصلاً . وإنما يقدم العاصي

ويؤخر التوبة لطول الامل، وتبادَر الشهوات وتُنسى الانابة لطول الامل، وان لم تستطع قِصَر الامل، فاعمل عمل قصير الامل، ولا تُمسِ حتى تنظر فيما مضى من يومك، فإن رأيت زلة فامحها بتوبة، أو خرقاً فارقعه باستغفار، واذا اصبحت فتأمل مامضى في ليلك، واياك التسويف فانه اكبر جنود ابليس:

وخذ لك منك على مهلة ومقبلُ عيشك لم يدبر
وخَف هجمة لاتُقيل العِثا ر وتطوى الورودعلى المصدر
ومثّل لنفسك أي الرعيلِ يضمك في حلبة المحشر

ثم صوّر لنفسك قصر العمر، وكثرة الاشغال، وقوة الندم على التفريط عند الموت، وطول الحسرة على البدار بعد الفوت. وصوّر ثواب الكاملين وانت ناقص، والمجتهدين وانت متكاسل، ولا تُخْلِ نفسك من موعظة تسمعها، وفكرة تحادثها بها، فإن النفس كالفرس المُتَشَيْطِن ان ان اهملت لجامه لم تأمن ان يرمي بك، وقد والله دنستك أهواؤك، وضيعت عمرك.

فالبدار البدار في الصيانة، قبل تلف الباقي بالصبابة. فكم تَعرْقل في فخ الهوى جناح جارم[1]، وكم وَقع في بئرِ بوارٍ مغرور. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

---

(١) الجارم المجرم

١٣٣ ـ حذارِ من المعاصي

الحذر الحذر من المعاصي ، فإن عواقبها سيئة . وكم من معصية لا يزال صاحبها في هبوط ابداً مع تعثير اقدامه ، وشدة فقره ، وحسراته على مايفوته من الدنيا ، وحسرة لمن نالها ، فلو قارب زمان جزائه على قبيحه الذي ارتكبه ، كان اعتراضه على القدر في فوات اغراضه بعيد العذاب جديداً ، فوا أسفاً لمعاقب لايحس بعقوبته ، وآه من عقاب يتأخر حتى ينسى سببه ، أوليس ابن سيرين يقول : عيّرت رجلاً بالفقر فافتقرت بعد اربعين سنة . وابن الجلاء يقول : نظرت الى شاب مستحسن فنسيت القرآن بعد أربعين سنة .

فواحسرة لمعاقب لايدري ان أعظم العقوبة عدم الاحساس بها . فاللهَ اللهَ في تجويد التوبة عساها تكفُّ كفَّ الجزاء . والحذر الحذر من الذنوب خصوصاً ذنوب الخلوات . فإن المبارزة لله تعالى تسقط العبد من عينه ، وأصلح ماينك وبينه في السر وقد أصلح لك أحوال العلانية ، ولا تغترّ بستره أيها العاصي فربما يجذب عن عورتك ، ولا بحلمه فربما بغت العقاب، وعليك بالقلق والتّجء إليه والتضرع فإن نفع شيء فذلك ،

وتقوت بالحزن ، وتمزز كأس الدمع ، واحفر بمعول الاسى قليب[1] قلب الهوى لعلك تنبط من الماء ما يغسل جرم جرمك[2].

١٣٤ ـ الاستقامة ومراقبة الله تعالى

إخواني ، اسمعوا نصيحة من قد جرب وخبر ، أنه بقدر اجلالكم لله عز وجل يجلكم ، وبمقدار تعظيم قدره واحترامه يعظم اقداركم وحرمتكم ، ولقد رأيت والله من أنفق عمره في العلم الى ان كبرت سنه ، ثم تعدى بعض الحدود فهان عند الخلق ، وكانوا لايلتفتون إليه مع غزارة علمه وقوة مجاهدته . ولقد رأيت من كان يراقب الله عز وجل في صبوته مع قصوره بالاضافه الى ذلك العالم ، فعظم الله قدره في القلوب حتى علقته النفوس ، ووصفته بما يزيد على مافيه من الخير ، ورأيت من كان يرى الاستقامة اذا استقام فإذا زاغ مال عنه اللطف . ولولا عموم الستر وشمول رحمة الكريم لافتضح هؤلاء المذكورون ، غير أنه في الاغلب تأديب أو تلطف في العقاب كما قيل :

(١) القليب : ـ البئر الواسعة (٢) الجرم بالكسر الجسم والجرم بالضم الذنب

ومن كان في سخطه محسناً فكيف يكون اذا مارضي ؟

غير ان العدل لايحابي ، وحاكم الجزاء لايجوز ، ومايضيع عند الامين شيء .

١٣٥ - للبلايا اوقات قد تطول

ايها المذنب اذا احسست نفحات الجزاء فلا تكثرن الضجيج ، ولاتقولن قد تبت وندمت فهل زال عني من الجزاء ماأكره فلعل توبتك ماتحققت .

وان للمجازاة زمانا يمتد امتداد المرض الطويل ، فلا تنجع فيه الحيل حتى ينقضي أوانه ، وان بين زمان : « وعصى » الى ابان : « فتلقى »[١] مدة مديدة . فاصبر أيها الخاطيء حتى يتخلل ماء عينيك خلال ثوب القلب المتنجس ، فاذا عصرته كفُّ الاسى ، ثم تكررت دُفَع الغسلات ، حكم بالطهارة .

بقي آدم يبكي على زلله ثلاثمئة سنة ، ومكث أيوب عليه السلام في بلائه ثمان عشرة سنة ، وأقام يعقوب يبكي على يوسف عليهما السلام ثمانين سنة[٢] وللبلايا أوقات ثم تنصرم ،

---

(١) اشارة الى آيتي (وعصى آدم ربه فغوى) و (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه) .

(٢) من اين جاء بهذه الارقام ؟

ورب عقوبة امتدت الى زمان الموت . فاللازم لك أن تلازم محراب الانابة ، وتجلس جلسة المستجدي ، وتجعل طعامك القلق ، وشُرْبَك البكاء ، فربما قدم بشير القبول فارتد يعقوب الحزن بصيراً ، وإن مت في سجن سجنك (?) فربما ناب حزن الدنيا عن حزن الآخرة ، وفي ذلك ربح عظيم .

١٣٦ ـ احذر عاقبة المعاصي

الواجب على العاقل أن يحذر مغبة المعاصي فان نارها تحت الرماد . وربما تأخرت العقوبة ثم فَجأت ، وربما جاءت مستعجلة . فليبادر باطفاء ما أوقد من نيران الذنوب ، ولا ماء يطفيء تلك النار الا ما كان من عين العين[1] ، لعل خصم الجزاء يرضى قبل أن يبيت الحاكم في حكمه .

١٣٧ ـ وجوب التوبة والعمل للآخرة

واعجبا من عارف بالله عز وجل يخالفه ولو في تلف نفسه! هل العيش الا معه ? هل الدنيا والآخرة الا له ? أفٍّ لمترخص فعل ما يكره لنيل ما يحب ، تالله لقد فاته اضعاف ماحصّل ،

---

(١) نبع العين ، يريد الدمع وللعين عشرات المعاني . انظر قصيدة جمعتها كلها في مقدمة (الصاحبي) لاحمد بن فارس .

أقيل على ما أقوله ياذا الذوق ، هل وقع لك تغير في عيش ، وتخبيط في حال ، الا حالَ مخالفته ؟

ولاانثنَى عزْمِيهِ عن بابكم الا تعـــثرت باذيالي

اما سمعت تلك الحكاية عن بعض السلف انه قال : رأيت على سور بيروت شابا يذكر الله تعالى فقلت له : ألك حاجة ؟ فقال : اذا وقعت لي حاجة سألته اياها بقلبي فقضاها .

يا أرباب المعاملة بالله عليكم لاتكدروا المشرب ، قفوا على باب المراقبة وقوف الحراس ، وادفعوا مالا يصلح أن يلج فيفسد ، واهجروا اغراضكم لتحصيل محبوب الحبيب ، فان اغراضكم تحصل . على أنني أقول أفّ لمن ترك بقصد الجزاء[1] ؟ اهذا شرط العبودية ؟ كلا إنما ينبغي لي إذا كنت مملوكاً أن أفعل ليرضى لا لأعطى ، فان كنت محباً رأيت قطع الارب في رضاه وصلا . اقبل نصحي يامخدوعاً بغرضه ان ضعفت عن حمل بلائه فاستغث به ، وان آلمك كرب اختياره فانك بين يديه ، ولا تيأس من روحـــه وإن قوي خناق البلاء ، بالله إن موت الخادم في الخدمة حسن عند العقلاء .

إخواني لنفسي أقول فمن له شرب معي فليَردْ .

---

(١) اي رجاء المكافأة . ومن ترك الذنب بقصد المكافأة كان محسناً في نظر الشرع ، ولايقال له : افّ !

أيتها النفس لقد أعطاك مالم تأملي ، وبلغك مالم تطلبي ، وستر عليك من قبيحك مالو فاح ضجت المشام . فما هذا الضجيج من فوت كمال الاغراض ؟ أمملوكة أنت أم حرة ؟ أما علمت أنك في دار التكليف ، وهذا الخطاب ينبغى أن يكون للجهال ، فاين دعواك المعرفة ؟ أتراه لو هبت نفحة ، فأخذت البصر كيف كانت تطيب لك الدنيا ؟

وا أسفا عليك لقد عشيت البصيرة التي هي أشرف ، وما علمت كم أقول : عسى ولعل ؟ وأنت في الخطأ إلى قدّام قربت سفينة العمر من ساحل القبر ، ومالك في المركب بضاعة تربح .

تلاعبت في بحر العمر ريح الضعف ففرقت تلفيق القوى وكان قد فصلت المركب .

بلغت نهاية الاجل وعين هواك تتلفت الى الصبا ، بالله عليك لاتشمتي بك الاعداء . هذا أقل الاقسام ، وأوفى منها أن أقول بالله عليك لايفوتنك قدم سابق مع قدرتك على قطع المضمار .

الخلوةَ الخلوةَ ، واستحضري قرين العقل ، وجولي في حيرة الفكر ، واستدركي صُبابة الاجل قبل أن تميل بك

الصبَّابة [1] عن الصواب .

واعجبا كلما صعد العمر نزلتِ ، وكلما جد الموت هزلتِ أتراكِ ممن ختم له بفتنة ، وقُضيت عليه عند آخر عمره المحنة . كان أول عمرك خيراً من الاخير ، كنتِ في زمن الشباب اصلح منكِ في زمن أيام المشيب « وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون »

نسأل الله عز وجل ما لايحصل مطلوبنا الا به ، وهو توفيقه انه سميع مجيب .

١٣٨ ـ من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه

قدرت في بعض الايام على شهوة للنفس هي عندها أحلى من الماء الزلال في فم الصادي . وقال التأويل : ماههنا مانع ولا معوق الا نوع ورع ، وكان ظاهر الأمر امتناع الجواز .

فترددت بين الامرين ، فمنعت النفس عن ذلك . فبقيت حيرتي لمنع ماهو الغاية في غرضها من غير صادّ عنه بحال إلا حذرَ المنع الشرعي .

فقلت لها : يانفس والله مامن سبيل إلى مالا يؤمن من دونه ؟

---

(١) الصبابة : البقية والصبابة : الصبوة والميل .

فتفلفات ، فصحت بها : كم وافقتك في مراد ذهبت لذته وبقي التأسف على فعله ، فقدّري بلوغ الغرض من هذا المراد ، أليس الندم يبقى في مجال اللذة اضعاف زمانها ؟

فقالت : كيف أصنع ؟

فقلت :

صبرت ولا والله مابي جلادة   على الحب لكني صبرت على الرغم

وها أنا [١] انتظر من الله عز وجل حسن الجزاء على هذا الفعل . وقد تركت باقي هذه الوجهة [٢] بيضاء . أرجو أن ارى حسن الجزاء على الصبر فأسطُرَه فيه ان شاء الله تعالى . فانه قد يعجل جزاء الصبر وقد يؤخره ، فان عجل سطرته ، وان أخر فما اشك في حسن الجزاء لمن خاف مقام ربه ، فانه من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه ، والله اني ماتركته إلا لله تعالى ويكفيني تركه ذخيرة ، حتى لوقيل لي اتذكر يوماً آثرت الله على هواك ؟ قلت : يوم كذا وكذا .

فافتخري أيتها النفس بتوفيقك واحمدي من وفقك ، فكم قد خذل سواك . واحذري أن تخذلي في مثلها ولا حول ولاقوة إلا بالله العلي العظيم .

---

(١) الفصيح وهاانذا   (٢) اي هذه الصفحة

وكان هذا في سنة احدى وستين وخمسمائة ، فلما دخلت سنة خمس وستين ، عوضت خيراً من ذلك بما لايقارب ، مما لايمنع منه ورع ولاغيره .

قلت : هذا جزاء الترك لاجل الله سبحانه في الدنيا . ولأجر الآخرة خير والحمد لله .

١٣٩ ـ تذهب اللذة ويبقى العقاب

لا انكر على من طلب لذة الدنيا من طريق المباح ، لانه ليس كل أحد يقوى على الترك ، انما المحنة على من طلبها فلم يجدها الا من طريق الحرام فاجتهد في تحصيلها ، ولم يبال كيف حصلت فهذه المحنة التي بخس العقل فيها حقه ، ولم ينفع صاحبه وجوده لانه لو وزن ماأوثر وعقابه طاشت كفة اللذة التي فنيت عند أول ذرة من جزائها ، وكم قد رأينا ممن آثر شهوته فسلبت دينه فليعجب العاقل حين التصفح لاحوالهم ، كيف آثروا شيئاً ماأقاموا معه ، وصاروا الى عقاب لايفارقهم فالله الله في بخس العقول حقها ، ولينظر السالك اين يضع القدم ، فرب مستعجل وقع في بير بوار[1] . ولتكن عين التيقظ مفتوحة فانكم في صف حرب لايدرى فيه من أين يتلقى النبل ، فأعينوا أنفسكم ولا تعينوا عليها .

---

(١) اي في بئر فارغة مهجورة ـ وقد كرر هذه الصورة مراراً

١٤٠ ـ الطاعة بامتثال الأمر واجتناب النهي

الحق عز وجل أقرب الى عبده من حبل الوريد ، لكنه عامل العبد معاملة الغائب عنه البعيد منه ، فامره بقصد بيته ، ورفع اليدين اليه ، والسؤال له . فقلوب الجهال تستشعر البعد ، ولذلك تقع منهم المعاصي . إذ لو تحققت مراقبتهم الحاضر الناظر لكفوا الأكف عن الخطايا ، والمتيقظون علموا قربه فحضرتهم المراقبة وكفتهم عن الانبساط . ولولا نوع تغطية على عين المراقبة الحقيقية لما انبسطت كف بأكل ، ولا قدرت عين على نظر . ومن هذا الجنس « انه ليُغان على قلبي » ومتى تحققت المراقبة حصل الانس ، وانما يقع الانس بتحقيق الطاعة ، لأن المخالفة توجب الوحشة والموافقة مبسطة المستأنسين .

فياللذة عيش المستأنسين ، ويالخسارة المستوحشين . وليست الطاعة كما يظن أكثر الجهال أنها في مجرد الصلاة والصيام . انما الطاعة الموافقة بامتثال الأمر واجتناب النهي هذا هو الاصل والقاعدة الكلية .

فكم من متعبد بعيد ، لأنه مضيع الاصل ، وهادم القواعد بمخالفة الامر أو ارتكاب النهي . وانما المحقق من

أمسك ذؤابة ميزان المحاسبة للنفس فأدى ماعليه واجتنب مانهي عنه فان رزق زيادة تنفل وإلا لم يضره والسلام .

١٤١ ـ اللذات مشوبة بالنغص فعليك بدفع الايام

الدنيا في الجملة معبر . فينبغي للانسان ان لاينافس بلذاتها وأن يعبر الايام . فانه لوتفكر في كيفية الذبائح ووسخ من يباشرها وعمل الكامَخ [١] وغيرها من المأكولات ماطابت له ، ولوتفكر في جولان اللقمة مختلطة بالريق ماقدر على اساغتها ، فلا يخلو من حالتين :

اما أن يريد التنعم باللذات المباحات ، أو يريد دفع الوقت بالضرورات . وأيها طلب فلا ينبغي له أن يبحث فيما يناله عن باطنه ، فانه لونظر الى عورة الزوجة نبا عنها ، وقد قالت عائشة رضي الله عنها : مارأيته من رسول الله ﷺ ولاراه مني .

فينبغي للعاقل أن يكون له وقت معلوم يأمر زوجته بالتصنع له فيه ، ثم يغمض عن التفتيش ليطيب له عيشه !

وينبغي لها ان تتفقد من نفسها هذا فلا تحضره الا على

---

(١) الادام

احسن حال ، وبمثل هذا يدوم العيش . فأما اذا حصلت البذلة بانت بها العيوب فنبت النفس وطلبت الاستبدال . ثم يقع في الثانية مثل مايقع في الاولى . وكذلك ينبغي ان يتصنع لها كتصنعها له ليدوم الود بحسن الائتلاف . ومتى لم يجر الامر على هذا في حق من له أنفة من شيء تنبو عنه النفس وقع في أحد أمرين : اما الاعراض عنها ، واما الاستبدال بها . ويحتاج في حالة الاعراض الى صبر عن اغراضه ، وفي حالة الاستبدال الى فضل مؤنة وكلاهما يؤذي .

ومن لم يستعمل ما وصفنا لم يطب له عيش في متعة . ولم يقدر على دفع الزمان كما ينبغي .

١٤٢ ـ نعم الله عليك كثيرة فلا تتعرض الى مايكرهه

نازعتني نفسي الى أمر مكروه في الشرع ، وجعلت تنصب لي التأويلات وتدفع الكراهة . وكانت تأويلاتها فاسدة ، والحجة ظاهرة على الكراهة . فلجأت الى الله تعالى في دفع ذلك عن قلبي ، وأقبلت على القراءة وكان درسي قد بلغ الى سورة يوسف فافتتحتها . وذلك الخاطر قد شغل قلبي حتى لا أدري ماأقرأ . فلما بلغت الى قوله تعالى « قال معاذ الله انه ربي أحسن مثواي » انتبهت لها وكأني خوطبت بها ، فأفقت من

تلك السكرة ، فقلت : يانفس أفهمت ؟ هذا حرٌ يبيع ظلماً فراعى حق من أحسن اليه ، وسماه مالكاً وان لم يكن عليه ملك ، فقال : انه ربي . ثم زاد بيان موجب كفِّ كفّهِ عما يؤذيه فقال : أحسن مثواي . فكيف بك وأنت عبد على الحقيقة لمولى مازال يحسن اليك من ساعة وجودك ، وأن سترَهُ عليك الزللَ أكثرُ من عدد الحصا .

افما تذكرين كيف رباك وعلمك ورزقك ودافع عنك ، وساق الخير اليك ، وهداك أقوم طريق ، ونجاك من كل كيد ، وضم الى حسن الصورة الظاهرة جودةَ الذهن الباطن ، وسهل لك مدارك العلوم حتى نلت في قصير الزمان مالم ينله غيرك في طويله ، وجلى في عرصة لسانك عرائس العلوم في حلل الفصاحة ، بعد ان ستر عن الخلق مقابحك ، فتلقوها منك بحسن الظن ، وساق رزقك بلا كلفة تكلف ولا كدَرِ مَنٍّ ، رغداً غير نزر .

فوالله ما أدري أي نعمة عليك أشرح لك : حسن الصورة وصحة الآلات ، أم سلامة المزاج واعتدال التركيب ، أم لطف الطبع الخالي عن خساسة ، أم إلهام الرشاد منذ الصغر ، ام الحفظ بحسن الوقاية عن الفواحش والزلل ، ام تحبيب طريق النقل واتباع الاثر ، من غير جمود على تقليد لمعظم ، ولا انخراط في سلك مبتدع ، وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ،

كم كائدٍ نصب لك المكايد فوقاك ، كم عدوٌ حطّ منك بالذم فرقاك ، كم أعطش من شراب الاماني َخلقاً وسقاك ، كم أمات من لم يبلغ بعض مرادك وابقـــاك . فأنت تصبحين وتمسين سليمة البدن ، محروسة الدين ، في تزيد من العلم وبلوغ الامل .

فان منعت مراداً فرزقت الصبر عنه بعد ان تبين لك وجه الحكمة في المنع حتى يقع اليقين بأن المنع أصلح .

ولو ذهبت أعد من هذه النعم مانسخ ذكره ، امتلأت الطروس ولم تنقطع الكتابة . وانت تعلمين أن مالم أذكره أكثر ، وان ما أومأت الى ذكره لم يشرح . فكيف يحسن بك التعرض بما يكرهه « معاذ الله انه ربي احسن مثواي انه لايفلح الظالمون » .

١٤٣ ـ من حام حول الحمى أوشك أن يقع فيه

مارأيت أعظم فتنة من مقاربة الفتنة . وقلّ ان يقاربها الا من يقع فيها . ومن حام حول الحمى يوشك ان يقع فيه . قال بعض المعتبرين[1] : قدرت على لذة ظاهرها التحريم ويحتمل

---

(١) اظنه يعني نفسه وانه هو صاحب القصة

الاباحة ، اذ الامر فيها مردد ، فجاهدت النفس فقالت : انت ما تقدر فلهـــذا تترك . فقاربِ المقدورَ عليه ، فإذا تمكنتَ فتركتَ كنت تاركاً حقيقة ، ففعلتُ وتركتُ ، ثم عاودت مرة أخرى في تأويل أرتني فيه الجوازَ ، وان كان الأمر يحتمل . فلما وافقتها اثر ذلك ظلمة في قلبي لخوف ان يكون الامر محرماً . فرأيت أنها تارة تقوى عليّ بالترخص والتأويل ، وتارة أقوى عليها بالمجاهدة والامتنـاع . فاذا رخصت لم آمن ان يكون ذلك الامر محظوراً ، ثم أرى عاجـلًا تأثير ذلك الفعل في القلب . فلما لم آمن عليها بالتأويل تفكرت في قطع طمعها من ذلك الامر المؤثر ، فلم أر ذلك إلاّ بأن قلت لها : قدري أن هذا الامر مباح قطعـــاً ، فوالله الذي لا إله إلا هو ، لاعدتُ إليه . فانقطع طمعها باليمين والمعاهـــدة .

وهذا أبلغ دواء وجدته في امتناعها لأن تأويلها لايبلـغ الى ان تأمر بالحنث والتفكير . فأجود الاشياء قطـع اسباب الفتن ، وترك الرخص فيما يجوز اذا كان حامـلًا ومؤدياً الى مالا يجوز . والله الموفق .

١٤٤ ـ سكرة الهوى

لولا غيبة العاصي في وقت المعـاصي كان كالمعاند غير أن الهوى يحول بينه وبين الفهم للحال ، فلا يرى إلا قضـــاء

شهوته ، وإلا فلو لاحت له المخالفة خرج من الدين بالخلاف ، فإنما يقصد هواه فيقع الخلاف ضمناً وتبعاً . واكثر مايقع هذا في مقاربة الفتنة ، وقل من يسلم عند المقاربة ، لانه كتقديم نار الى حلفا[١] . ثم لوميز العاقل بين قضاء وطره لحظة ، وانقضاء باقي العمر بالحسرة على قضاء ذلك الوطر ، لما قرب منه ولو أعطي الدنيا ، غير أن سكرة الهوى تحول بين الفكر وذلك .

آه كم من معصية مضت في ساعاتهـــا كأنها لم تكن ثم بقيت آثارها ، وأقلها ما لايبرح من المرارة في الندم . والطريق الأعظم في الحذر أن لايتعرض لسبب فتنة[٢] ولايقاربه .

فمن فهم هذا وبالغ في الاحتراز كان الى السلامة أقرب .

١٤٥ ـ دع المباحثات فربما آذت في الدين

البلايا على مقادير الرجال . فكثير من الناس تراهم ساكتين راضين بما عندهم من دين ودنيـــا ، واولئك قوم لم يرادوا

---

(١) نبت من نبت البادية سريع الاشتعال. يريد ان اجتماع المرأة والرجل في معرض الفتنة كاجتماع النار والبارود ، فاذا اجتمعا ولم يكن انفجار ، جاز ان يختلط الجنسان الاختلاط الذي نراه الان ، ثم لايكون سفاد ولا فساد .وهيهات!

(٢) فلايزج بابنه اوبنته في اماكن الاختلاط ،ولوكانت اماكن علم. كان من ورائها «علم» الاولين والآخرين.

لمقامات الصبر الرفيعة ، أو علم ضعفهم عن مقاومة البلاء فلطف بهم . إنما المحنة العظمى أن ترزق همة عالية لاتقنع منك الا بتحقيق الورع ، وتجويد الدين ، وكمال العلم ، ثم تبتلى بنفس تميل الى المباحات ، وتدعي أنها تجمع بذلك همها ، وتشفى مرضهـــا ، لتَقبلَ (مُزاحَة العلّة) على تحصيل الفضائل . وهاتان الحالتان كضدين ، لان الدنيا والآخرة ضرتان ، واللازم في هذا المقام مراعاة الواجبات ، وأن لايفسح النفس في مباح لايؤمن ان يتعدى منه اعراض عن واجب ورع . المبتلي يصيح ، فلأن يبكي الطفل خير من أن يبكي الوالد.

واعلم أن فتح باب المباحات ربما جر أذى كثيراً في الدين . فأوثق السّكر[١] قبل فتح الماء ، والبس الدرع قبل لقـــاء الحرب ، وتلمح عواقب ما تجني قبل تحريك اليد ، واستظهر في في الحذر باجتناب ما يخاف منه وان لم يتيقن .

١٤٦ ـ وصايا لطالب العلم

ينبغي لطالب العلم أن يكون جل همتـــه مصروفاً الى الحفظ والاعادة . فلو صح صرف الزمان الى ذلك كان الاولى غير أن البدن مطية ، واعداد السير مظنه الانقطاع .

---

(١) سكر الماء من عامي الشام الفصيح وهو المسداة اي سد الماء

ولما كانت القوى تَكِلّ فتحتاج الى تجديد ، وكان النّسخ والمطالعة والتصنيف لابد منه ، مع أن المهم الحفظ ، وجب تقسيم الزمان على الامرين ، فيكون الحفظ في طرفي النهار وطرفي الليل ، ويوزع الباقي بين عمل بالنسخ والمطالعة ، وبين راحة البدن وأخذ لحظّه . ولاينبغي أن يقع الغبن بين الشركاء ، فانه متى أخذ أحدهم فوق حقه أثّر الغبن وبان اثره .

وان النفس لتهرب الى النسخ والمطالعة والتصنيف عن الاعادة والتكرار ، لان ذلك اشهى وأخف عليها . فليحذر الراكب من إهمال الناقة ، ولايجوز له أن يحمل عليها مالا تطيق . ومع العدل والانصاف يتأتى كل مراد .

ومن انحرف عن الجادة طالت طريقه . ومن طوى منازل في منزل أوشك أن يفوته ماجَدّ لأجله . على أن الانسان الى التحريض أحوج لان الفتور أكثر من الجد .

وبعد فاللازم في العلم طلب المهم . فرب صاحب حديث حفظ مثلا لحديث : « من أتى الجمعة فليغتسل » عشرين طريقاً ، والحديث قد ثبت من طريق واحد ، فشغله ذلك عن معرفة آداب الغسل . والعمر أقصر وأنفس من أن يفرط منه في نَفَس . وكفى بالعقل مرشد الى الصواب من عضده التوفيق

١٤٧ - من أصلح سريرته ذاع فضله

إذا صح قصد العالم استراح من كُلَف التكليف ، فان كثيراً من العلماء يأنفون من قول (لا أدري) ، فيحفظون بالفتوى جاههم عند الناس لئلا يقال جهلوا الجواب ، وإن كانوا على غير يقين مما قالوا . وهذا نهاية الخذلان .

وقد روي عن مالك بن انس أن رجلا سأله عن مسألة فقال : لا أدري . فقال : قطعت البلدان اليك .

فقال : ارجع الى بلدك وقل سألت مالكاً فقال لا أدري .

فانظر الى دين هذا الشخص وعقله كيف استراح من الكلفة ، وسلم عند الله عز وجل .

ثم ان كان المقصود الجاه عندهم فقلوبهم بيد غيرهم ، والله لقد رأيت من يكثر الصلاة والصوم والصمت ، ويتخشع في نفسه ولباسه والقلوب تنبو عنه ، وقدره في النفوس ليس بذاك ، ورأيت من يلبس فاخر الثياب وليس له كبير نفل ولا تخشع والقلوب تتهافت على محبته ، فتدبرت السبب فوجدته السريرة .

كما روي عن أنس بن مالك أنه لم يكن له كبير عمل من صلاة وصوم ، وإنما كانت له سريرة ، فمن أصلح سريرته فاح عبير فضله

وعبقت القلوب بنشر طيبه ، فالله َ الله َ في السرائر ، فانه ماينفع مع فسادها صلاح ظاهر .

١٤٨ ـــ لا تجزع من تأخر إجابة الدعاء

نزلت في ّ شدة ، وأكثرت من الدعاء أطلب الفرج والراحة، وتأخرت الاجابة[1] ، فانزعجت النفس وقلقت ، فصحت بهــــا : ويلك ، تأملي أمرك ، أمملوكة أنت أم مالكة ؟ أمدبّرة أنت أم مدبِّرة ؟ أما علمت أن الدنيا دار ابتلاء واختبــــار ، فاذا طلبت أغراضك ولم تصــبري على ما ينافي مرادك فأين الابتلاء ؟

وهل الابتلاء إلا الإعراض وعكس المقاصـد ، فافهمي معنى التـكليف وقد هان عليك ما عز ، وسهل ما استصعب ، فلما تدبرتْ ما قلته سكنتْ بعض السكون .

فقلت لها : وعندي جواب ثان وهو انك تقتضين الحق[2] باغراضك ، ولا تقتضين نفسك بالواجب له ، وهذا عين الجهل، وإنما كان ينبغي أن يكون الامر بالعكس ، لانك مملوكة

---

(١) تقدم هذا المعنى مراراً .

(٢) أي تطالبين الله .

والمملوك العاقل يطالب نفسه بأداء حق المالك ، ويعلم أنه لا يجب على المالك تبليغه ما يهوى ، فسكنتْ أكثر من ذلك السكون .

فقلت لها : وعندي جواب ثالث ، وهو أنك قد استبطأت الإجابة وأنت سددت طرقها بالمعاصي ، فلو قد فتحت الطريق أسرعت ، كأنك ما علمت أن سبب الراحة التقوى ، أوما سمعت قوله تعالى « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه » و « يجعل له من أمره يسرا » أو ما فهمت أن العكس بالعكس ؟ آه من سُكْر غفلة صار أقوى من كل سَكْر في وجه مياه المراد يمنعها من الوصول الى زرع الاماني ، فعرفتِ النفس أن هذا حق فاطمأنتْ .

فقلت : وعندي جواب رابع ، وهو أنك تطلبين ما لاتعلمين عاقبته وربما كان فيه ضررك ، فمثلك كمثل طفل محموم يطلب الحلوى ، والمدبر لك أعلم بالمصالح ، كيف وقد قال تعالى « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم » فلما بان الصواب للنفس في هذه الاجوبة ، زادت طمأنينتها .

فقلت لها : وعندي جواب خامس ، وهو أن هذا المطلوب ينقص من أجرك ، ويحط من مرتبتك ، فمنعُ الحق[1] لك

---

(١) أي منع الله .

ما هذا سبيله عطاء منه لك ، ولو أنك طلبت مايصلح آخرتك كان أولى لك ، فأولى لك أن تفهمي ما قد شرحت فقالت : لقد سرحتُ في رياض ما شرحتَ ، فهِمْتُ[1] إذ فهمت .

١٤٩ ـــ على العالم طلب الغنى

حضرنا بعض أغدية أرباب الاموال ، فرأيت العلماء أذل الناس عندهم ، فالعلماء يتواضعون لهم ويذلون لموضع طمعهم فيهم وهم لا يحفلون بهم لما يعلمونه من احتياجهم اليهم ، فرأيت هذا عيباً في الفريقين ، أما في أهل الدنيا فوجه العيب أنهم كانوا ينبغي لهم تعظيم العلم ، ولكن لجهلهم بقدرِه فاتَهم ، وآثروا عليه كسب الاموال ، فلا ينبغي ان يطلب منهم تعظيم ما لا يعرفون ولا يعلمون قدره ، وإنما أعود باللوم على العلماء واقول : ينبغي لكم ان تصونوا أنفسكم التي شرفت بالعلم عن الذل للانذال ، وان كنتم في غني عنهم كان الذل لهم والطلب منهم حراماً عليكم ، وإن كنتم في كفاف فلم لم تؤثروا التنزه عن الذل بالعفة عن الحطام الفاني الحاصل بالذلة ، إلا انه يتخيل لي من هذا الأمر ، اني علمت قلة صبرِ النفس على الكفاف والعزوفِ عن الفضول ، فان

(٢) من هام يهيم .

وجد ذلك منهـــا في وقت لم يوجد على الدوام ، فالاولى للعالم أن يجتهد في طلب الغنى ، ويبالغ في الكسب ، وان ضاع بذلك عليه كثير من زمان طلب العلم ، فانه يصون بعرضه عرضه .

وقد كان سعيد بن المسيب يتجر في الزيت وخلف مالا ، وخلف سفيان الثوري مالاً وقال لولاك لتمندلوا بي[1] ، وقد سبق في كتابي هذا في بعض الفصول شرف المال ، ومن كان من الصحابة والعلماء يقتنيه ، والسر في فعلهم ذلك ، وحثي طالبي العلم على ذلك ما بينته من أن النفس لا تثبت على التعفف ، ولا تصبر على دوام التزهد ، وكم قد رأينا من شخص قويت عزيمته على طلب الآخرة فأخرج ما في يديه ، ثم ضعفت فعاد يكتسب من أقبح وجه . فالأولى ادخار المال والاستغناء عن الناس ، فيخرج الطمع من القلب ، ويصفو نشر العلم من شائبة ميل .

ومن تأمل أخبار الأخيار من الاحبار وجدهم على هـــذه الطريقة ، وإنما سلك طريق الترفه عن الكسب من لم يؤثر عنده

---

(١) أي اتخذوني مسحة « منديلاً » أو لعل لها في عامية ذلك الزمان معنى آخر يريده المؤلف .

بذل الدين والوجه ، فطلب الراحة ونسي انها في المعنى عناء، كما فعل جماعة من جهـــال المتصوفة في اخراج ما في أيديهم وادعاء التوكل ، وما علموا أن الكسب لا ينافي التوكل ، وإنما طلبوا طريق الراحة وجعلوا التعرض للناس كسباً ، وهـذه طريقة مركبة من شيئين : أحدهما قلة الانفـة على العرض ، الثاني قلة العلم .

١٥٠ ـ لو تأمل العاصي عظمة الخالق ما عصاه

تأملت وقوع المعاصي من العصاه فوجدتهم لايقصدون العصيان وإنما يقصدون موافقة هواهم ، فتبع العصيان تبعاً ، فنظرت في سبب ذلك الاقدام مع العلم بوقوع المخالفة فاذا به ملاحظتهم لكرم الخالق ، وفضله الزاخر ، ولو أنهم تأملوا عظمتـه وهيبتـه ما انبسطت كف بمخالفته ، فانه ينبغي والله أن يحذر من أقل فعله تعميم الخلق بالموت ، حتى القاء الحيوان البهيم المذبح ، وتعذيب الاطفال بالمرض ، وفقر العالم ، وغنى الجاهل ، فليعرض المقدم على الذنوب على نفسه الحذر ممن هذه صفته ، فقد قال الله تعالى « ويحذركم الله نفسه » وملاحظة أسباب الخوف ادنى الى الامن من ملاحظة أسباب الرجاء ، فالخائف آخذ بالحزم ، والراجي متعلق بحبل طمع ، وقد يخلف الظن .

١٥١ ـــ على العالم أن لا يذل لأرباب الدنيا

رأيت عموم أرباب الاموال يستخدمون العلماء ، يستذلونهم بشيء يسير يعطونهم من زكاة أموالهم ، فان كان لأحدهم ختمة قال : فلان ما حضر ، وان مرض قال : فلان ما تردد ، وكل منّته عليه شيء نزر يجب تسليمه الى مثله ، وقد رضي العلماء بالذل في ذلك لموضع الضرورة فرأيت أن هـــذا جهل من العلماء بما يجب عليهم من صيانة العلم .

ودواؤه من جهتين : احداهما القناعة باليسير ، كما قيل : من رضي بالخل والبقل لم يستعبده أحد . والثاني صرف بعض الزمان المصروف في خدمة العلم الى كسب الدنيا ، فانه يكون سبباً لإعزاز العلم ، وذلك أفضل من صرف جميع الزمان في طلب العلم ، مع احتمال هذا الذل .

ومن تأمل ما تأملته وكانت له أنفة ، قدر قوته ، واحتفظ بما معـــه ، أو سعى في مكتسب يكفه ، ومن لم يأنف من مثل هذه الأشياء لم يحظ من العلم إلا بصورته دون معناه .

١٥٢ ـ افهم مقصود أوامر الله بعقلك واتبع الدليل

مدار الأمر كله على العقل ، فانه اذا تم العقل لم يعمل

صاحبه إلا على أقوى دليل ، وثمرة العقل فهم الخطـــاب ، وتلمح المقصود من الامر ، ومن فهم المقصود وعمل على الدليل كان كالباني على أساس وثيق .

واني رأيت كثيراً من النـــاس لا يعملون على دليل ، بل كيف اتفق ، وربما كان دليلهم العادات ، وهـــذا أقبح شيء يكون .

ثم رأيت خلقاً كثيراً لا يتبعون الدليل بطريق اثباته كاليهود والنصارى ، فانهم يقلدون الآباء ولا ينظرون فيما جاء من الشرائع هل صحيح أم لا ، وكذلك يثبتون الآله ولا يعرفون ما يجوز عليه مما لا يجوز ، فينسبون اليه الولد ، ويمنعون جواز تغييره ماشرع .

وهؤلاء لم ينظروا حق النظر لا في اثبـــات الصانع وما يجوز عليه ، ولا في الدليل على صحة النبوات ، فتقع أعمالهم ضائعة كالباني على رمل .

ومن هـــذا القبيل في المعنى قوم يتعبدون ويتزهدون ويُنصبون أبدانهم في العلم بأحاديث باطلة ، ولا يســـألون عنها من يعلم .

ومن النـــاس من يثبت الدليل ولا يفهم المقصود الذي دل

عليه الدليل[١] . ومن هذا الجنس قوم سمعوا ذم الدنيا فتزهدوا ، وما فهموا المقصود ، فظنوا أن الدنيا تذم لذاتها وان النفس تجب عداوتها ، فحملوا على أنفسهم فوق ما يطاق ، وعذبوها بكل نوع ، ومنعوها حظوظها ، جاهلين بقوله عليه الصلاة والسلام : «إن لنفسك عليك حقاً» . وفيهم من أدته الحال الى ترك الفرائض ، ونحول الجسم ، وضعف القوى ، وكل ذلك لضعف الفهم للمقصود والتلمح للمراد . كما روي عن داود الطائي[٢] انه كان يترك ماء في دَنّ تحت الارض فيشرب منه وهو شديد الحر ، وقال لسفيان : اذا كنت تأكل اللذيذ الطيب ، وتشرب الماء البارد المبرد ، فمتى تحب الموت والقدوم على الله ؟

وهذا جهل بالمقصود ، فان شرب الماء الحار يورث أمراضاً في البدن ولا يحصل به الري ، وما أمرنا بتعذيب أنفسنا في الصورة ، بل بخلاف ما تدعو اليه مما نهى الله عنه ، وفي الحديث الصحيح : أن أبا بكر رضي الله عنه لما حلب له الراعي في طريق

---

(١) كمن يعرف طرق الاحاديث ودرجاتها ولم يستكمل اسباب الاجتهاد والاستنباط فيدع ما عليه الفقهاء ويأخذ بما فهم من الحديث وان خالف فيه العلماء .

(٢) داود بن نصير ولد في الكوفة ورحل الى بغداد فأقام فيها الى ان مات سنة ١٦٠ اخذ عن أبي حنيفة وغيره ثم اعتزل ولزم العبادة .

الهجرة صب الماء على القدح حتى برد أسفله ، ثم سقى رسول الله ﷺ ، وفرش له في ظل صخرة ، وكان يستعذب لرسول الله ﷺ الماء ، وقال : «إن كان عندكم ماء بات في شن وإلا كرعنا» . ولو فهم داود رحمه الله ان اصلاح علف الناقة متعين لقَطْعِ المنزل لم يفعل هذا .

ألا ترى الى سفيان الثوري فانه كان شديد المعرفة والخوف ، وكان يأكل اللذيذ ويقول : إن الدابة اذا لم يحسن اليها لم تعمل .

ولعل بعض من يسمع كلامي هذا يقول : هذا ميل على الزهاد ، فأقول: كن مع العلماء وانظر الى طريق الحسن، وسفيان، ومالك ، وأبي حنيفة ، واحمد ، والشافعي ، وهؤلاء أصول الاسلام ، ولا تقلد في دينك من قل علمه وإن قوي زهده ، واحمل امره على انه كان يطيق هذا ولا تقتد بهم فيما لا تطيقه ، فليس أمرنا الينا ، والنفس وديعة عندنا ، فان أنكرت ماشرحته فأنت ملحق بالقوم الذين أنكرت عليهم .

هذا رمز الى المقصود والشرح يطول .

١٥٣ ـ عجز الخلق عن فهم حكمة الخالق

الواجب على العاقل أن يتبع الدليل ثم لا ينظر فيما يجني(١) من مكروه .

(١) أي فيما ينتج عنه .

مثاله انه قد ثبت بالدليل القـــاطع حكمة الخالق عز وجل وملكه وتدبيره ، فاذا رأى الانسان عالماً محروماً ، وجاهلاً مرزوقاً ، أوجب عليه الدليل المثبتُ حكمةَ الخالق التسليمَ اليه ، ونسبة العجز عن معرفة الحكمة الى نفسه ، فان أقواماً لم يفعلوا ذلك جهلاً منهم . أفتراهم بماذا حكموا بفساد هذا التدبير ؟ أليس بمقتضى عقولهم ؟ أوما عقولهم من جملة مواهبه ؟ فكيف يحكم على حكمته وتدبيره ببعض مخلوقاته التي هي بالاضافة اليه انقص من كل شيء ؟ ولقد بلغني عن اللعين ابن الراوندي[1] انه كان جالساً على الجسر[2] وفي يده رغيف يأكله ، فجازت خيل واموال فقال : لمن هذه؟ فقيل : لفلان الخادم . فجازت خيل وأموال . فقال : لمن هذه؟ فقيل : لفلان الخادم . فلما مر الخادم رأى شخصاً محتقراً ، فرمى الرغيف الى ناحيته وقال : وهذا لفلان . ما هذه القسمة ؟

ولو فكر المدبر لبانت له وجوه اقلها جهله بمن يدعي معرفته وقلة تعظيمه ، وذلك يوجب عليه أشد مما كان فيه من تضييق العيش ، ولكنه ميراث إبليس حيث اعتقد سوء التدبير في تفضيل آدم عليه السلام .

---

(١) احمد بن يحيى متفلسف زنديق مات ببغداد سنة ٢٤٥ ﻫ وهو استاذ ملاحدة عصرنا وامامهم ، واستاذ الجميع ابليس. (٢) جسر بغداد .

فالعجب من تلميذ يتمعلم[١] على أستاذه ، ومن مملوك يتيه على سيده .

ومما ينبغي ان يتبع فيه الدليل ولا يلتفت الى ماجنت الحال ، ان العلم اشرف مكتسب ، وقد رأى جماعة من الجهلة قلة حظوظ العلماء من الدنيا فازروا على العلم وقالوا لا فائدة فيه ، وذلك لجهلهم بمقدار العلم ، فان تابع الدليل لايبالي ماجنى ، وإنما يبين الاختبار بفقد الغرض . ولو لم يكن من الدليل على صــدق نبينا صلى الله عليه وسلم إلا إعراضه عن الدنيــا وتضييق العيش عليه ، ثم لم يخلف شيئــاً وحرم اهله الميراث ، فدل على صدق طلبه لمطلوب آخر .

وربما رأى الجاهل قوماً من العلماء يفعلون خطيئة فيزري على العلم ويدعيه ناقصاً وهذا غلط كبير[٢] .

فليتق الله العاقل وليعمل بمقتضى العقل فيما يأمر به من طاعة الله تعالى والعمل بالعلم ، وليعلم ان الابتلاء في الصبر على فوات المطلوبات ، وليلزم اتباع الدليل وإن جنى مكروهاً والله الموفق .

١٥٤ ـ موافقة هوى النفس ومخالفته

قرأت سورة يوسف عليه السلام ، فتعجبت من مدحه عليه السلام

(١) وفي الفصيح : يتمالم .

(٢) وهو كثير في ايامنــا . ينسبون النقص الى الدين ، اذا رأوا في بعض المشايخ نقصاً وإنما النقص ممن نقص ، والدين بريء منه .

على صبره وشرح قصته للناس ورفع قدره بترك ما ترك ، فتأملت خبيئة الأمر فاذا هي مخالفة للهوى المكروه ، فقلت : واعجباً لو وافق هواه من كان يكون ؟ ولما قد خالفه لقد صار امرأ عظيماً يضرب الأمثال بصبره ، ويفتخر على الخلق باجتهاده . وكل ذلك قد كان بصبر ساعة فياله عزاً وفخراً ، يقاوم كل لحظة من ذكره امثال ساعة الصبر عن المحبوب ، وبالعكس منه حالة آدم في موافقته هواه ، لقد عادت[1] نقيصة في حقه ابدا لولا التدارك فتاب عليه .

فتلمحوا رحمكم الله عاقبة الصبر ونهاية الهوى ، فالعاقل من ميز بين الأمرين : الحلوين والمرين ، فان من عدل ميزانه ولم تمل به كفة الهوى رأى كل الارباح في الصبر ، وكل الخسران في موافقة النفس ، وكفى بهذا موعظة في مخالفة الهوى لأهل النهى والله الموفق .

١٥٥ ــ وجوب مزج الفقه والحديث بالرقائق وسير الصالحين

رأيت الاشتغال بالفقه وسماع الحديث لايكاد يكفي في صلاح القلب ، إلا أن يمزج بالرقائق والنظر في سير السلف الصالحين ، فأما مجرد العلم بالحلال والحرام فليس له كبير عمل في رقة القلب وإنما

---

(١) يريد : « لقد كادت تكون » وما كانت ، وآدم نبي، وهو ابو الانبياء، وهم اكمل البشر .

ترق القلوب بذكر رقائق الاحاديث ، وأخبار السلف الصالحين . لانهم تناولوا مقصود النقل ، وخرجوا عن صور الافعال المأمور بها الى ذوق معانيها والمراد بها .

وما اخبرتك بهذا الا بعد معالجة وذوق . لأني وجدت جمهور المحدثين وطلاب الحديث همة احدهم في الحديث العالي [١] وتكثير الاجزاء . وجمهور الفقهاء في علوم الجدل ومايغلب به الخصم .

وكيف يرق القلب مع هذه الاشياء ؟ وقد كان جماعة من السلف يقصدون العبد الصالح النظر الى سمته وهديه ، لا لاقتباس علمه . وذلك أن ثمرة علمه هديه وسمته . فافهم هذا وامزج طلب الفقه والحديث بمطالعة سير السلف والزهاد في الدنيا ليكون سبباً لرقة قلبك .

وقد جمعت لكل واحد من مشاهير الاخيار كتاباً فيه أخباره وآدابه . فجمعت كتابا في أخبار الحسن [٢] ، وكتاباً في أخبار سفيان الثوري ، وابراهيم بن أدهم ، وبشر الحافي ، واحمد ابن حنبل ، ومعروف [٣] ، وغيرهم من العلماء والزهاد . والله الموفق للمقصود . ولايصلح العمل مع قلة العلم ، فهما في ضرب المثل كسائق وقائد والنفس بينهما حرون ومع جد السائق والقائد ينقطع المنزل . ونعوذ بالله من الفتور .

---

(١) أي عالي السند .   (٢) اي البصري   (٣) اي الكرخي

١٥٦ ـ لاتترخص في مخالفة الاجماع

ترخصت في شيء يجوز في بعض المذاهب فوجدت في قلبي قسوة عظيمة . وتخايل لي نوع طرد عن الباب ، وبعد وظلمة تكاثفت . فقالت نفسي : ماهذا ؟ أليس ماخرجت عن اجماع الفقهاء ؟

فقلت لها : يانفس السوء جوابك من وجهين . أحدهما أنك تأولت مالا تعتقدين فلو استُفْتِيت لم تُفْتي بما فعلت .

قالت : لو لم اعتقد جواز ذلك مافعلته .

قلت : الا ان اعتقادك هو ماترضينه لغيرك في الفتوى .

والثاني أنه ينبغي لك الفرح بما وجدت من الظلمة عقيب ذلك ، لانه لولا نور في قلبك ماأثر مثل هذا عندك .

قالت : فلقد استوحشت بهذه الظلمة المتجددة في القلب .

قلت : فاعزمي على الترك وقدّري ماتركت جائزاً بالاجماع، وعدي هجره ورعاً ، وقد سلمت .

١٥٧ ـ لاتظاهر أحداً بالعداوة

مما أفادتني تجارب الزمان انه لا ينبغي لاحد أن يظاهر بالعداوة أحداً مهما استطاع ، فانه ربما يحتاج اليه . وان الانسان

قد لايظن الحاجة اليه يوماً ما كما قد يحتاج الى عُوَيد[١] منبوذ لايلتفت اليه . وكم من محتقر احتيج اليه . وان لم تقع الحاجة الى ذلك الشخص في جلب نفع ، وقعت الحاجة في دفع ضر . ولقد احتجت في عمري إلى ملاطفة أقوام ماخطر لي قـــط وقوع الحاجة إلى التلطف بهم .

واعلم أن المظاهرة بالعداوة قد تجلب اذى من حيث لايعلم . لان المظاهر بالعداوة كشاهر السيف ينتظر مضرباً . وقد يلوح مضرب خفي ، وان اجتهد المتدرع في ســـتر نفسه فيغتنمه ذلك العدو .

فينبغي لمن عاش في الدنيا أن يجتهد في أن لايظاهر بالعداوة أحداً لمـا بينت من وقوع احتياج الخلق بعضهم الى بعض ، وإقدار بعضهم على ضرر بعض .

وهذا فصل مفيد تبين فائدته للانسان مع تغلب الزمان .

١٥٨ ـ لذات الدنيا ممزوجة بالآفات والمنغصات

رأيت النفس تنظر الى لذات أرباب الدنيا العاجلة وتنسى كيف حصلت وما يتضمنها من الآفات .

---

(١) عود صغير

وبيان هذا انك ان رأيت صاحب امارة وسلطنة فتأملت نعمته وجدتها مشوبة بالظلم . فان لم يقصده هو حصل من عماله . ثم هو خائف منزعج في كل اموره ، حذرٌ من عدوٌ أنْ يَسُمَّهُ ، قلق بمن هو فوقه أن يعزله ، ومن نظيره أن يكيده . ثم اكثر زمانه يمضي في خدمة من يخـــافه من السلاطين ، وفي حساب أموالهم ، وتنفيذ أوامرهم التي لاتخلو من أشياء منكرة . وان عزل أربى ذلك على جميع ماتال من لذة . ثم تلك اللذة تكون معمورة بالحذر فيها ومنها وعليها .

وان رأيت صاحب تجارة رأيته قد تقطع في البلاد ، فلم ينل ماتال الا بعد علو السن وذهاب زمان اللذة . كما حكي ان رجلا من أولاد الرؤساء كان حال شبيبته فقيراً ، فلمـــا كبر استغنى وملك اموالا واشترى عبيـــداً من الترك وغيرهم وجواريَ من الروم فقال هذه الابيات في شرح حاله :

ما كنت أرجوه إذ كنت ابن عشرينا ... ملكته بعد أن جاوزت سبعينا
تطيف بي من بني الاتراك أغزلة ... مثل الغصون على كثبان يبرينا
وخُرّد من بنات الروم رائعـة ... يحكين بالحسن حور الجنة العينا
يغمزنني بأساريـع [١] منعمـة ... تكاد تُعقد من أطرافها لينـا

(١) الاسروع في الاصل للظبي وهو يريد الاصابع

يرون أحياه ميت لاحراك به وكيف يحيين ميتاً صار مدفونا
قالوا أنينك طول الليل يسهرنا فما الذي تشتكي قلت الثمانينا

وهذه الحالة هي الغالبة ، فان الانسان لايكاد يجتمع له كل مايحبه إلا عند قرب رحيله .

فان بدر مايحب في بداية شبابه فالصبوة مانعة من فهم التدبير في الالتذاذ ، والانسان في حالة الصبوة لايدري أين هو الى أن يبلغ ، فإذا بلغ كانت همته في المنكوح كيف اتفق ، وان تزوج جاء الاولاد فمنعوه اللذة وانكسر في نفسه وافتقر الى الكسب عليهم ، فبينما هو قد دَعَكَ (في تلك المديدة القريبة) الثلاثين ، وخَطَه الشيب فانفرق من نفسه لعلمه ان النساء ينفرقن منه ، كما قال ابن المعتز بالله :

لقد أتعبت نفسي في مشيبي فكيف تحبني الخُرُد[1] الكعاب

فاذا فهم المتمتع بالمستحسنات ، وخرج عن طلب صورة النكاح ، لم يجد ما لايبلغ به المراد ، فان كسب ضاع زمن تمتعه ، واذا تم المطلوب فالشيب أقبح قذى وأعظم مبغض .

ثم ان صاحب المال خائف على ماله ، محاسب لمعامليه ، مذموم ان اسرف وان قتر ، ولده يرصد موته ، وجاريته

(١) يقال خرُد وخرَّد

قد لا ترضى بشخصه ، وهو مشغول بحفظ حواشيه ، فقد مضى زمانه في محن ، واللذات فيها خلس معتادة لالذة فيها ، ثم في القيامة يحشر الامير والتاجر ، الا من عصم الله .

فاياك إياك أن تنظر الى صورة نعيمهم فانما تستطيبه لبعده عنك ، ولو قد نلته برد عندك ، ثم في ضمنه من محن الدنيا والآخرة مالا يوصف .

فعليك بالقناعة مهما أمكن ، ففيها سلامة الدنيا والدين . وقد قيل لبعض الزهاد وعنده خبز يابس : كيف تشتهي هذا؟ فقال : أتركه حتى أشتهيه .

١٥٩ ـ مناجاة

وقع بيني وبين أرباب الولايات نوع معاداة لاجل المذهب فاني كنت في مجلس التذكير أنصر ان القرآن كلام الله وأنه قديم ، وأقدم أبا بكر ، واتفق في أرباب الولايات من يميل الى مذهب الاشعري [١] ، وفيهم من يميل الى مذهب الروافض وتمالؤوا علي في الباطن ، فقلت يوماً في مناجاتي للحق سبحانه وتعالى : سيدي نواصي الكل بيدك ، ومافيهم من يقدر لي

(١) مغزى العبارة أن مذهب الاشعري من المذاهب المخالفة للسنة وليس كذلك . انظر تعليقة الفصل (١٢٣)

على ضر ، الا أن تجريه على يـــده ، وانت قلت سبحانك « وماهم بضارين به من أحـد إلا بإذن الله » وطيبت قلب المبتلى بقولك : « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا » فان أجريت على أيدي بعضهم مايوجب خذلاني كان خوفي على مانصرته اكثر من خوفي على نفسي ، لئلا يقال ، لوكان على حق ماخذل ، وان نظرت الى تقصيري وذنوبي فاني مستحق للخذلان غير أني أعيش بما نصرته من السنة ، فأدخلني في خفارته ، وقد استودعني إياك خلق من صالحي عبادك ، فان لم تحفظني بي فاحفظني بهم . سيدي انصرني على من عاداني ، فانهم لايعرفونك كما ينبغي ، وهم معرضون عنـــك على كل حال ، وأنا على تقصيري اليك أنسب .

١٦٠ ـ السعيد من ذلّ وسأل الله العافية

روي عن الحلاج الصوفي[1] انه كان يقعد في الشمس في الحر الشديد وعرقه يسيل ، فجاز به بعض العقلاء فقال : ياأحمق هذا تقاوٍ على الله تعالى . وما أحسن ماقال هذا فانه ماوضع التكليف إلاعلي خلاف الاغراض ، وقد يخرج صاحبه الى ان يعجز عن الصبر. فالجاهل الاحمق من تقاوى ويسأل البلاء كما قال ذلك الأبله :

---

(١) الحلاج قتل على الكفر بسيف الشرع فلا تغتر بكلام من يدافع عنه .

فكيف ماشئت فاختبرني . والسعيد من ذل وسأل العافية ، فانه لا يوهب العافية على الاطلاق فلا بد من بلاء ، فلا يزال العاقل يسأل العافية لتغلب على جمهور أحواله فيقرب الصبر على يسير البلاء . وفي الجملة ينبغي للانسان ان يعلم أنه لاسبيل الى محبوباته ، ففي كل جرعة غصص ، وفي كل لقمة شجاً :

ومن لم يعشق الدنيا قديماً ولكن لاسبيل الى الوصال

وعلى الحقيقة ماالصبر إلا على الاقدار ، وقلّ ان تجري الاقدار إلا على خلاف مراد النفس . فالعاقل من دارى نفسه في الصبر بوعد الأجر ، وتسهيل الامر ، ليذهب زمان البلاء سالماً من شكوى ، ثم يستغيث بالله تعالى سائلاً العافية ، فأما المتجلد فما عرف الله قط .

نعوذ بالله من الجهل به ، ونسأله عرفانه ، انه كريم مجيب .

١٦١ ـ انحراف الصوفية

الجادة السليمة والطريق القويمة ، الاقتداء بصاحب الشرع والبدار الى الاستنان به . فهو الكامل الذي لانقص فيه فإن خلقاً كثيراً انحرفوا الى جادة الزهد وحملوا أنفسهم فوق الجهد فأفاقوا في أواخر العمر ، والبدن قد نهك ، وفاتت أمور مهمة من العلم وغيره . وان أقواماً انحرفوا الى صورة العلم

فبالغوا في طلبه ، فأفاقوا في أواخر العمر ، وقد فاتهم العمل به . فطريق المصطفى ﷺ العلم والعمل ، والتلطف بالبدن ، كما أوصى عبد الله بن عمرو بن العاص وقال له : ان لنفسك عليك حقاً ولزوجك عليك حقاً . فهذه هي الطريق الوسطى الفضلى . فأما اليبس المجرد ، فكم فوّت من علم لو حُصّل نِيل به أكثرُ مما نيل بالعمل ، فإن مثل العالم كرجل يعرف الطريق ، والعابد[1] جاهل بها ، فيمشي العابد من الفجر الى العصر ، ويقوم العالم قبيل العصر فيلتقيان وقد سبق العالم فضل شوطه.

فإن قال قائل : بين لي هذا . قلت : صورة التعبد خدمة لله تعالى ، وذل له ، وربما لم يطلع العابد على معنى تلك الصورة ، لأنه ربما ظن أنه أهل لوجود الكرامة على يده ، وانه مستحقٌّ تقبيلَ يده ، أو أنه خير من كثير من الناس ، وذلك كله لقلة العلم .

وأعني بالعلم فهم أصول العلم ، لا كثرة الرواية ومطالعة مسائل الخلاف ، فاذا طالع العالم الاصولي ، سبق هذا العابد بحسن خلق ، ومداراة الناس ، وتواضعه في نفسه ، وارشاده الخلق الى الله تعالى ، فيعسر على هذا العابد ، وهو في ليل

---

(١) اي العابد بلا علم . اما العالم العابد فهو الذي جمع الخير كله ، والعبادة الصحيحة هي غاية الخلق ، فن علم ولم يعمل كان علمه حجة عليه يوم يقوم الحساب .

جهله بالحال راقد . وربما تزوج العابد ثم حمل نفسه على التجفف فحبس زوجته عن مطلوبها ولم يطلقها ، وصار كالتي[١] حبست المرة فلا هي أطعمتها ولا هي أرسلتها تأكل من خشاش الارض .

ومن تأمل حالة الرسول ﷺ ، رأى كاملاً من الخلق ، يعطي كل ذي حق حقه ، فتارة يمزح ، وتارة يضحك ، ويداعب الاطفال ، ويسمع الشعر ، ويتكلم بالمعاريض ، ويحسن معاشرة النساء ، ويأكل ماقدر عليه وفتح له ، وان كان لذيذاً كالعسل ، ويستعذب له الماء ، ويفرش له في الظل ، ولا ينكر ذلك .

ولم يسمع عنه بمثل ماحدث بعده من جهال المتصوفة والمتزهدين ، من منع النفس شهواتها على الاطلاق . فقد كان يأكل البطيخ بالرطب ، ويقبل ، ويمص اللسان ، ويطلب المستحسنات .

فأما أكل خبز الشعير ووزن المأكول ، وتجفيف البدن ، وهجر كل مشتهى ، فإنه تعذيب للنفس ، وهدم للبدن ، لايقتضيه عقل ، ولا يمدحه شرع . وإنما اقتنع أقوام بالقليل ، لاسباب مثل أن حدثت شبهة فتقللوا ، أو اختلط طعام بطعام فتورعوا . ثم كان النبي ﷺ يوفي العبادة حقها ، بقيام الليل والاجتهاد في الذكر .

(١) واصله : دخلت النار امرأة في هرة حبستها الخ ..

فعليك بطريقته التي هي أكمل الطرق ،وبشرعته التي لاشوب فيها ، ودع حديث فلان وفلان من الزهاد ، واحمل أمرهم على أحسن محمل ، وأقم لهم الاعذار مهما قدرت ، فان لم تجد عذراً فهم محجوجون بفعله ، اذ هو قدوة الخلق ، وسيد العقلاء . وهل فسد الناس الا بالانحراف عن الشريعة .

ولقد حدثت آفات من المتصوفة والمتزهدين ، خرقوا بها شبكة الشريعة ، وعبروا ، فمنهم من يدعي المحبة والشوق ، ولايعرف المحبوب ، فتراه يصيح ويستغيث ويمزق ثيابه ويخرج عن حد الشرع بدعواه ومضمونها . ومنهم من حمل على نفسه بالجوع والصوم الدائم ، وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال لعبد الله بن عمر : صم يوماً وافطر يوماً .فقال: أريد أفضل من ذلك .فقال: لا أفضل .

وفيهم من خرج الى السياحة فأفات نفسه الجماعة ، وفيهم من دفن كتب العلم وقعد يصلي ويصوم ، ولم يعلم أن دفنها خطأ قبيح ، لان النفس تغفل وتحتاج الى التذكير في كل وقت ، ونعم المذكر كتب العلم .

وإنما دخل إبليس على كل قوم منهم من حيث قدر ، وكان مقصوده بدفن الكتب اطفاء المصباح ، ليسير العابد في الظلمة . وما أحسن ما قال بعض العلماء لرجل سأله فقال :

أريد أن أمضي الى جبل الآكام ، فقال : هذه (هَو‌ْ كَانَه) وهي كلمة عامية معناها حب البطالة . وعلى الحقيقة الزهاد في مقام الخفافيش ، قد دفنوا أنفسهم بالعزلة عن نفع الناس ، وهي حالة حسنة إذا لم تمنع من خير من جماعة ، واتباع جنازة ، وعيادة مريض ، الا انها حالة الجبناء ، فاما الشجعان فهم يتعلمون ويعلمون . وهي مقامات الانبياء عليهم السلام .

أترى كم بين العابد اذا نزلت به حادثة وبين الفقيه ؟

بالله لو مال الخلق الى التعبد لضاعت الشريعة ، على أنه لو فهم معنى التعبد لم يقتصر به على الصلاة والصوم فرب ماش في حاجة مسلم فضل تعبده ذلك على صوم سنة . والعمل بالبدن سعي الآلات الظاهرة ، والعلم سعي الآلات الباطنة ، من العقل والفكر والفهم ، فلذلك كان أشرف .

فان قلت : كيف تذم المعتزلين للشر الى التعبد ؟ قلت : ما أذمهم ، بل حدثت منهم حوادث اقتضاها الجهل من الدعاوى والآفات التي سببها قلة العلم ، وحملوا على أنفسهم (التي ليست لهم وعن غير اذن الآمر) مالم يجز ، حتى أن أحدهم يرى أن فعل مايؤذي النفس على الاطلاق فضيلة حتى قال بعض الحمقى : دخلت الحمام فوجدت غفلة ، فآليت أن لا أخرج حتى أسبح كذا وكذا تسبيحة ، فطال الامر

فمرضت . وهذا رجل خاطر بنفسه في فعل ماليس له . ومن المتصوفة والزهاد من قنع بصورة اللباس ، وركب من الجهل في الباطن مالا يسعه كتاب . طهر الله الارض منهم وأعان العلماء عليهم ، فان أكثر الخلق معهم ، فلو أنكر عالم على أحدهم مال العوام على العالم بقوة الجهل .

ولقد رأيت كثيراً من المتعبدين وهو في مقـــام العجائز يسبح تسبيحاً لايجوز النطق به ، ويفعل في صلاته مالم ترد به السنة . ولقد دخلت يوماً على بعض من كان يتعبـد ، وقد أقام إماماً وهو خلفه في جماعة يصلي بهم صلاة الضحى ويجهر فقلت لهم : إن النبي ﷺ قال : صلاة النهار عجماء . فغضب ذلك الزاهد وقال : كم ينكر هذا علينا . وقد دخل فلان وأنكر وفلان وأنكر ، نحن نرفع أصواتنا حتى لاننام .

فقلت : واعجبـــا ومن قال لـكم لاتناموا ؟ أليس في الصحيحين من حديث ابن عمر أن النبي ﷺ قال له : قم ونم وقد كان رسول الله ﷺ ينـام ، ولعله مامضت عليه ليلة إلا ونام فيها . ولقد شاهدت رجلا كان يقال له حسين القزويني بجامع المنصور وهو يمشي في الجامع مشياً كثيراً دائماً ، فسألت ماالسبب في هذا المشي ؟ فقيل لي : حتى لاينام .

وهذه كلها حماقات أوجبها قلة العلم ، لانه اذا لم تأخـــذ

النفس حظها من النوم اختلط العقل ، وفات المراد من التعبد لبعد الفهم .

ولقد حدثني بعض الصالحين المجاورين بجامع المنصور ، انه رجلا اسمه كثير ، دخل عليهم الجامع فقال : اني عاهدت الله على امر ونقضته ، وقد جعلت عقوبتي لنفسي أن لا آكل شيئاً أربعين يوماً . قال : فمكث منها عشرة ايام قريب الحال يصلي في جماعة ، ثم في العشر الثاني بان ضعفه وكان يداري الامر ، ثم صار في العشر الثالث يصلي قاعداً ، ثم استطرح في العشر الرابع ، فلما تمت الاربعون جيء بنقوع فشربه ، فسمعنا صوته في حلقه مثل مايقع الماء على المقلاة ، ثم مات بعد أيام . فقلت : يالله العجب ، انظروا مافعل الجهل باهله ، ظاهر هذا انه في النار ، الا أن يعفى عنه .

ولو فهم العلم وسأل العلماء لعرفوه انه يجب عليه أن يأكل ، وان مافعله بنفسه حرام . ولكن من اعظم الجهل استبداد الانسان بعلمه .

وكل هذه الحوادث نشأت قليلا قليلا حتى تمكنت . فأما الشرب الاول فلم يكن فيه من هذا شيء ، وما كانت الصحابة تفعل شيئاً من هذه الاشياء . وقد كانوا يؤثرون (١) ويأكلون

---

(١) يؤثرون غيرهم على انفسهم

دون الشبع . ويصبرون إذا لم يجدوا . فمن اراد الاقتداء فعليه برسول الله ﷺ أو صحابه ، ففي ذلك الشفاء والمطلوب .

ولاينبغي أن يخلد العاقل الى تقليد معظّم شاع اسمه ، فيقول : قال ابو يزيد ، وقال الثوري . فان المقلد[١] أعمى ، وكم قد رأينا أعمى يأنف من حمل عصا[٢] . فمن فهم هذا المشار اليه طلب الافضل والاعلى والله الموفق .

١٦٢ ـ الفلسفة والرهبانية

تأملت الدخل الذي دخل في ديننا ، في العلم والعمل فرأيته من طريقين :

فأما أصل الدخل في العلم والاعتقاد فمن الفلسفة . وهو أن خلقاً من العلماء في ديننا لم يقنعوا بما قنع به رسول الله ﷺ من الانعكاف على الكتاب والسنة ، فأوغلوا في النظر في مذاهب أهل الفلسفة ، وخاضوا في الكلام الذي حملهم على مذاهب ردية أفسدوا بها العقائد .

وأما أصل الدخل في باب العمل فمن الرهبانية ، فان خلقاً من المتزهدين أخذوا عن الرهبان طريق التقشف ، ولم ينظروا في سير نبينا ﷺ وأصحابه ، وسمعوا ذم الدنيا ومافهموا المقصود ، فاجتمع لهم الاعراض عن علم شرعنا مع سوء الفهم

(١) اي المقلد فيما يقدر على الاجتهاد فيه ، او لاضرورة له الى التقليد فيه ، اما تقليد العامي الذي لايقدر على الاجتهاد لأحد أئمة المذاهب الاربعة فواجب .

(٢) هذا مثال من يأنف من التقليد وهو عاجز عن الاجتهاد

للمقصود ، فحدثت منهم بدع قبيحة . فأول ماابتدأ به ابليس أنه أمرهم بالاعراض عن العلم ، فدفنوا كتبهم وغسلوهـا ، وألزمهم زاوية التعبد فـيما زعم ، وأظهر لهم من الخزعبلات مااوجب إقبال العوام عليهم فجعل التههم هواهم ، ولو علموا أنهم منذ دفنوا كتبهم وفارقوا العلم انطفأ مصباحهم مافعلوا ، لكن ابليس دقيق المنقب .(١)

وبالعلم يعلم فساد الطريقين ويهتدي إلى الاصوب .

نسأل الله عز وجل أن لايحرمنا إياه فانه النور في الظلم . والانيس في الوحدة ، والوزير عند الحادثة .(٢)

١٦٣ ـ دواء البطالين

أعوذ بالله من صحبة البطالين . لقد رأيت خلقاً كثيراً يجرون معي فيما قد اعتاده الناس من كثرة الزيارة ، ويسمون ذلك التردد خدمة ، ويطلبون الجلوس ويجرون فيه أحاديث الناس ومالا يعني ، ويتخلله غيبة . وهذا شيء يفعله في زماننا كثير من الناس ، وربما طلبه المزور وتشوق اليه واستوحش من الوحـدة ، وخصوصاً في أيام التهاني والاعياد ، فتراهم يمشي بعضهم الى بعض ، ولايقتصرون على الهناء والسلام بل يمزجون ذلك بما ذكرته من تضييع الزمان .

---

(١) اي الحرز (٢) اي المعين عن المصيبة

فلما رأيت أن الزمان أشرف شيء ، والواجب انتهابه بفعل الخير كرهت ذلك وبقيت معهم بين أمرين :

ان أنكرت عليهم وقعت وحشة لموضع قطع المألوف ، وان تقبلته منهم ضاع الزمان ، فصرت ادافع باللقا جهدي ، فاذا غلبت قصرت في الكلام لأتعجل الفراق . ثم أعددت اعمالاً لاتمنع من المحادثة ، لاوقات لقائهم لئلا يمضي الزمان فارغاً . فجعلت من الاستعداد للقائهم قطع الكاغد. وبَرْي الاقلام ، وحزم الدفاتر ، فان هذه الاشياء لابد منها ، ولاتحتاج الى فكر وحضور قلب ، فأرصدتها لاوقات زيارتهم لئلا يضيع شيء من وقتي .

نسأل الله عز وجل أن يعرفنا شرف أوقات العمر ، وان يوفقنا لاغتنامه . ولقد شاهدت خلقاً كثيراً لايعرفون معنى الحياة . فمنهم من أغناه الله عن التكسب بكثرة ماله ، فهو يقعد في السوق أكثر النهار ينظر الى الناس ، وكم تمر به من آفة ومنكر . ومنهم من يخلو بلعب الشطرنج ومنهم من يقطع الزمان بكثرة الحوادث [1] من السلاطين والغلاء والرخص الى غير ذلك .

---

(١) اي رواية الحوادث واستقصاء الاخبار ، ويجمع ذلك كله قراءة الجرائد واستماع الاذاعات .

فعلمت ان الله تعالى لم يطلع على شرف العمر ومعرفة قدر أوقات العافية إلا من وفقه وألهمه اغتنام ذلك « وما يُلَقّاها إلا ذو حظ عظيم ».

١٦٤ ـ التصنيف انفع من التدريس

رأيت من الرأي القويم ان نفع التصانيف اكثر من نفع التعليم بالمشافهة ، لأني أشافه في عمري عدداً من المتعلمين وأشافه بتصنيفي خلقاً لايحصون ماخلقوا بعد[١] ، ودليل هذا أن انتفاع الناس بتصانيف المتقدمين أكثر من انتفاعهم بما يستفيدونه من مشايخهم . فينبغي للعالم ان يتوفر على التصانيف ان وفق للتصنيف المفيد ، فإنه ليس كل من صنّف صنّف ، وليس المقصود جمع شيء كيف كان ، وإنما هي أسرار يطلع الله عز وجل عليها من شاء من عباده[٢] ويوفقه لكشفها ، فيجمع ما فُرق او يرتب ما شُتت ، أو يشرح ما أهمل ، هذا هو التصنيف المفيد .

وينبغي اغتنام التصنيف في وسط العمر ، لأن أوائل العمر زمن الطلب ، وآخره كلال الحواس . وربما خان

---

(١) صحيح والله ، رحمه الله ، واجزل ثوابه . (٢) جعلنا الله منهم

الفهم والعقل من قدر عمره ، وإنما يكون التقدير على العادات الغالبة ، لأنه يعلم الغيب فيكون زمان الطلب والحفظ والتشاغل الى الاربعين ، ثم يبتدىء بعد الاربعين بالتصانيف والتعليم . هذا اذا كان قد بلغ مايريد من الجمع والحفظ ، وأعين على تحصيل المطالب .

فأما اذا قلت الآلات عنده من الكتب ، أو كان في أول عمره ضعيف الطلب فلم ينل مايريده في هذا الاوان ، أخر التصانيف الى تمام خمسين سنة . ثم ابتدأ بعد الخمسين في التصنيف والتعليم الى رأس الستين ، ثم يزيد فيما بعد الستين في التعليم ويسمع الحديث والعلم ويعلل التصانيف [1] الى رأس السبعين ، فاذا جاوز السبعين جعل الغالب عليه ذكر الآخرة والتهيؤ للرحيل . فيوفر نفسه على نفسه إلا من تعليم يحتسبه، او تصنيف يفتقر اليه ، فذلك اشرف العُدد للآخرة .

ولتكن همته في تنظيف نفسه وتهذيب خلاله ، والمبالغة في استدراك زلاته ، فان اختطف في خلال ماذكرنا فنية المؤمن خير من عمله ، وان بلغ الى هذه المنازل فقد بينا

(١) اي يرجع عليها بالتصحيح والتنقيح وبيان الادلة والعلل ، ومنه سمى مجد الدين الموصلي كتابه الذي بين فيه ادلة احكام المختار وشرحه فيه «الاختيار لتعليل المختار»

مايصلح لكل منزل . وقد قال سفيان الثوري : من بلـغ من رسول الله ﷺ فليتخذ لنفسه كفناً . وقد بلغ جماعة من العلماء سبعاً وسبعين سنة ، منهم أحمد بن حنبل ، فان بلغها فليعلم أنه على شفير القبر ، وأن كل يوم يأتي بعدها مستطرف . فان تمت له الثمانون فليجعل همته كلها مصروفة إلى تنظيف خلاله ، وتهيئة زاده ، وليجعل الاستغفار حليفه ، والذكر أليفه ، وليدقق في محاسبة النفس في بذل العلم ، أو مخالطة الخلق ، فان قرب الاستعراض الجيش يوجب عليهم الحذر من العارض . وليبالغ في إبقـاء أثره قبل رحيله ، مثل بث علمه ، وإنفاق كتبه وشيء من ماله .

وبعد فمن تولاه الله عز وجل علّمه ، ومن أراد ألهمه . نسأل الله عز وجل أن ينعـم علينا بان يتولانا ولايتولى عنـا إنه قريب مجيب .

١٦٥ ـ العادات والشرع

رأيت عادات الناس قـد غلبت عـلى عملهم بالشرع ، فهـم يستوحشون من فعل الشيء لعـدم جريان العادة لا لنهي الشرع !

فـكم من رجل يوصف بالخير يبيع ويشتري ، فاذا حصلت

له القراضة باعها بالصحيح من غير تقليد لامام[1] ، أو عمل برخصة عادة من القوم ، واستثقالاً للاستفتاء .

ونرى خلقاً يحافظون على صلاة الرغائب ويتوانون عن الفرائض . وكثيراً من المتصوفين لايستوحشون من ظلم الناس ، ثم يتصدقون على الفقراء. وربما توانوا عن إخراج الزكاة ، وتكاسلوا باستعمال التأويلات فيها . ثم إذا حضر أحدهم مجلس وعظ بكى كأنه يصانع بتلك الحال .

ومنهم من يخرج بعض الزكاة مصانعة عما لم يخرجه . ومنهم من يعلم أن أصل ماله حرام ، ويصعب عليه فراقه للعادة .

وفيهم من يحلف بالطلاق ويحنث ويرى الفراق صعباً ، فربما تأول وربما تكاسل عن التأويل اتكالا على عفو الله تعالى ، ووعداً من النفس بالتوبة .

ومنهم من يرى أن استعمال الشرع ربما كان سبباً في تضييق معاشه ، وقد ألف التفسح فلا يسهل عليه فراق ما قد الف . والعادات في الجملة هي المهلكة .

---

(١) كانت الدراهم بالوزن . والدرهم إما انيكون صحيحاً واما انيكون قطعاً فضية مكسرة من الدرهم وهي القراضة (والكلمة مستعملة عند عوام الشام الى الآن) ووجه انكار المؤلف كونها فضة وهي من الاموال الربوية لاتكون الا مثلاً بمثل يداً بيد . يراجع باب « ربا الفضل » في كتب الفقه ، ورسالة القياس في الشرع الاسلامي لابن تيمية .

ولقد حضر عندي رجل شيخ ابن ثمانين سنة ، فاشتريت منه دكانا وعقدت معه العقد ، فلما افترقنا غدر بعد أيام ، فطلبت منه الحضور عند الحاكم فأبى ، فأحضرته فحلف باليمين الغموس أنه مابعته ، فقلت ماتدور عليه السُّنَّة ، وأخذ يبرطل لمن يحول بيني وبينه من الظَّلَمَة ، فرأيت من العوام من قد غلبت عليه العادات فلا يلتفت معها الى قول فقيه ، يقول : هذا ماقبض الثمن فكيف يصح البيع ؟ وآخر يقول : كيف يجوز لك ان تأخذ دكانه بغير رضاه ؟ وآخر يقول : يجب عليك أن تقيله البيع . فلما لم أقله أخذ هو وأقاربه يأخذون عرضي ، ورأى أنه يحامي عن ملكه ، ثم سعى بي الى السلطان سعاية يحرض فيها من الكذب ما أدهشني ، وبرطل [1] ما لا لخلق من الظلمة ، فبالغوا وسعوا ، الا أن الله تعالى نجاني من شرهم . ثم اني أقمت عليه البينة عند الحاكم ، فقال بعض أرباب الدنيا للحاكم : لاتحكم له .

فوقف عن الحكم بعد ثبوت البينة عنده ، فرأيت من هذا الحاكم ومن حاكم آخر أعلى منه من ترك انفاذ الحق حفظاً لرياستهم ماهوّن عندي مافعله ذلك الشيخ حفظاً لماله لجهله وعلم هؤلاء ، فتجلى لي من الامر أن العادات غلبت

---

(١) البرطيل الرشوة وبرطله فتبرطل رشاه فارتشى وهو من عامي الشام الفصيح

على الناس ، وأن الشرع أعرض عنه ، وان وقعت موافقة الشرع فكما اتفق او لاجل العادة ، فان الانسان لو ضرب بالسياط ما أفطر في رمضان . عادة قد استمرت ، ويأخذ أعراض الناس وأموالهم عادة . فكم رأيت هذا الشيخ يصلي ويحافظ على الصلاة ، ثم لما خاف فوت غرضه ترك الشرع جانباً . وكم قد رأيت أولئك الحكام يتعبدون ويطلبون العلم ، غير أنهم خافوا على رياستهم ان تزول تركوا جانب الدين . ثم ان الله تعالى نصرني عليه وتقدم الى الحاكم بانفاذ ماثبت عنده ، ودارت السنة فمات الشيخ على قل(١) . فنسأله عز وجل التوفيق للانقياد لشرعه ومخالفة أهوائنا .

١٦٦ ـ عزلة العالم

ما أعرف للعالم قط لذة ولا عزا ولا شرفا ولا راحة ولا سلامة أفضل من العزلة ، فانه ينال بها سلامة بدنه ودينه وجاهه عند الله عز وجل وعند الخلق ، لأن الخلق يهون عليهم من يخالطهم ، ولايعظم عندهم قول المخالط لهم ، ولهذا عظم قدر الخلفاء لاحتجابهم . وإذا رأى العوام أحد العلماء

---

(١) اي على قلة وحاجة (٢) ماأحتجب ابوبكر ولاعمر ، وكانوا هم اعظم قدراً ، انما يعظم اقدار الحكام اتباعهم الشرع . ولو مثل لعز الحجاب ، وذل البرص ، بحجاب المرأة امس ، وسفورها اليوم . لكان اقرب واصوب .

مترخصاً في أمر مباح هان عندهم . فالواجب عليه صيانه علمه وإقامة قدر العلم عندهم ، فقد قال بعض السلف : كنا نمزح ونضحك ، فاذا صرنا يقتدي بنا فما أراه يسعنا ذلك . وقال سفيان الثوري : تعلموا هذا العلم وأكظموا عليه ، ولاتخلطوه بهزل فتمجه القلوب . فمراعاة الناس لاينبغي أن تنكر . وقد قال ﷺ لعائشة : لولا حدثان قومك في الكفر لنقضت الكعبة وجعلت لها بابين . وقال أحمد بن حنبل في الركعتين قبل المغرب : رأيت الناس يكرهونها فتركتها .

ولا تسمع من جاهل يرى مثل هذه الاشياء رياء ، انما هي صيانة للعلم .

وبيان هذا أنه لو خرج العالم الى الناس مكشوف الرأس[1] أو في يده كسرة يأكلها قل عندهم وإن كان هـذا مباحاً ، فيصير بمثابة تخليط الطبيب الآمر بالحمية ، فلا ينبغي للعالم أن ينبسط عند العوام حفظاً لهم ، ومتى أراد مباحاً فليستتر به عنهم . وهذا القدر الذي لاحظه أبو عبيدة حين رأى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قد قدم الشام راكباً على حمار ورجلاه من جانب ، فقال : يا أمير المؤمنين يتلقاك عظماء الناس .

فما أحسن ما لاحظ ! الا أن عمر رضي الله عنـه أراد

---

(١) انما هي عادات ، ولقد كان عامة علماء الاندلس « الا القضاة منهم » يكشفون رؤوسهم .

تأديب أبي عبيدة بحفظ الاصل فقال : إن الله أعزكم بالاسلام فمها طلبتم العز في غيره أذلكم . والمعني ينبغي أن يكون طلبكم العز بالدين لا بصور الافعال ، وان كانت الصور تلاحَظ ، فإن الانسان يخلو في بيته عريانا[1] ، فإذا خرج الى الناس لبس ثوبين وعمامة ورداء ، ومثل هذا لايكون تصنعاً ولاينسب الى كبر . وقد كان مالك بن أنس يغتسل ويتطيب ويقعد للحديث .

ولاتلتفت ياهذا الى ماترى من بذل العلماء على أبواب السلاطين ، فان العزلة أصون للعالم والعلم ، ومايخسره العلماء في ذلك أضعاف مايربحونه . وقد كان سيد الفقهاء سعيد ابن المسيب لايغشى الولاة ، وعن قول هذا سكتوا عنه[2] . وهذا فعل الحازم . فان أردت اللذة والراحة فعليك أيها العالم بعقر بيتك ، وكن معتزلا عن أهلك يطب لك عيشك ، واجعل للقاء الاهل وقتا ، فاذا عرفوه تصنعوا للقائك ، فكانت المعاشرة بذلك اجود .

وليكن لك بيت في بيتك تخلو فيه وتحادث سطور كتبك وتجري في حلبات فكرك ، واحترس من لقاء الخلق

---

(١) كلمة عريان غير ممنوعة من الصرف (٢) ولعل في العبارة تحريفاً من النساخ

وخصوصاً العوام ، واجتهد في كسب يمنعك عن الطمع . فهذه نهاية لذة العالم في الدنيا . وقد قيل لابن المبارك : مالك لاتجالسنا ؟ فقال : انا اذهب فاجالس الصحابة والتابعين . وأشار بذلك الى أنه ينظر في كتبه .

ومتى رزق العالم الغنى عن الناس والخلوة ، فان كان له فهم يجلب التصانيف فقد تكاملت لذته ، وإنه رزق فهما يرتقي الى معاملة الحق ومناجاته فقد تعجل دخول الجنة قبل الممات[1] .

نسأل الله عز وجل همة عالية تسمو الى الكمال ، وتوفيقاً لصالح الاعمال ، فالسالكون طريق الحق افراد .

١٦٧ ـ ثمرة العلم

تأملت أحوال الناس في حالة علو شأنهم فرأيت أكثر الخلق تبين خسارتهم حينئذ ، فمنهم من بالغ في المعاصي من الشباب ، ومنهم من فرط في اكتساب العلم ، ومنهم من أكثر من الاستمتاع باللذات حينئذ . فكلهم نادم في حالة الكبر حين فوات الاستدراك لذنوب سلفت ، أو قوى ضعفت ، أو فضيلة فاتت . فيمضي زمان الكبر في حسرات ، فإن كانت للشيخ افاقة من ذنوب قد سلفت قال : وا أسفاً على ماجنيت . وان لم يكن له إفاقة صار متأسفاً على فوات ما كان

(١) لان لذة المناجاة في الخلوات اعظم اللذات و كأنها من نعم الجنات .

يلتذ به . فأما من أنفق عصر الشباب في العلم ، فانه في زمن الشيخوخة يحمد جنى ماغرس ، ويلتذ بتصنيف ماجمع ، ولا يرى مايفقد من لذات البدن شيئاً (١) بالاضافة الى مايناله من لذات العلم ، هذا مع وجود لذاته في الطلب الذي كان تأمل به ادراك المطلوب . وربما كانت تلك الاعمال أطيب مما نيل منها كما قال الشاعر :

أهتز عند تمني وصلها طرباً ورب أمنية أحلى من الظفر

ولقد تأملت نفسي بالاضافة الى عشيرتي الذين أنفقوا أعمارهم في اكتساب الدنيا ، وانفقت زمن الصبوة والشباب في طلب العلم ، فرأيتني لم يفتني مما نالوه الا مالو حصل لي ندمت عليه ثم تأملت حالي فاذا عيشي في الدنيا أجود من عيشهم ، وجاهي بين الناس أعلى من جاههم ، ومانلته من معرفة العلم لايقاوم فقال لي ابليس : ونسيت تعبك وسهرك ؟ فقلت له : أيها الجاهل ، تقطيع الأيدي لاوقع له عند رؤية يوسف ، وما طالت طريق أدت الى صديق :

جزى الله المسير اليه خيراً وانْ ترك المطايا كالمزاد (٢)

---

(١) شيئاً مفعول ثان «يرى» (٢) جمع مزادة ، اي تركها جلداً على عظم

ولقد كنت في حلاوة طلبي العلمَ ألقى من الشدائد ماهو عندي احلى من العسل ، لاجل ما أطلب وأرجو .

كنت في زمان الصبا آخذ معي أرغفة يابسة فأخرج في طلب الحديث ، وأقعد على نهر عيسى (١) فلا أقدر على أكلها إلا عند الماء ، فكلما أكلت لقمة شربت عليها ، وعين همتي لاترى إلا لذة تحصيل العلم . فأثمر ذلك عندي أني عرفت بكثرة سماعي لحديث سير الرسول ﷺ وأحواله وآدابه ، وأحوال أصحابه وتابعيهم ، فصرت في معرفة طريقه كابن أجود ، وأثمر ذلك عندي من المعاملة مالايدرك بالعلم ، حتى أنني أذكر في زمان الصبوة ، ووقت الغُلمة والعزبة ، قدرتي على أشياء كانت النفس تتوق اليها توقان العطشان الى الماء الزلال ، ولم يمنعني عنها الا ماأثمر عندي من العلم من خوف الله عز وجل . ولولا خطايا لايخلو منها البشر ، لقد أخاف على نفسي من العُجْب غير أنه عز وجل صانني وعلمني وأطلعني من أسرار العلم على معرفته ، وإيثار الخلوة به ، حتى أنه لوحضر معي معروف وبشر (٢) لرأيتهما زحمة .

ثم عاد فغمسني في التقصير والتفريط حتى رأيت أقل الناس

---

(١) من ضواحي بغداد (٢) معروف الكرخي وبشر الحافي

خيراً مني . وتارة يوقظني لقيام الليـل ولذة مناجاته ، وتارة يحرمني ذلك مع سلامة بدني . ولولا بشارة العلم بأن هـذا نوع تهذيب وتأديب ، لخرجت اما الى العجب عنـد العمل ، واما إلى اليأس عند البطـالة . لكن رجائي في فضله قد عادل خوفي منه . وقد يغلب الرجاء بقوة أسبابه ، لاني رأيت أنه قد رباني منذ كنت طفلا ، فإن أبي مات وأنا لا اعقل به ، والأم لم تلتفت إليّ . فركز في طبعي حب العلم . ومازال يوقعني على المهم فالمهم . ويحملني الى من يحملني على الاصوب حتى قوّم أمري . وكم قد قصدني عدو فصده عني . واذ رأيته قد نصرني وبصرني ودافع عني ، ووهب لي ، قَوِيَ رجائي في المستقبل بما قد رأيت في الماضي .

ولقد تاب على يدي في مجالس الذكر اكثر من مئتي الف وأسلم على يدي اكثر من مئتي نفس ، وكم سالت عين متجبر بوعظي لم تكن تسيل . ويحق لمن تلمح هـذا الانعام أن يرجو التام .

وربما لاحت أسباب الخوف بنظري الى تقصيري وزللي .

ولقد جلست يوماً فرأيت حولي أكثر من عشرة آلاف مافيهم إلا من قد رق قلبه ، أو دمعت عينه . فقلت لنفسي :

كيف بك ان نجوا وهلكت ؟ فصحت بلسان وجدي : إلـهي وسيدي إن قضيت عليّ بالعذاب غداً فلا تعلمهم بعذابي صيانة لكرمك لا لأجلي ، لئلا يقولوا عذب من دلّ عليه . إلـهي قد قيل لنبيك ﷺ : اقتل ابن ابيّ المنافق فقال : لايتحدث الناس ان محمداً يقتل اصحابه . الـهي فاحفظ حسن عقائدهم فيّ بكرمك أن تعلمهم بعذاب الدليل عليك . حاشاك والله يا رب من تكدير الصافي .

لاتَبرِ عُوداً انت ريّشْتَه   حاشا لباني الجود أن يَنقُضا
لاتُعطِشِ الزرع الذي نبتُه   بصوب إنعامك قد روّضا

١٦٨ ـ العاشق في عذاب

من الامور التي تخفى على العاقل ان يرى انه متى لم يكن عنده امرأة او جارية يهواها هوى شديداً انه لايلتذ في الدنيا ، فاذا صور محبوباً مملوكا تخايل لذة عظيمة ، واذا كان عنده من لايميل اليه اعتقد نفسه محروماً ، وهذا امر شديد الخفـــاء ، فينبغي أن يوضح .

وهو أن المملوك مملوك . ومتى قدر الانسان على مايشتهيه ملّه ومال الى غيره ، تارة لبيان عيوبه التي تكشفها المخالطة

فانه قد قـــال الحكماء : العشق العمى عن عيوب المحبوب. وتارة لمكان القدرة عليه ، والنفس لاتزال تتطلع الى مالاتقدر عليه . ثم لو قدرنا دوام المحبة مع القدرة فانهـا قد تكون ، ولكن ناقصة بمقدار القدرة ، وانما يقويها تجنّي المحبوب . فيكون تجنّيه كالامتناع ، أو امتناعه من الموافقة ، فاذا صفا فلا بد من أكدار ، منها الحذر عليه ، ومنها قلة ميله الى هذا العاشق ، وربما تكلف القرب منه بعلم الانسان بقـلة ميل محبوبه اليه ينغص بل يبغض ، فان خاف منه خيانة احتاج الى حراسته فقويت النُّغَص ، وأصلح المقدمات التوسط ، وهو اختيار ماتميل النفس اليه ولايرتقى الى مقام العشق ، فان العاشق في عذاب . وانما يتخايل[1] الفارغ من العشق التذاذ العاشق وليس كذلك . فانه كما قيل :

وماقي الارض أشقى من محب ... وان وجد الهوى عَذْبَ المذاق
تراه باكياً في كل وقت ... مخافةَ فُرقة أو لاشتياق
فيبكي ان نأوا شوقاً اليهم ... ويبكي ان دَنَوا خوفَ الفراق
فتسخن عينه[2] عند التداني ... وتسخن عينه عنـــد الفراق

(١) يتخايل في اسلوب المؤلف : يتوهم ويتخيل

(٢) تقول العرب : اقر الله عينــه كناية عن الضحك والسرور ، فقالها المولدون : سخنت عينه يكنون بها عن البكاء .

١٦٩ ـ علوّ الهمة بلاء

ماابتلي الانسان قط بأعظم من علوّ همته . فان من علت همته يختار المعالي ، وقد لايساعد الزمان ، وقد تضعف الآلة ، فيبقى في عذاب . واني أعطيت من علوّ الهمة طرفاً فانا به في عذاب ، ولا أقول : ليته لم يكن ؛ فانه انما يحلو العيش بقدر عدم العقل [١] ، والعاقل لايختار زيادة اللذة بنقصان العقل .

ولقد رأيت اقواماً يصفون علو هممهم ، فتأملتها فاذا بها في فن واحد ، ولايبالون بالنقص فيما هُوَ أهمّ ، قال الرضي :

ولكل جسم في النحول بلية   وبلاء جسمي من تفاوت همتي

فنظرت فاذا غاية أمله الإمارة ، وكان ابو مسلم الخراساني في حال شبيبته لايكاد ينام ، فقيل له في ذلك فقال : ذهن صاف ، وهم بعيد ، ونفس تتوق الى معالي الامور ، مع عيش كعيش الهمج الرعاع .

قيل : فما الذي يبرد غليلك .

قال : الظفر بالملك .

قيل : فاطلبه .

قال : لايطلب الا بالاهوال .

---

(١) ذو العقل يشقى في النعيم بعقله   واخو الجهالة في الشقاوة ينعم

قيل : فاركب الاهوال .

قال : العقل مانع .

قيل : فما تصنع ؟

قال : سأجعل من عقلي جهلا ، واحاول به خطراً لا ينال الا بالجهل ، وادبر بالعقل مالا يحفظ إلا به ، فان الخمول اخو العدم .

فنظرت الى حال هذا المسكين فاذا به قد ضيع أهم المهمات وهو جانب الآخرة ، وانتصب في طلب الولايات . فكم فتك وقتل حتى نال بعض مراده من لذات الدنيا ، ثم لم يتنعم في ذلك أكثر من ثمان سنين ، ثم اغتيل ونسي تدبير العقل فقتل ، ومضى الى الآخرة على أقبح حال . وكان المتنبي يقول :

وفي الناس من يرضى بميسور عيشه
ومركوبُه رجلاه والثوبُ جلدُه
ولكنّ قلباً بين جنبيّ مالَه
مدى ينتهي بي في مراد أحدّه
ترى جسمه يكسى شفوفاً تربّه
فيختار ان يكسى دروعاً تهدّه

فتأملت هذا الآخر فإذا نهمته فيما يتعلق بالدنيا فحسب . ونظرت الى علو همتي فرأيتها عجباً . وذلك أنني أروم من

العلم ما أتيقن أني لا أصل إليه ، لأنني أحب نيل كل العلوم على اختلاف فنونها ، وأريد استقصاء كل فرد ، وهذا أمر يعجز العمر عن بعضه ، فإن عرض لي همة في فن قد بلغ منتهاه رأيته ناقصاً في غيره ، فلا أعد همته تامة . مثل المحدث فاته الفقه ، والفقيه فاته علم الحديث ، فلا أرى الرضى بنقصان من العلوم إلا حادثاً عن نقص الهمة .

ثم إني أروم نهاية العمل بالعلم ، فأتوق الى ورع بشر ، وزهادة معروف ، وهذا مع مطالعة التصانيف ، وافادة الخلق ومعاشرتهم بعيدٌ .

ثم إني أروم الغنى عن الخلق ، واستشرف الافضال عليهم . والاشتغالُ بالعلم مانعٌ من الكسب . وقبولُ المنن مما تأباه الهمة العالية .

ثم إني اتوق الى طلب الاولاد ، كما أتوق الى تحقيق التصانيف ، لبقاء الخَلَفين (١) نائبين عني بعد التلف . وفي طلب ذلك مافيه من شغل القلب المحب للتفرد .

ثم إني أروم الاستمتاع بالمستحسنات ، وفي ذلك امتناع من جهة قلة المال ثم لو حصل فرق جمع الهمة .

---

(١) يشير الى انه اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث : صدقة جارية، وعلم نافع ،وولد صالح يدعو له . وهذان هما الخلفان اللذان اراد .

وكذلك أطلب لبدني ما يصلحه من المطاعم والمشارب ، فانه متعود للترفه والتلطف ، وفي قلة المال مانع .

وكل ذلك جمع بين أضداد . فأين انا وما وصفته من حال من كانت غاية همته الدنيا ؟

وأنا لا أحب ان يخدش حصول شيء من الدنيا وجه ديني بسبب . ولا أن يؤثر في علمي ولا في عملي . فواقلقي من طلب قيام الليل ، وتحقيق الورع ، مع اعادة العلم ، وشغل القلب بالتصانيف ، وتحصيل مايلايم البدن من المطاعم .

ووا أسفي على مايفوتني من المناجاة في الخلوة مع ملاقاة الناس وتعليمهم .

وياكدر الورع مع طلب لابد منه العائلة .

غير أني قد استسلمت لتعذيبي ، ولعل تهذيبي في تعذيبي ، لأن عليان(١) الهمة تطلب المعالي المقربة الى الحق عز وجل .

وربما كانت الحيرة في الطلب دليلاً الى المقصود .

وها أنا(٢) أحفظ انفاسي من ان يضيع منها نفس في غير فائدة ، وان بلغ همي مراده ، وإلا فنية المؤمن أبلغ من عمله .

---

(١) عليان بمعنى علو مما لا اعرفه من اللغة

(٢) النصيح حاأنذا

١٧٠ ـ التلطف بالجسم

لما سطرت هذا الفصل المتقدم ، رأيت اذكار النفس بما لا بد لها في الطريق منه ، وهو أنه لابد لها من التلطف ، فان قاطع مرحلتين في مرحلة خليق بأن يقف ، فينبغي ان يقطع الطريق بألطف ممكن . واذا تعبت الرواحل نهض الحادي يغنيها . وأخذُ الراحة الجِدّ جِدٌ . وغوص السابح في طلب الدر صعود . ودوام السير يحشر الابل[1] والمفازة صعبة .

ومن أراد ان يرى التلطف بالنفس فلينظر في سيرة الرسول ﷺ فانه كان يتلطف بنفسه ، ويمازح ويخالط النساء ، ويقبّل ويمص اللسان ، ويختار المستحسنات ، ويُستعذب له الماء ويختار الماء البارد[2] ، والأوفق من المطاعم كلحم الظهر والذراع والحلوى . وهذا كله رفق بالناقة في طريق السير . فأما من جرد عليها السوط فانه يوشك ألاّ يقطع الطريق . وقد قال ﷺ ان هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق ، فان المنبَتّ لاأرضاً قطع ، ولاظهراً أبقى .

---

(١) يريد انه يتعبها

(٢) كرر هذا المعنى من قبل

وأعلم أنه ينبغي للعاقل أن يغالط نفسه فيما يكشف العقل عن عواره ، فان فكر المتيقظ يسبق قبل مباشرة المرأة الى انها اعتناق جسد يحتوي على قذارة ، وقبل بلع اللقمة انها متقلبة في الريق لوأخرجها الانسان [1] ولو فكر في قرب الموت وما يجري عليه بعده ، لبغض عاجل لذته ، فلابد من مغالطة تجري لينتفع الانسان بعيشه كما قال لبيد :

فاكذب النفس إذا حدثتها   ان صدق النفس يزري بالأمل

وقال البستي [2] :

افد طبعك المكدود بالهم راحة   تجِمّ وعلله بشيء من المزح
ولكن اذا أعطيته ذاك فليكن   بمقدار مايعطى الطعام من الملح

وقال أبو علي بن الشبل [3] :

واذا هممت فناج نفسك بالمنى   وعداً فخيرات الجنان عدات
واجعل رجاءك دون يأسك جُنّة   حتى تزول بهمك الاوقات
واستر عن الجلساء بثّك انما   جلساؤك الحسّاد والشمّات
ودع التوقع للحوادث انه   للحيّ من قبل الممات ممات

---

(١) هنابياض بالاصل
(٢) ابو الفتح علي بن الحسين كان من اكبر شعراء عصره توفي في بخاري سنة ٤٠٠ ه
(٣) الحسين بن عبد الله فيلسوف شاعر توفي في بغداد سنه « ٤٧٤ ه »
وله القصيدة النادرة المشهورة جدا :

بربك ايها الفلك المدار   اقصد ذا المسير ام اضطرار

فالهم ليس له ثبات مثل ما ... في أهله مالسرور ثبات
لولا مغالطة النفوس عقولها ... لم يصف للمتيقظين حياة

وقال أيضاً :

بحفظ الجسم تبقى النفس فيه ... بقاء النار تحفظ بالوعاء
فباليأس الممض فلا تمتها ... ولا تعدد لها طول الرجاء
وعدها في شدائدها رخاء ... وذكرها الشدائد في الرخاء
يعد صلاحها هذا وهذا ... وبالتركيب منفعة الدواء

وقد كان عموم السلف يخضبون الشيب لئلا يرى الانسان منهم مايكره ، وان كان الخضاب لايعدم النفس علمها بذلك ولكنه نوع مخادعة النفس ، ومازالت ترى الظاهر ، وانما الفكر والعقل مع الغائب ، ولا بد من مغالطة تجري ليتم العيش[1] ولو عمل العامل بمقتضى قصر الأمل ماكتب العلم ولاصنف .

فافهم هذا الفصل مع الذي تقدمه ، فان الاول في مقام العزيمة ، وهذا في مكان الرخصة ، ولابد للتعب من راحة واعانة . والله عز وجل على قدر صدق الطلب ، وقوة اللجء وخلع الحول والقوة ، وهو الموفق .

---

(١) قال المتنبي : تصفو الحياة لجاهل او غافل ... عما مضى منها وما يتوقع
ولمن يغالط في الحقائق نفسه ... ويسومها طلب المحال فتطمع

١٧١ - درس للشباب والشيوخ

قوام الآدمي بشيئين : الحرارة والرطوبة . ومن شأن الحرارة(١) ان تحلل الرطوبة وتفنيها . فالآدمي محتاج الى تحصيل خلف المتحلل ، فابدان النشء تغتذي باكثر مما يتحلل منها . والابدان المتناهية تغتذي بمقدار مايتحلل منها ، والابدان التي قد اخذت في الهرم يتحلل منها اكثر مما تغتذي به ، فينبغي للناشىء البالغ أن يتحفظ في النكاح ، لأنه يربي قاعدة قوة يجد اثرها في الكبر . وأما المتوسط والواقف السن فينبغي أن يحذر فضول الجماع ، فان حصل له مثل مايخرج منه فأسرف ، فاللازم أخذ من الحاصل ، ويوشك أن يسرع النفاد . وأما الشيخ فترك النكاح كاللازم له ، خصوصاً اذا زاد علو السن ، لانه ينفق من الجوهر الذي لايحصل مثله أبداً .

ثم ينبغي ان ينظر العاقل في ماله فيكتسب اكثر مما ينفق ليكون الفاضل مدخراً لوقت العجز ، وليحذر السرف ، فان العدل هو الاصلح . ثم ينظر في الزوجة ، والمطلوب منها شيئان : وجود الولد ، وتدبير المنزل . فاذا كانت مبذرة فعيب لايحتمل ، فان انضمت صفة العقر فلا وجه للامساك ، الا أن تكون

(١) هنا مايسمى اليوم « الكالوري »

مستحسنة الصورة ، فان ضم اليها عقل وعفاف حَسُن الامساك . وان كانت مما يحتاج أن تحفظ فتركها لازم .

فأما الخدم فليجتهد في تحصيل خادم لاتستعبده الشهوة ، فان عبد الشهوة له مولى غير سيده . ولينظر المالك في طبع المملوك ، فمنهم من لايأتي الا على الاكرام فيكرمه فانه يربح محبته . ومنهم من لايأتي الا على الاهانة فليداره . وليعرض عن الذنوب ، فان لم يكن[1] عاتَبَ بلطف ، وليحذر العقوبة ماأمكن وليجعل للمماليك زمن راحة .

والعجب ممن يعنى بدابته وينسى مداراة جاريته ، وأجود المماليك الصغار ، وكذلك الزوجات . لأنهم متعودون خُلُق المشترى ، وليحفظ نفسه الهيبة من الانحراف مع الزوجة ، ولا يطلعها على ماله ، فانها سفيهة تطلب كثرة الانفاق . وأما تدبير الاولاد فحفظهم من مخالطة تُفسد ، ومتى كان الصبي ذا أنفة حيياً رجي خيره . وليحمل[2] على صحبة الاشراف والعلماء وليُحَذّر من مصاحبته الجهال والسفهاء ، فان الطبع لص ، وليحذّر الصبي من الكذب غاية التحذير ، ومن المخالطة للصبيان . وليوصه بزيادة البر للوالدين . وليحفظ من مخالطة النساء فاذا بلغ فليزوج بصبية فينتفعان .

هذه الاشارة الى تدبير أمور الدنيا .

فأما تدبير العلم فينبغي ان يحمل الصبي من حين يبلغ خمس سنين على التشاغل بالقرآن والفقه وسماع الحديث وليحصّل

---

(١) اي فان لم يكن اعراض (٢) اي الولد

له المحفوظات اكثر من المسموعات ، لأن زمان الحفظ الى خمس عشرة سنة ، فاذا بلغ تشتتت همته ، فليضرب تارة ، ويرشى أخرى ، ليبلغ ، وقد حصل محفوظات سنية . وأولى ماينبغي ان يكلف حفظ القرآن متقناً ، فانه يثبت ويختلط باللحم والدم ، ثم مقدمة من النحو يعرف بها اللحن ، ثم الفقه مذهباً وخلافاً [١] . وما أمكن بعد هذا من العلوم فحفظه حسن . وليحذر من عادات اصحاب الحديث ، فانهم يفنون الزمان في سماع الاجزاء التي تتكرر فيها الاحاديث ، فيذهب العمر وما حصلوا فَهْمَ شيء ، فاذا بلغوا سنّاً طلبوا جواز فتوى ، او قراءة جزء من القرآن ، فعادوا القهقرى ، يحفظون بعد كبر السن فلا يحصل مقصودهم . فالحفظ في الصبا للمهم من العلم أصل عظيم . وقد رأينا كثيراً ممن تشاغل بالمسموعات ، وكتابة الاجزاء ، ورأى الحفظ صعباً ، فمال الى الاسهل ، فمضى عمره في ذلك ، فلما احتاج الى نفسه قعد يتحفظ على كبر فلم يحصل مقصوده . فاليقظة لفهم ماذكرت وانظر في الاخلاص ، فما ينفع شيء دونه .

---

(١) علم الخلاف ، اي الفقه المقارن ـ كما يقولون اليوم ـ و«الخلاف» بين علماء المذاهب المتعددة ، و«الاختلاف» بين علماء المذهب الواحد. واجودما اعرف من كتب الخلاف « بداية المجتهد » لابن رشد ، و « المقارنة بين المذاهب » للشيخ شلتوت شيخ الازهر اليوم .

١٧٢ - الويل للمفرط المهمل

اشتد الغلاء ببغداد في أول سنة خمس وسبعين[١] ، وكلما جاء الشعير زاد ، فتواقع الناس على اشتراء الطعام ، فاغتبط من يستعد كل سنة يزرع مايقوته ، وفرح من بادر في أول النيسان الى اشتراء الطعام فانه يضاعف غنه ، وأخرج الفقراء ما في بيوتهم فرموه في سوق الهوان ، وبان ذل نفوس كانت عزيزة ، فقلت : يانفس خذي من هذه الحال اشارة ، ليغبطن من له عمل صالح وقت الحاجة إليه ، وليفرحنّ من له جواب عند اقبال المسألة . وكل الويل على المفرّط الذي لاينظر في عاقبته ، فتنبهي ، فقد نبهت ناساً الدنيا علـى أمر الآخرة ، وبادري موسم الزرع مادامت الروح في البدن ، فالزمان كله تشرين قبل ان يدخل نيسان الحصاد ، ومالَكِ زرعٌ ، وحاجة المفتقرين الى أموالهم تمنعهم من الايثار .

١٧٣ - محبة غير متبادلة

تأملت حالة أزعجتني . وهو أن الرجل قد يفعل مع امرأته كل جميل وهي لاتحبه ، وكذا يفعل مع صديقه

---

(١) اي خمس وسبعين وخمسمئة .

والصديق يبغضه ، وقد يتقرب الى السلطان بكل ما يقدر عليه والسلطان لايؤثره ، فيبقى متحيراً يقول : ماحيلتي ؟

فخفت أن تكون هذه حالتي مع الخالق سبحانه ، أتقرب اليه وهو لايريدني ، وربما يكون قد كتبني شقياً في الازل ومن هذا خاف الحسن فقال : أخاف أن يكون اطلع على بعض ذنوبي فقال : لاغفرت لك . فليس الا القلق والخوف لعل سفينة الرجا تسلم يوم دخولها الشاطىء من جرف .

١٧٤ ـ الاحاديث النبوية وعددها

جرى بيني وبين أحد اصحاب الحديث كلام في قول الامام احمد : صح الحديث عن رسول الله ﷺ سبعمئة الف حديث ، فقلت له ، إنما يعني به الطرق[1] ، فقال : لا الا المتون . فقلت هذا بعيد التصور . ثم رأيت لأبي عبد الله الحاكم كلاماً ينصر ما قال ذلك الشخص ، وهو أنه قال في كتاب المدخل الى كتاب الاكليل كيف يجوز أن يقال : أن حديث رسول الله ﷺ لايبلغ عشرة آلاف حديث ، وقد روى عنه من

---

(١) اي ان الحديث الواحد يكون له خمسة طرق « اي خمسة اسانيد » فيعدونه بخمسة احاديث ، ومن هنا جاءت هذه الارقام الكبيرة ، وقد غلط في هذه المسألة احمد امين في فجر الاسلام ونبهت اليها في « الرسالة » من نحو ربع قرن .

أصحابه أربعة آلاف رجل وامرأة صحبوه نيفا وعشرين سنة بمكة ثم بالمدينة ، حفظوا اقواله وأفعاله ، ونومه ويقظته وحركاته وغير ذلك سوى ماحفظوا من أحكام الشريعة .
واحتج بقول أحمد : صح الحديث عن رسول الله ﷺ سبعمئة الف حديث وكسر ، وأن اسحاق بن راهويه كان يملي سبعين الف حديث حفظاً ، وأن أبا العباس بن عقدة قال : أحفظ لاهل البيت ثلاثمئة الف حديث ، قال ابن عقدة : وظهر لابن كريب بالكوفة ثلاثمئة الف حديث .

قلت : ولايحسن أن يشار بهذا الى المتون . وقد عجبت كيف خفي هذا على الحاكم وهو يعلم أن أجمع المسانيد الظاهرة مسند احمد بن حنبل ، وقد طاف الدنيا مرتين حتى حصله وهو أربعون الف حديث ، منها عشرة آلاف مكررة ، قال حنبل بن اسحق : جمعنا احمد بن حنبل انا وصالح وعبدالله وقرأ علينا المسند ، وقال لنا : هذا كتاب جمعته من أكثر من سبعمئة الف وخمسين الفاً . فما اختلف المسلمون فيه من حديث رسول الله ﷺ فارجعوا اليه ، فان وجدتموه والا فليس بحجة . أفترى يخفى على متيقظ أنه اراد بكونه جمعه من سبعمئة الف انه أراد الطرق . لان السبعمئة الالف ان كانت من كلام رسول الله ﷺ فكيف أهملها ؟

فان قيل فقد اخرج في مسنده أشياء ضعيفة . ثم اعوذ بالله ان يكون سبعمئة الف ماتحقق منها سوى ثلاثين الفاً وكيف ضاعت هذه الجملة ؟ ولم اهملت وقد وصلت كلها الى زمن احمد فانتقى منها ورمى الباقي ؟ واصحاب الحديث قد كتبوا كل شيء من الموضوع والكذب .

وكذلك قال أبو داود : جمعت كتاب السنن من ستمئة الف حديث . ولايحسن أن يقال أن الصحابة الذين رووها ماتوا ولم يحدثوا بها التابعين ؛ فان الامر قد وصل الى أحمد فأحصى سبعمئة الف حديث ، وما كان الأمر ليذهب هكذا عاجلا ، ومعلوم انه لو جمع الصحيح والمحال الموضوع وكل منقول عن رسول الله ﷺ مابلغ خمسين الفاً ، فأين الباقي ؟

ولايجوز ان يقال تلك الاحاديث كلام التابعين ، فان الفقهاء نقلوا مذاهب القوم ودونوها واخذوا بها ، ولا وجه لتركها ، ففهم كل ذي لب أن الاشارة الى الطرق ، وان ماتوهمه الحاكم فاسد ، ولو عرض هذا الاعتراض عليه ، وقيل له : فاين الباقي ؟ لم يكن له جواب . لكن الفهم عزيز . والله المنعم بالتوفيق . ومثل هذا تغفيل قوم قالوا : إن البخاري لم يخرج كل ما صح عنده ، وان ماأخرج كالانموذج ، والا فكان يطول . وقد ذهب الى نحو هذا أبو بكر الاسماعيلي

ويحكى عن البخاري انه قال : ماتركت من الصحيح اكثر، وانما يعني الطرق ، يدل على ماقلته أن الدار قطني وهو سيد الحفاظ جمع مايلزم البخاري ومسلم إخراجه [١] فبلغ مالميذكراه أحاديث يسيرة ، ولو كان كما قالوا لاخرج مجلدات ، ثم قوله مايلزم (البخاري) دليل صريح على ما قلتـه ، لانه من أخرج الانموذج لايلزمه شيء .

وكذلك اخرج ابو عبد الله الحاكم كتاباً جمع فيه مايلزم البخاري إخراجه فذكر حديث الطائر فلم يلتفت الحفاظ الى ما قال . فما اقل فهمَ هؤلاء الذين شغلهم الحديث من التدقيق الذي لايلزم في صحة الحديث . وإنما وقع لقلة الفقه والفهم.

إن البخاري ومسلم تركا احاديث أقوام ثقات لانهم خولفوا في الحديث ، فنقص الاكثرون من الحديث وزادوا ولو كان ثمّ فقه لعلموا ان الزيادة من الثقة مقبولة ، وتركوا احاديث أقوام لانهم انفردوا بالرواية عن شخص ، ومعلوم أن انفراد الثقة لاعيب فيه . وتركوا من ذلك الغرائب . وكل ذلك سوء فهم . ولهذا لم يلتزم الفقهاء هذا ، وقالوا : الزيادة من

---

(١) اي ماوجده من الاحاديث على شرطها . راجع رسالة « شروط الأئمة الخمسة » طبع حسام الدين القدسي . وانظر كتاب [مجمع الزوائد]

الثقة مقبولة ولايقبل القدح حتى يبين سببه [١] . وكل من لم يخالط الفقهاء وجهد مع المحدثين تأذى وساء فهمه . فالحمد لله الذي انعم علينا بالحالتين .

١٧٥ ـ طبيعة النفوس

اعلم أن الله عز وجل وضع في النفوس اشياء لاتحتاج الى دليل . فالنفوس تعلمها ضرورة ، واكثر الخلق لايحسنون التعبير عنها . فانه وضع في النفس ان المصنوع لابد له من صانع ، وان المبنى لابد له من بان ، وان الاثنين اكثر من الواحد ، وان الجسم الواحد لايكون في مكانين في حالةواحدة ومثل هذه الاشياء لاتحتاج الى دليل [٢] ، وألهم العرب النطق بالصواب من غير لحن [٣] ، فهم يفرقون بين المرفوع والمنصوب بأمارات في جبلتهم ، وان عجزوا عن النطق بالعلة ، قال عثمان بن جنى : سألت يوماً أبا عبد الله بن عساف العقيلي فقلت له : كيف تقول (ضربت اخوك) ؟ فقال : اقول (ضربت اخاك) ، فأدرته على الرفع فأبى . وقال: لا اقول (اخوك) ابداً.

---

(١) ومن القدح الذي لم يبين سببه ، ولا وجه لقبوله ، ولا صحة له ، قدح بعض المحدثين بسيد فقهاء الاسلام الامام الاعظم ابي حنيفة . واعجبه وابعده عن الحق اتهامهم اياه بسوء الحفظ ، وقد كان في حفظه نادرة الدنيا ، واعجوبة الدهر.

(٢) وهي البديهيات

(٣) هذه ملكة اشبه بالغريزة وليست من باب البديهيات العقلية .

قال : فكيف تقول ضربني اخوك ؟ فرفع ، فقلت : أليس زعمت انك لاتقول اخوك ابداً ؟ فقال : ايش هذا ؟ اختلفت جهتها في الكلام !

وهذا ادل شيء على تأملهم مواقع الكلام ، واعطائهم اياه في كل موضع حقه ، وانه ليس استرسالا ولاترخيا .

قال عثمان : واللغة هي اصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم ، والنحو انتحاء سَمْت كلام العرب في تصرفه من اعراب وغيره كالتثنية والجمع والتحقير[1] والتكسير وغير ذلك ليلحق من ليس من اهل اللغة اهلها .

١٧٦ - علوّ الهمة

تدبرت احوال الاخيار والاشرار فرأيت سبب صلاح الأخيار النظر[2] ، وسبب اهمال الاشرار إهمال النظر .

وذاك ان العاقل ينظر فيعلم انه لابد له من صانع ، وان طاعته لازمة ، ويتأمل معجزات رسول الله ﷺ فيسلم قياده الى الشرع ، ثم ينظر فيما يقربه اليه ، ويزلفه لديه . فاذا شق عليه اعادة العلم تأمل ثمرته فسهل ذلك ، واذا صعب عليه قيام الليل فكذلك ، واذا رأى مشتهى تامل

---

(١) اي التصغير

(٢) كلمة النظر هنا ، وفي مثل هذا المقام المراد بها النظر العقلي اي الفكر

عاقبته فعلم ان اللذة تفنى والعار والاثم يبقى ، فيسهل عليه الترك . واذا اشتهى الانتقام ممن يؤذيه ذكر ثواب الصبر وندم الغضبان على افعاله في حال الغضب . ثم لايزال يتأمل مرعة مرّ العمر فيغتنمه بتحصيل افضل الفضائل فينال مناه .

وأمـا الغافل فانه لايرى الا الشيء الحاضر . فمنهم من لم يتامل في معنى المصنوع واثبات الصانع ، فجحدوا وتركوا النظر ، وجحـــدوا الرسل وماجاؤوا به ، ونظروا الى العاجل ، ولم يتفكروا في مبدئه ومنتهاه ، فليس عندهم من عرفان المطعـــم إلا الاكل . ولو تأملوا كيف أنشيء ولماذا جعل حافظاً للأبدان لعرفوا حقائق الامور . وكذلك كل شهوة تعرض لهم لاينظرون في عاقبتها بل في عاجل لذتها. وكم قد جنت عليهم من وقوع حد ، وقطع يد ، وفضيحـة . فتعجيل اللذة يفوّت الفضائل ، ويحصّل الرذائل ، وسببه عدم النظر في العواقب . وهـذا شغل العقـل ، وذاك المـذموم شغل الهوى .

نسأل الله عز وجل يقظة ترينا العواقب ، وتكشف لنـا الفضائل والمعائب ، انه قادر على ذلك .

١٧٧ ـ المؤلف ذو همة عالية

خلقت لي همة عالية تطلب الغـايات ، فـعَلت السن وما

بلغت ما أملت ، فأخذت أسأل تطويل العمر ، وتقوية البدن، وبلوغ الآمال ، فأنكرت عليّ العادات وقالت : ماجرت عادة بما تطلب . فقلت : إنما أطلب من قادر يخرق العادات ، وقد قيل لرجل : لنا حويجة . فقال : اطلبوا لها رجيلاً . وقيل لآخر : جئناك في حاجة لاترزؤك . فقال : هلا طلبتم لها سفاسف الناس .

فإذا كان أهل الأنفة من ارباب الدنيا يقولون هذا فلم لاتطمع في فضل كريم قادر . وقد سألته هذا السؤال في ربيع الآخر من سنة خمس وسبعين فإن مدّ لي أجل [1] وبلغت ما أملته نقلت هذا الفصل الى ما بعد وبيضته ، واخبرت ببلوغ آمالي ، وان لم يتفق ذلك فسيدي أعلم بالمصالح ، فانه لايمنع بخلاً ، ولا حول إلا به .

١٧٨ ـ الرياء في العبادة

ما أقل من يعمل لله تعالى خالصاً لأن أكثر الناس يحبون ظهور عباداتهم . وسفيان الثوري كان يقول : لا أعتد بما ظهر من عملي . وكانوا يسترون أنفسهم ، واليوم ثياب القوم

---

(١) عاش بعد ذلك ثنتين وعشرين سنة

تشهرهم . وقد كان أيوب السختياني(١) يطوّل قميصه حتى يقع على قدميه ، ويقول : كانت الشهرة في التطويل ، واليوم الشهرة في التقصير . فاعلم ان ترك النظر الى الخلق ، ومحو الجاه من قلوبهم بالتعمل واخلاص القصد وستر الحال ، هو الذي رفع من رفع .

فقد كان أحمد بن حنبل يمشي حافياً في وقت ويحمل نعليه في يديه ويخرج للّقاط . وبشر يمشي حافياً على الدوام وحده. ومعروف يلتقط النوى(٢) .

واليوم صارت الرياسات من كل جانب . وما تتمكن الرياسات حتى يتمكن من القلب الغفلة ، ورؤية الخلق ، ونسيان الحق ، فحينئذ تطلب الرياسة على أهل الدنيا .

ولقد رأيت من الناس عجباً حتى من يتزيا بالعلم ، إن رآني أمشي وحدي أنكر عليّ ، وان رآني ازور فقيراً عظّم ذلك ، وان رآني أنبسط بتبسم نقصت من عينه ، فقلت : فواعجباً هذه كانت طريق الرسول ﷺ والصحابة

(١) فقيه زاهد محدث جم الفضائل توفي سنة ١٣١

(٢) وكان الشيخ عبد الحكيم الافغاني يمتنع عن اموال الامراء والاغنياء ، فاذا احتاج تنكر وخرج الى بساتين الغوطة فاشتغل « فاعلاً »

رضي الله عنهم . فصارت احوال الخلق نواميس لاقامة الجاه لاجرم والله سقطتم من عين الحق ، فأسقطكم من عين الخلق . فكم ممن يتعب في تربية ناموس ولا يُلتفت إليه ولا يحظى بمراده ، ويفوته المراد الاكبر .

فالتفتوا اخواني الى اصلاح النيات ، وترك التزين للخلق . ولتكن عمدتكم الاستقامة مع الحق ، فبذلك صعد السلف وسعدوا.

وإياكم وما الناس عليه اليوم ، فإنه بالاضافة الى يقظة السلف نوم .

١٧٩ ـ تأديب الولد

والله ماينفع تأديب الوالد[١] إذا لم يسبق اختيار الخالق لذلك الولد ، فإنه سبحانه اذا أراد شخصاً رباه من طفولته وهداه الى الصواب ، ودله على الرشاد ، وحبب إليه مايَصْلح ، وصحّبه من يُصْلِح ، وبغّض إليه ضد ذلك ، وقبّح عنده سفساف الامور ، وعصمه من القبائح ، وأخذ بيده كلما عثر.

واذا أبغض شخصاً تركه دائم التعثير ، متخبطاً في كل حال ، ولم يخلق له همة لطلب المعالي ، وشغله بالرذائل عن

---

(١) على الوالد ان يتبع الامر باتخاذ الاسباب ويسأل الله التوفيق ، فيؤدبه ولده ما استطاع ، ويدعو الله ان يجعله من الصالحين .

الفضائل . وان قال لم خصصت بهذا ، قال الخطاب الذي لايجاب « بما كسبت ايديكم [١] . »

١٨٠ ـ من الادلة على الله

من اكبر الدليل على وجود الخالق سبحانه ان هذه النفس الناطقة المميزة المحركة للبدن على مقتضى ارادتها ، والتي دبرت مصالحها ، وترقت الى معرفة الافلاك ، واكتسبت ما امكن تحصيله من العلوم ، وشاهدت الصانع في المصنوع ، فلم يحجبها ستو وان تكاثف ، لايعرف مع هذا ماهيتها [٢] ولا كيفيتها ولاجوهرها ولامحلها باشغالها ، ولا يفهم من اين جاءت ، ولايدرى اين تذهب ، ولاكيف تعلقت بهذا الجسد . وهذا كله يوجب عليها ان لها مدبراً وخالقاً . وكفى بذلك دليلا عليه . اذ لو كانت وجدت بها لما خفيت احوالها . فسبحانه سبحانه .

---

(١) هذه أمور لامجال للعقل فيها ، والمطلوب فيها الوقوف عند النصوص ، ونصوص القرآن صريحة بأن العبد يدخل الجنة بعمله ، ويصلى النار بعمله ، وفي القران الآيات الكثيرة بهذا المعنى .

(٢) بل نحن لانعرف ماهية الكهرباء والمغناطيس ، فاذا كان هذامدى جهلنا بنفوسنا وبما حولنا ، فكيف نطمع ان نبحث بعقولنا في صفات خالق هذه النفوس؟ وان نبحث في القضاء والقدر ؟ وان نقول « الصفة عين الموصوف ام لا » ؟ وهل هي « قائمة بالذات ام لا » ؟ وما اليد ؟ وما الاستواء ؟

١٨١ ـ تعلم الحديث خير من التنفل

سبحان من منّ على الخلق بالعلماء الفقهاء الذين فهموا مقصود الامر ومراد الشارع . فهم حفظة الشريعة فأحسن الله جزاءهم . وان الشيطان ليتجافاهم خوفاً منهم ، فانهم يقدرون على أذاه ، وهو لايقدر على اذاهم .

ولقد تلاعب بأهل الجهل والقليلي الفهم . وكان من اعجب تلاعبه ان حسّن لاقوام ترك العلم ثم لم يقنعوا بهذا حتى قدحوا في المتشاغلين به . وهذا (لو فهموه) قدحٌ في الشريعة . فان رسول الله ﷺ يقول : بلغوا عني . وقد قال له ربه عزوجل: « بلغ » فاذا لم يتشاغل بالعلم فكيف يبلغ الشريعة الى الخلق ؟

ولقد نقل مثل هذا عن كبار الزهاد ، كبشر الحافي ، فانه قال لعباس بن عبد العظيم : لاتجالس اصحاب الحديث . وقال لاسحق بن الضيف : انك صاحب حديث فاحبّ ان لاتعود اليّ ، ثم اعتذر فقال : انما الحديث فتنة الا لمن اراد الله به ، واذا لم يعمل به فتركه أفضل .

وهذا عجب منه ! من اين له ان طلابه لايريدون الله به ، وانهم لايعملون به ؟ أو ليس العمل به على ضربين : عمل بما يجب ، وذلك لايسع احداً تركه ، والثاني نافلة ولايلزم .

والتشاغل بالحديث أفضل من التنفل بالصوم والصلاة ومااظنه اراد الا طريقه في دوام الجوع والتهجد ، وذلك شيء لايلام تاركه . فان كان يريد ان لايوغل في علوم الحديث فهذا خطأ لان جميع اقسامه محمودة . أفترى لو ترك الناس طلب الحديث كان بشرٌ يُفتي ؟ فَـالله الله في الالتفات الى قول من ليس بفقيه ، ولايهولنك تعظيم اسمه فالله يعفو عنه .

١٨٢ ـ من عصى الله بطاعة غيره سلّطه عليه

العاقل من يحفظ جانب الله عز وجـل وان غضب الخلق وكل من يحفظ جانب المخلوقين ويضيع حق الخالق يقلب الله قلب الذي قصد ان يرضيه فيسخطه عليه .

قال المأمون لبعض أصحابه : لاتعص الله بطاعتي فيسلطني عليك . ولما بالغ طاهر بن الحسين فيما فعل بالأمين وقتله به وصلب رأسه وان كان ذلك عن ارادة المأمون ، ولكن بقي أثر ذلك في قلبه ، فكان المأمون لايقدر ان يراه . ولقـد دخل عليه يوماً فبكى المأمون ، فقــال له طاهر : لم تبكي لاأبكى الله عينك ، فلقد دانت لك البلاد ؟

فقال : أبكي لأمر ذكره ذل ، وستره حزن ، ولن يخلو أحد من شجن .

فلما خرج طاهر أنفذ الى حسين الخادم مئتي ألف درهم

وسأله ان يسأل المأمون : لم بكى ؟

فلما تغدى المأمون قال : ياحسين اسقني .

قال : لا والله لا أسقيك حتى تقول لي لم بكيت حين دخل عليك طاهر .

قال : ياحسين وكيف عُنيت بهذا حتى سألت عنه .

قال : لغمي بذلك .

قال : ياحسين أمر ان خرج من رأسك قتلتك .

قال : ياسيدي ومتى أخرجت لك سراً ؟

قال : اني ذكرت أخي محمداً وما ناله من الذلة فخنقتني العبرة فاسترحت الى إفاضتها . ولن يفوت طاهراً مني مايكره .

فأخبر حسين طاهراً بذلك ، فركب طاهر الى احمد ابن ابي خالد فقال له : ان المعروف عندي ليس بضائع فغيبني عن عينه . قال : سأفعل .

فدخل على المأمون فقال : مابت البارحة .

قال : ولم ؟

قال : لانك وليت غان ابن عباد خراسان ، وهو ومن معه أكلة رأس[١] ، فاخاف ان يخرج خارج من الترك فيصطلمه .

قال : فمن ترى !

قال : طاهر بن الحسين . فعقد له فمضى ، فبقي مدة ثم

(١) اي انهم لايثبتون لمدوم الا هذا الزمن اليسير .

قطع الدعاء للمأمون على المنبر يوم الجمعة .

فقال له صاحب البريد[١] : مادعوت لأمير المؤمنين .

قال : سهو فلا تكتب .

ففعل ذلك في الجمعة الثانية والثالثة .

فقال له : لابد ان اكتب لئلا يكتب التجار ويسبقوني

قال : اكتب . فكتب .

فدعا المأمون احمد بن ابي خالد وقال :

انه لم يذهب عليّ احتيالك في امر طاهر ، وانا اعطي الله عهداً ان لم تشخص حتى توافيني به كما اخرجته من قبضتي لتذمن عقباك ، فشخص وجعل يتلوّم[٢] في الطريق ويعتل بالمرض ، فوصل الى الريّ[٣] وقد بلغته وفاة طاهر .

قلت : ولما خرج الراشد من بغداد وارادوا تولية المقتفي ، شهد جماعة من الشهود بأن الراشد لايصلح للخلافة ، فنزعوه وولى المقتفي ، فبلغني انه ذكر للمقتفي بعض الشهود فذمه وقال : كان فيمن أعان على ابي جعفر .

وعلى ضد هذا كل من يراعي جانب الحق والصواب يرضى عنه من سخط عليه . ولقد حدثني الوزير ابن هبيرة[٤] ان

---

(١) كان من تشكيلات الدولة ان مع كل وال صاحب بريد يكتب بخبره الى الخليفة

(٢) يتأخر ويتقاعس (٣) في موضوع طهران اليوم والنسبة اليها رازي .

(٤) العالم المحدث العادل كان من نوادر الزمان توفي سنة ٥٦٠

المستنجد بالله كتب اليه كتابا وهو يومئذ ولي عهد ، واراد أن يستره من أبيه (قال) فقلت للواصل به : والله مايمكنني اقرؤه ولا أجيب عنه .

فلما ولي الخلافة دخلت عليه فقلت : اكبر دليل على صدقي واخلاصي اني ماحابيتك في ابيك .

فقال : صدقت . انت الوزير.

وحدثني بعض الاصدقاء ان قوماً الحقوا الى المخزن بعض دين لهم ليستخلص ، فقال المسترشد لصاحب المخزن : خلصه لهم ونحنه ماضمنوا لنا . فأحضر ابن الرطبي[١] وعرض الامر عليه ، فقال : هذا أمر بظلم وما أحكم فيه ، فقال : ان السلطان قد تقدم[٢] ، قال : ما أفعل . فاحضر قاضياً آخر فبت الحكم . فأخبر الخليفة بالحال . فقال : أما ابن الرطبي فيشكر على ما قال . وأما الآخر فيعزل . وذلك لانه بان له ان الحق ماقاله ابن الرطبي . وكذلك ماطلبه السلطان من ان يلقب ملك الملوك . فاستفتى الفقهاء فأجازوا ذلك وامتنع من اجازته الماوردي[٣] ، فعظم قدره عند السلطان .

---

(١) احمد بن سلامة الفقيه الشافعي توفي ببغداد ٥٢٧ م (٢) اي امر

(٣) علي بن محمد قاضي القضاة له الكتاب المظم « الاحكام السلطانية » وغيره توفي سنة ٤٥٠

ومثل هذا اذا تتبع كثير . فينبغي ان يحسن القصد لطاعة الخالق وان سخط المخلوق ، فانه يعود صاغرا ولا يسخط الخالق فانه يسخط المخلوق فيفوت الحظان جميعاً .

١٨٣ ـ لاتعاشر من ليس له أصل ولا شرف

ينبغي للعاقل أن ينظر الى الاصول فيمن يخالطه ويعاشره ويشاركه ويصادقه ويزوجه أو يتزوج اليه . ثم ينظر بعد ذلك في الصور ، فان صلاحها دليل على صلاح الباطن . أما الاصول فان الشيء يرجع الى اصله . وبعيد ممن لا أصل له أن يكون فيه معنى مستحسن . وان المرأة الحسناء اذا كانت من بيت ردي فقل أن تكون صيّنة ، وكذلك أيضاً المخالط والصديق والمباضع والمعاشر .

فاياك أن تخالط الا من له أصل يخاف عليه الدنس ، فالغالب السلامة . وان وقع ذلك كان نادراً . وقد قال عمر ابن عبد العزيز رضي الله عنه لرجل : أشر عليّ فيمن أستعمل . فقال : أما أرباب الدين فلا يريدونك ، وأما أرباب الدنيا فلا تردهم ، ولكن عليك بالاشراف[1] ، فانهم يصونون شرفهم عما لا يصلح .

وقد روى أبو بكر الصولي قال ، حدثني الحسين بن يحيى عن

---

(١) اي الاشراف باخلاقهم لا بانسابهم .

إسحاق [١] قال : دعاني المعتصم يوماً فأدخلني معه الحمام ، ثم خرج فخلا بي وقال : ياابا اسحق في نفسي شيء أريد أن أسألك عنه ، ان أخي المأمون اصطنع قوماً فانجبوا ، واصطفيت انا مثلهم فلم ينجبوا . قلت ومن هم ؟ قال : اصطنع طاهراً وابنه وآل سهل فقد رأيت كيف هم . واصطنعت أنا الافشين فقد رأيت إلام آل امره ، وأشناسَ فلم أجده شيئاً ، وكذلك ايتاخ ووصيف [٢] . قلت : ياأمير المؤمنين ، ههنا جواب على أمان من الغضب . قال : لك ذاك . قلت : نظر أخوك الى الاصول فاستعملها فأنجبت فروعها ، واستعملت فروعا لا أصول لها فلم تنجب [٣] ، فقال : ياأبا اسحق مقاساة مامر بي طول هذه المدة أهون عليّ من هذا الجواب .

أما الصور ، فانه متى صحت البنية ولم يكن فيها عيب فالغالب صحة الباطن وحسن الخلق ، ومتى كان فيها عيب فالعيب

---

(١) اسحاق بن ابراهيم المصعي مدير الشرطة ببغداد ايام المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل .

(٢) هؤلاء كلهم من غلمان الاتراك الذين جاء بهم المعتصم فجعلهم قواد الدولة ورؤساءها فكانت جناية على تاريخنا .

(٣) لما اعتقدتم اناساً لا حلوم لهم ضعتم وضيعتم من كان يعتقد
ولو جعلتم على الاحرار نعمتكم حتكم السادة المذكورة الحشد

في الباطن أيضاً ، فاحذر من به عاهة كالاقرع والاعمى وغير ذلك ، فان بواطنهم في الغالب ردية [١] .

ثم مع معرفة اصول المخالط وكمال صورته لابد من التجربة قبل المخالطة ، واستعمال الحذر لازم ، وان كان كما ينبغي .

١٨٤ ـ الذكاء والتلطف في طلب الاغراض

ينبغي أن يكون شغل العاقل في العواقب والتحرز مما يمكن ان يكون . ومن الغلط النظر في الحالة الحاضرة كالموافق لمعاشه ولصحة بدنه ، وربما يجري له مصحوبه فينبغي ان يعمل على انقطاع ذلك ، فيكون مستعداً لتغير الاحوال . وكذلك النظر في لذة تفنى وتبقى تبعتها وعارها ، وإيثار الكسل والدعة لما يجيء من بقاء الجهل . وكذلك تحصيل المرادات التي لاتحصل الا بالتلطف في الاحتيال ، خصوصاً اذا أريد من ذكي فانه يفطن بأقل تلويح ، فمن أراد غلبة الذكي دقق النظر وتلطف في الاحتيال .

وقد ذكر في كتب الحيل مايشحذ الخواطر ، وأتينا بجملة منه في كتاب الاذكياء ، مثل ماروي ان رجلا من الاشراف كان لايقوم لاحد ولايخشى احداً ، فجاز عليه بعض الوزراء فلم يردّ ولم يقم ، فقال ذاك الوزير لرجل : أخبر فلانا اني قد

---

(١) الله اعلم بصحة هذا الحكم .

كلمت امير المؤمنين في حقه ، وقد امر له بمئة الف ، فليحضر ليقبضها .

فأخبره ذلك الرجل فقال الشريف : ان كان أمر لي بشيء فلينفذه لي . وانما مقصوده ان يضع مني بالتردد عليه .

فمتى وقع الانسان مع ذكي فينبغي ان يتحرز منه ويسرق أغراضه بصنوف الاحتيـال ، وينظر فيما يجوز وقوعه فليحترز منه ، كما ينظر صاحب الرقعة النقلات . وكثير من الاذكياء لم يقدروا على اغراضهم من ذكي فأعطوه وبالغوا في اكرامه ليصيدوه . فان كان قليل الفطنة وقع في الشرك ، وان كان أقوى منهم ذكاء علم ان تحت هذه الجنية [1] خبية فزاده ذلك احترازاً .

وأقوى ماينبغي أن يكون الاحتراز من موتور ، فانك اذا آذيت شخصاً فقد غرست في قلبه عداوة ، فلاتأمن تفريع تلك الشجرة ، ولاتلتفت الى مايظهر من ود وان حلف ، فان قاربته فكن منه على حذر .

١٨٥ ـ استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان

رأيت اكثر الناس لا يتمالكون من إفشاء سرهم ، فاذا ظهر

(١) الجنية : من جنى الثمرة وهي « فعيلة » بمعنى « مفعولة » والخبية : الخبيئة

عاتبوا من أخبروا به [١].

فواعجبا كيف ضاقوا بحبه ذرعا ثم لاموا من أفشاه ، وفي الحديث : استعينوا على قضاء اموركم بالكتمان [٢]. ولعمري ان النفس يصعب عليها كتم الشيء ، وترى بافشائه راحة ، خصوصا اذا كان مرضاً أو همـــاً أو عشقاً ، وهذه الاشياء في افشائها قرينة [٣] انما اللازم كتمانه احتيال المحتال فيما يريد ان يحصل به غرضاً ، فان سوء التدبير إفشاء ذلك قبل تمامه ، فانه اذا ظهر بطل مايراد أن يفعل ، ولاعذر لمن أفشى هذا النوع .

وقد كان النبي ﷺ اذا اراد سفراً ورّى بغيره . فان قال قائل : انما أحدث . قيل له وكل حديث جاوز الاثنين شائع ، وربما لم يكتم صديقك .

وكم قد سمعنا من يحدثه الملوك بالقيض على صاحب [٤] فنم الحديث الى الصاحب وهرب ففات السلطان مراده . وانمـــا الرجل الحازم الذي لايتعداه سره ولا يفشيه الى أحد .

ومن العجز إفشاء السر الى الولد والزوجـة ، والمال من

---

(١) اذا ضاق صدر المرء عن حفظ سر ... فصدر الذي يستودع السر أضيق

(٢) قال الاستاذ الشيخ ناصر : ضعيف

(٣) كذا ومقتضى الحق ان في افشائها راحة

(٤) تطلق كلمة الصاحب على العامل والوزير ومنه الصاحب بن عباد ، وكتاب الصحابة لابن المقفع - وهي اليوم في الهند كلمة تبجيل كـ « السيد » . وربما اختصروها بلسانهم فقالوا : صب

جملة السر ، فاطلاعهم عليه ـ ان كان كثيراً فربما تمنوا هلاك الموروث ، وان كان قليلاً تبرموا بوجوده ، وربما طلبوا من الكثير على مقدار كثرته فأتلفته النفقات . وستر المصائب من جملة كتمان السر ، لأن اظهارها يسر الشامت ويؤلم المحب . وكذلك ينبغي ان يكتم مقدار السن ، لانه ان كان كبيراً استهرموه وان كان صغيراً احتقروه[1] .

ومما قد انهال فيه كثير من المفرطين انهم يذكرون بين أصدقائهم اميراً او سلطاناً فيقولون فيه فيبلغ ذلك إليه فيكون سبب الهلاك . وربما رأى الرجل من صديقه اخلاصاً وافياً فأشاع سره . وقد قيل :

احذر عدوك مرة　　　واحذر صديقك ألف مرة
فلربما انقلب الصديق　　　فكان أدرى بالمضرة

ورب مفش سرّه الى زوجة او صديق فيصير بذلك رهيناً عنده ولا يتجاسر أن يطلق الزوجة ، ولا ان يهجر الصديق ، مخافة ان يظهر سره القبيح . فالحازم من عامل الناس بالظاهر ، فلا يضيق صدره بسرّه . فان فارقته امرأة او صديق او خادم لم يقدر أحد منهم ان يقول فيه مايكره . ومن أعظم الأسرار الخلوات ، فليحذر الحازم فيها من الانبساط برأى من مخلوق . ومن خلق له عقل ثاقب دله على الصواب قبل الوصايا.

(١) ومن اقوالهم : اكتم ذهبك وذهابك ومذهبك .

١٨٦ - طريقة الحفظ

مارأيت أصعب على النفس من الحفظ للعلم والتكرار ، وخصوصاً تكرار ماليس لها في نفس تكراره وحفظه حظ ، مثل مسائل الفقه ، بخلاف الشعر والسجع ، فان لها لذة في في اعادته وان كان يصعب ، لأنها تلتذ به مرة ومرتين ، فاذا زاد التكرار صعب عليها ، ولكن دون صعوبة الفقه وغيره من المستحسنات عند الطبع فتراها تخلد الى الحديث والشعر والتصانيف والنسخ لانه يمر بها كل لحظة مالم تره ، فهو في المعنى كالماء الجاري ، لانه جزء بعد جزء ، وكذا من ينسخ مايحب ان يسمعه أو يصنف ، فانه يلتذ بالجدة ويستريح من تعب الاعادة ، إلا أنه ينبغي للعاقل ان يكون جل زمانه للاعادة ، خصوصاً الصبي والشاب ، فانه يستقر المحفوظ عندهما استقراراً لايزول ، ويجعل أوقات التعب من الاعادة للنسخ ، ويحذر من تفلتها الى النسخ عن الاعادة فيقهرها ، فانه يحمد ذلك حمد السُرَى وقت الصباح ، وسيندم من لم يحفظ ندم الكُسَعي [1] وقت الحاجة الى النظر والفتوى ، وفي الحفظ

---

(١) رجل من العرب يضرب به المثل في الندم ، وخبره مع قوسه في « مجمع الامثال » للميداني . وهو اجمع كتاب لامثال العرب ، وان كانت اكثر قصصه موضوعة لا أصل لها .

نكتة ينبغي ان تلحظ ، وهو ان الفقيه يحفظ الدرس ويعيده، ثم يتركه فينساه فيحتاج الى زمان آخر لحفظه ، فينبغي ان يحكم الحفظ ويكثر التكرار ليثبت قاعدة الحفظ .

١٨٧ ـ العزلة للعالم وللعابد

ما أعرف نفعاً كالعزلة عن الخلق خصوصاً للعالم والزاهد فانك لاتكاد ترى إلا شامتاً بنكبة أو حسوداً على نعمة ، ومن يأخذ عليك غلطاتك . فيالـلعزلة ما ألذّهـا . سلمت من كدر غيبة ، وآفات تصنّع ، وأحوال المداجاة ، وتضييع الوقت (١) . ثم خلا فيها القلب بالفكر ، لانه مستلذ عنه بالمخالطة فدبر أمر دنياه وآخرته . فمثله كمثل الحِمْيَة يخلو فيها المِعى بالاخلاط فيذيبها . وما رأيت مثل مايصنع المخالط ، لانه يرى حالته الحاضرة من لقاء الناس وكلامهم ، فيشتغل بها عما بين يديه . فمثله كمثل رجل يريد سفراً قد أزف ، فجالس أقواماً فشغلوه بالحديث حتى ضرب البوق (٢) ، وما تَزَوّد ، فلو لم يكن في العزلة إلا التفكر في زاد الرحيل والسلامة من شر المخالطة كفى .

ثم لاعزلة على الحقيقة إلا للعالم والزاهد ، فإنهما يعلمان

---

(١) قد اكثر المؤلف الكلام في العزلة ، والحق فيها ماقاله هو في كتابه «منهاج القاصدين» الذي اختصر فيه «الاحياء الغزالي» . (٢) اي للرحيل

مقصود العزلة ، وان كانا لا في عزلة . وأما العالم فعلمه مؤنسه ، وكتبه محدثه ، والنظر في سير السلف مقومه ، والتفكر في حوادث الزمان السابق فرجته . فان ترقى بعلمه الى مقام المعرفة الكاملة للخالق سبحانه وتشبث بأذيال محبته تضاعفت لذاته ، واشتغل بها عن الاكوان ومافيها . فخلا بحبيبه وعمل معه بمقتضى علمه .

وكذلك الزاهد تعبده أنيسه ، ومعبوده جليسه ، فان كشف لبصره عن المعمول معه غاب عن الخلق ، وغابوا عنه .

انما اعتزلا ما يؤذي فيها في الوحدة بين جماعة . فهذان رجلان قد سلما من شر الخلق ، وسلم الخلق من شرورهما ، بل هما قدوة للمتعبدين وعلَم السالكين . ينتفع بكلامهما السامع ، وتُجري موعظتها المدامع ، وتنتشر هيبتها في الجامع . فمن أراد أن يتشبه بأحدهما فليصابر الخلوة وان كرهها ليثمر له الصبر العسل . وأعوذ بالله من عالِم مخالط العالمَ ، خصوصاً لارباب المال والسلاطين يَجتلب ويُجتلب ويُختلب فما يحصل له شيء من الدنيا الا وقد ذهب من دينه أمثاله .

ثم أين الأنفة من الذل للفساق ؟ فالذي لايبالي بذلك هو الذي لايذوق طعم العلم ولايدري ماالمراد به ، وكأنه به

وقد وقع في في بادية جُرُزٍ[١] وقفر مهلك ، في تلك البراري وكذلك المتزهد اذا خالط وخلـّط ، فانه يخرج الى الرياء والتصنع والنفاق ، فيفوته الحظان ، لا الدنيا ونعيمها تحصل له ولا الآخرة .

فنسأل الله عز وجل خلوة حلوة . وعزلة عن الشر لـَذّة[٢] يستصلحنا فيها لمناجاته ، ويلهم كلا منا طلب نجاته . انه قريب مجيب .

١٨٨ ـ التزود للآخرة

ما أبلهَ من لايعلم متى يأتيه الموت ، وهو لايستعد للقائه . وأشد الناس بلهاً وتغفيلا من قد عبر الستين وقارب السبعين فان مابينهما هو معترك المنايا . ومن نازل المعترك استعد وهو غافل عن الاستعداد :

قال الشباب لعلنا في شيبنا　　ندع الذنوب فما يقول الاشيب

والله ان الضحك من الشيخ ماله معنى ، وان المزاح منه بارد المعنى ، وان تعرضه بالدنيا وقد دفعته عنها يضعف القوى ويضعف الرأي . وهل بقي لابن ستين منزل ؟ فان طمع في السبعين فانما يرتقى اليها بعناء شديد ، ان قام دفع الارض ، وان مشى لهث ، وان قعد تنفس . ويرى شهوات الدنيـــا

---

(١) اي مقفرة　　(٢) اي لذيذة

ولا يقدر على تناولها . فان أكل كد المعدة ، وصعّب الهضم وان وطيء آذى المرأة ، ووقع دَنِفاً لايقدر على ردماذهب من القوة الى مدة طويلة . فهو يعيش عيش الاسير . فان طمع في الثمانين فهو يزحف اليها زحف الصغير :

وعشر الثمانين من خاضها فان الملمات فيها فنون

فالعاقل من فهم مقادير الزمان . فانه فيما قيل : قبل البلوغ صبي ليس على عمره عيار ، الا ان يرزق فطنة فهم بعض الصبيان فطنة تحثهم من الصغر على اكتساب المكارم والعلوم . فاذا بلغ فليعلم أنه زمان المجاهدة للهوى وتعلم العلم . فاذا رزق الاولاد فهو زمان الكسب للمعاملة . فاذا بلغ الاربعين انتهى تمامه ، وقضى مناسك الاجل ، ولم يبق الا الانحدار الى الوطن :

كأن الفتى يرقى من العمر معلما الى ان يجوز الاربعين وينحطّا

فينبغي له عند تمام الاربعين أن يجعل جل همته التزود للآخرة . ويكون كل تلمحه لما بين يديه ، ويأخذ في الاستعداد للرحيل . وان كان الخطاب بهذا لابن عشرين ، الا أن رجاء التدارك في حق الصغير لا في حق الكبير . فاذا بلغ الستين فقد أعذر الله اليه في الاجل وجاز من الزمن ، فليقبل بكليته الى جمع زاده ، وتهيء آلات السفر ، وليعتقد كل يوم يحيا فيه لغنيمة

ماهي في الحساب . خصوصاً اذا قوي عليه الضعف وزاد ، فانه لاتحرك كهو[1] ، وكلما علت سنه فينبغي ان يزيد اجتهاده . فاذا دخل في عشر الثمانين فليس الا الوداع . ومابقي بمكة[2] . العمر تجارة الانفس . اسف على تفريط أو تعبّد على ضعف . نسأل الله عز وجل يقظة تامة تصرف عنا رقاد الغفلات ، وعملا صالحا نامن معه من الندم يوم الانتقال . والله الموفق .

١٨٩ - النهي عن علم الكلام

مانهي السلفُ عن الخوض في الكلام الا لامر عظيم ، وهو أن الانسان يريد ان ينظر مالا يقوى عليه بصره فربما تحير فخرج الى الحجب ، لأنا اذا نظرنا في ذات الخالق حار العقل وبهت الحس ، لانه[3] لايعرف شيئاً لابداية له ، لايعلم الا الجسم والجوهر والعرض ، فاثبات مايخرج عن ذاك لايفهمه ، وان نظرنا في افعاله رأيناه يحكم البناء ثم ينقضه ولانطلع على تلك الحكمة ، فالاولى للعاقل ان يكف كف التطلع الى مالايطيق النظر اليه ، ومتى قام العقل فنظر في دليل وجود

---

(١) هكذا بالاصل (٢) نقص في الكلام ، والتقدير ومابقي بمكة الا منقطع
(٣) الضمير يرجع الى الانسان

الخالق بمصنوعاته ، وأجاز بعثة نبي واستدل بمعجزاته ، فكفاه ذلك ان يتعرض لما قد اغني عنه ، ولهذا قال القرآن كلام الله تعالى بدليل قوله «حتى يسمع كلام الله» فكفاه . واما من تحذلق فقال : التلاوة هي المتلو أو غير المتلو ، والقراءة هي المقروء أو غير المقروء ، فيضيع الزمان في غير تحصيل ، والمقصود العمل بما فهم . وقد حكي ان ملكاً كتب الى عماله في البلدان اني قادم عليكم فاعملوا كذا وكذا ، ففعلوا الا واحداً منهم ، فانه قعد يتفكر في الكتاب فيقول : أترى كتبه بداد أو بحبر ؟ أترى كتبه قائماً أو قاعداً ؟ فما زال يتفكر حتى قدم الملك ولم يعمل مما امره به شيئاً ، فاحسن جوائز الكل وقتل هذا .

١٩٠ ـ لذة العلم اعظم اللذات

لقد غفل طلاب الدنيا عن اللذة فيها واللذة فيها شرف العلم ، وزهرة العفة ، وأنفة الحمية ، وعز القناعة ، وحلاوة الافضال على الخلق ، فأما الالتذاذ بالمطعم والمنكح فشغل جاهل باللذة ، لان ذاك لايراد لنفسه بل لاقامة العوض في البدن والولد .

وأي لذة في النكاح وهي قبل المباشرة لاتحصل ، وفي حال المباشرة قلق لايثبت ، وعند انقضائها كأن لم تكن ، ثم يثمر الضعف في البدن .

وأي لذة في جمع المال فضلا[١] عن الحاجة . فانه مستعبد الخازن ، يبيت حذراً عليه ، ويدعوه قليله الى كثيره .

وأي لذة في المطعم وعند الجوع يستوي خشنه وحسنه ، فان ازداد الاكل خاطر بنفسه . قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : بنيت الفتنة على ثلاث ، النساء وهن فخ ابليس المنصوب ، والشراب وهو سيفه المرهف ، والدينار والدرهم ، وهما سهماه المسمومان . فمن مال الى النساء لم يصف له عيش ، ومن أحب الشراب لم يمتع بعقله ، ومن أحب الدينار والدرهم كان عبداً لهما ماعاش .

١٩١ ـ الرد على المجسمة والفلاسفة

أصل كل محنة في العقائد قياس أمر الخالق على أحوال الخلق . فان الفلاسفة لما رأوا ايجاد شيء لامن شيء كالمستحيل في العادات قالوا بقدم العالم . ولما عظم عندهم في العادة الاحاطة بكل شيء قالوا : انه يعلم الجمل لاالتفاصيل . ولما رأوا تلف الابدان بالبلاء أنكروا اعادتها . وقالوا : الاعادة رجوع الارواح الى معادنها[٢] . وكل من قاس صفة الخالق على صفات المخلوقين خرج الى الكفر . فان المجسمة دخلوا في ذلك لانهم حملوا أوصافه

(١) الفضل الزيادة ، اي المال الزائد عن الحاجة

(٢) ومن هذا الباب قول لافوازيه : فيهذا الكون لايفنى شيء ولايجد شيء

على مايعقلون . وكذلك تدبيره عز وجل . فانْ مَنْ حَمَله على مايُعقل في العادات رأى ذبح الحيوان لايستحسن ، والامراض تستقبح ، وقسمة الغني الأبله ، والفقر الجلد العاقل أمراً ينافي الحكمة . وهذا في الاوضاع بين الخلق . فأمـا الخالق سبحانه فان العقل لاينتهي الى حكمته . بلى ، قد ثبت عنده وجوده وملكه وحكمته ، فتعرضه بالتفـاصيل على ماتجري به عادات الخلق جهل . ألا ترى الى أول المعترضين وهو ابليس كيف ناظر فقال : أنا خير منه ؟ وقول خليفته[1] وهو أبو العلاء المعري :

رأى منك مالايشتهى فتزندقا

ونسأل الله عز وجل توفيقاً للتسليم ، وتسليما للحكيم « ربنا لاتزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا ».

أترى نقدر على تعليل أفعاله فضلا عن مطالعة ذاته ؟ وكيف نقيس أمره على احوالنا ؟ فـاذا رأينا نبينا ﷺ يسأل في أمه وعمه فلايقبل منه ، ويتقلب جائعاً والدنيا ملك يده ، ويقتل أصحابه والنصر بيد خالقه ، أوليس هذا مما يحير ؟.

فمالنا والاعتراض على مالك قد ثبتت حكمته واستقر ملكه .

١٩٢ ـ معالي الامور تحتاج الى تعب

تأملت عجباً ، وهو أن كل شيء نفيس خطير يطول طريقه

(١) فتن الناس بلزومياته وفيها الكفر الصريح الذي لايؤول .

ويكثر التعب في تحصيله . فان العلم لما كان أشرف الاشياء لم يحصل الا بالتعب والسهر والتكرار وهجر اللذات والراحة . حتى قال بعض الفقهاء : بقيت سنين أشتهي الهريسة لا أقدر ، لأن وقت بيعها وقت سماع الدرس .

ونحو هذا تحصيل المال ، فانه يحتاج الى المخاطرات والاسفار والتعب الكثير . وكذلك نيل الشرف بالكرم والجود ، فانه يفتقر الى جهاد النفس في بذل المحبوب ، وربما آل الى الفقر . وكذلك الشجاعة ، فانها لاتحصل الابالمخاطرة بالنفس. قال الشاعر[١] :

لولا المشقة ساد الناس كلهم ... الجود يفقر والاقدام قتال

ومن هذا الفن تحصيل الثواب في الآخرة ، فانه يزيد على قدر قوة الاجتهاد والتعبد ، أو على قدر وقع المبذول من المال في النفس ، أو على قدر الصبر على فقد المحبوب ومنع النفس من الجزع . وكذلك الزهد يحتاج الى صبر عن الهوى . والعفاف لايكون الا بكف كف الشره . ولولا ماعانى يوسف عليه السلام ماقيل له أيها الصديق .

ولله أقوام مارضوا من الفضائل الا بتحصيل جميعها ، فهم يبالغون في كل علم ويجتهدون في كل عمل ، ويثابرون على كل فضيلة . فاذا ضعفت أبدانهم عن بعض ذلك قامت النيات نائبة وهم لها سابقون . وأكمل احوالهم إعراضهم عن اعمالهم . فهم

(١) المتنبي وفي شعره ضلالات وان لم يبلغ فيها مبلغ شيخ المعرة ولا الشاعر الكافر ابن هانيء .

يحتقرونها مع التمام ، ويعتذرون من التقصير . ومنهم من يزيد على هذا فيتشاغل بالشكر على التوفيق لذلك ، ومنهم من لايرى ماعمل أصلا[١] لانه يرى نفسه وعمله لسيده .

وبالعكس من المذكور من ارباب الاجتهاد ، حال أهل الكسل والشره والشهوات ، فلئن التذوا بعاجل الراحة لقد أوجبت مايزيد على كل تعب من الاسف والحسرة . ومن تلمح صبر يوسف عليه السلام وعجلة (ماعِزٍ)[٢] بان له الفرق ، وفهم الربح من الخسران .

ولقد تأملت نيل الدر من البحر فرأيته بعد معاناة الشدائد .

ومن تفكر فيما ذكرته مثلا بانت له أمثال ، فالموفق من تلمح قصر الموسم المعمول فيه ، وامتداد زمان الجزاء الذي لاآخر له انتهب حتى اللحظة ، وزاحم كل فضيلة ، فانها اذا فاتت فلا وجه لاستدراكها . أو ليس في الحديث يقال للرجل : « اقرأ وارْقَ فمنزلك عند آخر آية تقرؤها » . فلو ان الفكر عمل في هذا حق العمل حفظ القرآن عاجلًا .

١٩٣ - كمال الايمان

ليس المؤمن بالذي يؤدي فرائض العبادات صورة ، ويتجنب المحظورات فحسب . انما المؤمن هو الكامل الايمان ولايختلج في

(١) اي لايرى عمله ابدا

(٢) حديثه مشهور

قلبه اعتراض ، ولا يساكن فيما يجري وسوسة . وكلما اشتد البلاء عليه زاد ايمانه ، وقوى تسليمه . وقد يدعو فلا يرى للاجابة أثراً ، وسره لا يتغير لانه يعلم انه مملوك وله مالك يتصرف بمقتضى ارادته ، فان اختلج في قلبه اعتراض خرج من مقام العبودية الى مقام المناظرة ، كما جرى لابليس . والايمان القوي يبين أثره عند قوة البلاء ، فأما اذا رأينا مثل يحيى بن زكريا تسلط عليه فاجر فيأمر بذبحه فيذبح . وربما اختلج في الطبع أن يقول فهلاّ رد عنه من جعله نبياً ؟

وكذلك كل تسلط من الكفار على الانبيـــاء والمؤمنينَ وما وقع رد عنهم . فان هجس بالفكر أن القدرة تعجز عن الرد عنهم كان كفراً . وان علم أن القدرة متمكنة من الرد وما ردت ، ويجوّع المؤمنين ويشبْع الكفار ، ويعافى العصاة ويُمرض المتقين ، لم يبق الا التسليم للمالك وان أمض وأرمض وقد ذهب يوسف بن يعقوب عليهما السلام فبكى يعقوب ثمانين سنة ثم لم ييأس ، فقال : « عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً »

وقد دعا موسى عليه السلام على فرعون ، فأجيب بعد اربعين سنة .

وكان يذبح الانبياء ولا ترده القدرة القديمـــة العظيمة . وصلب السحرة ، وقطع أيديهم .

وكم من بلية نزلت بمعظم القدر ، فما زاده ذلك الا تسليما ورضى فهناك يبين معنى قوله « ورضوا عنه » ، وههنا يظهر قدر قوة الايمان لا في ركعات ، قال الحسن البصري : استوى الناس في العافية فاذا نزل البلاء تباينوا .

١٩٤ ـ الرد على علماء الكلام

أضر ما على العوام المتكلمون . فانهم يخبطون عقائدهم بما يسمعونه منهم .

من اقبح الاشياء أن يحضر العامي الذي لايعرف أركان الصلاة ولا الربا في البيع ، مجلس الوعظ فلا ينهاه عن التواني في الصلاة ، ولايعلمه الخلاص من الربا ، بل يقول له القرآن قائم بالذات ، والذي عندنا مخلوق ، فيهون القرآن عند ذلك العامي ، فيحلف به على الكذب .

ويح المتكلم لو كان له فهم لعلم أن الله سبحانه وتعالى نصب أعلاما تأنس بها النفوس وتطمئن اليها كالكعبة وسماها بيته ، والعرش وذكر استواءه عليه ، وذكر من صفاته اليد والسمع والبصر والعين ، وينزل الى السماء الدنيا[1] ، ويضحك

(١) النزول وامثاله من كون الله في السماء انما جاءت به احاديث آحاد. واحاديث الآحاد لاتفيد العلم ولكن يعمل بها بغلبة الظن .

وكل هذا لتأنس النفوس بالعادات . وقد جل عما تضمنته هذه الصفات من الجوارح .

وكذلك عظم أمر القرآن ، ونهى المحدث أن يمس المصحف فآل الامر بقوم من المتكلمين الى أن أجازوا الاستنجاء به ، فهؤلاء على معاندة الشريعة ، لانهم يهينون ما عظم الشرع . وهل الايغال في الكلام مما يقرب الى معرفة الحقائق التي لايمكن خلافها ! هيهات . لو كان كذلك ما وقع بين المتكلمين خلاف أو ليس الشرب الأول ما تكلموا في شيء من هذا ، وان كانوا تعرضوا ببعض الاصول ؟ ثم جاء فقهاء الامصار فنهوا عن الخوض في الكلام ، لعلمهم ما يجلب وما يجتنب ومن لم يقنع بعقيـــدة مثل الصحابة ولا بطريق مثل طريق أحمد والشافعي في ترك الخوض فلا كان . من كان [1] !

ثم بالله تأملوا ، أليس قد وجب علينـــا هجر الربا بقوله تعالى : « لا تأكلوا الربا » ! وهجر الزنا بقوله : « ولاتقربوا الزنا » فأي فائدة لنا في ذكر قراءة ومقروء ، وتلاوة ومتلو وقديم ومحدث [2] . فان قيل : فلا بد من اعتقاد ، قلنا : طريق السلف أوضح محجة ، لانا لانقوله تقليداً ، بل بالدليل ولكنا لم نستفـده عن جوهر وعرض وجزء لايتجزء ، بل

---

(١) اي كائناً من كان

(٢) وان العلو حقيقي او مجازي واليد هي القدرة اوهي على ظاهرها .

بأدلة النقل مع مساعدة العقل من غير بحث عما لا يحتاج اليه وليس هذا مكان الشرح .

١٩٥ - لاينبغي الحزن للموت

مازلت على عادة الخلق في الحزن على من يموت من الاهل والاولاد ، ولا اتخايل الا بلى الابدان في القبور فاحزن لذلك.

فمرت بي احاديث قد كانت تمر بي ولا أتفكر فيها ، منها قول النبي ﷺ : انما نفس المؤمن طائر تعلق في شجر الجنة حتى يرده الله عز وجل الى جسده يوم يبعثه . فرأيت أن الرحيل الى الراحة ، وان هــذا البدن ليس بشيء . لانه مَرْكب تفكك وفسد ، وسيبنى جديداً يوم البعث ، فلاينبغي أن يتفكر في بلاه . ولتسكن النفس الى أن الارواح انتقلت الى راحة فلا يبقى كبير حزن ، وان اللقاء للاحباب عن قرب.

وانما يبقى الاسف لتعلق الخلق بالصور ، فلا يرى الانسان الا جسداً مستحسناً قد نقض فيحزن لنقضه . والجسد ليس هو الآدمي ، انما هو مركبه ، فالارواح لاينالها البلى . والابدان ليست بشيء .

واعتبر هذا بما اذا قلعت ضرسك فرميته في حفرة ، فهل

عندك خبر مما يلقى في مدة حياتك ؟ فحكم الابدان حكم ذلك الضرس ، لاتدري النفس مايلقى . ولا ينبغي ان تغتم بتمزيق جسد المحبوب وبلاه ، واذكر تنعّم الارواح ، وقرب التجديد وعجل اللقاء والفكر في تحقيق هذا يَهُن الحزن ويسهل الامر .

١٩٦ ـ احفظ لسانك ومذهبك

ينبغي العاقل ان لايتكلم في الخلوة عن أحد بشيء حتى يمثل ذلك الشيء ظاهراً معلناً به ثم ينظر فيما يجني . فرب رجل وثق بصديق فتكلم عن سلطان بأمر فبلغه فأهلكه ، او عن صديق فبلغه فوقعت الواقعة . وكذلك ينبغي كتم المذاهب ، فانه مايربح مُظهِرها إلا المعاداة . ولما صرح الشريف ابو جعفر في زمان المقتدي بمخالفة الاشاعرة أخذ وحبس حتى مات ، وكان المقصود قطع الفتن واصلاح الرعية ، فإنه أهم الى السلطان من التعصب لمذهب .

١٩٧ ـ حكمة الاقدار

رأيت كثيراً من المتغفلين يظهر عليهم السخط بالاقدار ، وفيهم من قل إيمانه ، فأخذ يعترض ، وفيهم من خرج الى

الكفر ، ورأى ان مايجـــري كالعبث ، وقال : مافائدة الاعدام بعد الايجاد ، والابتلاء بمن هو غني عن أذانا ؟

فقلت لبعض من كان يرمز الى هـذا : ان حضر عقلك وقلبك حدثتك ، وان كنت تتكلم بمجرد واقعك من غير نظر وانصاف فالحديث معك ضائع . ويحك ، أحضر عقلك ، واسمع ما أقول :

أليس قد ثبت ان الحق سبحـانه مالك ، وللمالك ان يتصرف كيف يشاء ؟ أليس قد ثبت أنه حكيم والحكيم لايعبث ؟ وأنا أعلم ان في نفسك من هذه الكلمـة شيئاً فإنه قد سمعنا عن جالينوس انه قال : ما أدري ؟ أحكيم هو أم لا ؟

والسبب في قوله هـــذا ، أنه رأى نقضاً بعد إحكام ، فقـاس الحال على أحوال الخلق ، وهو أن من بنى ثم نقض لالمعنى فليس بحكيم .

وجوابه لو كان حاضراً أن يقال : بماذا بان لك ان النقض ليس بحكمة ؟ أليس بعقلك الذي وهبه الصانع لك ؟ وكيف يهب لك الذهن الكامل ويفوته هو الكمال [١] ؟ وهذه المحنة التي جرت لابليس ، فانه أخذ يعيب الحكمة بعقله ، فلو تفكر علم ان واهب العقل أعلى من العقل ، وان حكمته أوفى من كل حكيم ، لأنه بحكمته التامة أنشأ العقول .

(١) هذا جواب عظيم . رحمة الله على المؤلف

فهذا اذا تأمله المنصف زال عنه الشك . وقد أشار سبحانه الي نحو هذا في قوله تعالى (ألهُ البنات ولكم البنون ؟) أي جعل لنفسه الناقصات وأعطاكم الكاملين ؟

فلم يبق إلا ان نضيف العجز عن فهم مايجري الى أنفسنا. ونقول : هذا فعل عالم حكيم ، ولكن مايبين لنا معناه ، وليس هذا بعجب ، فان موسى عليه السلام خفي عليه وجه الحكمة في نقض السفينة الصحيحة ، وقتل الغلام الجميل . فلما بين له الخضر وجه الحكمة اذعن . فلنكن مع الخالق كموسى مع الخضر .

أو لسنا نرى المائدة المستحسنة بما عليها من فنون الطعام النظيف الظريف يُقطع ويمضغ . ولسنا نملك تلك الافعال ولاننكر الافساد له ، لعلمنا بالمصلحة الباطنة فيه ، فما المانع أن يكون فعل الحق سبحانه له باطن لانعلمه ؟ ومن أجهل الجهال العبد المملوك اذا طلب ان يطلع على سر مولاه ، فان فرضه التسليم لا الاعتراض. ولو لم يكن في الابتلاء بما تتكره الطباع الا أن يُقصد إذعان العقل وتسليمه لكفى .

ولقد تأملت حالة عجيبة ، يجوز أن يكون المقصود بالموت هي ان الخالق سبحانه في غيبٍ لايدركه الاحساس . فلو انه لم ينقض هذه البنية لتخايل للانسان أنه صُنع لابصانع . فاذا

وقع الموت عرفت النفس نفسها التي كانت لاتعرفها لكونها في الجسد وتدرك عجائب الامور بعد رحيلها . فـاذا رُدت الى البدن عرفت ضرورة أنها مخلوقة لمن أعادها ، وتذكرت حالها في الدنيا . فان الافكار تعاد كما تعاد الابدان . فيقول قائلهم : « انا كنا قبل في أهلنا مشفقين »

ومتى رأت مـاقد وُعدت به من امور الآخرة ، أيقنت يقيناً لاشك معه . ولايحصل هذا باعادة ميت سواها ، وانمـا يحصل برؤية هذا الامر فيها فيبنى بنية تقبل البقاء وتسكن جنة لاينقضي دوامها ، فيصلح بذلك اليقين أن تجاور الحق ، لانها آمنت بما وعد ، وصبرت بما ابتلى ، وسلمت لأقداره ، فلم تعترض ، ورأت في غيرها العبر ، ثم في نفسها . فهذه هي التي يقال لها : « ارجعي الى ربك راضية مَرضيّة فادخلي في عبـادي وادخلي جنتي » فأما الشاكّ والـكافر فيحق لهما الدخول الى النار واللبث فيها ، لأنهما رأيا الادلة ولم يستفيدا ونازعا الحكيم واعترضا عليه ، فعاد شؤم كفرهما يطمس قلوبهما ، فبقيت على ما كانت عليه ، فلما لم تنتفع بالدليل في الدنيا لم تنتفع بالموت والاعادة . ودليل بقاء الخبث في القلوب قوله تعالى « ولو رُدّوا لعادوا لمـا نهوا عنه » فنسأل الله عز وجل عقلا مسلّما يقف على حـــده ،

ولايعترض على خـالقه وموجده . ثم الويل للمعترض ، أيُرد اعتراضُه الاقدار ؟ فما يستفيد إلا الخزي ؟ نعوذ بالله من خذل .

١٩٨ ـ الصبر على المرض والموت

لاينبغي للمؤمن ان يتزعج من مرض أو نزول موت ، وان كان الطبع لايملك . الا أنه ينبغي له التصبر مهما أمكن ، إما لطلب الاجر بما يعاني ، أو لبيان أثر الرضى بالقضاء ، وماهي الا لحظات ثم تنقضي . وليتفكر المُعافي من المرض في الساعات التي كان يقلق فيهـا أين هي في زمان العافية ؟ ذهب البلاء وحصل الثواب ، كما تذهب حلاوة اللذات المحرمة ويبقى الوزر . ويمضي زمان التسخط بالاقدار ، ويبقى العتـاب . وهل الموت إلا آلام تزيد فتعجز النفس عن حملهـا فتذهب ؟ فليتصور المريض وجود الراحة بعد رحيل النفس ، وقد هان مايلقى ، كما يتصور العافية بعد شرب الشربة المرة . ولاينبغي ان يقع جزع بذكر البِلى ، فان ذلك شأن المركب[1] ، أما الراكب ففي الجنة أو في النار . وإنما ينبغي أن يقع الاهتمام الكلي بما يزيد في درجات الفضائل قبل نزول المعوّق عنها . فالسعيد من

---

(١) يعني الجسد

وُفق لاغتنام العافية ، ثم يختار تحصيل الافضل فالافضل في زمن الاغتنام . وليعلم ان زيادة المنازل في الجنة على قدر التزيد من الفضائل ههنا . والعمر قصير ، والفضائل كثيرة ، فليبالغ في البِدار . فياطول راحة التعب ، ويافرحة المغموم ، وياسرور المحزون . ومتى تخايل دوام اللذة في الجنة من غـــير منغص ولا قاطع ، هان عليه كل بلاء وشدة .

١٩٩ ـ ينبغي التلطف بالبدن بنوع غفلة عن الموت

حضرنا يوماً جنازة شاب مات أحسن ما كانت الدنيـا له ، فرأيت مِن ذم الناس الدنيا ، وعيب من سكن اليها ، والتقبيح للغافلين عن الاستعداد لهذا المصرع أمراً كبيراً من الحاضرين . فقلت : نعم ماقلتم . ولكن اسمعوا مني مالم تـسمعوه . أعجب الاشياء أن العاقل اذا علم قرب هذا المصرع منه أوجب عليه عقله البِدار بالعمل والقلق من الخوف . وقـــد اشتد ذلك بأقوام فهاموا في البراري ، وطووا الايام بالجـاعة ، وداموا على سهر الليل ، ولازموا المقابر ، فهلكوا سريعاً . ولعمري إنه ما خافوه يستحق أكثر من هذا الفعل . ولكن نرى العقل الذي أوجب هذا القلق قد أمر بما يوجب السكون ، فقال : إنما خلق هذا البدن ليحمل النفس كما تحمل الناقة الراكب ،

ولا بد من التلطف بالناقة ليحصل المقصود من السير ، ولا يحسن في العقل دوام السهر وطول القلق ، لأنه يؤثر في البدن فيفوت أكثر المقصود . كيف وقد خلق بدن الآدمي خلقاً لطيفاً ، فاذا هجر الدسم نشف الدماغ ، واذا دام على السهر قوي اليبس ، واذا لازم الحزن مرض القلب .

فلا بد من التلطف بالبدن بتناول مايصلحه ، وبالقلب بما يدفع الحزن المؤذي له . وإلا فمتى دام المؤذي عجل التلف . ثم يأتي الشرع بما قد قاله العقل . فيقول : ان لنفسك عليك حقاً . وان لزوجك عليك حقاً . فصم وأفطر ، وقم ونم . ويقول : كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت ، ويحث على النكاح .

ودوام القلق واليبس يترك الزوجة كالارملة ، والولد كاليتيم . ولا وجه للتشاغل بالعلم مع هذا القلق ، ومن أراد مصداق ماقلته فليتأمل حالة الرسول ﷺ ، فانه كان يعدّل ماعنده من الخوف فيمازح ، ويسابق عائشة ، ويكثر من التزوج . وكان يتلطف ببدنه ، فيختار الماء البائت[1] ، ويحب الحلوى واللحم . ولولا مساكنة نوع غفلة لما صنف العلماء ، ولا حُفظ العلم ، ولا كُتب الحديث . لان من يقول : ربما مت اليوم ، كيف يكتب ؟ وكيف يسمع ويصنف ؟

(١) لانه يصفو بترسب ماقد يكون فيه من المكر

فلا يهولنكم ما ترون من غفلة الناس عن ذكر الموت حق ذكره ، فإنها نعمة من الله سبحانه بها تقوم الدنيا ، ويصلح الدين . وانما تذم قوة الغفلة الموجبة للتفريط والاهمال للمحاسبة النفس ، وتضييع الزمان في غير التزود ، وربما قويت فحملت على المعاصي . فأما اذا كانت بقدر ، كانت كالملح في الطعام لابد منه ، فإن كثر صار الطعام زعافاً . فالغفلة تمدح اذا كانت بقدرٍ كما بينا . ومتى زادت وقع الذم . فافهم ماقلته . ولا تقل فلان شديد اليقظة ما ينام الليل ، وفلان غافل ينام أكثر الليل ، فإن غفلة توجب مصلحة البدن والقلب لاتذم والسلام .

٢٠٠ ـ الزهد الحقيقي ، وحقيقة العزلة

ما يكاد يحب الاجتماع بالناس الافارغ ، لأن المشغول القلب بالحق يفر من الخلق . ومتى تمكن فراغ القلب من معرفة الحق امتلأ بالخلق ، فصار يعمل لهم ومن أجلهم ويهلك بالرياء ولا يعلم . وإني لأتأمل بعض من يتزيا بالفقر والتصوف وهو يلبس ثياباً لاتساوي ديناراً ، وعنده المال الكثير ، وقد أمرع نفسه بالمطاعم الشهية ، وهو عامل بمقتضى الكبر والتصدر ، فيتقرب الى أرباب الدنيا ، ويستزري أرباب العلم ، ويزور أولئك دونهم . وإنما يَرُد مايعطَى ليشيع له اسم زاهد ،

فتراه يربي الناموس وهو في احتياله كثعلب ، وفي نهوضه على أغراضه في الباطن كلب شرى . فأقول : سبحان الله ، مايزْهد إلا الثياب ! أترى ماسمع هذا قول النبي ﷺ : ان الله يحب أن يَرى أثرَ نعمته على عبده ؟ وأعوذ بالله من رؤية النفس، ورؤية الخلق، فإن من رأى نفسه تكبر، والمتكبر أحمق، لأنه مامن شيء يتكبر به إلا ولغيره أكثر منه ، ومن رأى الخلق عبدهم وهو لايعلم . فأما العامل لله سبحانه وتعالى فهو بعيد من الخلق، فان تقربوا اليه ستر حاله بما يوجب بعدهم عنه . وقد رأينا من يرائي ولايدري فيمتنع من المشي في السوق ، ومن زيارة الاخوان ، ومن أن يشتري شيئاً بنفسه ، وتوهمه نفسه أني أكره مخالطة السُّوقة . وانما هذا يربي جاهاً بين العلماء . اذ لو خالطهم لامتُحِيَ جاهه ، وبطل تقبيل يده . وقد كان بشر الحافي يجلس في مجلس عند العطار . وابلغ من هذا كله أن نبينا ﷺ كان يشتري حاجته ويحملها . وخرج علي بن ابي طالب رضي الله عنه وهو أمير المؤمنين الى السوق فاشترى ثوباً . وقد كان طلحة بن مطرِف قارىء أهل الكوفة ، فلما كثر الناس عليه مشى الى الأعمش فقرأ عليه ، فمال الناس الى الاعمش وتركوا طلحة .

هذا والله الكبريت الاحمر ، والاكسير ، لامايظن اكسيرا في الكيمياء . والمعاملة مع الله تعالى هكذا تكون . فأما ضد هذه الحال فحالة عابد الخلق ملبس[1] وقد عم هذا جمهور الخلق حاشا السلف .

أفدي ظباء فلاة ما عرفن بها مضغَ الكلام ولا صبغَ الحواجيب

٢٠١ ـ بعض المعاصي اقبح من بعض

كل المعاصي قبيحة ، وبعضها أقبح من بعض ، فان الزنا من أقبح الذنوب ، فانه يفسد الفرش ويغير الانساب ، وهو بالجارة أقبح ، فقد روي في الصحيحين من حديث ابن مسعود قال : قلت يارسول الله أي ذنب أعظم ؟

قال : أن تجعل الله نداً وهو خلقك .

قلت : ثم أيّ ؟

قال : أن تقتل ولدك من أجل أن يَطعمَ معك .

قلت : ثم أي ؟ قال : أن تزانيَ حليلة جارك .

وقد روى البخاري في تاريخه من حديث المقداد بن الاسود عن النبي ﷺ أنه قال : لأن يزنيَ الرجل بعشرة نسوة أيسر

---

(١) في بعض المخطوطات متدّس ومتمسّ وملبّس بمعنى واحد

من أن يزنيَ بامرأة جاره . ولأن يسرق من عشرة أبيات أيسر عليه من أن يسرق من بيت جاره. وانما كان هذا ، لانه يضم الى معصية الله عز وجل انتهاك حق الجار .

ومن أقبح الذنوب أن يزنيَ الشيخ ، ففي الحديث : ان الله يبغض الشيخ الزاني . لان شهوة الطبع قد ماتت ، وليس فيها قوة تغلب ، فهو يحركها ويبالغ ، فكانت معصيته عنادا.

ومن المعاصي التي تشبه المعاندة لبس الرجل الحرير والذهب، خصوصاً خاتم الذهب الذي يتحلى به الشيخ [1] وانه من أبرد الافعال وأقبح الخطايا .

ومن هذا الفن الرياء والتخاشع واظهار التزهد للخلق ، فانه كالعبادة لهم مع اهمال جانب الحق عز وجل . وكذلك المعاملة بالربا الصريح ، خصوصاً من الغني الكثير المال .

ومن أقبح الاشياء أن يطول المرض بالشيخ الكبير ولايتوب من ذنب ، ولايعتذر من زلة ، ولايقضي ديناً ، ولايوصي باخراج حق عليه .

ومن قبائح الذنوب أن يتوب السارق والظالم ولايرد المظالم . والمفرّط في الزكاة أو في الصلاة ولايقضي .

---

(١) ومما عمت به البلوى خاتم الزواج يتخذه الرجال من الذهب ، يخالفون فيه حكم الدين ، ليوافقوا الغربيين ؛ وان كان ابن تيمية يلطف الامر في رسالته (القياس في الشرع الاسلامي)

ومن أقبحها أن يحنث في يمين طلاقه ثم يقيم مع المرأة .
وقس على ما ذكرته ، فالمعاصي كثيرة ، وأقبحها لايخفى .

وهذه المستقبحات فضلا عن القبائح تشبه العناد للآمر . فيستحق صاحبها اللعن ودوام العقوبة . واني لأرى شرب الخمر في ذلك الجنس ، لأنها ليست مشتهاة لذاتها ولالريحها ولا لطعمها فيما يذكر ، انما لذتها فيما يقال بعد تجرع مرارتها ، فالاقدام علىَ ما لايدعو اليه الطبع الى أن يصل التناول الى اللذة معاندة .

نسأل الله عز وجل ايمانا يحجز بيننا وبين مخالفته . وتوفيقاً لما يرضيه . فانما نحن به وله .

٢٠٢ ـ من ظنّ أنه خير من غيره فقد تكبر

اعتبرت على اكثر العلماء والزهاد [١] أنهم يبطنون الكبر فهذا ينظر في موضعه وارتفاع غيره عليه ، وهذا لايعود مريضاً فقيراً يرى نفسه خيراً منه . حتى أني رأيت جماعة يوماً اليهم، منهم من يقول لا أدفن الا في دكة أحمد بن حنبل ، ويعلم أن في ذلك كسر عظام الموتى ، ثم يرى نفسه أهلا لذلك التصدر . ومنهم من يقول : ادفنوني الى جانب مسجدي ظنا منه انه يصير بعد موته مزوراً كمعروف الكرخي .

---

(١) قوله (اعتبر عليه)لاتعرفهالعربية الابتأويل

وهذه خلة مهلكة ولايعلمون . قال النبي ﷺ : من ظن أنه خير من غيره فقد تكبر . وقلّ من رأيت الا وهو يرى نفسه[١] .

والعجب كل العجب ممن يرى نفسه ، أتراه بماذا رآها ؟ ان كان بالعلم فقد سبقه العلماء ، وان كان بالتعبد فقد سبقه العبّاد ، أو بالمال فان المال لايوجب بنفسه فضيلة دينية . فان قال : قد عرفت مالم يعرف غيري من العلم في زمني ، فما عليّ ممن تقدم .

قيل له : مانأمرك ياحافظ القرآن أن ترى نفسك في الحفظ كمن يحفظ النصف ، ولا يافقيه أن ترى نفسك في العلم كالعامي ، انما نحذر عليك ان ترى نفسك خيراً من ذلك الشخص المؤمن وان قل علمه ، فان الخيرية بالمعاني لا بصورة العلم والعبادة.

ومن تلمح خصال نفسه وذنوبها علم انه على يقين من الذنوب والتقصير ، وهو من حال غيره على شك . فالذي يُحذر منه الاعجاب بالنفس ، ورؤية التقدم في أحوال الآخرة . والمؤمن لايزال يحتقر نفسه . وقد قيل لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه : ان مت ندفنك في حجرة رسول الله ﷺ ، فقال : لأن ألقى الله بكل ذنب غير الشرك أحب اليّ من أن أرى نفسي أهلا لذلك .

---

(١) لايزال هذا التعبير مستعملا بمعنى (تكبر) عند عوام الشام .

وقد روينا : أن رجلا من الرهبان رأى في المنـام قائلا يقول له : فلان الاسكافي خير منك ، فنزل من صومعته فجاء اليه فسأله عن عمله فلم يذكر كبير عمل .

فقيل في المنام : عد اليه وقل له ، ممّ صفرة وجهك ؟

فعاد فسأله فقال : مارأيت مسلماً إلا وظننته خيراً مني

فقيل له : فبذاك ارتفع .

٢٠٣ ـ اصبر على غضب زوجتك وولدك وصديقك

متى رأيت صاحبك قد غضب وأخذ يتكلم بما لايصلح ، فلا ينبغي أن تعقد على مايقوله خنصراً[1] ، ولا ان تؤاخذه به ، فان حاله حال السكران ، لايدري مايجري ، بل اصبر لفورته ، ولاتعول عليها ، فان الشيطان قد غلبه ، والطبع قد هاج ، والعقل قد استتر ، ومتى أخذت في نفسك عليه ، أو أجبته بمقتضى فعله كنت كعاقل واجه مجنوناً ، أو كمفيق عاتب مغمىً عليه ، فالذنب لك . بل انظر اليه بعين الرحمة ، وتلمح تصريف القدر له ، وتفرج في لعب الطبع به . واعلم أنه اذا انتبه ندم على ما جرى ، وعرف لك فضل الصبر . وأقل الاقسام ان تسلمه فيما يفعل في غضبه الى مايستريح به .

وهذه الحالة ينبغي أن يتلمحها الولد عند غضب الوالد ،

(١) اي لاتعده ولاتلتفت اليه .

والزوجة عند غضب الزوج ، فتتركه يشتفي بما يقول ، ولاتعول ذلك ، فسيعود نادماً معتذراً ، ومتى قوبل على حالته ومقالته صارت العداوة متمكنة ، وجازى في الافاقة على مافُعل في حقه وقت السكر . واكثر الناس على غيرهذا الطريق ، متى رأوا غضبان قابلوه بما يقول . ويعمل على مقتضى الحكمة ، هذا[١] . بل الحكمة ماذكرته . وما يعقلها الا العالمون .

٢٠٤ ـ اذا آذيت شخصاً فلا تثق بمودته

ليس في الدنيا أبله ممن يسيء الى شخص ويعلم انه قد بلغ الى قلبه بالاذى ثم يصطلحان في الظاهر ، فيعلم ان ذلك الاثر مُحِيَ بالصلح . وخصوصاً الملوك ، فان لذتهم الكبرى أن لايرتفع عليهم أحد ولاينكسر لهم غرض . فاذا جرى شيء من ذلك لم ينجبر .

واعتبر هذا بأبي مسلم الخرساني ، فأنه غض من قدر المنصور قبل ولايته فحصل ذلك في نفسه فقتله . ومن نظر في التواريخ رأى جماعة قد جرى لهم مثل هذا . ولاينبغي لمن أساء الى ذي

---

(١) في الجملة شيء لعله من تحريف النساخ .

سلطان أن يقع في يده ، فـانه اذا رام التخلص لم يقدر . فيبقى ندمه على ترك احترازه ، وحسرته على مساكنة الضمان للسلامة أشد عليه من كل مايلقى به من الهوان والاذى .

ومن هذا الجنس الاصدقاء المتماثلون . فانك متى آذيت شخصاً وبلغ الى قلبه أذاك فلا تثق بمودته ، فان أذاك نصب عينه ، فان لم يحتل عليك لم يَصْفُ لك . ولا تخالط إلا من أنعمت عليه فهو لم ير منك شيئاً فيكون في نفسه ، وكذلك الولد والزوجة والمعاملون . ويلحق بهذا أن أقول ، لاينبغي أن تعادي أحداً ولاتتكلم في حقه ، فربمـــا صارت له دولة فاشتفى ، وربما احتيج اليه فلم يُقدر عليه . فالعاقل يصور في نفسه كل ممكن ويستر مافي قلبه من البغض والود ، ويدارى مع الغيظ والحقد . هذه مشاور العقل ان قبلت .

٢٠٥ ـ العاقل من استعد لما يجوز وقوعه

كل من لايتلمح العواقب ويستعد لمـا يجوز وقوعه فليس بكامل العقل . واعتبر هذا في جميـع الاحوال . مثل أن يغتر بشبابه ويدوم على المعاصي ويسوف بالتوبة ، فربما أخذ بغتة ولم يبلـغ بعض ماأمل . وكذلك إذا سوّف بالعمل أو بحفظ العلم ، فان الزمان ينقضي بالتسويف ويفوت المقصود ،

وربما عزم على فعل خير أو وقف شيء من ماله فسوّف فبُغت .

فالعاقل من أخذ بالحزم في تصوير مايجوز وقوعه وعمل بمقتضى ذلك ، فان امتد الاجل لم يضره ، وان وقع المخوف كان محترزاً . ومما يتعلق بالدنيا أن يميل مع السلطان ويسيء الى بعض حواشيه ثقة بقربه منه ، فربما تغير ذلك السلطان فارتفع عدوه فانتقم منه . وقد يعادي بعض الاصدقاء ولايبالي به لانه دونه في الحالة الحاضرة ، فربمــا صعدت مرتبة ذلك فاستوفى ماأسلفه اليه من القبيح وزاد .

فالعاقل من نظر فيما يجوز وقوعه ولم يعاد أحداً ، فان كان بينهما ما يوجب المعاداة كتم ذلك ، فان صح له ان يثب على عدوه فينتقم منه انتقاماً يبيحه الشرع جاز ، على ان العفو أصلح في باب العيش . ولهذا ينبغي ان يخدم البطال[1] ، فانه ربما عمل[2] فعرف ذلك لمن خَدَم . وقس على أنموذج ماذكرته من جميع الاحوال .

٢٠٦ ـ النهي عن مخالطة السلاطين

بقدر صعود الانسان في الدنيا تنزل مرتبته في الآخرة[3] .

---

(١) اي العاطل من المنصب (٢) اي ولي ولاية : صار عاملا

(٣) احيانا لادائماً . فقد أوتي سليمان ملكا لاينبغي لاحد من بعده ، وكان الخلفاء الاربعة ملوك الدنيا ، والغني الشاكر كالفقير الصابر ، وقد ذهب اهل الدثور بالاجور

وقد صرح بهذا ابن عمر رضي الله عنهما فقال : والله لاينال أحد من الدنيا شيئاً الا نقص من درجاته عند الله ، وان كان عنده كريماً . فالسعيد من اقتنع بالبلغة ، فان الزمان أشرف من أن يضيع في طلب الدنيا . اللهم إلا أن يكون متورعاً في كسبه معيناً لنفسه عن الطمع قاصداً اعانة أهل الخير والصدقة على المحتاجين ، فكسب هذا أصلح من بطالته . فأما الصعود الذي سببه مخالطة السلاطين فبعيد أن يسلم معه الدين، فان وقعت سلامته ظاهراً فالعاقبة خطرة .

قال أبو محمد التميمي . ماغبطت أحداً إلا الشريف أبا جعفر يوم مات القائم بامر الله فانه غسله وخرج ينفض أكمامه فقعد في مسجده لايبالي بأحد ونحن مزعجون لاندري مايجري علينا . وذاك أن التميمي كان متعلقاً على السلطان يمضي له في الرسائل فخاف مغبة القرب . وقد رأينا جماعة من العلماء خالطوا السلطان فكانت مغبتهم سيئة . ولعمري انهم طلبوا الراحة فأخطؤوا طريقها ، لان غموم القلب لايوازيها لذة مال ، ولا لذة مطعم ، هذا في الدنيا قبل الآخرة .

ومَن أشرف وأطيب عيشاً من منفرد في زاوية لايخالط السلاطين ولايبالي أطاب مطعمه أم لم يطب ، فانه لايخلو من

كسرة وقعب ماء ، وهو سليم من أن يقال له كلمة تؤذيه ، أو يعيبه الشرع حين دخوله عليهم أو الخلق .

ومن تأمل حال أحمد بن حنبل في انقطاعه وحال ابن ابي دؤاد ويحيى بن أكثم عرف الفرق في طيب العيش في الدنيا والسلامة في الآخرة ، وما قال ابن ادهم : لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من لذيذ العيش لجالدونا عليه بالسيوف .

ولقد صدق ابن ادهم ، فان السلطان ان أكل شيئاً خاف ان يكون قد طرح له فيه سم ، وان نام خاف ان يغتال ، وهو وراء المغاليق لايمكن ان يخرج لفرجة ، فان خرج كان منزعجاً من أقرب الخلق إليه ، واللذة التي ينالها تبرد عنده ، ولا يبقى له لذة مطعم ولا منكح ، وكلما استظرف المطاعم أكثر منها ففسدت معدته ، وكلما استجد الجواري أكثر منهن فذهبت قوته ، ولا يكاد يبعد مابين الوطء والوطء فلا يجد في الوطء كبير لذة ، لأن لذة الوطء بقدر بعد مابين الزمانين ، وكذلك لذة الاكل . فإن من أكل على شبع ووطىء من غير صدق شهوة ، وقلق لم يجد اللذة التامة التي يجدها الفقير اذا جاع ، والعزب اذا وجد امرأة .

ثم ان الفقير يرمي نفسه على الطريق في الليل فينام .

ولذة الأمن قد حرمها الأمراء . فلذتهم ناقصة ، وحسابهم زائد.
والله ما أعرف من عاش رفيع القدر بالغاً من اللذات ما لم
يبلغ غيره إلا العلماء المخلصين كالحسن وسفيان وأحمد ، والعبّاد
المحققين كمعروف ، فإن لذة العلم تزيد على كل لذة . وما
ضرهم اذا جاعوا أو ابتلوا بأذى ؟ فإن ذلك زاد في رفعتهم
وكذلك لذة الخلوة والتعبد. فهذا معروف، كان منفرداً بربه ،طيب
العيش معه لذيذ الخلوة به ،ثم قد مات منذ نحو أربعمئة سنة فما يخلو
أن يهدَى إليه كل يوم ما تقدير مجموعه أجزاء من القرآن، وأقله من
يقف على قبره فيقرأ (قلْ هوَ اللهُ أحـــد) ويهديها له .
والسلاطين تقف بين يدي قبره ذليلة . هذا بعد الموت ، ويوم
الحشر تنشر الكرامات التي لاتوصف ، وكذلك قبور العلماء
المحققين . ولما بليت أقوام بمخالطة الامراء أثر ذلك التكديرَ
في أحوالهم كلها . فقال سفيان بن عيينه : منذ أخذت من مال
فلان الامير منعت ما كان وُهب لي من فهم القرآن .

وهذا ابو يوسف القاضي [1] لا يزور قبره اثنان[2] . فالصبر
عن مخالطة الامراء وان أوجب ضيق العيش من وجه يحصّل

(١) وقبره وسط مقام الكاظم في الكاظمية (بغداد)
(٢) لو كان الفضل بعدد زوار القبور لكان احمد البدوي وابن عربي افضل من البخاري ومسلم

طيب العيش من جهات ، ومع التخليط لايحصل مقصود . فمن عزم جزم . كان ابو الحسن القزويني لايخرج من بيته إلا وقت الصلاة ، فربما جاء السلطان فيقعد لانتظاره ليسلم عليه ، ومدُّ النفَس في هذا ربما أضجر السامع . ومن ذاق عرف .

٢٠٧ ـ أكثر الناس على غير الجادّة

من عرف الشرع كما ينبغي وعلم حالة الرسول ﷺ وأحوال الصحابة وأكابر العلماء علم أن أكثر الناس على غير الجادة ، وإنما يمشون مع العادة ، يتزاورون فيغتاب بعضهم بعضاً ، ويطلب كل واحد منهم عورة أخيه ، ويحسده ان كانت نعمة ، ويشمت به ان كانت مصيبة ، ويتكبر عليه ان صحَّ له ، ويخادعه لتحصيل شيء من الدنيا ، ويأخذ عليه العثرات ان أمكن . هذا كله يجري بين المنتمين الى الزهد لا الرعاع ، فالاولى بمن عرف الله سبحانه وعرف الشرع وسير السلف الصالحين الانقطاع عن الكل ، فإن اضطر الى لقاء منتسب الى العلم والخير تلقاه وقد لبس درع الحذر ، ولم يطل معه الكلام ، ثم عجل الهرب منه الى مخالطة الكتب التي تحري تفسيراً لنطاق الكمال .

٢٠٨ ـ دلائل الكمال وأسبابه

الكمال عزيز ، والكامل قليل الوجود . فأول أسباب الكمال تناسب أعضاء البدن ، وحسن صورة الباطن ، فصورة البدن تسمى خَلقاً ، وصورة الباطن تسمى خُلُقاً ، ودليل كمال صورة البدن حسن الصمت ، واستعمال الادب . ودليل صورة الباطن حسن الطبائع ، والاخلاق . فالطبائع : العفة ، والنزاهة ، والأنفة من الجهل ، ومباعدة الشره . والاخلاق: الكرم ، والايثار ، وستر العيوب ، وابتداء المعروف ، والحلم عن الجاهل . فمن رزق هذه الاشياء رقّته الى الكمال ، وظهر عنه أشرف الخلال ، وان نقصت خلة أوجبت النقص .

٢٠٩ ـ التسليم للقضاء والرضا بالقدر

ليس في الدنيا أبله[١] ممن يريد معاملة الحق سبحانه على بلوغ الاغراض ، فأين تكون البلوى اذن ؟ لا والله . بل لابد من انعكاس المرادات ، ومن توقف أجوبة السؤالات ، ومن تشفّي الاعداء في أوقات . فأما من يريد أن تدوم له السلامة

---

(١) أبله صفة ولا تجيء اسم تفضيل .

والنصر على من يعاديه ، والعافية من غير بلاء ، فما عرف التكليف ، ولا فهم التسليم .

أليس الرسول ﷺ يُنصر يوم بدر ، ثم يجري عليه ماجرى يوم أحد ؟ أليس يُصد عن البيت ثم قهرَ بعد ذلك ؟ فلا بد من جيد وردى ، والجيد يوجب الشكر ، والردى يحـــرك الى السؤال والدعاء ، فـان امتنع الجواب ، أريد نفوذ البلاء ، والتسليم للقضاء .

وههنا يبين الايمان ، ويظهر في التسليم جواهر الرجال . فان تحقق التسليم باطناً وظاهراً فذلك شأن الكامل . وان وجد في الباطن انعصار من القضاء لا من المقضى فان الطبع لابد أن ينفر من المؤذي دل على ضعف المعرفة . فان خرج الامر الى الاعتراض باللسان ، فتلك حال الجهال ، نعوذ بالله منها .

٢١٠ ـ حاجة الكريم الى اللئيم بلاء

من الابتلاء العظيم اقامة الرجل في غير مقامه . مثل أن يحوج الرجل الصالح الى مداراة الظالم والتردد اليه ، والى مخالطة من لايصلح ، والى أعمال لاتليق به ، أو الى أمور تقطع عليه مراده الذي يؤثره ، مثل أن يقال للعـــالم : تردد الى الامير والا خفنا عليك سطوته . فيتردد فيرى مالايصلح ولايمكنه أن

ينكر . أو يحتاج الى شيء من الدنيا وقد منع حقه فيحتاج أن يعرّض بذكر ذلك ، أو يصرح لينال بعض حقه . ويحتاج الى مداراة من تصعب مداراته ، بل يتشتت همه لتلك الضرورات .

وكذلك يفتقر الى الدخول في امور لاتليق به ، مثل أن يحتاج الى الكسب فيتردد إلى السوق أو يخدم من يعطيه أجرته . وهذا لايحتمله قلب المراقب لله سبحانه لأجل مايخالطه من الاكدار ، أو يكون له عائلة وهو فقير فيتفكر في اغنائهم ، فيدخل في مداخل كلها عنده عظيم وقد يبتلى بفقد من يحب ، أو ببلاء في بدنه ، وبعكس أغراضه وتسليط معاديه عليه ، فيرى الفاسق يقهره ، والظالم يذله . وكل هذه الاشياء تكدر عليه العيش ، وتكاد تزلزل القلب ، وليس في الابتلاء بقوة الاشياء إلا التسليم واللجء إلى المقدّر في الفرج .

فيرى الرجل المؤمن الحازم يثبت لهذه العظائم ولا يتغير قلبه ، ولاينطق بالشكوى لسانه . أوَليس الرسول ﷺ يحتاج أن يقول : من يؤويني من ينصرني ؟ ويفتقر الى ان يدخل مكة في جوار كافر ، ويُلقى السلا على ظهره وتُقتل أصحابه ، ويداري المؤلفة ، ويشتد جوعه وهو ساكن لايتغير . وماذاك الا أنه علم ان الدنيا دار ابتلاء ، لينظر كيف تعملون وبما يهون

هذه الاشياء علم العبد بالأجر ، وان ذلك مراد الحق : فما لجرح اذا أرضاكم ألم(١) .

٢١١ - بخل العلماء والمتزهدين

لاينكر ان الطباع تحب المال ، لأنه سبب بقاء الابدان ، لكنه يزيد حبه في بعض القلوب حتى يصير محبوباً لذاته لا للتوصل به الى المقاصد ، فترى البخيل يحمل على نفسه العجائب ، ويمنعها اللذات ، وتصير لذاته في جمع المال . وهذه جبلة في خلق كثير.

وليس العجب أن تكون في الجهال ، وينبغي أن يؤثر فيها عند العلماء المجاهدة للطبع ومخالفته ، خصوصاً في الافعال اللازمة في المال . فأما أن يكون العالم جامعاً للمال من وجوه قبيحة ،من شبهات قوية، وبحرص شديد،وبذل في الطلب ، ثم يأخذ من الزكوات ولاتحل له مع الغنى ، ثم يدخره ولاينفع به ، فهذة بهيمية تخرج من صفات الآدمية ، بل البهيمية أعذر لانها بالرياضة تتغير طباعها ، وهؤلاء ماغيرتهم الرياضة ، ولا أفادهم العلم .

ولقد كان أبو الحسن البسطامي مقيما في رباط البسطامي

---

(١) للمتنبي وصدره : ان كان سرّكم ماقال حاسدنا

الذي على نهر عيسى ، وكان لايلبس الا الصوف شتاء وصيفاً ، وكان يُحترم ويُقصد ، فخلف مالاً يزيد على أربعة آلاف دينار .

ورأينا بعض أشياخنا وقد بلغ الثمانين وليس له أهل ولا ولد ، وقد مرض فألقى نفسه عند بعض أصدقائه يتكلف له ذلك الرجل مايشتهيه ومايشفيه ، فمات فخلف أموالا عظيمة .

ورأينا صدقة بن الحسين الناسخ ، وكان على الدوام يذم الزمان وأهله ويبالغ في الطلب من الناس ويتجفف[1] وهو في المسجد وحده ليس له من يقوم بأمره ، فمات فخلف فيما قيل ثلاثمئة دينار .

وكان يصحبنا أبو طالب بن المؤيد الصوفي ، وكان يجمع المال ، فسرق منه نحو مئة دينار ، فتلهف عليها وكان ذلك سبب هلاكه .

ومن أعجب أحوال الناس أنك ترى أقواماً جلسوا على صُفّة القوم يطلبون الفتوح ، فيأتيهم منها الكثير الذي يصيرون به من الاغنياء ، وهم لايمتنعون من أخذ زكاة ولا من طلب . وكذلك القُصّاص ، يخرجون الى البلاد ويطلبون ، فيحصل لهم المال الكثير ، فلا يتركون الطلب عادة .

فياسبحان الله ! أي شيء أفاد العلم ؟ بل الجهل كان لهؤلاء أعذر .

---

(١) اي يطلب جاف العيش

ومن أقبح أحوالهم لزومهم الاسباب التي تجلب لهم الدنيا من التخاشع والتناسك في الظاهر[١] ، وملازمة حث العزلة عن المخالطة ، وكل هؤلاء بمعزل عن الشرع .

ولقد تأملت على[٢] بعضهم من القدح في نظيره الى أن يبلغ به الى التعرض به للهلاك . فالويل لهم ، وما أقلّ مايتمتعون بظواهر الدنيا ، وإن كان مقلب القلوب قد صرف القلوب عن محبتهم ، لأن الحق عز وجل لايُميل القلوب الا الى المخلصين[٣] . فقد فاتتهم الدنيا على الحقيقة ، وهي مَسك القلوب ، والآخرة بالانفاق ، وما حصلوا الا صورة الحطام . نسأل الله عز وجل عقلا يدبر دنيانا ، ويحصّل لنا آخرتنا ، والرزاق قادر .

٢١٢ ـ معرفة الحق سبحانه وطاعته

ينبغي لمن عرف شرف الوجود أن يحصل أفضل الموجود. هذا العمر موسم ، والتجارات تختلف ، والعامة تقول : عليكم بما خف حمله وكثر ثمنه .

---

(١) ولا يزال في عصرنا ناس يتاجرون بالدين ويأكلون به الدنيا

(٢) هذه مثل قوله « اعتبرت على » .ولا اعرف لها وجهاًفي العربيةإلا بتأويل

(٣) إلا ان يكون ذلك استدراجاً او نحوه كالذي نراه من ميل قلوب العامة الى المبتدعين الدجالين .

فينبغي للمستيقظ أن لايطلب الا الأنفَس .

وأنفس الاشياء في الدنيـا معرفة الحق عز وجل . فمن العارفين السالكين من وافى في طريقه بغيته في السفر ، ومنهم من ينظر الى مايُرضي الحبيب فيحمله الى بلد المعاملة ، ويرضي بالقبول ثمنا ، ويرى أن كل البضائع لاتفى بحق الخفارة ، ومنهم من يرى لزوم الشكر في اختياره السلوك دون غيره فيقر بالعجز .

وقد ارتفع قوم عن هذه الاحوال ، فرأوا بجرد التوفيق يشغلهم عن النظر الى العمل . اولئك الاقلون عدداً والاعظمون قدراً . هم أقل نسلا من عنقاء مغرب[1] .

٢١٣ ـ المبادرة الى التوبة والصلاح

من علم قرب الرحيل عن مكه استكثر من الطواف ، خصوصاً إن كان لايؤمل العود لكبر سنه وضعف قوته ، فكذلك ينبغي لمن قاربه ساحل الاجل بعلو سنه أن يبادر اللحظات ، وينتظر الهاجم بما يصلح له فقد كان في قوس الاجـل منزع زمان الشباب ، واسترخى الوتر بالمشيب عن سِية القوس ، فانحدر الى القَلـْب وضعفت القوى أن يوتر ، وما بقي إلا الاستسلام لمحارب التلف ، فالبدار البدار الى التنظف ليكون القـدوم على طهارة .

---

(١) طائر لاوجود له كان العرب يتوهمون وجوده انظر الكلام عنه في « حياة الحيوا ن » للدميري .

وأي عيش في الدنيا يطيب لمن أيامه السليبه تقربه الى الملاك ، وصعود عمره نزول عن الحياة ، وطول بقائه نقص مدى المدة ؟

فليتفكر فيما بين يديه ، وهو أهم مما ذكرناه . أليس في الصحيح : ما منكم أحد إلا ويعرض عليه مقعـــده بالغداة والعشي من الجنة أو النار فيقال هذا ، مقعدك ، حتى يبعثك الله؟

فوا أسفا لمهدّد ، كم يقتل قبل القتل . ويا طيب عيش الموعود بأزيد المنى . وليعلم من شارف السبعين ، ان النفَس أنين . أعان الله من قد قطع عقبة العمر على رمل زرود الموت.

٢١٤ ـ الاقتداء بالنبي عليه السلام في التسليم الى الله عز وجل

من أراد أن يعلم حقيقة الرضى عن الله عز وجل في أفعاله وأن يدري من أين نشأ الرضى ، فليتفكر في أحوال رسول الله ﷺ . فإنه لما تكاملت معرفته بالخالق سبحانه رأى أن الخالق مالك ، وللمالك التصرف في مملوكه ، ورآه حكيماً لايصنع شيئاً عبثاً ، فسلم تسليم مملوك لحكيم ، فكانت العجائب تجري عليه ولا يوجد منه تغير ، ولا من الطبع تأفف ، ولا يقول بلسان الحال لو كان كذا ، بل يثبت للأقدار ثبوت الجبل لعواصف الرياح .

هذا سيد الرسل ﷺ ، بعث الى الخلق وحده والكفر قد ملأ الآفاق ، فجعـــل يفر من مكان الى مكان ، واستتر في دار الخيزران [١] ، وهم يضربونه اذا خرج ويدمون عقبه والقى السّلا على ظهره وهو ساكت ساكن، ويخرج كل موسم فيقول : من يؤويني من ينصرني ؟

ثم خرج من مكة فلم يقدر على العود إلا في جوار كافر ولم يوجد من الطبع تأفف ، ولا من الباطن اعتراض إذ لو كان غيره لقال : يارب أنت مالك الخلق ، وقادر على النصر ، فلمَ أذل ؟ كما قال عمر رضي الله عنـــه يوم صلح الحديبية : ألسنا على الحق ، فلمَ نعطي الدنية في ديننا ؟ ولما قال هذا ، قال له الرسول ﷺ : إني عبـد الله ولن يضيعني . فجمعت الكلمتان الأصلين اللذين ذكرناهما . فقوله : إني عبـد الله ـ اقرار بالملك وكأنه قال : أنا مملوك يفعل بي ما يشاء . وقوله : لن يضيعني بيان حكمته ، وانه لايفعل شيئاً عبثاً .

ثم يبتلى بالجوع فيشد الحجـــر ، ولله خزائن السماوات والارض . وتقتل أصحابه ، ويشج وجهه ، وتكسر رباعيته ، ويمثّل بعمه [٢] وهو ساكت . ثم يرزق ابناً ويسلب منه ،

---

(١) كانت دار الارقم ، وهي في اصل الصفا ، ولم تكن خلفت الخيزران وانما انتهت إليها الدار بعد ذلك

(٢) حمزة في أحد

فيتعلل بالحسن والحسين فيخبر بما سيجري عليهما . ويسكن بالطبع الى عائشة رضي الله عنها فينغص عيشه بقذفها ، ويبالغ في اظهار المعجزات فيقام في وجهة مسيلمة والعنسي وابن صياد. ويقيم ناموس الأمانة والصدق ، فيقال : كذاب ساحر.

ثم يعلقه المرض كما يوعك رجلان وهو ساكن ساكت . فإن أخبر بحاله فليعلّم الصبر .

ثم يشدد عليه الموت ، فيسلب روحه الشريفة وهو مضطجع في كساء ملبد وازار غليظ ، وليس عندهم زيت يوقد به المصباح ليلتئذ .

هذا شيء ما قدر على الصبر عليه كما ينبغي نبي قبله . ولو ابتليت به الملائكة ماصبرت . هذا آدم عليه السلام يباح له الجنة سوى شجرة فلا يقع ذباب حرصه إلا على العقر . ونبينا ﷺ يقول في المباح : مالي وللدنيا ؟ وهذا نوح عليه السلام يضج بما لاقى فيصيح من كمد وجده : « لاتذر على الارض من الكافرين دياراً » ونبينا ﷺ يقول : اللهم أهد قومي فانهم لايعلمون[1] هذا الكليم موسى ﷺ ، يستغيث عند عبادة قومه العجل على القدَر « إن هي إلا فتنتك »ويوجه

(١) قال الشيخ ناصر : ضعيف

اليه ملك الموت فيقلع عينيه[١] . وعيسى ﷺ يقول : ان صرفت الموت عن أحد فاصرفه عني . ونبينا ﷺ يخير بين البقاء والموت فيختار الرحيل الى الرفيق الاعلى .

هذا سليمان ﷺ يقول : هب لي ملكا . ونبينا ﷺ يقول : اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا .

هذا والله فعل رجل عرف الوجود والموجد ، فماتت اغراضه وسكنت اعتراضاته فصار هواه فيما يجري .

٢١٥ - من عرف النساء رضي بزوجته

اكثر شهوات الحس النساء . وقد يرى الانسان امرأة في ثيابها فيتخايل له أنها أحسن من زوجته ، أو يتصور بفكره المستحسنات وفكره لاينظر إلا الى الحسن من المرأة ، فيسعى في التزوج والتسري ، فاذا حصل له مراده لم يزل ينظر في عيوب الحاصل التي ما كان يتفكر فيها فيمل ويطلب شيئاً آخر ، ولايدري أن حصول أغراضه في الظاهر ربما اشتمل على محن ، منها أن تكون الثانية لادين لها أو لاعقل أو لامحبة لها أو لاتدبير فيفوّت أكثر مما حصل .

---

(١) هذة اسرائيليات يكثر المؤلف رحمه الله من ايراد مثلها - والرسول صلى الله عليه وسلم لا يريدمنا ان نمدحه بذم الانبياء من قبله . « لانفرق بين أحد من رسله » صلى الله عليه وعليهم جميعاً .

وهذا المعنى هو الذي أوقع الزناة في الفواحش . لانهم يجالسون المرأة حال استتار عيوبها عنهم وظهور محاسنها ، فتلذهم تلك الساعه ، ثم ينتقلون الى أخرى . فليعلم العاقل أن لاسبيل الى حصول مراد تام كما يريد « ولستم بآخذيه الا أن تغمضوا فيه » وما عيب نساء الدنيا بأحسن من قوله عز وجل « ولهم فيها أزواج مَطهرة » وذو الانفة يأنف من الوسخ صورة ، وعيب الخلق معنى . فليقنع بما باطنه الدين ، وظاهره الستر والقناعة . فانه يعيش مرفه السر ، طيب القلب ومتى وما استكثر ، فانما يستكثر من شغل قلبه ورقة دينه .

٢١٦ ـ تعدد الصناعات

سبحان من شغل كل شخص بفن لتنام العيون في الدنيا فأما العلوم فحبب الى هذا القرآن ، والى هذا الحديث ، والى هذا النحو ، إذ لولا ذلك ما حُفظت العلوم وألهم هذا المتعيش أن يكون خبازاً ، وهذا أن يكون هرّاساً ، وهذا أن ينقل الشوك من الصحراء ، وهذا أن ينقي البئار ليلتئم أمر الخلق . ولو ألهم أكثر الناس أن يكونوا خبازين مثلا ، بات الخبز وهلك[1] ، أو هراسين جفت المرايس . بل يلهم

(١) اي كثر فكسد وفسد

هذا بقدر لينتظم أمر الدنيا وأمر الآخرة ويندر من الخلق من يلهمه الكمال وطلب الافضل ، والجمع بين العلوم والاعمال ومعاملات القلوب ، وتتفاوت أرباب هذه الحال . فسبحان من يخلق ما يشاء ويختار . نسأله العفو إن لم يقع الرضى ، والسلامه إن لم نصلح للمعاملة .

٢١٧ ـ أحاديث الزهد

علم الحديث هو الشريعة ، لانه مبين القرآن وموضح الحلال والحرام ، وكاشف عن سير رسول الله ﷺ وسير اصحابه . وقد مزجوه بالكذب ، وادخلوا في المنقولات كل قبيح ، فاذا وفق الزاهد والواعظ لم يذكر الا ماشهد بصحته ، وان حرما التوفيق ، عمل الزاهد بكل حديث يسمعه لحسن ظنه بالرواة ، وقال الواعظ كل شيء يراه ،لجهله بالتصحيح ، ففسدت أحوال الزاهد ، وانحرف عن جادة الهدى ، وهو لايعلم . وكيف لا وعموم الاحاديث الدالة على الزهد لاتثبت ، مثل حديث ابن عمر رضي الله عنها : أيما أمرىء مسلم اشتهى شهوة فرد شهوته وآثر على نفسه غفر له : وهذا حديث موضوع، يمنع الانسان ما أبيح له مما يتقوى به على الطاعة ومثل قوله : من وضع ثيابا حسانا . وكذلك ما رووا « أن رسول الله ﷺ

قدم له ادمان فقال : أدمان في قدح ، لاحاجة لي فيه ، أكره أن يسألني الله عن فضول الدنيا . وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ : أكل البطيخ بالرطب .

ومثل هذا اذا تتبع كثير ، فقد بنوا على فساده ، ففسدت أحوال الواعظ والموعوظ ، لأنه يبني كلامه على أشياء فاسدة ومحالات . ولقد كان جماعة من المتزهدين يعملون على أحاديث ومنقولات لاتصح ، فيضيع زمانهم في غير المشروع . ثم ينكرون على العلماء استعمالهم للمباحات ، ويرون أن التجفف هو الدين . وكذلك الوعاظ يحدثون الناس بما لايصح عن الرسول ﷺ ولاأصحابه . فقد صار المحال عندهم شريعة . فسبحان من حفظ هذه الشريعة بأخبار أخيار ينفرن عنها تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين .

٢١٨ ـ مسند احمد

كان قد سألني بعض أصحاب الحديث ، هل في مسند احمد ماليس بصحيح : فقلت : نعم .

فعظم ذلك على جماعة ينسبون الى المذهب ، فحملت أمرهم على أنهم عوام ، وأهملت فكر ذلك . واذا بهم قد كتبوا فتاوى . فكتب فيها جماعة من أهل خراسان ، منهم أبو العلاء

الهمداني يعظمون هذا القول ، ويردونه ويقبحون قول من قاله . فبقيت دهشاً متعجباً ، وقلت في نفسي : واعجبا صار المتسبون الى العلم عامة أيضاً ، وما ذاك الا أنهم سمعوا الحديث ولم يبحثوا عن صحيحه وسقيمه ، وظنوا أن من قال ماقلته قد تعرض للطعن فيما أخرجه أحمد ؛ وليس كذلك . فان الامام احمد روى المشهور والجيد والردي ، ثم هو قد رد كثيراً مما روى ولم يقل به ولم يجعله مذهباً له . أليس هو القائل في حديث الوضوء بالنبيذ : مجهول ! ومن نظر في كتاب العلل الذي صنفه أبو بكر الخلال [1] رأى احاديث كثيرة كلها في المسند ، وقد طعن فيها أحمد .

ونقلت من خط القاضي أبي يعلى محمد بن الحسين [2] الفراء في مسألة النبيذ قال : إنما روى احمد في مسنده ما اشتهر ، ولم يقصد الصحيح ولا السقيم .

---

(١) احمد بن محمد مفسر لغوي - من كبار الحنابلة له كتاب « الجامع لعلوم الامام احمد » توفي في بغداد سنة « ٣١١ »

(٢) صاحب [الاحكام السلطانية] وهو مثل كتاب [الاحكام السلطانية] للماوردي . وهو عالم عصره ، كان مقربا من الخلفاء العباسيين وولي القضاء لهم بشرط الا يحضر ايام الموكب ولا يخرج في الاستقبالات ولا يدخل دار السلطان ، وكان شيخ الحنابلة في زمانه توفي سنة ٤٥٨

ويدل على ذلك أن عبد الله قال : قلت لأبي ، ماتقول في حديث ربعي بن حراش عن حذيفة ؟

قال : الذي يرويه عبد العزيز بن أبي رواد[1]؟

قلت : نعم .

قال : الاحاديث بخلافه .

قلت : فقد ذكرته في المسند .

قال : قصدت في المسند المشهور ، فلو أردت أن أقصد ماصح عندي لم أورد من هـــذا المسند الا الشيء بعد الشيء اليسير ، ولكنك يابني تعرف طريقتي في الحديث ، لست أخالف ماضعف من الحديث اذا لم يكن في الباب شيء يدفعه .

قال القاضي : وقد أخبر عن نفسه كيف طريقه في المسند ، فمن جعله أصلا للصحة فقد خالفه وترك مقصده .

قلت : قد غمني في هذ الزمان أن العلماء لتقصيرهم في العلم صاروا كالعامة ، واذا مر بهم حديث موضوع قالوا قد روي . والبكاء ينبغي أن يكون على خساسة الهمم . ولاحول ولاقوة إلا بالله العلي العظيم .

٢١٩ ـ هوى النفس

بلغني عن بعض فساق القدماء أنه كان يقول :

---

(١) العتكي مولى المهلب المتوفى سنة ١٥٩

ما أرى العيش غير أن تتبع النفس هواها فمخطئاً أو مصيباً فتدبرت حال هذا وإذا به ميت النفس ، ليس له أنفـة على عرضه ولاخوف عار . ومثل هذا ليس في مسلاخ الآدميين ، فان الانسان قد يقدم على القتل لئلا يقال جبان ، ويحمل الاثقال ليقال ما قصر ، ويخاف العار فيصبر على كل آفة من الفقر ، وهو يستر ذلك حتى لايرى بعين ناقصة . حتى أن الجاهل إذا قيل له : ياجاهل غضب . واللصوص المتهيئون للحرام اذا قال أحدهم للآخر : لاتتكلم ، فان أختك تفعل وتصنع ، اخذته الحمية فقتل الاخت .

ومن له نفس لايقف في مقام تهمة لئلا يظن به .

فأما من لايبالي ان يرى سكران ، ولايهمه ان شهر بين الناس ، ولا يؤلمه ذكر الناس له بالسوء ، فذاك في عـداد البهائم . وهذا الذي يريد ان يتبع النفس هواها لايلتذ به إلا أن لا يخاف عنتاً ولا لوماً ، ولا يكون له عرض يحـذر عليه ، فهو بهيمة في مسلاخ انسان [1] ، وإلا فأي عيش لمن شرب الخمر وأخذ عقيب ذلك وضرب وشاع في الناس ما قد فعل به ، أما يفي ذلك باللذة ؟ لا ، بل يربي عليها أضعافاً .

وأي عيش لمن ساكن الكسل اذا رأى أقرانه قد برزوا

---

(١) أي في جلد إنسان

في العلم وهو جاهل ، او استغنوا بالتجارة وهو فقير ، فهل يبقى للالتذاذ بالكسل والراحة معنى . ولو تفكر الزاني في الاحدوثة عنه ، او تصور أخذ الحد منه ، لكف الكف ، غير أنه يرى لذة حاضرة كأنها لمع برق . ويا شؤم ما أعقبت من طول الاسى ، هذا كله في العاجل . فأما الآجل فمنغصة العذاب دائمة ، (والذين آمنوا مشفقون منها) نسأل الله أنفة من الرذائل ، وهمة في طلب الفضائل انه قريب مجيب .

٢٢٠ ـ المبارزة بالمعاصي

قد تبغت العقوبات ، وقد يؤخرها الحلم ، والعاقل من اذا فعل خطيئة بادرها بالتوبة ، فكم مغرور بامهال العصاة لم يمهل . وأسرع المعاصي عقوبة ماخلا عن لذة تنسى النهي ، فتكون تلك الخطيئة كالمعاندة والمبارزة ، فان كانت توجب اعتراضاً على الخالق او منازعة له في عظمته ، فتلك التي لاتُتلافى . خصوصاً ان وقعت من عارف بالله ، فإنه يندر إمهاله ، قال عبد المجيد بن عبد العزيز[1]: كان عندنا بخراسان رجل كتب مصحفاً في ثلاثة أيام فلقيه رجل فقال : في كم كتبت هذا ؟

---

(٢) ابن ابي رواد الذي مر ذكره قبل صفحتين

فأومأ بالسبابة والوسطى والابهام وقال : في ثلاث « وما مسنا من لغوب » .

فجفت أصابعه الثلاث ، فلم ينتفع بها فيما بعد .

وخطر لبعض الفصحاء أنه يقدر ان يقول مثل القرآن ، فصعد الى غرفة فانفرد فيها ، وقال أمهلوني ثلاثاً ، فصعدوا إليه بعد الثلاث ويده قد يبست على القلم وهو ميت ، قال عبد المجيد : ورأيت رجلاً كان يأتي امرأته حائضاً ، فحاض[1] ، فلما كثر الامر به تاب فانقطع عنه . ويلحق هذا أن يعيّرَ الانسان شخصاً بفعل ، وأعظمه أن يعيره بما ليس إليه ، فيقول : ياأعمى ، ويافبيح الخلقة .

وقد قال ابن سيرين : عيّرْت رجلاً بالفقر فحبست على دين.

وقد تتأخر العقوبة وتأتي في آخر العمر . فياطول التعثير مع كبر السن لذنوب كانت في الشباب . فالحذر الحذر من عواقب الخطايا والبدار البدار الى محوها بالانابة ، فلها تأثيرات قبيحة ان أسرعت وإلا اجتمعت وجاءت .

---

(١) الحديث الصحيح السند ان كان مخالفا للمشاهد المحسوس ، حكم بان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقله ، فكيف بمثل هذه الاخبار التي لااصل لها ؟ ومتى رأى الناس رجلا حاض ؟!

٢٢١ - جمع المـــال

اعلم ان الآدمي قد خلق لأمر عظيم . وهو مطالب بمعرفة خالقه بالدليل [١] ، ولا يكفيه التقليد ، وذلك يفتقر الى جمع الهم في طلبه . وهو مطالب بإقامة المفروضات ، واجتناب المحارم ، فإن سمت همته الى طلب العلم احتاج الى زيادة جمع الهم . فأسعد الناس من له قوت دارٌ بقدر الكفاية ، لا من منن الناس وصدقاتهم ، وقد قنع به ، فإنه حينئذ يجتمع همه لمطلوباته من الدين والدنيا والعلم . وأما اذا لم يكن له قوت يكفيه فالهم الذي يريد اجتماعه في تلك الأمور يتشتت ويصير طالباً للتحيل في القوت ، فيذهب العمر في تحصيل قوت البدن الذي يريد من بقائه غير بقائه ، ويفوت المقصود ببقائه . وربما احتاج الى الانذال . قال الشاعر :

حسبي من الدهر ما كفاني يصون عرضي عن الهوان
مخـــافة أن يقول قوم فضل فـلان على فلان

فينبغي العاقل إذا رزق قوتاً أو كان له مواد أن يحفظها ليتجمع همه ، ولاينبغي أن يبذر في ذلك فانه يحتاج فيتشتت همه ، والنفس إذا أحرزت قوتها اطمأنت .

---

(١) اما الدليل العقلي الذي تمتلىء بمثله كتب علم الكلام فلم يوجبه الله على المؤمن ، ولقد كان السلف لايعرفونه وايمانهم اثبت من الجبال الرواسي .

فان لم يكن له مال اكتسب بقدر كفايته وقلل الغلو ليجمع همه ، وليقتنع بالقليل ، فانه متى سمت همته الى فضول المال وقع المحذور من التشتت ، لأن التشتت في الأول للعدم ، وهذا التشتت يكون للحرص على الفضول ، فيذهب العمر على البارد :

ومن ينفق الايام في حفظ ماله   مخافة فقر فالذي فعل الفقر

فافهم هذا ياصاحب الهمة في طلب الفضائل ، فانك مالم تعزل قوت الصبيان شتتوا قلبك ، وطبعُك طفل ، ففرغ همك من استعانته .

واعرف قدر شرف المال الذي أوجب جمع همك ، وصان عرضك عن الخلق . وإياك أن يحملك الكرم على فرط الاخراج فتصير كالفقير المتعرض لك بالتعرض لغيرك وفي الحديث أن رجلا اتى رسول الله ﷺ فرأى عليه آثار الفقر ، فعرّض به فأعطى شيئاً . فجاء فقير آخر فآثره الاول ببعض ماأعطى ، فرماه النبي ﷺ اليه ، ونهاه عن مثل ذلك .

والقناعة بما يكفي ، وترك التشوف الى الفضول أصل الاصول . ولما أيأس الامام احمد بن حنبل نفسه من قبول الهدايا والصلات اجتمع همه ، وحسن ذكره . ولما أطمعها ابن المديني [1] وغيره

---

(١) علي بن عبد الله كان حافظ عصره توفي بسامراء سنة ٢٢٤

سقط ذكرهم . ثم فيمن يطمع ؟ إنما هو سلطان جائر ، أو مزلك منان ، أو صديق مذل بما يعطى ، والعز ألذ من كل لذة ، والخروج عن ربقة المنن ولو بسف التراب .

٢٢٢ ـ التجلد عند النكبات

قد ركب في الطباع حب التفضيل على الجنس . فما أحد إلا وهو يحب أن يكون أعلى درجة من غيره ، فاذا وقعت نكبة أوجبت نزوله عن مرتبة سواه ، فينبغي له أن يتجلد بستر تلك النكبة ، لئلا يرى بعين نقص . وليتجمل المتعفف حتى لا يرى بعين الرحمة . وليتحامل المريض لئلا يشمت به ذو العافية . وقد قال ﷺ لأصحابه حين قدومه مكة وقد أخذتهم الحمى فخاف أن يشمت بهم الاعداء حين ضعفهم عن السعي ، فقال : « رحم الله من أظهر من نفسه الجلد » .

فرملوا والرمل شدة السعي . وزال ذلك السبب وبقي الحكم ، ليتذكر السبب فيفهم معناه . واستأذنوا على معاوية وهو في الموت ، فقال لأهله أجلسوني ، فقعد متمكنا يظهر العافية ، فلما خرج العواد أنشد :

وتجلدي للشامتين أريهم ... أني لريب الدهر لا أتضعضع
وإذا المنية أنشبت أظفارها ... ألفيت كل تميمة لا تنفع[1]

(١) من قصيدة ابي ذؤيب : أمن المنون وريبها تتوجع وهي من اجل المراثي

ومازال العقلاء يظهرون التجلد عند المصائب والفقر والبلاء ، لئلا يتحملوا مع النوائب شماتة الأعداء ، وانها لأشد من كل نائبة . وكان فقيرهم يظهر الغنى ، ومريضهم يظهر العافية ، بلى . ثمّ نكتة ينبغي التفطن لها ، ربما أظهر الانسان كثرة المال وسبوغ النعم ، فاصابه عدو بالعين ، فلا يفي ما تبجح به بما يلاقي من انعكاس النعمة ، والعين لاتصيب إلا مايستحسن الشيء ، ولايكفي الاستحسان في إصابة العين حتى يكون من حاسد ، ولا يكفي ذلك حتى يكون من شرير الطبع . فاذا اجتمعت هذه الصفات خيف من إصابة العين . فليكن الانسان مظهراً للتجميل مقدار ما يأمن إصابة العين ويعلم أنه في خير . وليحذر الافراط في اظهار النعم ، فان العين هناك محذورة .

وقد قال يعقوب لبنيه عليهم السلام « لاتدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة » وإنما خاف عليهم العين فليفهم هذا الفصل فانه ينفع من له تدبر .

٢٢٣ ـ درجات الايمان

إنما خلقنا لنحيا مع الخالق في معرفته ومحادثته ورؤيته في البقاء الدائم . وإنما ابتدىء كوننا في الدنيا لانها في مثال مكتب نتعلم فيه الخط والادب ليصلح الصبي عند بلوغه للرتب فمن الصبيان بعيد الذهن يطول مكثه في المكتب ويخرج ومافهم شيئاً . وهذا مثال من لايعلم وجوده ، ولانال المراد من كونه .

ومن الصبيان من يجمع مع بعد ذهنه وقلة فهمه وعدم تعلمه أذى الصبيان ، فهو يؤذيهم ، ويسرق مطاعمهم ، ويستغيثون من يده ، فلا هو صلح ولا فهم ولا كف الشر . وهذا مثل أهل الشر والمؤذين .

ومن الصبيان من علق بشيء من الخط لكنه ضعيف الاستخراج ، ردي الكتابه ، فخرج ولم يعلق الابقدر مايعلق به حساب معاملته وهذا مثل من فهم بعض الشيء وفاتته الفضائل التامة .

ومنهم من جوّد الخط ولم يتعلم الحساب ، واتقن الآداب حفظا ، غير أنه قاصر في أدب النفس . فهذا يصلح أنيكون كاتباً للسلطان على مخاطرة لسوء مافي باطنه من الشره وقلةالتأدب .

ومنهم من سمت همته الى المعالي الكاملة ، فهو مقدم الصبيان في المكتب ونائب عن معلمهم ، ثم يرتفع عنهم بعزة نفسه ، وأدب باطنه ، وكمال صناعة الآداب الظاهرة . ولايزال حاث من باطنه يحثه على تعجيل التعلم ، وتحصيل كل فضيلة لعلمه أن المكتب لايراد لنفسه بل لاخذ الادب منه ، والرحلة الى حالة الرجولية والتصرف ، فهو يبادر الزمان في نيل كل فضيلة . فهذا مثل المؤمن الكامل يسبق الأقران يوم التجاري،

ويعرض لوح عمله جيد الخط ، فيقول بلسان حاله « هاؤم اقرؤوا كتابِيَهْ » .

وكذلك الدنيا وأهلها . من الناس هالك بعيد عن الحق وهم الكفار . ومنهم خاطىء مع قليل من الايمان فهو معاقب والمصير الى خير . ومنهم سليم ولكنه قاصر . ومنهم تام لكنه بالاضافة الى من دونه ، وهو ناقص بالاضافة الى من فوقه .

فالبدار البدار يا أرباب الفهوم فان الدنيا معبر الى دار اقامة ، وسفر الى القرب من السلطان ومجاورته فتهيؤوا للمجالسة واستعدوا المخاطبة ، وبالغوا في استعمال الأدب لتصلحوا القرب من الحضرة . ولايشغلنكم عن تضمير الخيل تكاسل . وليحملكم على الجد في ذلك تذكر يوم السباق ، فان قرب المؤمنين من الخالق على قدر حذرهم في الدنيا ، ومنازلهم على قدرهم ، فما منزل النفاط كمنزل الحاجب ، ولا منزل الحاجب كمكان الوزير ، جنتان من ذهب آنيتها وما فيها ، وجنتان من فضة آنيتها ومافيها . والفردوس الاعلى لآخرين . والذين في أرض الجنة ينظرون أهل الدرجات ، كما يرون الكواكب الدري .

فليتذكر الساعي حلاوة التسليم الى الامين ، وليتذكر في لذاذة المدح يوم السباق . وليحذر المسابق من تقصير لايمكن

استدراكه . وليخف من عيب يبقى قبح ذكره . هؤلاء الجهنميون عتقاء الرحمن ، وليصبّر الهوى عن المشتهى ، فالايام قلائل . يدخل فقراء المؤمنين قبل الاغنياء الى الجنة بخمسمئة عام . فالجد الجد ، يا أقدام المبادرة ، فقد لاح العَلم خصوصاً لمن بانت له بانة الوادي ، إما بالعلم الدال على الطريق ، وإما بالشيب الذي هو علمَ الرحيل وهو يأمله أهل الجد . وكان الجنيد يقرأ وقت خروج روحه ، فيقال له في هذا الوقت : فيقول أبادر طيّ صحيفتي . وبعد هذا ، فالمراد موفق . والمطلوب معان . واذا أرادك لأمر هيأك له .

٢٢٤ ـ تفاوت الهمم

تأملت حالة عجيبة وهو أن أهل الجنة الساكنين في أرضها في نقص عظيم بالاضافة الى من فوقهم ، وهم يعلمون فضل أولئك . فلو تفكروا فيما فاتهم من ذلك وقعت الحسرات ، غير أن ذلك لايكون ، لأن ذلك لايقع لهم لطيب منازلهم ، ولايقع في الجنة غم ، ويرضى كل بما أعطي من وجهين :

أحدهما أنه لايظن أن يكون نعيم فوق ماهو فيه ، وان علت منزلة غيره .

والثاني أنه يحبب اليه كما يحبب اليه ولده المستوحش الخلقة ، فيؤثره علي الاجنبي المستحسن .

إلا أن تحت هذا معنى لطيفاً . وهو أن القوم خلقت لهم همم قاصرة في الدنيـا عن طلب الفضائل ، ويتفاوت قصورها . فمنهم من يحفظ بعض القرآن ولايشوق الى التمام . ومنهم من يسمع يسيراً من الحـديث . ومنهم من يعرف قليلا من الفقه . ومنهم من قـــد رضي من كل شيء بيسيره . ومنهم مقتصر على الفرائض . ومنهم قنوع بصلاة ركعتين في الليل ولو علت بهم الهمم لجـــدّت في تحصيل كل الفضـــائل ، ونبت عن النقص فاستخدمت البدن كما قال الشاعر :

ولكل جسم في النحول بلية وبلاء جسمي من تفاوت همتي

ويدل على تفاوت الهمم ان في الناس من يسهر في سماع سمر ولايسهل عليه السهر في سماع القرآن . والانسان يحشر ومعه تلك الهمة ، فيعطى على مقدار ماحصلت في الدنيا ، فكما لم تتق الى الكمال وقنعت بالدون قنعت في الآخرة بمثل ذلك . ثم ان القوم يتفكرون بعقولهم ، فيعلمون أن الجزاء على قدر العمل ، ولايطمع من صلى ركعتين في ثواب من صلى ألفاً . فـان قال قائل : فكيف يتصور لها أن تروم مانا له من هو أفضل منها ؟ قلت : ان لم يتصور نيله يتصور الحزن على فوته ، وهل رأيت عامياً يحزن على فوات الفقه حزنا يقلقه ؟

هيهات . لو كان ذلك الحزن عنده لحركه الى التشاغل .

فليس عندهم همة توجب الاسف مع أنهم قد رضوا بما هم فيه .
فافهم ماقلته وبادر ، فهذا ميدان السباق .

٢٢٥ - حكمة بقاء اهل الكتاب

تفكرت في إبقاء اليهود والنصارى بيننا وأخذ الجزية منهم ، فرأيت في ذلك حكماً عجيبة . منها ماقد ذكر من أن الاسلام كان ضعيفاً فتقوى بما يؤخذ من جزيتهم ، ومنهـا ظهور عزه[1] بذلهم إلى غير ذلك ممـا قد قيل . ووقع لي فيه معنى عجيب . وهـو أن وجودهم وتعبدهم وحفظهم شرع نبيهم ﷺ دليل على انه قد كان انبياء وشرائع ، وان نبينـا ﷺ ليس ببدع من الرسل ، فقد اجتمعت الجن وهم على إثبات صـانع ، واقرار برسل ، فبان أننا ماابتدعنا مالم يكن . وهم يصبرون على باطلهم ويؤدون الجزية ، فكيف لانصبر على حق ، والدولة لنـا ، وفي بقائهم احترام لما كان صحيحاً من الدين وليرجع متبصر وليستعمل مفكر .

٢٢٦ - الاشتغال بفن واحد

قد ثبت بالدليل شرف العلم وفضله ، إلا أن طلاب العلم افترقوا ، فكل تدعوه نفسه الى شيء ، فمنهم من أذهب عمره

---

(١) العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، فمن اراد ان ينال عزة المؤمنين ، فليتمسك بالدين

في القراءات ، وذاك تفريط في العمر ، لأنه إنما ينبغي أن يعتمد على المشهور منها لا على الشاذ ، وماأقبح بالقارىء أن يُسأل عن مسألة في الفقه ولايدري ، وليس ما شغله عن ذلك إلا كثرة الطرق في روايات القراءات .(١)

ومنهم من يتشاغل بالنحو وعلله فحسب ، ومنهم من يتشاغل باللغة فحسب ، ومنهم من يكتب الحديث ويكثر ولا ينظر في فهم ما كتب . وقد رأينا في مشايخنا المحدثين من كان يُسأل عن مسألة في الصلاة فلايدري مايقول ، وكذلك القراء ، وكذلك اهل اللغة والنحو .

وحدثني عبد الرحمن بن عيسى الفقيه قال حدثني ابن المنصوري قال حضرنا مع أبي محمد بن الخشاب ، وكان امام الناس في النحو واللغة ، فتذاكروا الفقه ، فقال : سلوني عما شئتم . فقال له رجل : ان قيل لنا رفع اليدين في الصلاة ماهو فماذا نقول ؟

فقال : هو ركن !

فدهشت الجماعة من قلة فقهه .

وإنما ينبغي أن يأخذ من كل علم طرفاً ثم يهتم بالفقه ، ثم ينظر في مقصود العلوم ، وهو المعاملة لله سبحانه والمعرفة به والحب له وما أبله من يقطع عمره في معرفة علم النجوم ،

---

(١) اما قراءة القرآن بانغام الغناء ، واخذ الاجرة عليه ، كلاهما لايجوز

وانما ينبغي أن يعرف من ذلك اليسير والمنازل لعلم الاوقات فأما النظر فيا يدعي أنه القضاه والحكم فجهل محض ، لأنه لاسبيل الى علم ذلك حقيقة ، وقد جرب فبان جهل مدعيه ، وقد تقع الاصابة في وقت . وعلى تقدير الاصابة لافائدة فيه إلا تعجيل الغم .

فإن قال قائل : يمكن دفع ذلك . فقد سلم أنه لاحقيقة له . وأبله من هؤلاء من يتشاغل بعلم الكيميا (١) فانه هذيان فارغ . واذا كان لا يتصور قلب الذهب نحاساً لم يتصور قلب النحاس ذهباً . فإنما فاعل هذا مستحل للتدليس على الناس في النقود ، هذا اذا صح له مراده . وينبغي لطالب العلم أن يصحح قصده ، إذ فقد الاخلاص يمنع قبول الاعمال . وليجتهد في مجالسة العلماء ، والنظر في الاقوال المختلفة ، وتحصيل الكتب ، فلا يخلو كتاب من فائدة (٢) ، وليجعل همته الحفظ ، ولا ينظر ولا يكتب إلا وقت التعب من الحفظ . وليحذر صحبة السلطان ، ولينظر في منهاج الرسول ﷺ والصحابة والتابعين ،

---

(١) الكيمياء في اصطلاحهم السعي لاكتشاف الاكسير الذي يحول المعادن كلها الى ذهب .

(٢) كما ان كثيرا من الكتب لاتخلو من مضرة ، وانما يقصد المؤلف رحمه الله كتب الدين لاامثال الكتب التي يقبل عليها الشباب اليوم .

وليجتهد في رياضة نفسه والعمل بعلمه ، ومن تولاه الحق وفقه .

٢٢٧ ـ الأصنام والحجارة

طال تعجبي من أقوام لهم أنفة وعندهم كبر زائد في الحد ، خصوصاً العرب الذين من كلمة ينفرون ويحاربون ويرضون بالقتل حتى أن قوماً منهم أدركوا الاسلام فقالوا : كيف نركع ونسجد فتعلونا أستاهنا ، فقال رسول الله ﷺ : لاخير في دين ليس فيه ركوع ولا سجود .

ومع هذه الأنفة يذلون لمن هم خير منه . هذا يعبد حجراً ، وهذا يعبد خشبة ، وقد كان قوم يعبدون الخيل والبقر ، وان هؤلاء لأخس من ابليس ، فإن إبليس انف لادعائه الكمال أن يسجد لناقص فقال : « أنا خير منه » وفرعون أنف أن يعبد شيئاً أصلاً . فالعجب من ذل هؤلاء المفتخرين المتعاظمين المتكبرين لحجر أو خشبة ، وإنما ينبغي ان يذل الناقص للكاملين . وقد أشير الى هذا في ذم الاصنام في قوله تعالى « ألهم أرجل يمشون بها ، أم لهم أيد يبطشون بها ، أم لهم أعين يبصرون بها » والمعنى أنتم لكم هذه الآلات المدركة وهم ليس لهم ، فكيف يعبد الكامل الناقص ،

غير أن هوى القوم في متابعة الاسلاف واستحلاء ما اخترعوه بآرائهم غطى على العقول ، فلم تتـأمل حقائق الامور . ثم غطى الحسد على أقوام فتركوا الحق وقد عرفوه . فأمية بن ابي الصلت ، يقرّ برسول الله ﷺ ويقصده ليؤمن به ، ثم يعود فيقول : لاأؤمن برسول ليس من ثقيف .

وابو جهل يقول: : والله ماكذب محمدُ قط ، ولكن اذا كانت السدانة والحجابة في بني هاشم ثم النبوة فما بقي لنا ؟

وابو طالب يرى المعجزات ويقول : إني لأعلم أنك عـلى الحق ، ولولا أن تعيرني نساء قريش لأقررت بها عينك .

فنعوذ بالله من ظلمة حسد ، وغيابة كبر ، وحماقة هوى يغطي على نور العقل ، ونسأله إلهام الرشد ، والعمل بمقتضى الحق .

٢٢٨ ـ جماعة من الصالحين

قد سمعنا بجماعة من الصالحين عاملوا الله عز وجـل على طريق السلامة والمحبة واللطف فعاملهم كذلك ، لانهم لايحتمل طبعهم غير ذلك . ففي الاوائل برخ العابدخرج يستسقى فقال : ماهذا الذي لانعـــرفه منك ؟ اسقنا الساعة . فسقوا . وفي الصحابة أنس بن النضير يقول : والله لاتكسر سن الربيع . فجرى الامر كما قال . فقال النبي ﷺ : إن من عباد الله من

لو أقسم على الله لأبره . وهؤلاء قوم غلب عليهم ملاحظة اللطف والرفق فلطف بهم ، وأجروا على ما اعتقدوا . وهناك أعلا من هؤلاء يسألون فلا يجابون ، وهم بالمنع راضون ، ليس لأحدهم انبساط ، بل قد قيدهم الخوف ، ونكّس رؤوسهم الحذر ، ولم يروا ألسنتهم أهلا للانبساط ، فغاية آمالهم العفو ، فان انبسط أحدهم بسؤال فلم ير الاجابة عاد على نفسه بالتوبيخ ، فقال : مثلك لايجاب . وربما قال : لعل المصلحة في منعي .

وهؤلاء الرجال حقاً ، والأبله الذي يرى له من الحق أن يجاب فان لم يُجَب تذمّر في باطنه كانه يطلب أجرة عمله ، وكانه قد نفع الخالق بعبادته . وإنما العبد حقاً من يرضى ما يفعله الخالق فان سأل فاجيب رأى ذلك فضلا ، وان منع رأى تصرف مالك في مملوك ، فلم يجُل في قلبه اعتراض بحال .

٢٢٩ ـ الواجب على العالم والزاهد

رأيت جماعة من العلماء يتفسّحون ويظنون أن العلم يدفع عنهم ، ومايدرون أن العلم خصمهم ، وأنه يُغفر للجاهل سبعون ذنباً قبل أن يغفر للعالم ذنب ، وذاك لان الجاهل لم يتعرض بالحق ، والعالم لم يتأدب معه . ورأيت بعض القوم يقول : انا قد ألقيت منجلي بين الحصادين ونمت . ثم كان يتفسح في أشياء لاتجوز . فتفكرت فاذا العلم الذي هو معرفة

الحقائق ، والنظر في سير القدماء ، والتأدب بآداب القوم ، ومعرفة الحق ومايجب له ليس عند القوم ، إنما عندهم صور الفاظ يعرفون بها مايحل وما يحرم ، وليس ذلك العلم النافع . إنما العلم فهم الاصول ومعرفة المعبود وعظمته ومايستحقه . والنظر في سير الرسول ﷺ وصحابته ، والتأدب بآدابهم ، وفهم مانقل عنهم ، هو العلم النافع الذي يدع أعظم العلماء أحقرَ عند نفسه من أجهل الجهال .

ورأيت بعض من تعبد مدة ثم فتر ، فبلغني أنه قال : قد عبدته عبادة ماعبده بها أحد ، والآن قد ضعفت .

فقلت : ما أخوفني أن تكون كلمته هذه سبباً لرد الكل ، لانه قد رأى أنه عمل مع الحق شيئاً ، وإنما وقف يسأل النجاة بطلب الدرجات ، ففي حق نفسه فعل . وما مثله الا لمثل من وقف يكدي[1] ، فلا ينبغي أن يمن على المعطي . وإنما سبب هذا الانبساط الجهل بالحقائق وأين هو من كبار علماء المعاملة[2] الذين كان فيهم مثل صلة بن أشيم إذا رآه السبع هرب منه ، وهو يقول اذا انقضى الليل عند صلاته : يارب أجرني من النار ، ومثلي يسأل الجنة ؟!

وأبلغ من ذا قول عمر : وددت أن أنجو كفافاً لا لي.

---

(١) اي يسأل : يستجدي (٢) أي معاملة الله

ولا عليّ . وقول سفيان عند موته لحماد بن سلمـــة : أترجو لمثلي أن ينجو من النار ؟ وقول أحمد : لا . بعدُ .

فأنا أحمد الله عز وجل اذ تخلصت من جهل المتسمين بالعلم من هؤلاء الذين ذممتهم ، وبالزهد من هؤلاء الذين عبتهـم ، فاني قد اطلعت من عظمة الخالق وسَيَر المحققين على مايخرس لسان الانبساط ، ويمحو النظر الى كل فعل . وكيف أنظر الى فعلي المستحسن ، وهو الذي وهبه لي وأطلعني على ماخفيه عن غيري ، فهل ذلك بي أو بلطفه ؟ وكيف أشكر توفيقي الشكر ؟ ثم أي عالم اذا سبر أمور العلماء من القدماء لايحتقر نفسه ، هذا في صورة العلم ، فدع معنـاه وأي عابد يسمع بالعباد ولايجري في صورة التعبد ، فدع المعنى[1] . نسأل الله عز وجل معرفة تعرفنا أقدارنا ، حتى لايبقى للعُجْب بمحتقر ما عندنا أثرٌ في قلوبنا . ونرغب اليه في معرفةٍ لعظمته تخرس الالسن أن تنطق بالادلال ونرجو من فضله توفيقاً نلاحظ به آفات الاعمال التي بها نزهو حتى تثمر الملاحظة لعيوبها الخجل من وجودها . إنه قريب مجيب .

٢٣٠ ـ الصبر والتسليم

سبب تنغيص العيش فوات الحظوظ العاجلة : وليس في الدنيا

---

(١) يريد ان يقول : في صورته فضلا عن معناه « معنى التعبد وحقيقته »

طيب عيش على الدوام إلا العارف الذي شغله رضى حبيبه والتزود للرحيل اليه . فانه إن وجد راحة في الدنيا استعان بها على طلب الآخرة . وان وجد شدة اغتنم الصبر عليها لثواب الآخرة . فهو راض بكل مايجري عليه . يرى ذلك من قضاء الخالق ، ويعلم أنه مراده ، كما قال قائلهم :

إن كان رضاكم في سهري فسلام الله على وسني

فأما من طلب حظه فانه يقلق لفوت مراده ، ويتنغص لبعد مايشتهي ، فلو افتقر تغير قلبه ، ولو ذل تغير . وهذا لأنه قائم مع غرضه وهواه . وما أحسن قولَ الحصْري : ايش عليّ مني وايش لي في ؟

وهذا كلام عارف . لأنه إن كان ينظر إلى حقيقة الملكية فعبد يتصرف فيه مولاه ، فاعتراضه لاوجه له ، وارادته أن يقع غير مايجب فضول في البين . وان نظر أن النفس كالملك له فقد خرجت عن يده من يوم « ان الله اشترى » أفيحسن لمن باع شاة أن يغضب على المشتري إذا ذبحها أو يتغير قلبه . والله لو قال المالك سبحانه : انما خلقتكم ليستدل على وجودي ، ثم أنا أفنيكم ولا اعادة . لكان يجب على النفوس العارفة به أن تقول سمعاً لما قلت وطاعة ، وأي شيء لنا فينا حتى نتكلم . فكيف وقد وعد بالأجر الجزيل ، والخلود في النعيم ، الذي لاينفد . لكن

طريق الوصول تحتاج إلى صبر على المشقة ومابيقى لتعبِ رملِ (زرود)[1] أثرٌ اذا لاح الحرم . فالصبرَ الصبرَ ياأقدام المبتدئين لاح المنزل . والسرورَ السرورَ يامتوسطين ضربتْ الخيمَ . والفرح الكامل ياعارفين ، قد تلقيتم بالبشائر .

زالت والله أثقال المعاملات عنكم ، فكانت معرفتكم بالمبتلى حلاوة اعقبت شربة المجاهدة ، فلم يبق في الفم للمر أثر . تخايلوا قرب المناجاة ولذة الحضور . ودوارَ كؤوس الرضى عنكم فقد أخذت شمس الدنيا في الافول :

مابيننـــا إلاّ تصرُّ ... مُ هذه السبع البواقي
حتى يطول حديثنـــا ... بصنوف ماكنـا نلاقي

٢٣١ ـ لاتركن إلى عدوك

من التغفل أن تعاقب شخصاً أو تسيء اليه إساءة عظيمة وتعلم أن مثل ذلك يجدد الحقد ، فتراه ذليلا لك طائعاً تائباً مقلعاً عما فعل ، فتعود فتستطيبه وتنسى مافعلت وتظن أنه قد انمحى من قلبه . فربما حمل لك المحن ونصب لك المكايد ، كما جرى لقصير مع الزباء[2] ، واخباره معروفة . فإياك أن تساكن

---

(١) زرود : بادية كثير رملها

(٢) قصة الزباء موضوعة لا اصل لها

من آذيته ، بل ان كان ولابد فمن خارج فما تؤمن الاحقاد . ومتى رأيت عدوك فيه غفلة لايثنيه مثل هذا فأحسن اليه ، فانه ينسى عداوتك ولايظن انك قد أضمرت له جزاء على قبح فعله فحينئذ تقدر على بلوغ كل غرض منه . ومن الخرق إظهار العداوة للعدو . ومن أحسنِ التدبير التلطفُ بالاعداء الى أن يمكن . ولو لم يمكن كان اللطف سبباً في كف أكفهم عن الاذى ، وفيهم من يستحي لحسن فعلك فيتغير قلبه لك . وقد كان جماعة من السلف اذا بلغهم ان رجلا قد شتمهم أهدوا اليه واعطوه ، فهم بالعاجل يكفون شره ، ويحتالون في تقليب قلبه ، ويقع بذلك لهم مهلة لتدبير الحيل عليه ان أرادوا وكفى بالذهن الناظر إلى العواقب والتأمل لكل ممكن مؤدباً .

٢٣٢ ـ ربما كان المنع لطفا من الله بك

تفكرت في قول شيبان الراعي لسفيان : ياسفيان عُدَّ منع الله إياك عطاء منه لك ، فانه لم يمنعك بخلا ، انما منعك لطفاً .

فرأيته كلام من قد عرف الحقائق . فان الانسان قد يريد المستحسنات الفائقات فلا يقدر ، وعجزه اصلح له ، لانه لو قدر عليهن تشتت قلبه إما بحفظهن أو بالكسب عليهن ،

فان قوي عشقه لمن ضاع عمره وانقلب هم الآخرة الى الاهتمام بهن . فان لم يردنه فذاك الهلاك الاكبر . وان طلبن نفقة لم يطقها كان سبب ذهاب مروءته وهلاك عرضه . وان اردن الوطء وهو عاجز فربما أهلكنه او فجرن . ومات معشوقه هلك هو أسفاً . فالذي يطلب الفائق يطلب سكينا لذبحه ومايعلم . وكذلك انفاذ قدر القوت فانه نعمة وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً .

ومتى كثر ، تشتت الهم . فالعاقل من علم أن الدنيا لم تخلق للتنعيم ، فقنع بدفع الوقت في كل حال .

٢٢٣ ـ التعلل بالاقدار

رأيت جماعة من الخلق يتعللون بالاقدار ، فيقول قائلهم : إن وُفقت فعلت . وهذا تعلل بارد ، ودفع الامر بالراح ، وهو يشير الى رد اقوال الانبياء والشرائع جميعها . فانه لوقال كافر للرسول : إن وفقني اسلمت ، لم يجبه الا بضرب العنق. وهذا من جنس قول الناس لعلي رضي الله عنه : ندعوك الى كتاب الله فقال : كلمة حق اريد بها باطل . وكذلك قول المتعللين عن الصدقة « أنطعم من لو يشاء الله اطعمه » ولعمري ان التوفيق أصل الفعل . ولكن التوفيق أمر خفي والخطاب

بالفعل أمر جلي . فلا ينبغي أن يتشاغل عن الجلي بذكر الخفي . ومما يقطع هذا الاحتجاج ان يقال لهذا القائل : إن الله سبحانه لم يكلفك شيئاً ، الا وعندك أدوات ذلك الفعل ولك قدرة عليه ، فان كانت القدرة عليه معدومة والادوات غير محصلة فلا أمر ولا تكليف ، وان كنت تسعى بتلك الادوات في تحصيل غرضك وهواك ، فاسع بها في اقامة مفروضك .

مثال ذلك انك تسافر في طلب الربح ، وتُسأل الحج فلا تفعل ، ويثقل عليك الانتباه بالليل ، فلو اردت الخروج الى العيد انتبهت سحراً ، وتقف في بعض اغراضك مع صديق تحادثه ساعات فاذا وقفت في الصلاة استعجلت ، وثقل عليك .

فاياك اياك أن تتعلق بامر لاحجة لك فيه ، ثم من نصيبك ينقص ، ومن حظك يضيع ، فانما تُحَرَّك لك ، وانما نُحرض لنفعك . فبادر فانك مبادَر بك .

ومما يزيل كسلك ان تأملته أن تتخايل ثواب المجتهدين وقد فاتك . ويكفي ذلك في توبيخ المقصر ان كانت له نفس . فأما الميت الهمة : فما لجرح بميت ايلام .

كيف بك اذا قمت من قبرك وقد قرّبت نجائب النجاة لأقوام وتعثرتَ ، واسرعت أقدام الصالحين على الصراط وتخبطتَ

هيهـــات . ذهبت حلاوة البطالة ، وبقيت مرارة الاسف ، ونضب ماء كأس الكسل ، وبقي رسوب الندامة . وماقدر البقاء في الدنيا بالاضافة الى دوام الآخرة ! ثم فاقدر عمرك في في الدنيا ونصفه نوم ، وباقيه غفلة . فيا خاطبا حور الجنـــة وهو لايملك فلساً من عزيمة ، افتح عين الفكر في ضوء العبر لعلك تبصر مواقع خطاك ، فان رأيت تثبطـاً من الباطن فاستغث بعون اللطف ، وتنبه في الاسحار ، لعلك تتلمح مراكب الارباح ، وتعلق على قطار المستغفرين ولو خطوات ، وانزل في رباعة المجتهدين ولو منزلا .

٢٣٤ ـ الرد على المتكلمين والمتصوفة

نظرت في قول أبي الدرداء رضي الله عنه : ما أعرف شيئاً مما كنا عليه اليوم إلا القبلة .

فقلت : واعجباً كيف لو رآنا اليوم وماعلينا من الشريعة إلا الرسم ؟ والشريعة هي الطريق . وانما تعرف شريعة رسول الله ﷺ إمـا بأفعاله أو أقواله . وسبب الانحراف عن طريقه ﷺ إما الجهل بها فيجري الانسان مع الطبـع والعادات ، وربما اتخذ مايضاد الشريعة طريقاً ، وقد كانت الصحـــابة شاهدته وسمعت منه فقلّ أن ينحرف أحد منهم عن جادته ، إلا أنه

ابا الدرداء رضي الله عنه رأى بعض الانحراف لميل الطباع فضج فإنه قد يعرف الانسان الصواب ، غير أن طبعه يميل عنه ، ومازالت الاحاديث المنقولة عن الرسول ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم يقل الاسعاد بها والنظر فيها الى أن أعرض عنها بالكلية في زماننا هذا وجهلت إلا النادر ، واتخذت طرائق تضاد الشريعة ، وصارت عادات ، وكانت أسهل عند الخلق من اتباع الشريعة . واذا كان عامة من ينسب الى العلم قد أعرض عن علوم الشريعة فكيف العوام ؟

ولما أعرض كثير من العلماء عن المنقولات ابتدعوا في في الاصول والفروع . فالاصوليون تشاغلوا بالكلام وأخذوه من الفلاسفة وعلماء المنطق . ودخلت أيدي الفروعيين في ذلك فتشاغلوا بالجدل وتركوا الحديث الذي عليه يدور الحكم . ثم رأى القُصّاص [1] ان النّفاق بالنّفاق ، فأقبل قوم منهم على التلبيس بالزهد ، ومقصودهم الدنيا . ورأى جمهورهم أن القلوب تميل الى الاغاني ، فأحضروا المطربين من القراء وأنشدوا أشعار الغزل ، وتركوا الاشتغال بالحديث ، ولم يلتفتوا الى نهي العوام عن الربا والزنا ، وأمرهم بأداء الواجبات ، وصار متكلمهم يقطع المجلس بذكر ليلى والمجنون والطور وموسى

---

(١) اي الوعاظ

وأبي يزيد والحلاج والهذيان الذي لامحصول له ، وانفرد أقوام بالتزهد والانقطاع ، فامتنعوا عن عيادة المرضى ، والمشي بين الناس ، وأظهروا التخاشع ، ووضعوا كتباً للرياضـــات ، والتقلل من الطعام . وصارت الشريعة عندهم كلام أبي يزيد والشبلي والمتصوفة ، ومعلوم ان من سبر الشريعة لم ير فيها من ذلك شيئاً .

وأما الامراء فجروا مع العـادات ، وسموا مايفعلونه من القتل والقطع سياسات ، لم يعملوا فيها بمقتضى الشريعـة ، وتبع الاخير في ذلك المتقدم فأين الشريعة المحمدية ومن أين تعرف مـع الاعراض عن المنقولات ؟ نسأل الله عز وجل التوفيق للقيام بالشريعة ، والاعانة على رد البدع انه قادر .

٢٣٥ ـ لذات الدنيا مشوبة بنغص

كنت أسمع علي بن الحسين الواعظ يقول على المنبر : والله لقد بكيت البارحة من يد نفسي .

فبقيت أنا أتفكر وأقول : اي شيء قد فعلت نفس هذا حتى يبكي . هذا رجل متنعم له الجواري التركيـات . وقد بلغني أنه تزوج في السر بجمـلة من النساء ، ولا يَطْـعَـم إلا الغاية من الدجاج والحلوى ، وله الدخل الكثير والمال الوافر

والجاه العريض ، والافضال على الناس ، وقد حصل طرفاً من العلم ، واستعبد كثيراً من العلماء بمعروفه ، وراحته دائمة . فما الذي يبكيه ؟

فتفكرت فعلمت أن النفس لاتقف على حد بل تروم من اللذات مالا منتهى له ، وكلما حصل لها غرض برد عندهـا وطلبت سواه . فيفنى العمر ويضعف البدن ويقع النقص ، ويرق الجاه ، ولا يحصل المراد وليس في الدنيا أبله [1] ممن يطلب النهاية في لذات الدنيا وليس في الدنيا على الحقيقة لذة ، إنما هي راحة من مؤلم .

فالسعيد من اذا حصلت له امرأة أو جارية فمال اليهـا ومالت اليه ، وعلم سترها ودينها ، أن يعقد الخنصر على صحبتها . وأكثر أسباب دوام محبتها أن لايطلق بصره . فمتى أطلق بصره أو أطمع نفسه في غيرها فإن الطمع في الجديد ينغص الخلق وينقص المخالطة ، ويستر عيوب الخارج ، فتميل النفس الى المشاهد الغريب ، ويتكدر العيش مع الحـاضر القريب كما قال الشاعر :

والمرء مادام ذا عين يقلبها   في أعين الناس [2] موقوف على الخطر

---

(١) القياس ان يقول « اشد بلاهة » لان ابله صفة . لايجيء منها افعل التفضيل

(٢) الذي احفظه ـ في اعين العين ـ والعين جمع عيناء . ومنه الحور العين والحور جمع حوراء وهي التي في العين منها حور ـ وهي ابيات جيدة اولها :

كل المصائب مبداها من النظر   ومعظم النار من مستصغر الشرر

يسر مقلتـه ماضر مهجتـه لا مرحباً بسرور عاد بالضرر

ثم تصير الثـانية كالاولى ، وتطلب النفس ثالثة وليس لهذا آخر ، بل الغض عن المشتهيات ، ويـأس النفوس من طلب المستحسنات ، يطيب العيش مع المعاشر.

ومن لم يقبل هذا النصح تعثر في طرق الهوى وهلك على البارد . وربما سعى لنفسه في الهلاك العـاجل ، أو في العار الحاضر ، فان كثيراً من المستحسنات لسن بصيّنات ولايفي التمتع بهن بالعار الحاصل ، ومنهن المبذرات في المال ، ومنهن المبغضة للزوج وهو يحبها كعابد صنم . وأبلهُ البُله الشيخ الذي يطلب صبية .. ولعمري إن كمال المتعة إنما يكون بالصبا كما قال القائل : (نقلت بنفسي النشأ الصغار) ومتى لم تكن الصبية بالغة لم يكمل بها الاستمتاع ، فاذا بلغت ارادت كثرة الجماع والشيخ لايقدر . فان حمل على نفسه لم يبلغ مرادها ، وهلك سريعاً . ولاينبغي أن يغتر بشهوته إلى الجماع فان شهوته كالفجر الـكاذب . وقـد رأينا شيخاً اشترى جارية فبات معها فانقلب عنها ميتاً ، وكان في المارستان شاب قد بقي شهرين بالقيام فدخلت عليه زوجته فوطئها فانقلب عنها ميتاً . فبان أن النفس باقية بما عندها من الدم والمني فاذا فرغا ولم تجد ماء تعتمد عليه ذهبت ، وان قنـع الشيخ بالاستمتاع من غير وطء فهي لاتقنـع فتصير كالعدوّ

له فربما غلبها الهوى ففجرت أو احتالت على قتله ، خصوصاً الجواري اللواتي أغلبهن قد جئن من بلاد الشرك ففيهن قسوة القلب .

وقبيح بمن عبر الستين أن يتعرض بكثرة النساء ، فان اتفق معه صاحبة دين قبل ذلك فليورع لهـا معاشرتها ، وليتمم نقصه عندها تارة بالانفاق ، وتارة بحسن الخلق ، وليزد في تعريفها أحوال الصالحات والزاهدات ، وليكثر من ذكر القيامة وذم الدنيا . وليعرّض بذكر محبة العرب فانهم كانوا يعشقون ولايرون وطء المعشوق كما قال قائلهم :

انما الحب قبلة ... وغمز كف وعضد[١]

انما العشق كذا ... ان نكح الحب فسد[٢]

فان قدر أن يشغلها بحمل أو ولد عرقلها به ، فاستبقى قوته في مدة اشتغالها بذلك فإن وطىء فليصبر عن الانزال حفظاً لقوته وقضاء لحقها .

وقد قيل لبشر : لمَ لم تتزوج ؟ فقال : على ماذا أغر مسلمة ، وقد قال الله عز وجل « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف »

---

(١) كذا في الاصل والاصح : ماالحب الا قبلة ... ماالحب الا هكذا ...

(٢) ذلك ان الحب ليس الا رغبة في النكاح ، مهما زوقه الشعراء ، فان تم المراد بطلت الرغبة، ومن هنا تبين ان الحب الشريف او العذري ، لاوجود له ، وكل حب غايته النكاح. انظر لتفصيل الكلام في الحب في كتابي ـ صور وخواطر .

والمسكين من دخل في أمر لم يتلمح عواقبه قبل الدخول ورأى حبة الفخ فبادر طالباً لها ناسياً تعرقل الجناح والذبح . ومجموع ماقد بسطته حفظ البصر عن الاطلاق ، ويأس النفس عن التحصيل ، قنوعاً بالحاصل خصوصا من قد علت سنه ، وعلم أن الصبية عدوٌ له متمنية هلاكه ، وهو يربها لغيره . وفي بعض ماذكرته مايردع العاقل عن التعرض لهذه الآفات . نسأل الله عز وجل توفيقا من فضله وعملا بمقتضى العقل والشرع . انه قريب مجيب .

٢٣٦ ـ موعظة في الاستعداد للموت

أعجب الاشياء اغترار الانسان بالسلامة ، وتأميله الاصلاح فيما بعد . وليس لهذا الامل منتهى ، ولا للاغترار حدّ ، فكلما أصبح وامسى معافى زاد الاغترار وطال الامل . وأي موعظة أبلغ من أن ترى ديار الاقران واحوال الاخوان وقبور المحبوبين ، فتعلم أنك بعد أيام مثلهم . ثم لايقع انتباه حتى ينتبه الغير بك . هذا والله شأن الحمقى . حُوشي من له عقل أن يسلك هذا المسلك . بل والله ان العاقل ليبادر السلامة فيدخر من زمنها للزمن ، ويتزود عند القدرة على الزاد لوقت العسرة . خصوصاً لمن قد

علم ان مراتب الآخرة انما تعلو بمقدار علو العمل لها . وان التدارك بعد الفوت لا يمكن . وقدّر أن العاصي عفي عنه . أينال مراتب العمال ؟ . ومن أجال على خاطره ذكر الجنة التي لاموت فيها ولا مرض ولا نوم ولا غم ، بل لذاتها متصلة من غير انقطاع ، وزيادتها على قدر زيادة الجد ههنا ، انتهبَ هذا الزمانَ فلم ينم إلا ضرورة ، ولم يغفل عن عمارة لحظة . ومن رأى ان ذنباً قد مضت لذته وبقيت آفاته دائمة كفاه ذلك زجراً عن مثله ، خصوصاً الذنوب التي تتصل آثارها مثل أن يزني بذات زوج فتحمل منه ، فتلحق بالزوج ، فيُمنع الميراثَ أهلُه ، ويأخذه من ليس من أهله ، وتتغير الانساب والفرش ، ويتصل ذلك أبداً ، وكله شؤم لحظة . فنسأل الله عز وجل توفيقاً يلهم الرشاد ، ويمنع الفساد ، انه قريب مجيب .

٢٣٧ ـ أفعال الخالق وأفعال المخلوق

تأملت سبب تخليط العقائد ، فإذا به الميل الى الحس وقياس الغائبات على الحاضر . فإن أقواماً غلب عليهم الحس ، فلما لم يشاهدوا الصانع جحدوا وجوده ، ونسوا أنه قد ظهر

بأفعاله ، وأن هذه الافعال لابد لها من فاعل ، فإن العاقل اذا مرّ على صحراء خالية ثم عاد وفيها غرس وبناء علم أنه لابد من غارس ، إذ الغرس لايكون بنفسه ولا البناء . ثم جاء قوم فأثبتوا وجود الصانع ، ثم قاسوه على أحوالهم فشبهوا ، حتى أن قائلهم يقول في قوله « ينزل الى السماء » : ينتقل . ويستدل بأن العرب لاتعرف النزول إلا الانتقال .

وضل خلق كثير في صفاته كما ضل خلق في ذاته . فظن أقوام أنه يتأثر حين سمعوا أنه يغضب ويرضى ، ونسوا أن صفته تعالى قديمة لايحدث منها شيء . وضل خلق في أفعاله فأخذوا يعللون فلم يقنعوا بشيء . فخرج منهم قوم الى أن نسبوا فعله الى ضده تعالى عن ذلك . ومن رزق التوفيق فليُحضر قلبه لما أقول :

اعلم أن ذاته سبحانه لاتشبه الذوات ، وصفاته ليست كالصفات ، وأفعاله لاتقاس بأفعال الخلق . أما ذاته سبحانه فإنا لانعرف ذاتاً إلا أن تكون جسماً وذاك يستدعي سابقة تأليف ، وهو منزه عن ذلك ، لأنه المؤلف ، أو أن يكون جوهراً فالجوهر متحيز ، وله أمثال ، وقد جل عن ذلك . أو عرضاً فالعرض لايقوم بنفسه بل بغيره ، وقد تعالى عن ذلك . فإذا أثبتنا ذاتاً قديمة خارجة عما يعرف ، فليعلم أن الصفات تابعة لتلك الذات ، فلا يجوز لنا أن نقيس شيئاً منها على

مانعقله ونفهمه ، بل نؤمن به ونسلمه ، وكذلك أفعاله ؛ فإن أحدنا لو فعل فعلاً لايجتلب به نفعاً ، ولا يدفع به عنه ضراً عدّ عابثاً . وهو سبحانه أوجد الخلق لا لنفع يعود إليه ، ولا لرفع ضر ، إذ المنافع لاتصل اليه ، والمضار لاتتطرق عليه .

فان قال قائل : إنما خلق الخلق لينفعهم . قلنا : يبطله ، أنه خلق خلقاً منهم للكفر وعذبهم . ونراه يؤلم الحيوان والاطفال، وهو قادر ألاّ يفعل ذلك .

فان قال قائل : انه يثيب على ذلك .

قلنا : وهو قادر ان يثيب بلا هذه الاشياء ، فإن السلطان لو أراد ان يغني فقيراً فجرحه ثم أغناه ليم على ذلك ، لأنه قادر ان يغنيه بلا جراح . ثم من يرى ماجرى لرسول الله ﷺ وعلى أصحابه من الجوع والقتل مع قدرة الناصر ، ثم يسأل في أمه فلا يجاب ، ولو كان المسؤول بعضنا قلنا : لِمَ تمنع ما لا يضرك غير ان الحق سبحانه لاتقاس أفعاله على أفعالنا ولا تعلل .

والذي يوجب علينا التسليم ان حكمته فوق العقل ، فهي تقضي على العقول ، والعقول لاتقضي عليها . ومن قاس فعله على أفعالنا غلط الغلط الفاحش . وانما هلكت المعتزلة من هذا الفن. فانهم قالوا : كيف يأمر بشيء ويقضي بامتناعه ، ولو أن انساناً دعانا

الى داره ثم أقام من يصد الداخل لعيب . ولقد صدقوا فيما يتعلق بالشاهد . فاما مَنْ أفعاله لاتعلل ولايقاس بشاهد ، فانا لانصل الى معرفة حكمته . فان قال قائل : فكيف يمكنني ان اقود عقلي الى ماينافيه ؟ قلنا : لامنافاة ، لان العقل قد قطع بالدليل الجلي انه حكيم ، وانه مالك ، والحكيم لايفعل شيئا إلا لحكمة ، غير أن تلك الحكمة لايبلغها العقل . ألا ترى أن الخضر خرق سفينة وقتل شخصا ، فأنكر عليه موسى عليهما السلام بحكم العلم ولم يطلع على حكمة فعله ، فلما أظهر له الحكمة اذعن ولله المثل الاعلى [١] . فإياك إياك ان تقيس شيئاً من أفعاله على أفعال الخلق أو شيئا من صفاته أو ذاته سبحانه وتعالى . فانك ان حفظت هذا سلمت من التشبيه الذي وقع فيه من رأى الاستواء اعتماداً ، والنزول نقلة ، ونجوت من الاعتراض الذي أخرج قوماً الى الكفر حتى طعنوا في الحكمة . وأول القوم ابليس ، فانه رأى تقديم الطين على النار ليس بحكمة ، فنسي انه إنما علم ذلك (بزعمه) بالفهم الذي وهب له ، والعقل الذي منحه فنسي ان الواهب اعلم (أو لم يروا ان الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة) ولقد رأيت لابن الرومي [٢]

---

(١) هذا والله الحق ، الذي يريح قلب الانسان ويثبت الايمان ويرضي الرحمان

(٢) في بعض المخطوطات : الرمودني ولم اقف على ترجمته . ومافي الاصل من اله « ابن الرومي » فهو ان لم يكن تحريفاً فليس المراد به ابن الرومي الشاعر قطعاً

اعتراضاً على من يقول بتخليد الكفار في النار : ينبغي ان يقبل كل ما يقوله العقل ، ولا يرد بعضه اذ ليس رد بعضه بأولى من رد الكل ، وتخليد الكفار لاغرض فيه للمعذّب ولاللمعذّب فلا يجوز ان يكون .

فقلت : العجب من هذا الذي يدعي وجود العقل ولا عقل عنده . وأول ما أقول له : أصح عندك الخبر عن الخالق سبحانه انه أخبر بخلود أهل النار أم لم يصح ؟ فان كان ماصح عنده فالكلام اذن في اثبات النبوة وصحة القرآن ، فما وجه ذكر الفرع مع جحد الاصل .

وان قال : قد ثبت عندي ، فواجب عليه ان يتحمل لاقامة العذر ، لا ان يقف في وجه المعارضة . وانما ينكر هذا من يأخذ الامر من الشاهد . وقد بينا أن ذات الحق لا كالذوات .. وان صفته لا كالصفات ، وأن افعاله لاتعلل . ولو تلمح شيئا من التعليل لخلود الكفار لبان ، اذ من الجائز أن يكون دوام تعذيبهم لاظهار صدق الوعيد . فانه قال : من كفر بي خلدته في العذاب ، ولاجناية كالكفر ولاعقوبة كدوام الاحراق ، فهو يدوم ليظهر صدق الوعد . ومن الجائز أن يكون ذلك لتتمة تنعيم المؤمنين فانهم أعداء الكفار ، وقد قال سبحانه « ويشف صدور قوم مؤمنين » وكم من قلق في صدر وحنق على أبي جهل

فيما فعل ، وكم غم في قلب عمّار وأمه سمية وغيرهم من أفعال الكفار بهم فدوام عذابهم شفاء لقلوب أهل الايمان .

ومن الجائز أن يدوم العذاب لدوام الاعتراض وذكر المعذب بما لايحسن ، فكلما زاد عذابهم زاد كفرهم واعتراضهم فهم يعذبون لذلك . ودليل دوام كفرهم « ويحلفون له كما يحلفون لكم » فاذن كفرهم مازال ، ومعرفتهم به ماحصلت ، والشر كامن في البواطن ، وعلى ذلك يقع التعذيب « ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه » .

٢٣٨ ـ لاتعترض على الخالق

ينبغي المؤمن بالله سبحانه إذا نظر في الفصل الذي قد تقدم هذا أن لايعترض على الله سبحانه في شيء لا في باطنه ولا في ظاهره ، ولايطلب تعليلات أفعاله . فان المتكلمين أعرضوا عن السنن [1] وتكلموا بآرائهم فما صفى لهم شرب ، بدليل اختلافهم . وكذلك إضمار القياس لمـّا أعملوه جاءت أحاديث تعكر عليهم . والصواب التعليل لما يمكن ، والتسليم لما يخفى . وكذلك سؤال الحق سبحانه ، فاذا دعا المؤمن ولم ير اجابة سلـّم وفوض وتأول المنع ، فيقول : ربما يكون المنع أصلح ، وربما يكون لأجل ذنوبي ، وربما يكون التأخير أولى ، وربما لم يكن هذا مصلحة .

(١) هذا الكلام ينطبق على من اعرض عن السنن ومتكلمو الاشاعرة لم يعرضوا عنها فلا يشملهم .

واذا لم يجد تأويلا لم يختلج في باطنه نوع اعتراض ، بل يرى أنه قد تعبد بالدعاء ، فان أنعم عليه فبفضل ، وان لم يجب فمالك يفعل مايشاء . على أن اكثر السؤال إنما يقع في طلب أغراض الدنيا التي إذا ردت كان أصلح . فليكن هم العاقل في إقامة حق الحق[١] والرضا بتدبيره وان اساء[٢] . فمتى أقبلتَ عليه أقبل على اصلاح شأنك ، واذا عرفت أنه كريم فلذ به ولاتسأل . ومتى أقبلت على طاعته فمحال أن يجوّد صانع وينصح في العمل ثم لايعطى الاجرة .

٢٣٩ ـ وجوب الاستعداد الدائم للعنيم في الجنة

والله اني لأتخايل دخول الجنة ودوام الاقامة فيها من غير مرض ولابصاق ولا نوم ولا آفة تطرأ ، بل صحة دائمة واغراض متصلة لايعتورها منغص ، في نعيم متجدد في كل لحظة الى زيادة لاتتناهى ، فأطيش ويكاد الطبع يضيق عن تصديق ذلك لولا أن الشرع قد ضمنه . ومعلوم أن تلك المنازل انما تكون على قدر الاجتهاد ههنا ،فواعجبا من مضيع لحظة يقع فيها، فتسبيحة يغرس لها في الجنة نخلة أكلها دايم وظلها . فياأيها الخائف من فوت ذلك شجع قلبك بالرجاء . ويا أيها المنزعج لذكر الموت تلمح مابعد مرارة الشربة من العافية . فانه من ساعة

(١) اي حق الله (٢) اي وان كان في التدبير مساءة للعبد لا ان الله يسيء تعالى الله عن ذلك .

خروج الروح لابل قبل خروجها تنكشف المنازل لأصحابها . فيهون سير المجذوب للذة المنتقل اليه . ثم الارواح في خواصل طير تعلق[1] في اشجار الجنة . فكل الآفات والمخافات في نهار الاجل ، وقد اصفرت شمس العمر . فالبدار البدار قبل الغروب ولا معين يرافق على تلك الطريق إلا الفكر اذا جلس مع العقل فتذاكرا العواقب ، فاذا فرغ ذلك المجلس فالنظر في سير المجدين فانه يعود مستجلبا للفكر منها للفضائل ، والتوفيق من وراء ذلك . ومتى أرادك لشيء هيأك له ؛ فأما مخالطة الذين ليس عندهم خبر إلا من العاجلة فهو من اكبر اسباب مرض الفهم وعلل العقل ، والعزلة عن الشر حمية ، والحمية سبب العافية .

٢٤٠ ـ الاعراض عن الله عز وجل سبب الهموم

رأيت سبب الهموم والغموم الاعراض عن الله عز وجل والاقبال على الدنيا . وكلما فات منها شيء وقع الغم لفواته . فأما من رزق معرفة بالله تعالى فانه يستغني بالرضا بالقضاء ، فمهما قدر له رضي ، وان دعا فلم ير أثر الاجابة لم يختلج في قلبه اعتراض ، لأنه مملوك مدبّر فتكون همته في خدمة الخالق . ومن هذه صفته لا يؤثر جمع مال ، ولا مخالطة الخلق ، ولا الالتذاذ بالشهوات . لأنه إما ان يكون مقصراً في المعرفة فهو

(١) اي ترعى وتأكل .

مقبل على التعبد المحض يزهد في الفاني لينال الباقي . وإما أن يكون له ذوق في المعرفة فانه مشغول عن الكل بصاحب الكل . فتراه متأدبا في الخلوة به، مستأنساً بمناجاته ، مستوحشا من مخالطة خلقه ، راضيا بما يقدر له . فعيشه معه كعيش محب قد خلا بحبيبه لا يريد سواه ، ولا يهتم بغيره ، فأما من لم يرزق هذه الاشياء ، فانه لايزال في تنغيص متكدر العيش ، لان الذي يطلبه من الدنيا لايقدر عليه ، فيبقى أبداً في الحسرات مع مايفوته من الآخرة بطيب المعاملة . نسأل الله عزوجل أن يستصلحنا له فانه لاحول ولاقوة إلا به .

٢٤١ ـ الدنيا دار الخيانة والاذى

تفكرت في نفسي فرأيتني مفلساً من كل شيء ، إن اعتمدت علي الزوجة لم تكن كما أريد . ان حسنت صورتها لم تكمل أخلاقها . وان تمت أخلاقها كانت مريدة لغرضها لا لي ، ولعلها تنتظر رحيلي .

وان اعتمدت على الولد فكذلك . والخادم والمريد لي كذلك ، فان لم يكن لهما مني فائدة لم يريداني .

وأما صديق فليس ، واخ في الله كعنقاء مغرب[1] ، ومعارف يفتقدون أهل الخير ويعتقدون فيهم قد عدموا وبقيت وحدي .

(١) اي انه مثل العنقاء لاوجود له .

وعدت الى نفسي ، وهي لاتصفو الي أيضاً ولاتقيم على حالة سليمة فلم يبق إلا الخالق سبحانه . فرأيت أني ان اعتمدت على انعامه فما آمن ذلك البلاء ، وان رجوت عفوه فما آمن عقوبته فوا أسفا لاطمأنينة ولا قرار . واقلقي من قلقي ، واحرقي من حرقي ، بالله ما العيش الا في الجنة ، حيث يقع اليقين بالرضى والمعاشرة لمن لايحزن ولا يؤذي ، فأما الدنيا فما هي دار ذاك .

٢٤٢ ـ شروط مصاحبة السلطان

ينبغي لمن صحب سلطانا او محتشما أن يكون ظاهره معه وباطنه سواء ، فانه قد يدس اليه من يختبره ، فربما افتضح في الابتداء . وقد كان جماعة من الملوك يقصدون تقريب المنادم ، ويجعلون له حجرة في دورهم ، فاذا أرادوا أن يختصوه اختبروه باطناً وذاك لايدري ، فيظهر منه مالا يصلح فيطرد.

ولقد امتحن أبرَويز رجلاً من خاصته ، فدس اليه جارية معها ألطاف ، وأمرها ان لاتقعد عنده فحملتها ، ثم أنفذها مرة أخرى وأمرها ان تقعد بعد التسليم هنيهة ففعلت ، فلاحظها الرجل . ثم بعثها مرة ثالثة وأمرها أن تطيل القعود عنده وتحدثه ، فأطالت الحديث معه ، فابدى لها شيئاً من الميل اليها.

فقالت : أخاف أن يطلع علينا ، ولكن دعني أدبر في هذا .

فذهبت فاخبرت الملك بذلك ، فوجه غيرها من خواص جواريه بمثل ذلك ، فلما جاءته قال : مافعلت فلانة .

قالت : مريضة . فاربد لونه .

ثم فعلت الجارية الثانيـة مثل مافعلت الاولى ، فقالت له إن الملك يمضي الى بستانه فيقيم هناك ، فان أرادك على أن تمضي معه فأظهر أنك عليل ، فان خيّرك بين الانصراف الى دور نسائك أو المقام ههنا فاختر المقـام ههنا ، وأخبره أنك لاتقدر على الحركة ، فان اجابك الى ذلك جئت اليك كل ليلة مادام الملك غائباً .

فسكن الى قولها . ثم مضت وأخبرت الملك بذلك . فلما كان بعد ثلاث ، استدعاه الملك فقال :

اني مريض .

فعاد الرسول فاخبره فتبسم . وقال : هذا أول الشر . فوجه اليه محفة حمل فيها اليه فلما بصر به أبرويز قال :

والمحفة الشر الثاني .

فرأى العصابة على رأسه ، قال :

والعصابة الشر الثالث .

فقال له الملك : ايمـــا أحب اليك الانصراف الى نسائك ليمرّضنك أو المقام ههنا الى وقت رجوعي .

قال : المقام ههنا أرفق لي لقلة الحركة .

فتبسم وقال : حركتك ههنا إن تركت أكثر من حركتك الى منزلك .

ثم أمر له بعصا الزناة التي كان يوسم بها من زنى .

فايقن الرجل بالأمر ، وأمر أن يكتب ما كان من أمره حرفاً حرفاً فيقرأ على الناس حرفا حرفاً اذا حضروا ، وان ينفى الى أقصى المملكة ، وتجعل العصا على رأس رمح يكون معه حيث كان ليحذر منه من لايعرفه .

فلما نفي أخذ من بعض الموكلين مدية فجب بها ذكره ومات من ساعته .

قلت : وقد كان جماعة من الامراء يتنكرون ويسألون العوام عن سيرتهم ، فيتكلم العامي بما لايصلح فيضبطونه عليه وربما بعثوا دسيساً . ورب كلمات قالها مسترسل فبلّغها فضولي . ورأى عمر بن عبد العزيز رجلا من العمال كثير الصلاة ، فدس عليه من قال له : إن أخذت لك الولاية الفلانية فما تعطيني ؟

قال : أعطيك كذا وكذا .

قال عمر : غررتنا بصلاتك .

وقد بُلّغت أن رجلا كلم امرأة فاجابته فاستدعته الى دارها ، فلما دخل قامت عن قتله . فقد ينجلي من هذه الحكاية

أنه لاينبغي أن يسكن الى قول امرأة أو بعل يجوز أنه يكون جاسوساً ومختبراً . وكذلك لايظهر ماينبغي اخفاؤه من مال أو مذهب أو سب رجل فربما كان له في الحاضرين قريب.

ولايوثق بمودة لا أصل لها ، فربما كانت تحتها آفة تقصده . وليحذر من كل أمر يحتمل . ورب كلمة نقلهـــا صديق الى صديق فتحدث بها من لايقصد أذى للقائل فبُلغت فتأذى .

ورب مظهر للمحبة مبالـــغ حتى يستمكن من مراده . فالحذرَ الحذرَ من الطمأنينة الى أحد ، خصوصاً من عدو آذيته او قتلت له قريبـــاً ، فربما أظهر الجميل شبكة لاصطيادك كحديث الزباء .

٢٤٣ ـ الحرص والامل عند المسنين

رأيت النفس بعد علو السن يقوى أملها ويزداد حرصها كما قال النبي ﷺ : يشيب ابن آدم وتشب منه خصلتان الحرص والامل.

ورأيت اكثر أسباب ذلك فراغ اليـد من الدنيا وكثرة العائلة وقوة الحاجة ، فيحتاج الانسان الى التعرض بمـا يشين العرْض ليحصل الغرَض . فقلت : الـهي أبعـدَ رؤية جبال عرفة أضل ؟ أبعد مشارفة الحرم تأخذني أعراب البادية ؟

وا أسفا أيطلع فجر النحر وما وصلت الى عرفات ؟ وياضياع سفر العمر وما حصل المقصود !

قد كنت أرجوك لنيل المنى   واليوم لا أطلب الا الرضى

ثم قلت : يانفس مالك ملجأ الا اللّجء واستغاثة الغريق فان رُحمت والا فكم من حسرة تحت التراب .

٢٤٤ ـ الكهل والزوجة الصغيرة

شكا لي بعض الاشياخ فقال : قد علت سني وضعفت قوتي ونفسي تطلب مني شراء الجواري الصغار ، ومعلوم انهن يردن النكاح وليس فيّ ، ولا تقنع مني النفس بربة البيت اذ قد كبرت.

فقلت له : عندي جوابان : أحدهما الجواب العامي ، وهو أن اقول ، ينبغي أن تشتغل بذكر الموت وما قد توجهت اليه ، وتحذر من اشتراء جارية لاتقدر على ايفاء حقها فانها تبغضك ، فان أجهدت استعجلت التلف . وان استبقيت قوتك غضبت هي ، على أنها لاتريد شيخاً كيف كان ، وقد أنشدنا علي بن عبيد الله قال أنشدنا محمد التميمي :

أفق يافؤادي من غرامي واستمع   مقالة محزون عليك شفيق
علقت فتاة قلبها متعلق   بغيرك فاستوثقت غير وثيق
وأصبحت موثوقاً وراحت طليقة   فكم بين موثوق وبين طليق

فاعلم أنها تعد عليك الايام ، وتطلب منك فضل المال لتستعد لغيرك ، وربما قصدت حتفك فاحذر ، والسلامة في الترك والاقتناع بما يدفع الزمان .

والجواب الثاني فاني أقول ؛ لايخلو أن تكون قادراً على الوطء في وقت أو لاتكون ، فان كنت لاتقدر فالاولى مصابرة الترك الكل ، وان كان يمكن الحازم أن يداري المرأة بالنفقة وطيب الخلق الا انه يخاطر. وان كنت تقدر في أوقات على ذلك ، ورأيت من نفسك توقاً شديداً ، فعليك بالمراهقات فانهن ما عرفن النكاح ، وما طلبن الوطء ، وأغمرهن بالانفاق وحسن الخلق مع الاحتياط عليهن ، والمنع من مخالطة النسوة . واذا اتفق وطء فتصبّر عن الانزال ريثما تقضي المرأة حاجتها . واعتمد وعظها وتذكيرها بالآخرة . واذكر لها حكايات العشاق من غير نكاح وقبح صورة الفعل، ولفت قلبها الى ذكر الصالحين ، ولاتخل نفسك من الطيب والتزين والكياسة والمداراة والانفاق الواسع . فهذا ربما حرك الناقة للسير .مع خطر السلامة .

٢٤٥ ـ العاقل من احترس مما يجوز وقوعه

أبله الناس من عمل على الحال الحاضرة ولم يتصور تغيرها ولا وقوع مايجوز وقوعه .

مثاله أن يغتر بدولة فيعمل بمقتضى ملكه فاذا تغيرت هلك ، وربما عادى خلقاً اغتراراً بأنه متسلط أو أنه صاحب سلطان ،

فاذا تغيرت حاله أكل كفه ندماً عند فوات التدارك. وكذا من له مال يبذره سكونا الى وجود المال وينسى حاله عندالعدم. ومن يتناول الشهوات ، ويكثر من المآكل والمشارب والنكاح ثقة بعافيته ، وينسى مايعقب ذلك من الامراض والآفات .

ومن أظرف (١)الاحوال ان يحب جاريته فيعتقها ويهب لها ، أو امرأة فيسكن اليها ويهب لها فتتمكن . ولاتمضي الايام حتى يسلوها أو يطلب غيرها ، ولايجد طريقاً للخلاص . فان تخلص منها أخذت ماغنمت منه فلقي من الغيظ أضعاف مايلتذ به ، فلاينبغي أن يوثق بامرأة ولابمحبة انسان ، فانه قد يحب امرأة ويظن أنه لايسلوها أبداً فيسترسل اليها والسلو يحدث . وربما أحب غيرهـا فينسى الاولى فيصعب عليه الخلاص من الاولى . فالعاقل لايدخل في شيء حتى يهيء الخروج منه ، فان الاشياء لاتثبت ، والمحبة لاتدوم ، والتغير مقرون بكل حال .

وكذلك يعطي ماله ولده ثم يبقى كلاً عليه فيتمنى الولد هلاكه ، وربما علّ به في النفقة .

وكذلك قد يثق بالصديق فيبث أسراره اليه ، فربما أظهر ذلك فكان منها مايوجب هلاكه .

وكذلك يغتر الانسان بالسلامة وينسى طروق الموت فيأتيه بغتة فيهته وقد فات الاستدراك ولم يبق إلا الندم . فالعاقل من

(١) اي من اعجب

كانت عينه مراقبة للعواقب ، محترزة مما يجوز وقوعه ، عاملة بالاحتياط في كل حال حافظة للسرّ وللمال ، غير واثقة بزوجة ولا ولد ولا صديق ، متأهبة للرحيل متهيئة للنقلة . هذه صفة أهل الحزم .

٢٤٦ ـ معرفة ذات الله عز وجل مستحيلة

من أعجب الامور طلب الاطلاع على تحقيق العرفان لذات الله عزوجل وصفاته وأفعاله ، وهيهات . ليس إلا المعرفة بالجملة ولقد أوغل المتكلمون فما وقعوا بشيء فرجع عقلاؤهم الى التسليم ، وكذلك اصحاب الرأي ، مالوا الى القياس فإذا اشياء كثيرة بعكس مرادهم ، فلم يجدوا ملجأ الا التسليم ، فسموا ما خالفهم استحسانا [١] : فالفقيه من علـّل ما يمكن ، فاذا عجز استطرح للتسليم ، هذا شأن العبيد .

فأما من يقول لم فعل كذا ؟ ومامعنى كذا ؟ فانه يطلب الاطلاع على سر الملك ، ومايجد الى ذلك سبيلا لوجهين :

احدهما ان الله تعالى ستر كثيراً من حكمه عن الخلق .

والثاني انه ليس في قوى البشر ادراك حِكم الله تعالى كلها ، فلا يبقى مع المعترض سوى الاعتراض المخرج الى الكفر « فليمدد بسبب الى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده

(١) لم يوضح مايريد ، فان كان يعني بـ « اهل الرأي » الحنفية ، ويقصد « الاستحسان » المعروف عندم . فالحق غير ماقال .

مايغيظ ، والمعنى من رضي بأفعالي والا فليخنق نفسه فما افعل الا ما أريد .

٢٤٧ ـ فساد أهل الزمان وخاصة المتصوفة

من رزقه الله تعالى العلم ، والنظر في سير السلف ، رأى ان هذا العالم ظلمة ، وجمهورهم على غير الجادة ، والمخالطة لهم تضر ولاتنفع ، فالعجب لمن يترخص في المخالطة وهو يعلم ان الطبع لص يسرق من المخالط . وانما ينبغي ان تقع المخالطة للأرفع والاعلى في العلم والعمل ليستفاد منه ، فأما مخالطة الدون فانها تؤذي ، الا ان يكون عاميا يقبل من معلمه ، فينبغي أن يخالط بالاحتراز . وفي هذا الزمان ان وقعت المخالطة للعوام فهم ظلمة مستحكمة ، فاذا ابتلي العالم بمخالطتهم فليشمر ثياب الحذر ، ولتكن مجالسته اياهم للتذكرة والتأديب فحسب .

وان وقعت المخالطة للعلماء فاكثرهم على غير الجادة ، مقصودهم صورة العلم لاالعمل به . فلا تكاد ترى من تذاكره أمر الآخرة انما شغلهم الغيبة وقصد الغلبة واجتلاب الدنيا ، ثم فيهم من الحسد للنظراء مالايوصف .

وان وقعت المخالطة للأمراء ، فذاك تعرض لفساد الدين ، لانه ان تولى لهم ولاية دنيوية فالظلم من ضروراتها ، لغلبة العادة

عليهم والاعراض عن الشرع . وان كانت ولاية دينية كالقضاء ، فانهم يأمرونه بأشياء لايكاد يمكنه المراجعة فيها ، ولو راجع لم يقبلوا . وأكثر القوم يخاف على منصبه ، فيفعل ما أمر به وان لم يجز . وربما رأيت في هـذا الزمان أقواماً يبذلون المال ليكونوا قضاة ، أو شهوداً ، ومقصودهم الرفعـة . ثم أكثر الشهود يشهد على من لا يعرفه ، ويقول أنه معرّف ، ويدري انه كذاب ، وانه انما عرّف لاجل حبة يعطاها ، وكم قد وقعت شهادة على غير المشهود عليه ، وعلى مكره .

وان وقعت المخالطة للمتزهدين فأكثرهم على غير الجادة ، وعلى خلاف العلم ، قد جعلوا لانفسهم نواميس . فلا يتنسمون ولا يخرجون الى سوق ، ويظهرون التخشع الزائد . وكله نفاق. وفيهم من يلبس الصوف تحت ثيابه ، وربما لوّح بكمه ليُرى. وقد حـــكي عن طاهر بن الحسين انه قال لبعض المتزهدين : مذ كم قدمت العراق ؟

قال : دخلتها منذ عشرين سنة ، وانا منذ ثلاثين سنة صائم .

قال : سألناك مسألة فأجبت عن اثنتين .

وبنت الصوفية أربطة فهي خوارج على المساجد ، وهي دكاكين كريةيقعدفيها الكسالى عن الكسب مع القدرة عليه ، ويتعرضون بالقعود للصدقات ، ولأحوال الظلمة ، وقد أراحوا أنفسهم من

إعادة العلم . وأكثرهم لا يصلي نافلة ولا يقوم الليـل ، بل همهم المأكول والمشروب والرقص [١] . وقد اتخـذوا سنناً تخالف الشريعة فهم يلبسون المرقع لا من فقر ، وهذا قبيح . لانه ليس عندهم من أمارات الزهـد سوى الملبَس الدون ، فثيابهم تصيح نحن زهاد ، وباقي أفعالهم المستورة تفضحهم اذا اطلع عليها ، فالمطبخ دائر ، والحمـــام ، والحلوى كثيرة . والطيب والدّعة ؟ والكبر حاصل بذلك الكبير . وقـد قال النبي ﷺ لمالك بن فضيلة وقد رآه أشعث الهيئة : أمالك مال ؟

قال : بلى من كل المال آتاني الله عز وجل !

قال: فان الله عز وجل اذا أنعم على عبد نعمة أحب ان ترى عليه .

ومن أخلاقهم تنفير الناس عن العلم ، ويزعمون أن لا حاجة الى الوسائط ، وانما هو قلب ورب [٢] . ولهم من الاقوال والافعال المنكرات ما قد ذكرته في تلبيس ابليس .

آه لو كان لهذا الزمان عُمَر لاحتاج كل يوم الى مئة دِرّة . لا بل كان يستعمـل السيف في هؤلاء الخوارج ، وهم داخل البلد لا قدرة للعلماء عليهم . اذ قولهم فيهم لا يقبل . فمن رزقه

---

(١) الذي يسمى اليوم « الذكر » وهو بدعة منكرة والصوفية اذا جاعوا اكلو واذا شبعوا رقصوا . انظر حكم الرقص ووصفه في باب المرتد من حاشية ابن عابدين (٢) اي ان من كلامهم في هذا المعنى : حدثني قلبي عن ربي !!

الله سبحانه النظر في سير السلف ، ووفقه للاقتداء بهم ، أن يعتزل عن أكثر الخلق ، ولا يخالطهم فانه من خالط أرذي، ومن دارى لم يسلم من المداهنة ، فالنصح اليوم مردود .

٢٤٨ ـ كيف تعامل أعداءك وحسادك

من البله ان تبادر عدواً أو حسوداً بالمخاصمة . وانما ينبغي ان عرفت حاله أن تظهر له مايوجب السلامة بينكما ، وان اعتذر قبلت ، وان أخذ في الخصومة صفحت ، وأريته أن الامر قريب ، ثم تبطن في الحذر منه ، فلا تثق به في حال وتتجافاه باطناً مع إظهار المخالطة في الظاهر ، فإذا أردت أن تؤذيه فأول ماتؤذيه به اصلاحك واجتهادك فيما يرفعك . ومن أعظم العقوبة له العفوعن زلله . وان بالغ في السب فبالغ في الصفح تنب عنك العوام في شتمه ، ويحمدك العلماء على حلمك. وما تؤذيه به من ذلك وغيره في الباطن أضعاف ، وماتؤذيه به من كلمة اذا قلتها له سمعت أضعافها . ثم بالخصومة تعلمه أنك عدوه فيأخذ الحذر ويبسط اللسان ، وبالصفح يجهل مافي باطنك ، فيمكنك حينئذ أن تشتفي منه بما يؤذي دينك فيكون هو الذي قد اشتفى منك وما ظفر قط من ظفر به الاثم بل الصفح الجميل . وانما يقع هذا ممن يرى أن

تسليطه عليه إما عقوبة لذنب أو لرفع درجة أو للابتلاء فهو لايرى الخصم وانما يرى القدرة .

٢٤٩ ـ حكمة منع اجابة الدعاء

إذا وقعت في محنة يصعب الخلاص منها فليس لك الا الدعاء والتجء بعد أن تقدم التوبة من الذنوب ، فان الزلل يوجب العقوبة ، فاذا زال الزلل بالتوبة من الذنوب ارتفع السبب ، فاذا تبت ودعوت ولم تر للاجابة أثراً فتفقد أمرك ، فربما كانت التوبة ماصحت ، فصححها ثم ادع ولاتمل من الدعاء ، فربما كانت المصلحة في تأخير الاجابة ، وربما لم تكن المصلحة في الاجابة ، فانت تثاب وتجاب الى منافعك . ومن منافعك أن لاتعطى ما طلبت بل تعوض غيره . فاذا جـــاء ابليس فقـــال : كم تدعوه ولاترى اجابة؟ فقل : أنا اتعبد بالدعاء وأنا موقن أن الجواب حاصل ، غير أنه ربمـــا كان تأخيره لبعض المصالح عليّ مناسب ، ولو لم يحصل حصل التعبد والذل . فاياك أن تسأل شيئاً الا وتقرنه بسؤال الخيَرة ، فرب مطلوب من الدنيا كان حصوله سببا للهلاك ، واذا كنت قد أمرت بالمشاورة في أمور الدنيا لجليسك ليبين لك في بعض

الآراء مايعجز رأيك وترى أن ماوقع لك لايصلح ، فكيف لاتسأل الخير ربك وهو أعلم بالمصالح والاستخارة من حسن المشاورة.

٢٥٠ ـ اكثر طبقات الناس فاسدون

نظرت الى الناس فرأيتهم ينقسمون بين عالم وجاهل ، فاما الجهال فانقسموا ، فمنهم سلطان قد ربي في الجهل ولبس الحرير وشرب الخمور وظلم الناس ، وله عمال على مثل حاله ، فهؤلاء بمعزل عن الخير بالجملة . ومنهم تجار همتهم الاكتساب وجمع الاموال ، واكثرهم لايؤدي الزكاة ولايتحاشى من الربا فهؤلاء في صور الناس . ومنهم أرباب معاش يطففون المكيال ويخسرون الميزان ويبخسون الناس ويتعاملون بالربا وفي الاسواق طول النهار لاهمة لهم الا ماهم فيه ، فاذا جاء الليل وقعوا نياماً كالسكارى فهمة أحدهم ما يأكل ويلتذ به ، وليس عندهم من الصلاة خبر ، فان صلى احدهم نقرها أو جمع بينهما ، فهؤلاء في عداد البهائم .

ومن الناس ذوو رذالة في جميع أحوالهم فهذا كناس وهذا زبال وهذا نخال وهذا يكسح الحش[١] فهؤلاء أرذل القوم .

ومنهم من يطلب اللذات ولايساعده المعاش فيخرج الى قطع الطريق ، وهؤلاء أحمق الجماعة ، إذ لاعيش لهم فان

---

(١) كل هذا لاعيب فيه ان اضطر المرء اليه ، واتقى الله فيه .

التذوا لحظة بأكل أو شرب فحركت الريح قصبة هربوا خوفا من السلطان ، وما أقل بقاءهم ، ثم القتل والصلب مع اثم الآخرة.

ومنهم أرباب قرى قد عمهم الجهل ، واكثرهم لايتحاشى من نجاسة ، فهم في زمرة البقر . ورأيت النساء ينقسمن أيضاً ، فمنهن المستحسنة التي تبغي[1] ومنهن الخائنة لزوجها في ماله ، ومنهن من لاتصلي ولاتعرف شيئاً من الدين فهؤلاء حشو النار . فاذا سمعن موعظة فانها كما مرت على حجر واذا قرىء عندهم القرآن فكأنهن يسمعن السمر .

وأما العلماء فالمبتدئون منهم ينقسمون الى ذي نية خبيثة يقصد بالعلم المباهاة لا العمل ، ويميل الى الفسق ظنا أن العلم يدفع عنه ، وإنما هو حجة عليه . وأما المتوسطون والمشهورون فاكثرهم يغشى السلاطين ويسكت عن انكار المنكر ، وقليل من العلماء من تسلم له نيته ويحسن قصده .

فمن اراد الله به خيراً رزقه حسن القصد في طلب العلم ، فهو يحصله لينتفع به وينفع ، ولايبالي بعمل مما يدله عليه العلم فتراه يتجافى أرباب الدنيا ، ويحذر مخالطة العوام ، ويقنع بالقليل خوفاً من المخاطرة في الدنيا في تحصيل الكثير ، ويؤثر العزلة فليس مذكرا بالآخرة مثلها ، وليس على العالم أضر من

---

(١) اي الجميلة التي تصير بغيا

الدخول على السلاطين فانه يحسّن للعالم الدنيا ويهون عليه المنكر، وربما اراد ان ينكر فلا يصح له ، فان عدم القناعة وغلبته نفسه في طلب فضول الدنيا سلم عليه لانه يتعرض باربابها.

وان الانسان ليمشي في السوق ساعة فينسى بما يرى مايعلم ، فكيف اذا انضم الى ذلك التردد الى الاغنياء والطمع في اموالهم ، فأما الوحدة فانها سبب رجوع القلب وجمع الهم والنظر في العواقب والتهيؤ للرحيل وتحصيل الزاد . فاذا انضمت اليها القناعة جلبت المستحسنة . ولاتحسن اليوم المجالسة الا لكتاب يحدثك عن أسرار السلف . فاما مجالسة العلماء فمخاطرة ، اذ لايجتمعون على ذكر الآخرة في الاغلب . ومجالسة العوام فتنة للدين ، الا ان يحترز مُجالِسُهم ويمنعهم من القول فيقول هو ويكلفهم السماع . ثم يستوفز للبعد عنهم ولايمكن الانقطاع الكلي الا بقطع الطمع . ولاينقطع الطمع الا بالقناعة باليسير أو ينجر بتجارة ، أو أن يكون له عقار يستغلّه ، فانه متى احتاج تشتت الهم ، ومتى انقطع العالم عن الخلق وقطع طمعه فيهم وتوفر على ذكر الآخرة فذاك الذي ينفع وينتفع به . والله الموفق .

٢٥١ ـ الاستعداد للجنة والرد على المتصوفة

من تأمل بعين الفكر دوام البقاء في الجنة في صفاء بلا

كدر ، ولذات بلا انقطاع ، وبلوغ كل مطلوب للنفس ، والزيادة اا لاعين رأت ولااذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، من غير تغير ولازوال . ولا يقال ألف ألف سنة ولا مئة ألف ألف . ولو أن الانسان عد الالوف الوف السنين لانقضى عدده وكان له نهاية ، وبقاء الآخرة لانفاد له ، إلا انه لايحصل ذلك الا بنقد هذا العمر . ومامقدار عمر غايته مائة سنة منها خمس عشرة صبوة وجهل ، وثلاثون بعد السبعين ان حصلت ضعف وعجز . والتوسط نصفه نوم ، وبعضه زمان اكل وشرب وكسب ، والمتنخل منه للعبادات يسير . أفلا يشترى ذلك الدائم بهذا القليل ؟

ان الاعراض عن الشروع في هذا البيع والشراء لغبن فاحش في العقل ، وخلل داخل في الايمان بالوعد . فان من يدري كيف يعقد البيع بالعلم ، هو الذي يدل على الطريق ويعرّف مايصلح لها ويحذر من قُطّاعها .

ولقد دخل ابليس على طائفة من المتزهدين بآفات اعظمها انه صرفهم عن العلم . فكأنه شرع في اطفاء المصباح ليسرق في الظلمة ، حتى انه اخذ قوما من كبار العلماء فسلك بهم من ذلك ماينهى عنه العلم ، فرأيت اباحامد الطوسي [1] يحكي عن نفسه في بعض مصنفاته قال : شاورت متبوعا مقدما من الصوفية في

---

(١) يريد به حجة الاسلام الامام الغزالي .

المواظبة على تلاوة القرآن فمنعني منه ، وقال : السبيل ان تقطع علايقك من الدنيا بالكلية بحيث لايلتفت قلبك الى اهل وولد ومال وعلم ، بل تصير الى حـــالة يستوي عندك وجود ذلك وعدمه ، ثم تخلو بنفسك في زاوية . فتقتصر من العبـــادة على الفرائض والرواتب ، وتجلس فارغ القلب . ولاتزال تقول : الله . الله . الى ان تنتهي الى حالة لو تركت تحريك اللسان رأيت كأن الكلمة جارية على لسانك ، ثم تنتظر مايفتح عليك مما فتح مثله على الانبياء والاولياء (١) .

قلت : وهذا أمر لاأتعجب انا فيه من الموصى به وانمـــا أتعجب من الذي قبله مع معرفته وفهمه ، وهل يقطع الطريق بالاعراض عن تلاوة القرآن ؟ وهل فتح الأنبياء مافتح بمجاهدتهم ورياضتهم . وهل يوثق بما يظهر ؟ ثم ماالذي يفتح ؟ أثم اطلاع على علم الغيب أم وحي ؟

فهذا كله من تلاعب ابليس بالقوم . وربما كان مايتخايل من أثر الماليخوليا ومن ابليس . فعليك بالعلم ، وانظر في سير السلف هل فعل أحد منهم من هذا شيئاً أو امر به ؟ وانمـــا تشاغلوا بالقرآن والعلم فدلهم على اصلاح البواطن وتصفيتهـا . نسأل الله عز وجل علماً نافعا ، ودفعاً للعدو مانعاً ، إنه قادر

---

(١) ماخالف الشرع نرده ولو جاء به الغزالي او غير الغزالي ، وهذا مما يخالف الشرع

٢٥٢ - نصائح في الحب والبغض

من أراد اصطفاء محبوب ، فالمحبوب نوعان امرأة يقصد منها حسن الصورة ، وصديق يقصد منه حسن المعنى ، فإذا أعجبك صورة امرأة فتأمل خلالها الباطنة مُدَيْدة قبل ان يتعلق القلب بها تعلقاً محكماً ، فان رأيتها كما تحب وأصل ذلك كله الدين كما قال : عليك بذات الدين - فمل اليها واستولدها وكن في ميلك معتدل الميل ، فانه من الغلط ان تظهر لمحبوبك المحبة ، فانه يشتط عليك ، وتلقى منه الاذى من التجنّي والهجران والادلال وطلب الانفاق الكثير ، وان كانت تحبك ، لأن هذا إنما يجتلبه حب الاذلال المقهور وثمَ نكتة عجيبة ، وهي انك ربما عملت بمقتضى الحال الحاضرة ، وهي تحكم بكمال الحب ، ثم ان ذلك لايثبت إليك فتقع وتبقى مقهوراً ويصعب عليك الخلاص . وربما تمكنتْ بمعرفة سرك أو بأخذ كثير من مالك .

ومن أحسن ما بلغني في هذا أن جارية لبعض الخلفاء كانت تحبه حباً شديداً ولا تظهر له ذلك ، فسئلت عن هذا فقالت: لو أظهرت ماعندي فجفاني هلكت . قال الشاعر :

لاتظهرنّ مودة لحبيب ... فترى بعينك منه كل عجيب
أظهرت يوماً للحبيب مودتي ... فأخذت من هجرانه بنصيب

وكذا ينبغي ان تكتم حبك للولد ، لانه يتسلط عليك ، ويضيع مالك ، ويبالغ في الادلال ، ويمتنع عن التعلم والتأدب .

وكذلك اذا اصطفيت صديقاً وخبرته فلا تخبره بكل ماعندك ، بل تعاهده بالاحسان كما تتعاهد الشجرة ، فانها اذا كانت جيدة الاصل حسنت ثمرتها بالتعاهد . ثم كن منه على حذر فقد تتغير الاحوال وقد قيل :

احـــذر عدوك مرة   واحذر صديقك الف مرة
فلربمـــا انقلب الصديـ   ـق فـكان أدرى بالمضرة

وأما إذا أبغضت شخصاً فلا تظهرن ذلك ، فانك تنبهه على أخذ الحذر منك ، وتدعوه الى المبارزة ، فيبالـــغ في حربك والاحتيال عليك ، بل ينبغي أن تظهر له الجميل ان قدرت ، وتبره ما استطعت ، فانكسرت معاداته جبلةً بالحياء من بغضك ، فان لم تطق فهجر جميل ، لاتبين فيه مايؤذي . ومتى سمعت عنه كلمة قذعة فاجعل جوابها كلمة جميلة ، فهي أقوى في كف لسانه ، وكذلك جميع مايخاف اظهاره ، فلا تتكلمن به ، فربما وقعت كلمة أسقطت بها عز السلطان فنقلت اليه فكانت سبب هلاكك ، أو عن صديق فكانت سبب عداوته ، أو صرت رهينا لمن سمعها خائفا أن يظهرهـــا . فالحزم كتمان الحب والبغض .

وكذا ينبغي أن تكتم سنك فان كنت كبيرا استهرموك

وإن كنت صغيراً استحقروك .

وكذلك مقدار مالك ، فانه ان كان كثيراً نسبوك في نفقتك الى البخل ، وان كان قليلا طلبوا الراحة منك .

وكذلك المذهب ، فانك ان أظهرته لم تأمن أن يسمعه مخالف فيقطع بكفرك : وقد أنشدنا محمد بن عبد الباقي البزار :

احفظ لسانك لاتبح بثلاثة　　سن ومال ماأستطعت ومذهب
فعلى الثلاثة تبتلى بثلاثة　　بموه وبمخرق ومكذب

٢٥٣ ـ خادم السلطان كراكب البحر

طال تعجبي من مؤمن بالله عز وجل مؤمن بجزائه يؤثر خدمة السلطان مع مايرى من الجور الظاهر . فواعجباً ما الذي يعجبه ؟ ان كان الذي يعجبه دنيوياً فليس ثم الا ان يصاح بين يديه بسم الله ، وأن يتصدر في المجالس ويلوي عنقه كبراً على النظراء ، ويأخذ الأسحات[1] وهو يعلم من أين حصل . وربما انبسط في البرطيل[2] . ثم يقابل هذا أن يصادر ويعزل ، فتستخرج منه تلك المرارة كل حلاوة كانت في الولاية .

وربما كان قريب الحال[3] فافتقر بالمصادرة جداً ، ثم تنطلق الالسن المادحة بالذم . ثم لو سلم من هذا فانه لايسلم من الرقيب له والحذر منه . فهو كراكب البحر أن سلم بدنه من الغرق لم يسلم قلبه من الخوف .

(١) يريد بها « سحت »　　(٢) الرشوة والبرطيل كلمة فصيحة وهي من عامي الشام
(٣) اى ليس بالغني المقتدر . ويقال اليوم « في عامية الشام » فلان ضعيف الحال

وان كان ديّناً فانه يعلم أنهم لايمكنونه في الغالب من العمل بمقتضى الدين . فانهـــم يأمرونه بترك مايجب وفعل مالايجوز فيذهب دينه على البارد[1] . ولعقاب الآخرة أشق .

٢٥٤ ـ عليك بالقناعة

العجب من الذي أنف من الذل كيف لايصبر على جافّ الخبز ولا يتعرض لمنن الانذال ؟

أتراه مايعلم أنه مابقي صاحب مروءة ! وانه ان سأل سأل بخيلا لايعطي ، فان أعطى نزراً فانه يستعبـد المعطَى بذلك العمرَ ، ثم ذاك القدر النزر يذهب عاجلا ، وتبقى المنن والخجل ورؤية النفس بعين الاحتقار ، اذ صارت سائلة ، ورؤية المعطى بعين التعظيم أبـــدا . ثم يوجب ذلك السكوت عن معايب المعطى والبدار الى قضاء حقوقه وخدمته فيما بقي .

وأعجب من هذا من يقدر أن يستعبد الاحرار بقليل العطاء الفاني ولا يفعل ، فان الحر لايشترَى إلا بالاحسان قال الشاعر :

تفضل على من شئت واعن بأمره ... فأنت ولو كان الاميرَ أميرُه
وكن ذاغنى عمن تشاء من الورى ... ولو كان سلطانا فأنت نظيره
ومن كنت محتاجاً اليه وواقفاً ... على طمع منه فأنت أسيره[2]

---

(١) اي على اهون سبب وهو تعبير عباسي عامي .

(٢) واصله : احسن الى من شئت تكن اميره ، واستغن عمن شئت تكن نظيره ، واحتج الى من شئت تكن اسيره .

٢٥٥ ـ نصائح للشباب وعلاقتهم بالنساء

ينبغي للصبي إذا بلغ أن يحذر كثرة الجماع ليبقى جوهره فيفيده ذلك في الكبر ، لانه من الجائز كبره والاستعداد للجائز حزم ، فكيف للغالب ؟ كما ينبغي أن يستعد للشتاء قبل هجومه ، ومتى انفق الحاصل وقت القدرة تأذى بالفقر اليه وقت الفاقة .

وليعلم ذو الدين والفهم أن المتعة إنما تكون بالقرب من الحبيب ، والقرب يحصل بالتقبيل والضم ، وذلك يقوى المحبة ، والمحبة يلذ وجودها والوطء ينقص المحبة ويعدم تلك اللذة . وقد كان العرب يعشقون ولايرون وطء المعشوق . وقال قائلهم : ان نكح الحب فسد .

فأما الالتذاذ بنفس الوطء فشأن البهائم[1] .

ولقد تأملت المراد من الوطء فوجدت فيه معنى عجيباً يخفى على كثير من الناس ، وهو أن النفس اذا عشقت شخصاً أحبت القرب منه ، فهي تؤثر الضم والمعانقة لانها غاية في

(١) والناس في هذا كالبهائم . هذه طبيعتهم التي طبعهم الله عليها ، لابد لهم فيها

القرب ، ثم تزيد قربا يزيد على هذا فيقبل الخد . ثم تطلب القرب من الروح فيقبل الفم ، لانه منفذ الى الروح [١] ، ثم تطلب الزيادة فيمص لسان المحبوب ، وقد كان رسول الله ﷺ يتوشح عائشة ويقبلها ويمص لسانها [٢] . فاذا طلبت النفس زيادة في القرب الى النفس استعملت الوطء [٣] . فهذا سره المعنوي ، ويحصل منه الالتذاذ الحسي .

٢٥٦ ـ الرد على المتكلمين

ليس على العوام أضر من سماعهم علم الكلام وإنما ينبغي أن يحذر العوام من سماعه والخوض فيه ، كما يحذر الصبي من شاطىء النهر خوف الغرق . وربما ظن العامي أن له قوة يدرك بها هذا وهو فاسد ، فانه قد زل في هذا خلق من العلماء فكيف العوام ؟

وما رأيت أحمق من جمهور قُصاص زماننا ، فانه يحضر عندهم العوام الغشم فلا ينهونهم عن خمر وزنا وغيبة ، ولا يعلمونهم أركان الصلاة ووظائف التعبد ، بل يملؤون الزمان بذكر

---

(١) بل هو منفذ الى المعدة والامعاء وما فيها . ولكن الشهوة تعمي العين وتعطل الفكر

(٢) قال الاستاذ الشيخ ناصر : مص اللسان لم يصح .

(٣) أعانقها والنفس بعد مشوقة ... اليها وهل بعد العناق تداني

وألثم فاها كي تزول صبابتي ... فيشتد ما ألقى من الهيان

كان فؤادي ليس يشفي غليله ... سوى ان يرى الروحين تمتزجان

الاستواء وتأويل الصفات ، وأن الكلام قائم بالذات فيتأذى بذلك من كان قلبه سليما . وانما على العامي أن يؤمن بالاصول الخمسة : بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، ويقنع بما قال السلف : القرآن كلام الله غير مخلوق . والاستواء حق والكيف مجهول . وليعلم أن رسول الله ﷺ لم يكلف الاعراب سوى مجرد الايمان ، ولم تتكلم الصحابة في الجواهر والاعراض . فمن مات على طريقهم مات مؤمناً سليماً من بدعة . ومن تعرض لساحل البحر وهو لايحسن السباحة فالظاهر غرقه.

٢٥٧ ـ وجوب الاستعداد للآخرة وترك لذات الدنيا

أشد الناس جهلا منهوم باللذات .

واللذات على ضربين مباحة ومحظورة ، فالمباحة لايكاد يحصل منها شيء إلا بضياع ماهو مهم من الدين . فاذا حصلت منها حبة قارنها قنطار من الهم . ثم لاتكاد تصفو في نفسها بل مكدراتها ألوف ، فاذا صور عدمها الالوف صار التصوير مغلصا للهوى مجرئا للنفس ، فاذا أنفت أنفت من الاسف على الدوام مالا يحويه صفة فهي تغر الغمْر[1] وتهدم العمر ، وتديم الأسى . ومع هذا فالمنهوم كلما عدى عن لذة طلب أختها . وقد عرف

(١) الجاهل

جناية الاولى وخيانتها . وهذا مرض العقل ، وداء الطبع . فلا يزال صاحبه هذا كذلك الى أن يُختطف بالموت فيلقى على بساط ندم لا يُستدرك . فالعجب بمن همته هكذا مع قصر العمر ، ثم لا يهتم بآخرته التي لذتها سليمة من شائبة ، منزهة عن عائب دائمة الى الامد ، باقية ببقاء الابد . وانما يحصل تقريب هذه بابعاد تلك ، وعمران هذه بتخريب تلك . فواعجبا لعاقل حصيف حسن التدبير ، فاته النظر في هذه الاحوال ، وغفل عن التمييز بين هذين الامرين .

وان كانت اللذة معصية انضم الى ماذكرناه عار الدنيا ، والفضيحة بين الخلق ، وعقوبة الحدود ، وعقاب الآخرة ، وغضب الحق سبحانه .

بالله ان المباحات تشغل عن تحصيل الفضائل فذم ذلك لبيان الحزم ، فكيف بالمحرمات التي هي غاية الرذائل ؟ نسأل الله عز وجل يقظة تحركنا الى منافعنا ، وتزعجنا عن خوادعنا انه قريب .

٢٥٨ ـ التراخي والكسل بعد اليقظة بسماع المواعظ وأسبابه

تأملت على الخلق [١] واذا هم في حالة عجيبة يكاد يقطع معها

---

(١) يريد : تأملت الخلق

بفساد العقل . وذلك ان الانسان يسمع المواعظ وتذكر له الآخرة فيعلم صدق القائل ، فيبكي وينزعج على تفريطه ، ويعزم على الاستدراك ، ثم يتراخى عمله بمقتضى ماعزم عليه . فاذا قيل له : أتشك فيا وُعدت به ؟ قال : لا والله .

فيقال له : فاعمل . فينوي ذلك ثم يتوقف عن العمل . وربما مال الى لذة محرمة ، وهو يعلم النهي عنها .

ومن هذا الجنس تأخر الثلاثة الذين خُلّفوا ولم يكن لهم عذر وهم يعلمون قبح التأخر . وكذلك كل عاص ومفرط .

فتأملت السبب مع أن الاعتقاد صحيح والفعل بطيء ، فاذا له ثلاثة أسباب (١):

أحدهما رؤية الهوى العاجل ، فان رؤيته تشغل عن الفكر فيا يجنيه .

والثاني التسويف بالتوبة . فلو حضر العقل لحذر من آفات التأخير ، فربما هجم الموت ولم تحصل التوبة ، والعجب ممن يجوّز سلب روحه قبل مضي ساعة ولا يعمل على الحزم ، غير ان الهوى يطيل الامد . وقد قال صاحب الشرع ﷺ : « صل صلاة مودع » وهذا نهاية الدواء لهذا الداء ، فانه من ظن انه لا يبقى الى صلاة اخرى جدّ واجتهد .

والثالث رجاء الرحمة ، فيرى العاصي يقول : « ربي رحيم »

---

(١) عرض لهذا المعنى في أول الكتاب .

وينسى انه شديد العقاب . ولو علم أن رحمته ليست رقة اذ لو كانت كذلك لما ذبح عصفوراً ولا آلم طفلا ، وعقابه غير مأمون ، فانه شرع قطع اليد الشريفة بسرقة خمسة قراريط . فنسأل الله عز وجل أن يهب لنا حزماً يبت المصالح جزماً .

٢٥٩ ـ ذم لباس الخيلاء

نظرت في قول رسول الله ﷺ لما لبس الخاتم ثم رمى به وقال : « شغلني نظري اليكم ونظري اليه » وقوله : « هذا رجل يتبختر في حلته مرجّلا جُمّته خسف به الارض، فهو يتجلجل فيها الى يوم القيامة » ، فرأيت انه لاينبغي لأحد أن يلبس ثوباً معجباً ولا شيئاً من زينة ، لان ذلك يوجب النظر الى النفس بعين الاعجاب ، ، والنفس ينبغي ان تكون ذليلة للخالق .

وقد كان قدماء الاحبار في بني اسرائيل يمشون على العصي لئلا يقع منهم بَطَرٌ في المشي . ولبست أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها درعاً لها فأعجبت به ، فقال لها رسول الله ﷺ : « ان الله لاينظر اليك في حالتك هذه » . ولما لبس رسول الله ﷺ خميصة لها أعلام قال : « ألهتني هذه عن صلاتي » .

وهذا كله يوجب الاعراض عن الزينة وما يحرك الى الفخر

والزهو والعجب . ولهذا حرم الحرير . وأقول على أسباب هذا : ان المرقعات التي يتنوّق[1] فيهـــا المتصوفة بالسوارك والتلميع ربما أوجبت زهو اللابس ، إمـا لحسنها في ذاتها ، أو لعلمه انها تنبىء عنه بالتصوف والزهد . وكذلك الخاتم في اليد ، وطول الاكمام ، والنعال الصرارة[2] ، ولا أقول : ان هذه الاشياء تحرم ، بل ربما جلبت ما يحرم من الزهو ، فينبغي للعاقل أن يتنبه بما قلت في دفع كل مايحذر من شره . وقد ركب ابن عمر نجيباً فأعجبه مشيه فـنزل ، وقال : يانافع أدخله في البُدْن[3] .

٢٦٠ ـ النهي عن مخالطة الناس

من أراد اجتماع همه واصلاح قلبه ، فليحذر من مخالطـة الناس في هذا الزمان ، فانه قد كان يقع الاجتماع على ماينفع ذكره ، فصار الاجتماع على مايضر .

وقد جربت على نفسي مراراً ان أحصرها في بيت العزلة ، فتجتمع همي ويضـاف الى ذلك النظرفي سير السلف فأرى العزلة

---

(١) يتأنق (٢) التي تحدث صوتاً ، اي يكون لها صرير عندالمشي ـ وكانت من امارات الشطار (٣) اي في الهدي

حمية ، والنظر في سير القوم دواء ، واستعمال الدواء مع الحمية عن التخليط نافع .

فاذا فسحت لنفسي في مجالسة الناس ولقائهم تشتت القلب المجتمع ، ووقع الذهول عما كنت أراعيه ، وانتقش في القلب ما قد رأته العين ، وفي الضمير ماتسمعه الأذن ، وفي النفس ماتطمع في تحصيله من الدنيا . وإذا جمهور المخالطين أرباب غفلة ، والطبع بمجالستهم يسرق من طباعهم . فإذا عدت أطلب القلب لم أجد ، وأروم ذاك الحضور [1] فأفقده ، فيبقى في غمار ذلك اللقاء للناس أياماً حتى ما يسلو الهوى . وما فائدة تعريض البناء للنقض ، فان دوام العزلة كالبناء ، والنظر في سير السلف يرفعه ، فاذا وقعت المخالطة انتقض مابنى في مدة في لحظة ، وصعب التلافي وضعف القلب .

ومن له فهم يعرف أمراض القلب ، وإعراضه عن صاحبه ، وخروج طائره من قفصه ، ولا يؤمن على هذا المريض ان يكون مرضه هذا سبب التلف ، ولا على هذا الطائر المحصور أن لايقع في الشبكة .

وسبب مرض القلب انه كان محمياً عن التخليط مغتذياً بالعلم ،

---

(١) اي حضور القلب مع الله

وسير السلف ، فخلط فلم يحتمل مزاجه فوقع المرض .

فالجد الجد فانما هي أيام وما نرى ما يلقى ولا من يؤخذ منه ، ولا من تنفع بمجالسته ، إلا ان يكون نادراً ماأعرفه :

مافي الصحاب أخو وجد نطارحه حديثَ نجد ولا صبٌ نجاريه

فالزم خلوتك ، وراع مابقيت ، واذا قلقت النفس مشتاقة الى لقاء الخلق ، فاعلم أنها بعدُ كدرة فرضّها ليصير لقاؤهم عندها مكروهاً ، ولو كان عندها شغل بالخالق لما أحبت الزحمة ، كما ان الذي يخلو بحبيبه لايؤثر حضور غيره ولو انها عشقت طريق اليمن لم تلتفت الى الشام .

٢٦١ ـ هداية الغافلين

تفكرت في سبب هداية من يهتدي وانتباه من يتيقظ من رقاد غفلته ، فوجدت السبب الاكبر اختيار الحق عز وجل لذلك الشخص ، كما قيل : « اذا أرادك لأمر هيأك له » . فتارة تقع اليقظة بمجرد فكر يوجبه نظر العقل ، فيتلمح الانسان وجود نفسه فيعلم أن لها صانعاً وقد طالبه بحقه ، وشكر نعمته ، وخوفه عقاب مخالفته ، ولا يكون ذلك بسبب ظاهر .

ومن هذا ماجرى لأهل الكهف ، « إذ قاموا فقالوا ربنا ربُّ السموات والارض » ، وفي التفسير : ان كل واحد منهم

ألقي في قلبه يقظة فقال : لابد لهذا الخلق من خالق . فاشتد كرب بواطنهم من وقود نار الحذر ، فخرجوا الى الصحراء ، فاجتمعوا عن غير موعد ، فكل واحد يسأل الآخر : ماالذي أخرجك ؟ فتصادقوا .

ومن الناس من يجعل الخالق سبحانه وتعالى لذلك السبب الذي هو الفكر والنظر سبباً [1] ظاهراً ، إما من موعظة يسمعها أو يراها ، فيحرك هذا السبب الظاهر فكرة القلب الباطنة . ثم ينقسم المتيقظون فمنهم من يغلبه هواه ، ويقتضيه طبعه ما يشتهي ، مما قد اعتاده ، فيعود القهقرى ولا ينفعه ماحصل له من الانتباه . فانتباه مثل هذا زيادة في الحجة عليه .

ومنهم من هو واقف في مقام المجاهدة بين صفين : العقل الآمر بالتقوى ، والهوى المتقاضي بالشهوات . فمنهم من يغلب بعد المجاهدات الطويلة فيعود الى الشر ويختم له به ، ومنهم من يَغلِب تارة ويُغلَب أخرى فجراحاته لا في مقتل [2] . ومنهم من يقهر عدوه فيسجنه في حبس ، فلا يبقى للعدو من الحيلة إلا الوساوس .

ومن الصفوة أقوام مذ تيقظوا ما ناموا ، ومذ سلكوا ما وقفوا ، فهمهم صعود وترق ، كلما عبروا مقاماً الى مقام

---

(١) اى يجعل للتفكير « الذي هو سبب الهداية » سبباً ظاهراً الخ ...
(٢) أي في غير مقتل .

رأوا نقص ما كانوا فيه فاستغفروا . ومنهـــم من يرقى عن الاحتياج الى مجاهدة إما لخســة مايدعو إليه الطبع عنده ولا وقع له ، وإما لشرف مطلوبه فلا يلتفت الى عائق عنه .

واعلم أن الطريق الموصلة الى الحق سبحانه ليست مما يقطع بالاقدام ، وانما يقطع بالقلوب . والشهوات العاجلة قطاع الطريق والسبيل كالليل المدلهم ، غير أن عين الموفق بصر فرس لانه يرى في الظلمة كما يرى في الضوء والصدق في الطلب اينـار[1] أين وجد يدل على الجادة ، وإنما يتعثر من لم يُخلص . وانما يمتنع الاخلاص ممن لايراه . فلا حول ولا قوة إلا بالله .

٢٦٢ ـ لو عرفت مقدارك ماتكبرت

عجبت لمن يعجب بصورته ، ويختال في مشيتـه ، وينسى مبدأ أمره . انما أوله لقمة ضمت اليها جرعة ماء ، فان شئت فقل كسرة خبز معها تمرات ، وقطعة من لحـــم ومذقة من لبن ، وجرعة من ماء ، ونحو ذلك طبخته الكبد فأخرجت منه قطرات منيّ ، فاستقرت في الانثيين فحركتها الشهوة ، فصبت فبقيت في بطن الام مدة حتى تكاملت صورتها فخرجت طفلاً تتقلب في خرق البول .

---

(١) يريد انه انارة

وأما آخره فانه يلقى في التراب فيأكله الدود ويصير رفاتا تسفيه السوافي . وكم يخرج تراب بدنه من مكان الى مكان آخر . ويقلب في أحوال الى أن يعود فيجمع .

هذا خبر البدن . اما الروح عليها العمل ، فان تجوهرت بالادب ، وتقومت بالعلم ، وعرفت الصانع ، وقامت بحقه فما يضرها نقص المركب . وان هي بقيت على صفتها من الجهالة شابهت الطين بل صارت أخس حالة منه .

٢٦٣ ـ نصائح لطالب العلم الفقير

هيهات ان يجتمع الهم مع التلبس بأمور الدنيا خصوصاً الشاب الفقير الذي قد ألف الفقر ، فانه اذا تزوج وليس له شيء من الدنيا اهتم بالكسب ، أو بالطلب من الناس فتشتت همته ، وجاءه الاولاد فزاد الامر عليه ، ولايزال يرخص لنفسه فيما يحصل ، الى أن يلتبس بالحرام ، ومن يفكر فهمته ما يأكل وما يأكله أهله ، وما يرضي به الزوجة من النفقة والكسوة ، وليس له ذلك . فاي قلب يحضر له ، وأي هم يجتمع ؟ هيهات والله . لايجتمع الهم والعين تنظر الى الناس ، والسمع يسمع حديثهم ، واللسان يخاطبهم ، والقلب متوزع في تحصيل ما لابد منه .

فان قال قائل : فكيف أصنع ؟

قلت : إن وجدت مايكفيك من الدنيا ، أو معيشة تكفك فاقنع بها ، وانفرد في خلوة عن الخلق مهما قدرت ، وان تزوجت فبفقيرة تقنع باليسير ، وتصبر أنت على صورتها وفقرها ، ولا تترك نفسك تطمح الى من تحتاج الى فضل نفقته فان رزقت امرأة صالحة جمعت همتك . وإن لم تقدر فمعالجة الصبر أصلح لك من المخاطرة .

وإياك والمستحسنات [١] فان صاحبهن اذا سلم كعابد صنم وإذا حصل بيدك شيء فانفق بعضه ، فبحفظ الباقي تحفظ شتات قلبك . واحذر كل الحذر من هذا الزمان وأهله فما بقي مُواسٍ ولا مُؤْثِر ، ولا من يهتم لسدّ خلة ، ولا من لو سئل أعطى إلا أن يعطي نزراً بتضجر ومنة يستعبد بها المعطى بقية العمر ، ويستثقله كلما رآه ويستدعي خدمته له ويتردد اليه . وإنما كان في الزمان مثل أبي عمرو بن نجيد سمع أبا عثمان المغربي يقول يوماً على المنبر : عليّ ألف دينار ، وقد ضاق صدري .

فمضى أبو عمرو اليه في الليل بألف دينار ، وقال : اقض دينك.

فلما عاد وصعد المنبر قال : نشكر الله لابي عمرو فانه أراح قلبي وقضى ديني .

---

(١) يريد الجميلات

فقام أبو عمرو فقال : أيها الشيخ ذلك المال كان لوالدتي وقد شق عليها ما فعلت فان رأيت أن تتقدم[١] برده فافعل .

فلما كان في الليل عاد اليه ، وقال له : لماذا شهرتني بين النـــاس ؟ فأنا مافعلت ذلك لاجل الخلق ، فخذه ، ولا تذكرني

ماتوا وغيّب في التراب شخوصهم والنشر مسك والعظام رميم

فالبعد البعد عمّن همته الدنيا ، فان زاد همّ اليوم الى أن يحصل أقرب منه الى أن يؤثر . ولا تـكاد ترى إلا عدواً في الباطن ، صديقاً في الظاهر ، شامتا بباطنه حسوداً على نعمته. فاشتر العزلة بمـا بيعت ، فإن من له قلب إذا مشى في الاسواق وعاد الى منزله تغير قلبه ، فكيف ان عرقله بالميل الى أسباب الدنيا ، واجتهد في جمع الهم بالبعـــد عن الخلق ليخلو القلب بالتفكر في المآب . وتتلمح عينُ البصيرة خيمَ الرحيل .

٢٦٤ ـ على المريد ان يزور القبور ولايخالط البطالين

كان المريد في بداية الزمان إذا أظلم قلبه أو مرض لبــه قصد زيارة بعض الصالحين فانجلى ما أظلم . واليوم متى حصلت ذرة من الصدق لمريد فردته في بيت عزلة ، ووجد نسيما من روح العافية ، ونوراً في باطن قلبه ، وكاد همه يجتمع وشتاته ينتظم ، فخرج فلقي من يوماً اليه بعلم أو زهد رُئي عند البطالين

(١) أي تأمر

وهو يجري معهم مسلك المذبان الذي لاينفع ، ورأى صورته صورة منمّس[1] ، وأهون ما عليه تضييع الاوقات في الحديث الفارغ ، فما يرجع المريد عن ذلك الوطن الا وقد اكتسب ظلمة في القلب وشتاتا في العزم ، وغفلة عن ذكر الآخرة ، فيعود مريض القلب ، يتعب في معالجته أياماً كثيرة حتى يعود الى ما كان فيه ، وربما لم يعد لان المريد فيه ضعف ، فاذا رأى شيخاً قد جرب وعرف ثم يؤثر البطالة ، لم يأمن أن يتبعه الطبع .

فالاولى للمريد اليوم أن لايزور إلا المقابر ، ولا يفاوض إلا الكتب ، التي قد حوت محاسن القوم ، وليستعن بالله تعالى على التوفيق لمراضيه ، فانه ان اراده هيأه لما يرضيه .

٢٦٥ ـ صفة أولياء الله

تأملت الذين يختارهم الحق عز وجل لولايته والقرب منه . فقد سمعنا أوصافهم ، ومن نظنه منهم ممن رأيناه ، فوجدته سبحانه لايختار الا شخصاً كامل الصورة ، لاعيب في صورته ، ولانقص في خلقته ، فتراه حسن الوجه ، معتدل القامة ، سليماً من آفة في بدنه . ثم يكون كاملا في باطنه ، سخياً جواداً عاقلا

---

(١) اي ملبس « مدجل »

غير خبّ ولا خادع ، ولا حقود ولا حسود ، ولا فيه عيب من عيوب الباطن ، فذاك الذي يربيه من صغره فتراه في الطفولة معتزلا عن الصبيان ، كأنه في الصبا شيخ ينبو عن الرذائل ويفزع من النقائص ، ثم لاتزال شجرة همته تنمو حتى يرى ثمرها متهدلا على اغصان الشباب ، فهو حريص على العلم ، منكمش على العمل ، محافظ للزمان ، مراع للاوقات ، ساع في طلب الفضائل ، خائف من النقائص ، ولو رأيت التوفيق والالهام الرباني كيف يأخذ بيده ان عثر ، ويمنعه من الخطأ ان همّ ، ويستخدمه في الفضائل ، ويستر عمله عنه حتى لايراه منه . ثم ينقسم هؤلاء . فمنهم من تفقه على قدم الزهد والتعبد ، ومنهم من تفقه على العلم واتباع السنة . ويندر منهم من يجمع له الكل ويرقيه الى مزاحمة الكاملين .

وعلامة اثبات الكمال في العلم والعمل ، الاقبال بالكلية على معاملة الحق ومحبته واستيعاب الفضائل كلها ، فلو تصورت النبوة أن تكتسب لدخلت في كسبه . ومراتب هذا لايحتملها الوصف ، لكونه درة الوجود ، التي لاتكاد تنعقد في الصَّدَف الا في كل ودود . نسأل الله عز وجل توفيقنا لمراضيه وقربه . ونعوذ به من طرده وابعاده .

٢٦٦ ـ اكثر الناس في غفلة عن الآخرة

اكثر الخلايق على طبع ردي لاتقومه الرياضة . لايدرون لمَ خلقوا ولا المراد منهم . وغاية همتهم حصول بغيتهم من أغراضهم . ولايسألون عند نيلها ماجتلبت لهم من ذم . يبذلون العِرْض دون الغرَض ، ويؤثرون لذة ساعة ، وان اجتلبت زمان مرض ، يلبسون عند التجارات ثياب محتال ، في شعار مختال ، ويلْبَسون في المعاملات ، ويسترون الحال .

ان كسبوا فشبهة ، وان اكلوا فشهوة ، ينامون الليل وان كانوا نياماً بالنهار في المعنى ، ولا نوم بهذه الصورة ، فاذا أصبحوا سعوا في تحصيل شهواتهم بحرص خنزير ، وتبصبص كلب ، وافتراس أسد ، وغارة ذئب ، وروغان ثعلب ، ويتأسفون عند الموت على فقد الهوى ، لاعلى عدم التقوى . ذلك مبلغهم من العلم . كيف يفلح من يؤثر مايراه بعينه على مايبصره بعقله ؟ ومايدركه ببصره أعز عنده مما يراه ببصيرته .

تالله لو فتحوا أسماعهم لسمعوا هاتف الرحيل في زمان الاقامة يصيح في عرصات الدنيا : تلمحوا تقويض خيام الاوائل . لكن غمرهم سكر الجهالة ، فلم يفيقوا الا بضرب الحد .

٢٦٧ - المال الحرام

رأيت بعض المتقدمين سئل عمن يكتسب حلالا وحراما من السلاطين والامراء ثم يبني المساجد والاربطة ، هل له فيها ثواب ؟

فأفتى بما يوجب طيب قلب المنفق ، وان له في انفاق مالا يملكه نوع سمسرة ، لأنه لايعرف أعيان المغصوبين فيرد .

فقلت : واعجبـــا من متصدين للفتوى لايعرفون أصول الشريعة . ينبغي أن ينظر في حال هذا المنفق أولا ، فان كان سلطانا فما يخرج من بيت المال قد عرفت وجوه مصارفه ، فكيف يمنع مستحقه ويشغله بما لايفيد من بناء مدرسة ورباط ؟ وان كان المنفق من الامراء ونواب السلاطين ، فانه يجب ان يرد ما يجب رده الى بيت المـال ، وليس له فيه الا مافرض من ايجاب يليق به ، فان تصرف في غير ذلك كان مصروفاً فيما ليس له ، ولو أذن له كان الاذن جائزاً . وان كان قد أقطع مالايقاوم عمله[1] كان مايأخذه فاضلا من اموال المسلمين لاحق له فيه ، وعلى من أطلقه في ذلك اثم أيضاً ، هـــذا اذا سلم المال وكان من حله . فاما إذا كان حراماً أو غصباً فكل تصرف فيه حرام ، والواجب رده على من أخذ منه أو على

(١) كذا

ورثتهم . فان لم يعرف طريق الرد كان في بيت مال المسلمين يصرف في مصالحهم ، أو يصرف في الصدقة ، ولم يحظ آخذه بغير الاثم . أنبأنا أحمد بن الحسن بن البنا قال أخبرنا محمد بن علي الزجاجي قال أخبرنا عبد الله بن محمد الاسدي قال أخبرنا علي بن الحسن قال حدثنا أبو داود قال حدثنا محمد بن عون الطائي قال حدثنا أبو المغيرة قال حدثنا الاوزاعي قال حدثني موسى بن سليمان قال سمعت القاسم بن مخيمرة يقول قال رسول الله ﷺ : من اكتسب مالا من مأثم ، فوصل رحماً ، أو تصدق به ، أو أنفقه في سبيل الله ، جمع ذلك جميعاً فقذف به في جهنم .

فاما اذا كان الباني تاجراً مكتسباً للحلال فبنى مسجداً أو وقف وقفاً للمتفقهة ، فهذا مما يثاب عليه . ويبعد من يكتسب الحلال حتى يفضل عنه هذا المقدار ، ويخرج الزكاة مستقصاة ، ثم يطيب قلبه بمثل هذا البناء والنفقة . إذ مثل هذا البنيان لايجوز أن يكون من زكاة . واين سلامة النيــــة وخلوص المقصد ؟ وان بناء المدارس اليوم مخاطرة ، اذ قد انعكف أكثر المتفقهة على علم الجدل ، وأعرضوا عن علوم الشريعة ، وتركوا التردد الى المساجد ، وقنعوا بالمدارس والالقاب .

وأما بناء الاربطة [1] فليس بشيء أصلا ، لأن جمهور

---

(١) اي التكايا ونحوها

المتصوفة جلوس على بساط الجهل والكسل ، ثم يدعى مدعيهم المحبة والقرب ، ويكره التشاغل بالعمل ، وقد تركوا سيرة سري[١] وعادات الجنيد ، واقتنعوا بأداء الفرائض ، ورضوا بالمرقعات ، فلا تحسن اعانتهم على بطالتهم وراحتهم ، ولاثواب في ذلك .

٢٦٨ ـ اخلاص القلب وذم الرياء

عجبت لمن يتصنع للناس بالزهد يرجو بذلك قربه من قلوبهم ، وينسى أن قلوبهم بيد من يعمل له ، فان رضي عمله ورآه خالصاً لفتَ القلوب اليه ، وان لم يره خالصاً أعرض بها عنه . ومتى نظر العامل الى التفات القلوب اليه فقد زاحم الشرك[٢] ، لانه ينبغي أن يقنع بنظر من يعمل له ، ومن ضرورة الاخلاص إلفات القلوب اليه ، فذاك يحصل لا بقصده بل بكراهته لذلك[٣] . وليعلم الانسان أن أعماله كلها يعلمها الخلق جملة ، وان لم يطلعوا عليها . فالقلوب تشهدَ للصلاح وان لم يشاهد منه ذلك . فاما من يقصد رؤية الخلق بعمله فقد

(١) اي السقطي

(٢) يريد : قارب الشرك . على انه ليس في ذلك شرك ، ولكن فيه نوع رياء

(٣) الاسلام دين الفطرة ، ومن فطرة الانسان حب الثناء . والمطلوب الا يكون ذلك قصده كله ، بل يكون مقصده الاول رضا الله وثوابه

مضى العمل ضائعاً ، لانه غير مقبول عند الخلق ، لان قلوبهم قد لفتت عنه ، فقد ضاع العمل ، وذهب العمر .

ولقد أخبرنا ابن الحصين قال أخبرنا ابن المذهب قال أخبرنا أحمد بن جعفر قال حدثنا عبد الله بن أحمد قال حدثني أبي قال حدثنا حسن بن موسى قال حدثنا ابن لهيعة قال حدثنا دراج عن ابي الهيثم عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أنه قال : لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لخرج (عمله) الى الناس كائنا ما كان .

فليتق الله العبد ، وليقصد من ينفعه قصده ، ولا يتشاغل بمدح مَنْ عن قليل بليَ هو وهم .

٢٦٩ ـ مخالطة العلماء للسلاطين واضرارها

قدم علينا بعض الفقهاء من بلاد الاعجام ، وكان قاضياً ببلده فرأيت على دابته الذهب ومعه أتوار[١] الفضة وأشياء كثيرة من المحرمات .

فقلت : أي شيء أفاد هذا العلم[٢] . بل والله قد كثرت عليه الحجج ، وأكبر الاسباب قلة علم هؤلاء بسيرة السلف وما كان عليه رسول الله ﷺ . لا أنهم يجهلون الجملة ، ولكنهم

---

(١) جمع تور وهو اناء الشرب (٢) «العلم» فاعل «وهذا» مفعول به

يتشاغلون بعلم الخلاف ، ويقصدون التقـدم ، ولا يقصدون سماع حديث ولا نظروا في سير السلف ، ويخالطون السلاطين فيحتاجون الى التزيي بزيهم ، فربما خطر لهم أن هذا قريب ، وان لم يخطر لهم فالهوى غالب بلا صادّ ، وربما خطر لهم : ان هذا يحتمل ويغفر في جانب تشاغلنا بالعلم .

ثم يرون العلماء يكرمونهم لنيل شيء من دنياهم ، ولاينكرون عليهم . ولقد رأيت من الذين ينتسبون الى العلم من يستصحب المردان ، ويشتري المماليك ، وما كان من يفعل هذا إلا من قد يئس من الآخرة .

ورأيت من قد بلغ الثمانين من العلماء ، وهو على هذه الحالة .

فالله الله يامن يريد حفظ دينـــه ويوقن بالآخرة ، اياك والتأويلات الفاسدة ، والاهواء الغالبة ، فانك ان ترخصت بالدخول في بعضها جرّك الامر الى البـــاقي ، ولم تقدر على الخروج لموضع إلف الهوى ، فاقبل نصحي ، واقنع بالكسرة ، وابعد عن أرباب الدنيا ، فاذا ضجّ الهوى فدعه لهذا ، وربما قال لك : « فالأمر الفلاني قريب » فلا تفعل ، فانه يدعو الى غيره ويصعب التلافي . فالصبرَ الصبرَ على شظف العيش . والبعدَ عن ارباب الهوى ، فما يتم دين الا بذلك . ومتى وقع الترخص حمل الى غيره ، كالشاطيء الى اللجة ، وانما هو طعام دون

طعام ، ولباس دون لباس ، ووجه أصبحُ من وجه ، وانما هي أيام يسيرة .

٢٧٠ـ عجز العقل عن ادراك حكمة الخالق ووجوب التسليم

من تفكر في عظمة الله عزوجل طاش عقله لأنه يحتاج أن يثبت موجوداً لاأول لوجوده ، وهذا شيء لايعرفه الحس ، وانما يقرّ به العقل ضرورة ، وهو متحير بعد الاقرار .

ثم يرى من أفعاله مايدل على وجوده فلا يخفى وجوده ، ثم يجري في أقداره أمور لولا ثبوت الدليل على وجوده لأوجبت الجحد ، فانه يفرق البحر لبني اسرائيل ، وذلك شيء لايقدر عليه سوى الخالق . ويصيّر العصا حية ثم يعيدها عصا ، وتتلقف ماصنعوا ولا يزيد فيها شيء . فهل بعد هذا بيان ؟

فاذا آمنت السحرة تركهم مع فرعون يصلبهم ولايمنع . والانبياء يبتلون بالجوع والقتل ، وزكريا ينشر ، ويحيى تقتله زانية . ونبينا ﷺ يقول كل عام : « من يؤويني من ينصرني ؟ » فيكاد الجاهل بوجود الخالق يقول : « لو كان موجوداً لنصر أولياءه » فينبغي للعاقل الذي قد ثبت عنده وجوده بالادلة الظاهرة الجلية ألاّ يمكن عقله من الاعتراض عليه في أفعاله ، ولايطلب بها علة ، اذ قد ثبت انه مالك وحكيم . فاذا خفي عليه وجه الحكمة في فعله نسبنا العجز الى فُهومِنا .

وكيف لا وقد عجز موسى عليه السلام أن يعرف حكمة خرق السفينة وقتل الغلام ، فلما بان له حكمة ذلك الفساد في الظاهر أقرّ . فلو قد بانت الحكمة في أفعال الخالق جحد العقل جحد موسى يوم الخضر . فمتى رأيت العقل يقول : لِمَ ؟ فأخرسه بان تقول له : ياعاجز انت لاتعرف حقيقة نفسك . فما لك والاعتراض على المالك .

وربما قال العقل : أي فائدة في الابتلاء وهو قادر أن يثيب ولا بلاء ؟ وأي غرض في تعذيب اهل النار وليس ثَمَّ تشفٍّ ؟ فقل له : حكمته فوق مرتبتك ، فسلم لما لاتعلم ، فان أول من اعترض بعقله ابليس ، فرأى فضل النار على الطين فاعترض؟

وقد رأينا خلقاً كثيراً وسمعنا عنهم انهم يقدحون في الحكمة لأنهم يحكمون العقول على مقتضاها ، وينسون أن حكمة الخالق وراء العقول ، فاياك أن تفسح لعقلك في تعليل أو أن تطلب له جواب اعتراض ، وقل : له سلم تسلم ، فانك لاتدري غور البحر الا وقد أدركك الغرق قبل ذلك .

هذا أصل عظيم ، متى فات الآدمي أخرجه الاعتراض الى الكفر .

٢٧١ - الكهولة خير واعظ

العجب ممن يقول : أخرج الى المقابر فاعتبر بأهل البِلى .

ولو فطن [١] أنه مقبرة ، يغنيه الاعتبار بما فيها عن غيرها ، خصوصاً من قد أوغل في السن ، فان شهوته ضعفت ، وقواه قلت ، والحواس كلت والنشاط فتر ، والشعر ابيض ، فليعتبر بما فقد ، وليستغن عن ذكر من فقد ، فقد استغنى بما عنده عن التطلع الى غيره .

٢٧٢ ـ ذكر الآخرة

متى تكامل العقل فقدت لذة الدنيا فتضاءل الجسم ، وقوي السقم ، واشتد الحزن ، لأن العقل كلما تلمح العواقب أعرض عن الدنيا ، والتفت الى ماتلمح ولا لذة عنده بشيء من العاجل . وانما يلتذ أهل الغفلة عن الآخرة ، ولا غفلة لكامل العقل . ولهذا لايقدر على مخالطة الخلق ، لانهم كأنهم من غير جنسه ، كما قال الشاعر :

ما في الديار أخو وجد نطارحه حديث نجد ولا خلٌ نجاريه [٢]

٢٧٣ ـ البعث

ادعى الطبايعيون ان مادة الموجودات الماء والتراب والنار والهواء فاذا كان في القيامة أذهب الاصول ، ثم أعاد الحيوان

---

(١) المؤلف نفسه وصى « قبل سبعة فصول » بالخروج الى المقابر !

(٢) في الفصل « ٢٩٢ » ولا صب . وهي الرواية الصحيحة

ليعلم انها كانت بالقدرة لاعن تأثير الكليات . ومن قدح في البعث فقد بالغ في القدح في الحكمة . ومن قال : الروح عرض ، فقد جحد البعث لان العرض لا يبقى والاجساد تصير تراباً ، فان وجد شيء فهو ابتداء خلق . كلا والله ، بل يعيد النفس بعينها بدليل اعادة مذكوراتها « قال قائل منهم إني كان لي قرين » .

وعزته ان لطفه في البداية دليل على النهاية . حنن الوالدين ، وأجرى اللبن في الثدي ، وانشأ الاطعمة ، وأطلع العقل على العواقب . أفيحسن ان يقال بعد هذا التدبير ، انه يهمل بعد الموت فلا يبعث !

أترى من أحب أن يُعرَف فأنشأ الخلق وقال : « كنت كنزاً لاأعرف فأحببت ان أعرَف » يؤثر أن يعدمهم فيجهل قدره . . سبحان من أعمى أكثر القلوب عن معرفته .

٢٧٤ ـ دلائل التوحيد

سبحان من ظهر لخلقه حتى لم يبق خفاء ، ثم خفي حتى كأنه لاظهور . أيّ ظهور أجلى من هذه المصنوعات التي تنطق كلها بأن لي صانعاً صنعني ورتبني على قانون الحكمة . خصوصاً هذا الآدمي الذي أنشأه من قطرة ، وبناه على اعجب

فطرة [١] ورزقه الفهم والذهن واليقظة والعلم ، وبسط له المهاد ، وأجرى له الماء والريح ، وأنبت له الزرع ، ورفع له من فوقه السماء ، فأوقد له مصباح الشمس بالنهار ، وجاء بالظلمة ليسكن ، الى غير ذلك ، مما لايخفى . وكله ينطق بصوت فصيح يدل على خالقه . وقد تجلى الخالق سبحانه بهذه الأفعال فلا خفاء .

ثم بعث الرسل فقراء من الدنيا ، ضعاف الابدان ، فقهر بهم الجبابرة ، وأظهر على أيديهم من المعجزات مالا يدخل تحت مقدور بشر . وكل ذلك ينطق ، وقد تجلى سبحانه بذلك .

ثم يأتي موسى عليه السلام الى البحر فينفرق فلا يبقى شك في ان الخالق فعل هذا . ويكلم عيسى عليه السلام الميت فيقوم . ويبعث طيراً أبابيل تحفظ بيته فيهلك قاصديه . وهذا أمر يطول ذكره كله . يدل على أن تجلى الخالق سبحانه بغير خفاء . فاذا ثبت عند العقول ذلك من غير ارتياب ولاشك ، جاءت أشياء كأنها تستر الظاهر على ماسبق من تسليط الاعداء على الاولياء ، وإذا ثبت التجلي بأدلة لاتحتمل التأويل ، علمت ان لهذا الخفا

---

(١) من درس علم الغريزة «الفسيولوجيا» واطلع على تركيب الجسم ووظائف اعضائه ازداد بالله ايماناً « وفي انفسكم أفلا تنظرون »

سراً لانعلمه يفترض على العقل فيه التسليم للحكيم فمن سلّم سلم، ومن اعترض هلك .

٢٧٥ـ الاجتهاد

قد يدعي أهل مذهبٍ الاجتهادَ في طلب الصواب وأكثرهم لايقصد الا الحق . فترى الراهب يتعبد ويتجوّع ، واليهودي يذل ويؤدي الجزية ، وصاحب كل مذهب يبالغ فيه ويحتمل الضيم والاذى طلباً للهدى ، وتحصيل الاجر ، ومع هذا فيقطع بضلال الاكثرين . وهذا قد يشكل ، وانما كشفه أنه ينبغي أن يطلب الهدى بأسبابه ، ويستعمل الاجتهاد بالابانة، فأما من فاتته الاسباب ، أو فقد بعض الآلات فلا يقال له مجتهد . فاليهود والنصارى بين عالم قد عرف صدق نبينا ﷺ ثم يمسك لرئاسته[1] فهذا معاند ، وبين مقلد لاينظر فهذا مهمل ، فهو يتعبد مع اهمال الاصل ، وهذا لاينفع . وبين ناظر منهم لاينظر حق النظر ، فيقول : في التوراة أن ديننا لاينسخ . وهو على غير ثقة أن هذا غير معقول ولامدخل فيها[2] . ويقول بالنسخ ذاك لاينظر في الفرق ، فينبغي أن ينظر حق النظر .

ومن هذا الجنس تعبد الخوارج مع اقناعهم بعلمهم القاصر،

---

(١) أي يمسك عن الايمان حفظاً للرياسة (٢) كذا

وهو قولهم : « لاحكم الا لله » ولم يفهموا أن التحكيم من حكم الله ، فجعلوا قتال عليّ رضي الله عنه وقتله مبيناً على ظنهم الفاسد . ولما نهب مسلم بن عقبة المدينة وقتل الخلق قال : ان دخلت النار بعد هذا انى لشقىّ .

فظن بجهله انهم لما خالفوا بيعة يزيد يجوز استباحتهم وقتلهم . فالويل لعامي قليل العلم لايتهم نفسه في واقعة ، ولايذاكر من هو أعلم منه ، بل يقطع بظنه ويقدم .

وهذا أصل ينبغي تأمله ، فقد هلك في اهماله خلق لا يحصى وقد رأينا خلقاً من العوام اذا وقع لهم واقعة لم يقبلوا فتوى « وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة تصلى ناراً حامية » .

٢٧٦ - ذخائر البدن والنفس

للنفس ذخائر في البدن منها الدم والمنيّ (١) وأشياء تتقوى بها ، فاذا فقدت الذخائر ولم يبق منها شيء ذهبت . ومن ذخائرها التقوّى بالمال والجاه ، وما يوجب الفرح ، فاذا فقدت ذلك وكانت عزيزة ذات أنفة حرجت ، وقد يهجم عليها الخوف فلا تجد ذخيرة من الرجاء يقاومه فتذهب ، ويغلب عليها الفرح فلا تجد من الحزن مايقاومه فتذهب . فاجتهد في حفظ ذخائرها وخصوصاً الشيخ ، فانه ينبغي له الاّ يفرّط باخراج الدم ،

---

(١) فعيل بمعنى فاعل ، من « منى » وأصل معناها سال .

ولا اخراج المني وان وجد شبقاً ، الا ان يكون الشبق زائداً في الحد فيخرج المؤذي في كل حين . وعلامة أن يكون مؤذياً وجود الراحة عند خروجه . فمتى وجد ضعفاً فقد آذى خروجه .

وليحفظ ذو الانفة على نفسه حشمته ، بأن لايقف في موقف يعاب به ، فانه يتمتع بذخيرة العز والانفة ويضاد النفس وجود ضد ذلك . وكذلك ينبغي أن يستعد لآخر عمره بالمال مخافة أن يحتاج فيذل ، أو يسعى وقد كلّت الآلة ولأن يخلّف لعدوه أولى من أن يحتاج الى صديقه . ولا يلتفت الى من يذم المال ، فانهم الحمقى الجهال الذي اتكلوا على خبز الراحة ، فاستطابوا الكسل والدعة ، ولم يأنفوا من تناول الصدقة ، ولا من التعرض للسؤال . وقد كان لكل نبي معاش ولجميع الصحابة ، وخلفوا أموالا كثيرة .

فافهم هذا الاصل ، ولاتلتفت الى كلام الجهال .

٢٧٧ ـ زهاد زماننا

رأيت في زهاد زماننا من الكبر وحفظ الناموس [1] ورتبة الجاه في قلوب العامة ما كدت أقطع به على أنهم أهل رياء ونفاق . فترى أحدهم يلبس الثوب الذي يرى بعين الزهد ، ويأكل أطايب الطعام ، ويتكبر على أبناء الجنس ، ويصادق

(١) أي المظاهر .

الاغنياء ، ويباعد الفقراء ، ويحب الخطاب بـ (مولانا) والمشي بجانبه ، ويضيع الزمان في الهذيان ، ويتقوت بخدمة الناس له والتسليم عليه .

ولو انه لبس ثوباً يخالطه بالفقهاء لذهب الجاه ، ولم يبق له متعلق . ولو أن أفعاله ناسبت ثيابه لهان الامر ، لكنهم بهرجوا علي من لايخفى عليه من الخلق ،فكيف الخالق سبحانه وتعالى .

٢٧٨ ـ على المؤمن تأمين معاشه

كثيراً ماأعيد هذا المعنى الذي أنا ذاكره في هذا الكتاب بعبارات . ينبغي للمؤمن ان يتشاغل بمعاشه ويرفق في نفقته . فانه قد كان للعلماء شيء من بيت المال ورفق من الاخوان ، ومعونة من العوام ، فانقطع الكل ، وبقي المتشاغل بالعلم أو بالتعبد مسكيناً ، خصوصاً ذو العائلة . وما رأينا مثل هذا الزمان القبيح ، فما بقي من يوماً إليه بمعونة ولا باستقراض منه ، فيحتاج الانسان ان يدخل في مداخل لاتليق به ، وان يتعرض بما لايصلح . فينبغي تقليل العائلة ، وتقوية القوت ، وترقيع الخلق ، وان أمكن معاش فهو أولى من التشاغل بالتعبد والتعلم لفضول العلم . وإلا ضاع الدين في مداخل لاتصلح . او التعرض لبذل نذل .

٢٧٩ ـ الاحتراز والايمان بالقدر

ينبغي للعاقل ان يحترز غاية مايمكنه . فاذا جرى القدر مع احترازه لم يلم . والاحتراز من كل شيء يمكن وقوعه ، وأخذ العدة لذلك . وهذا يكون في كل حال . قد قص رجل ظفره فجار عليه فخبثت يده فمات . ومر شيخنا أحمد الحربي وهو راكب بمكان ضيق فتطأطأ على السرج فانعصر فؤاده فمرض فمات . وكان يحيى بن نزار [١] شيخاً يحضر مجلسي قد طرق عليه ثقل الاذن فاستدعى طرقيا فمص أذنه فجرى شيء من مخه فمات . وانظر الى احتراز رسول الله ﷺ حين مر على حائط مائل فأسرع .

وينبغي ان يحترز بالكسب في زمن شبابه ادّخاراً لزمن شيبه ، ولا ينبغي أن يثق بمعامل الا بوثيقة ، ويبادر بالوصية مخافة ان يطرقه الموت ، ويحترز من صديقه فضلاً من عدوه ، ولا يثق بمودة من قد آذاه هو ، فان الحقد في القلوب لايزول .

وليحترز من زوجته فربما اطلعها على سر ثم طلقها فيتأذى بما تفعل به .

---

(١) في التيمورية : بزاز

وقد كان ابن أفلح الشاعر بكاتب رئيساً في زمن المسترشد فعلم بذلك بوابه ، واتفق أنه صرف بوابه فنمّ عليه ونقضت داره . فهذه المذكورات أمثلة تنبه على مالم يذكر . وأهم الكل أن يحترز بأخذ العدة ، وتحقيق التوبة ، وقبل أن يهجم عليه مالا يؤمن هجومه [١] وليحذر من لص الكسل ، فانه محتال على سرقة الزمان .

٢٨٠ ـ الاكتفاء باليسير من أمور الدنيا

تأملت خصومات الملوك وحرض التجار ، ونفاق المتزهدين فوجدت جمهور ذلك على لذات الحس . واذا تفكر العاقل في ذلك علم أن أمر الحسيات قريب يندفع بأقل شيء ، وأن الغاية لايمكن نيلها ، وان بالغ عاد بالاذى على نفسه اضعاف مانا له من اللذة ، كمن يأكل كثيرا أو ينكح كثيراً .

فالسعيد من اهتم لحفظ دينه ، واخذ من ذلك بمقدار الحاجة.

واعجبا ، هذا الملبوس إذا كان وسطاً خَدم ، واذا كان مرتفعاً ُخدم ، فان نظر اللابس اليه معجبا به فان الله لاينظر اليه حينئذ . وفي الصحيح : بينا رجل يتبختر في بردته خسف به.

والمشروب ان كان حراما فعقابه أضعاف لذته . وهتكه

(١) يريد الموت ، الذي لابد منه ، ولايعرف وعده .

العرض بين الناس عقاب آخر ، وإن كان مباحاً فالشره فيه يؤذي البدن .

وأما المنكوح فمدارة المستحسن يؤذي فوق كل أذى ، ومقاساة المستقبح أشد أذى .

فعليك بالتوسط ، وتفكر في أحوال السلاطين ، كم قتلوا ظلماً ، وكم ارتكبوا حراماً ، وماناالوا إلا يسيراً من لذات الحس ، فانقشع غيم العمر عن حسرات الفضائل ، وحصول العقـــاب ، فليس في الدنيا اطيب عيشاً من منفرد عن العالم بالعلم ، فهو أنيسه وجليسه ، قد قنع بما سلم به دينه من المباحات الحاصلة ، لاعن تكلف ولاتضييع دين ، وارتدى بالعز عن الذل للدنيا وأهلها ، والتحف بالقناعة باليسير ، اذا لم يقدرعلى الكثير فوجدته يسلم دينه ودنياه . واشتغاله بالعـــلم يدله على الفضائل ، ويفرجه في البساتين . فهـو يسلم من الشيطان والسلطان والعوام بالعزلة . ولكن لايصلح هذا إلا العالم ، فانه اذا اعتزل الجـــاهل فاته العلم فتخبط .

٢٨١ ـ نصائح لطلاب العلم

تأملت حالة تدخل على طلاب العلم توجب الغفلة عن المقصود ، وهو حرصهم على الكتـــابة ، خصوصاً المحدثين فيستغرق ذلك

زمانهم عن ان يحفظوا ويفهموا ، فيذهب العمر وقد عرَوا عن العلم إلا اليسير . فمن وفق جعل معظم الزمان مصروفاً في الاعادة والحفظ ، وجعل وقت التعب من التكرار للنسخ فيحصل له المراد . والموفق من طلب المهم ، فان العمر يعجز عن تحصيل الكل ، وجمهور العلوم الفقه . وفي الناس من حصل له العلم وغفل عن العمل بمقتضاه ، وكأنه ماحصل شيئاً . نعوذ بالله من الخذلان .

٢٨٢ ـ الاستشارة

ماعتمد أحد أمرا اذا هم بشيء مثل التثبت ، فانه متى عمل بواقعة من غير تأمل للعواقب كان الغالب عليه الندم . ولهذا أمر بالمشاورة لان الانسان بالتثبت يفتكر فتعرض على نفسه بالتفكر الاحوال وكأنه شاور وقد قيل : خمير الرأي خير من فطيره . وأشد الناس تفريطا من عمل مبادرة في واقعة من غير تثبت ولا استشارة ، خصوصاً فيما يوجبه الغضب فانه طلب الهلاك أو الندم العظيم . وكم من غضِب فقتل وضرب ثم لما سكن غضبه بقي طول دهره في الحزن والبكا والندم . والغالب في القاتل أنه يقتل فتفوت الدنيا والآخرة . فكذلك من عرضت له شهوة فاستعجل لذيها ونسي عاقبتها ، فكم من

ندم يتجرعه في باقي عمره ، وعتاب يستقبله من بعد موته، وعقاب لايؤمن وقوعه .

كل ذلك لــلذة لحظة كانت كبرق . فالله الله . التثبتَ التثبتَ في كل الامور والنظرَ في عواقبها . خصوصاً الغضب المثير للخصومة وتعجيل الطلاق .

٢٨٣ـ من لم يحترز بعقله هلك بعقله

سألني سائل ، قد قال بعض الحكماء : من لم يحترز بعقله هلك بعقله . فما معنى هذا ؟

فبقيت مدة لاينكشف لي المعنى . ثم اتضح .

وذلك أنه اذا طلبت معرفة ذات الخالق سبحانه من العقل فزع الى الحس فوقع التشبيه ، فالاحتراز من العقل بالعقل هو أن ينظر فيعلم أنه لايجوز ان يكون جسما ولا شبهاً لشيء . واذا نظر العاقل الى أفعال الباري سبحانه رأى أشياء لايقتضيها العقل ، مثل الآلام ، والذبح للحيوان ، وتسليط الاعداء على الاولياء مع القدرة على المنع ، والابتلاء بالمجاعة للصالحين ، والمعاقبة على الذنب بعد البعد بزلة ، وأشياء كثيرة من هذا الجنس يعرضها العقل على العادات في تدبيره فيرى أنه لاحكمة تظهر له فيها .

فالاحتراز من العقل به أن يقال له : أليس قد ثبت عندك

انه مالك وأنه حكيم وأنه لايفعل شيئاً عبثاً ؟

فيقول بلى .

فيقال : فنحن نحترز من تدبيرك الثاني بما ثبت عندك في الاول ، فلم يبق إلا أنه خفي عليك وجه الحكمة في فعله ، فيجب التسليم له ، لعلمنا أنه حكيم .

حينئذ يذعن ويقول : قد سلمت .

وكثير من الخلق نظروا لمقتضى واقع العقل الاول فاعترضوا. حتى ان العامي يقول : كيف قضى عليّ سوء عاقبتي ، ولمَ ضيق رزقي ، وماوجه الحكمة في ابتلائي بفنون البلاء ؟

ولو أنه تلمح أنه مالك حكيم لم يبق إلا التسليم لما خفي . ولقد أنس ببديهة العقل خلق من الا كابر أولهم ابليس [١] ، فانه اعتقد تفضيل النار على الطين ، فاعترض . ورأينا خلقاً ممن نسب الى العلم قد زلوا في هذا واعترضوا ورأوا أن كثيراً من الافعال لاحكمة تحتها .

والسبب ماذكرنا ، وهو الانس بنظر العقل في البديهة والعادات ، والقياس على أفعال المخلوقين ، ولو استخرجوا علم العقل الباطن [٢] ، وهو أنه قد ثبت الكمال للخالق ، وانتفت

---

(١) ابليس من الا كابر ؟!   (٢) الباطن صفة لعلم

عنه النقائص وعلم أنه حكيم لايعبث ؛ لبقي التسليم لما لايعقل. واعتبر هذا بحال الخضر وموسى عليهما السلام فانه لما فعل الخضر أشياء تخرج عن العادات ، أنكر موسى ونسي إعلامه له باني انظر فيم لاتعلمه من العواقب . فاذا خفيت مصلحة العواقب على موسى عليه السلام مع مخلوق ، فأولى أن يخفى علينا كثير من حكمة الحكيم .

وهذا أصل ان لم يثبت عند الانسان اخرجه الى الاعتراض والكفر ، وان ثبت استراح عند نزول كل آفة .

٢٨٤ ـ مناجاة

بلغني عن بعض الكرماء ان رجلا سأله فقال أنا الذي أحسنت اليك يوم كذا وكذا.

فقال : مرحباً بمن يتوسل الينا بنا .

ثم قضى حاجته .

فأخذت من ذلك اشارة فناجيت بها فقلت : أنت الذي هديته من زمن الطفولة ، وحفظته من الضلال ، وعصمته عن كثير من الذنوب ، وألهمته طلب العلم لابفهم لشرفه ، لموضع الصغر ، ولابحب والده . ورزقته فهماً لتفقهه وتصنيفه ، وهيأت له أسباب جمعه ، وقمت برزقه من غير تعب منه ، ولا ذله

الخلق بالسؤال ، وحاميت عنه الاعداء ، فلم يقصده جبار ، وجمعت له مالم يجمع لاكثر الخلق من فنون العلم التي لاتكاد تجتمع في شخص ، وأضفت اليها تعلق القلب بمعرفتك ومحبتك ، وحسن العبادة ، ولطفهـــا في الدلالة عليك ، ووضعت له في القلوب القبول ، حتى أن الخلق يُقبلون عليه ويقبلون مايقوله ، ولايشكون فيه ، ويشتاقون الى كلامه ، ولايدركهم الملل منه ، وصنته بالعزلة عن مخالطة من لايصلح . وآنسته في خلوته بالعلم تارة وبمناجاتك أخرى . وان ذهبت أعد لم أقدر على احصاء عُشَيْر العُشَيْر « وان تعدوا نعمة الله لاتحصوها » فيا محسنا الي قبل أن أطلب لاتخيب أملي فيك وأنا أطلب . فبانعامك المتقدم أتوسل اليك .

٢٨٥ ـ قصص عن البخلاء

سبحان من جعل الخلق بين طرفي نقيض والمتوسط منهم يندر . منهم من يغضب فيقتل ويضرب . ومنهم من هو أبله أو قوي الحلم لايؤثر عنده السب . ومنهم شرِهٌ يتناول كلما يشتهي . ومنهم متزهد يتجفف فيمنع النفس حقها . وكذلك سائر الاشياء المحمود منها التوسط فالمنفق كل ما يجد مبذر يجيء المال ويمنع نفسه حظها . ومعلوم أن المال لايراد لنفسه بل

للمصالح ، فاذا بذر الانسان فيه احتاج الى بذل وجهه ودينه ومنة البخلاء عليه ، وهذا لايصلح . ولأن يخلف الانسان لعدوه أحسن من أن يحتاج الى صديقه .

ومن الناس من يبخل . ثم يتفاوتون في البخل حتى ينتهي بالبخلاء الامر الى عشق عين المال ، فربما مات احدهم هزالا ولاينفقه ، فيأخذه الغير ويندم المخلف . ولقد بلغني في هذا ماليس فوقه مزيد ذكرته لتعتبر به . فحدثني شيخنا أبو الفضل بن ناصر عن شيخه عبد المحسن الصوري ، قال :

كان بصور تاجر في غرفة له يأخذ كل ليلة من البقال رغيفين وجوزة فيدخل الى غرفته وقت المغرب فيضرم النار في الجوزة فتضيء بمقدارماينزع ثوبه ، وفي زمان احراق القشر قد اشتوت فيمسح بها الرغيفين ويأكلها ، فبقي على هذا مدة فمات ، فاخذ منه ملك صور ثلاثين ألفاً .

ورأيت أن رجلا من كبار العلماء قد مرض فاستلقى عند بعض اصدقائه ليس له من يخدمه ولايرافقه وهو مُضرّ ، فلما مات وجدوا بين كتبه خمسمئة دينار .

وحدثني أبو الحسن الراندمي قال : مرض رجل عندنا فبعث الى فحضرت فقال ، قد ختم القاضي على مالى فقلت ، ان شئت قمت وفتحت الختم وأعطيتك الثلث تفرقه وتعمل به ماتشاء.

فقال : لا والله ما أريد أن أفرقه ، بل أريد مالي يكون عندي . فقلت : مايعطونك . بلى أنا آخذ لك الثلث .

فقلت : لا أريد .

فمات وأخذ ماله . قال : وجاء رجل فحدثني بعجيبة (قال) مرضت حماتي فقالت لي . أريد أن تشتري لي خبيصاً فاشتريت لها ، وكانت ملقاة في صفّة ونحن في صفة أخرى فجاءني ولدي الصغير وقال :

ياسيدي ، انها تبلع الذهب .

فقمت واذا بها تجعل الدينار في شيء من الخبيص فتبلعه ، فامسكت يدها وزجرتها عن هذا فقالت : أنا أخاف أن تتزوج على بنتي .

فقلت : ما أفعل .

فقالت : احلف لي فحلفت ، فاعطتني باقي الذهب ثم ماتت فدفنتها ، فلما كان بعد أشهر مات لنا طفل فحملناه اليها ، وأخذت معي خرقة خام وقلت للحفار اجمع لي عظام تلك العجوز في الخرقة ، فجئت بها الى البيت وتركتها في اجّانة وصببت عليها الماء وحركتها ، فاخرجت ثمانين ديناراً أو نحوها كانت قد ابتلعتها . وحكى لي صديق لنا ، أن رجلا مات ودفن في الدار ، ثم نبش بعد مدة ليخرج فوجد تحت رأسه لِبنة

مقيّرة[١] فسئل أهله عنها فقالوا : هو قيّر هذه اللبنة وأوصى أن تترك تحت رأسه في قبره وقال : ان اللبن يبلى سريعاً وهذه لموضع القار لاتبلى . فاخذوها فوجدوها رزينة[٢] فكسروها فوجدوا فيها تسعمئة دينار فتولاها أصحاب التركات

وبلغني أن رجلا كان يكنس المساجد ويجمع ترابها ثم ضربه لبنا فقيل له : هذا لأي شيء ؟

فقال : هذا تراب مبارك ، وأريد أن يجعلوه على لحدي.

فلما مات جعل على لحده ، ففضل منه لبنات ، فرموها في البيت ، فجاء المطر فتفسخت اللبنات فاذا فيها دنانير ، فضوا وكشفوا اللبن عن لحده وكله مملوء دنانير .

ولقد مات بعض اصدقائنا وكنت أعلم له مالا كثيراً ، وطال مرضه فما أطلع أهله على شيء ولا أكاد أشك أنه من شحه وحرصه على الحياة ورجائه أن يبقى لم يعلمهم بدفونه خوفا أن يؤخذ فيحيا هو وقد أخذ المال .

وما يكون بعد هذا الخزي شيء .

وحدثني بعض أصحابنا عن حالة شاهدها من هذا الفن . قال:

---

(١) مدهونة بالقار وهو القطران « مزفتة »

(٢) اي ثقيلة

كان فلان له ولدان ذكران وبنت وله الف دينـار مدفونة فمرض مرضاً شديداً فاحتوشته أهله ، فقال لأحد ابنيـــه : لاتبرح من عندي .

فلما خلا به قال له :

إن أخاك مشغول باللعب بالطيور ، وان اختك لها زوج تركي ، ومتى وصل من مالي اليهـما شيء انفقوه في اللعب ، وأنت على سيرتي واخلاقي ، ولي في الموضع الفلاني ألف دينار، فاذا أنا مت فخذها وحدك .

فاشتد بالرجل المرض فمضى الولد فاخذ المال فعوفي الاب ، فجعل يسأل الولد ان يرد المال إليه فلا يفعل . فمرض الولد واشفي(١) فجعل الاب يتضرع اليه ويقول :

ويحك خصصتك بالمال دونهم فتموت فيذهب المال ، ويحك لاتفعل ، فما زال به حتى أخبره بمـكانه ، فأخذه .

ثم عوفي الولد ومضت مدة فمرض الاب ، فاجتهد الولد أن يخبره بمـكان المال وبالغ فلم يخبره ومات وضاع المال .

فسبحان من أعدم هؤلاء العقول والفهوم . انــ هم الا كالانعام بل هم أضل سبيلا .

---

(١) اي أشرف على الموت

٢٨٦ ـ الفرق بين المعارف والاصدقاء

كان لنا أصدقاء واخوان أعتد بهم . فرأيت منهم من الجفاء وترك شروط الصداقـة والاخوة عجائب فاخذت اعتب ، ثم انتبهت لنفسي فقلت :

ومابنفع العتاب ، فانهم إن صلحوا فللعتاب لا للصفا فهممت بمقاطعتهم ، ثم تفكرت فرأيت الناس بين معارف واصدقاء في الظاهر واخوة مباطنين ، فقلت : لاتصلح مقاطعتهم ، انمـــا ينبغي أن تنقلهم من ديوان الاخوة الى ديوان الصداقة الظاهرة، فان لم يصلحوا لها نقلتهم الى جملة المعارف ، وعاملتهم معاملة المعارف ، ومن الغلط ان تعاتبهم ، فقد قال يحيى بن معاذ: بئس الاخ اخ تحتاج ان تقول له اذكرني في دعائك .

وجمهور الناس اليوم معارف ويندر فيهم صديق في الظاهر أما الاخوّة والمصافاة فذاك شيء نسخ فلا يطمع فيـه . وما أرى الانسان يصفو له أخوة من النسب ولا ولده ولا زوجته ، فدع الطمع في الصفـا ، وخذ عن الكل جانبـاً ، وعاملهم معاملة الغرباء .

وإياك ان تنخدع بمن يظهر لك الود ، فانه مع الزمان

يبين لك الحال فيما اظهره وربما أظهر لك ذلك لسبب ينـاله منك ، وقد قال الفضيل بن عياض :

«اذا أردت أن تصادق صديقاً فأغضبه فان رأيته كما ينبغي فصادقه» . وهذا اليوم مخاطرة ، لانك اذا أغضبت أحداً صار عدواً في الحال . والسبب في نسخ حكم الصفـا ، ان السلف كانت همتهم الآخرة وحدها فصفت نياتهم في الاخوة والمخـالطة فكانت ديناً لادنيا . والآن فقد استولى حب الدنيـــا على القلوب ، فإن رأيت متملقاً في باب الدين فاخبر تَقْلِه[1] .

٢٨٧ ـ المتزوج الذي يتعلق بامرأة اخرى

رأيت المعافى لا يعرف قدر العافيـة إلا في المرض . كما لايعرف شكر الاطلاق إلا في الحبس . وتأملت على الآدمي حالة عجيبة . وهو أن يكون معه امرأة لابأس بها إلا أن قلبه لايتعلق بمحبتها تعلقاً يلتذ به ، ولذلك سببان .

أحدهما أن تكون غير غاية في الحسن .

والثاني أن كل مملوك مكروه ، والنفس تطلب ما لا تقدر عليه ، فتراه يضج ويشتهي شيئاً يحبه أو امرأة يعشقها ، ولا

---

(١) اي اختبره تبغضه ، من القلى الذي هو البغض . وهو مثل من امثال العرب

يدري انه انما يطلب قيداً وثيقـاً يمنع القلب من التصرف في أمور الآخرة ، أوفي علـم أو عمل ، ويخبطه في تصرف الدنيا ، فيبقى ذلك العاشق أسير المعشوق ، همـه كله معه فالعجب لمطلق يؤثر القيد . ومستريح يؤثر التعب .

فان كانت تلك المرأة تحتاج ان تحفظ [1] فالويل له لاقرار له ولا سكون .

وان كانت من المتبرجات اللواتي لايؤمن فسادهن فذاك هلاكه برمة ، فلا هو ان نام يتلذذ بنومة ، ولا ان خرج من الدار يأمن من محنة .

وان كانت تريد نفقة واسعة وليس له ، فكم يدخل مدخل سوء لاجلها .

وان كانت تؤثر الجماع وقد علت سنه فذاك الهلاك العظيم .

وان كانت تبغضه فما بقيت من أسباب تلفه بقية فيكون هذا ساعيا في تلف نفسه كما قال القائل :

نحب القدود ونهوى الخدود ونعـلـم انا نحب المنونا

وهذا على الحقيقة كعابد صنم . فليتق الله من عنده امرأة لابأس بها وليعرض عن حديث النفس ومناها فماله منتهى .

---

(١) اي ان تراقب وتحرس

ولو حصل له غرضه كما يريد وقع الملل وطلب ثالثة ، ثم يقع الملل ويطلب رابعة ، ومالهذا آخر . انما يفيده بالعاجل تعلق قلبه وأسر لبه ، فيبقى كالمبهوت ، فكره كله في تحصيل مايريد محبوبه ، فان جرت فرقة أو آفة فتلك الحسرات الدائمة ان بقي او التلف عاجلا . وأين المستحسن المصون الدين ، القنوع ، المحب لمن يحبه ؟ هذا أقــــل من الكبريت الاحمر . فلينظر في تحصيل مايجمع معظم الهم . ولايلتفت الى سواك الهوى وغاية المنى ، وقد سلم .

٢٨٨ ـ التقرب إلى الله تعالى

اذا تم علم الانسان لم ير لنفسه عملا وانما يرى إنعام الموفق لذلك العمل الذي يمنع العـاقل ان يرى لنفسه عملا أو يعجب به ، وذلك بأشياء .

منها انه وفق لذلك العمل «وحبب اليكم الايمان وزينه في قلوبكم» ومنها أنه اذا قيس بالنعم لم يف بمعشار عشيرها . ومنها أنه اذا لوحظت عظمة المخدوم احتقر كل عمل وتعبد . هذا اذا سلم من شائبة ، وخلص من غفلة . أما والغفلات تحيط به فينبغي أن يغلب الحذر من رده ، ويخـــاف العتاب على التقصير فيه ، فيشتغل عن النظر اليه ؛ وتأمل على الفطناء احوالهم في ذلك ،

فالملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لايفترون قالوا : ماعبدناك حق عبادتك . والخليل عليه السلام يقول « والذي اطمع أن يغفر لي » وماأدل [١] بتصبّره على النار وتسليمه الولد الى الذبح. ورسول الله ﷺ يقول : مامنكم من ينجيه عمله .

قالوا : ولا أنت .

قال : ولا أنا الا أن يتغمدني الله برحمته .

وأبو بكر رضي الله تعالى عنه يقول : وهل أنا ومالي إلا لك يارسول الله . وعمر رضي الله عنه يقول : لو أن لي طلاع الارض [٢] لافتديت بها من هول ماأمامي قبل أن أعلم ماالخبر . وابن مسعود يقول : ليتني اذا مت لاأبعث . وعائشة رضي الله عنها تقول : ليتني كنت نسياً منسياً .

وهذا شأن جميع العقلاء فرضي الله عن الجميع .

وقد روي عن قوم من صلحاء بني اسرائيل مايدل على قلة الافهام لما شرحته لأنهم نظروا الى أعمالهم فأدلوا بهـــا . فمنه حديث العابد الذي تعبد خمسمئة سنة في جزيرة وأخرج له كل ليلة رمانة ، وسأل الله تعالى أن يميته في سجوده . فـاذا حشر قيل له ادخل الجنة برحمتي قال : بل بعملي : فيوزن جميع عمله بنعمة واحدة فلا يفي ، فيقول : يارب برحمتك .

---

(١) من الادلال (٢) اي ملء الارض

وكذلك اهل الغار الذين انطبقت عليهم الصخرة فان احدهم توسل بعمل كان ينبغي أن يستحي من ذكره، وهو أنه عزم الزنا ثم خاف العقوبة فتركه. فليت شعري بماذا يدل من خاف أن يعاقب على شيء فتركه لخوف العقوبة، انما لو كان مباحاً فتركه كان فيه مافيه، ولوفهم لشغله خجل الهمّة عن الادلال، كما قال يوسف عليه السلام: وماأبرىء نفسي. والآخر ترك صبيانه يتضاغون الى الفجر ليسقي ابويه اللبن، وفي هذا البر أذى للأطفال[1]، ولكن الفهم عزيز. وكأنهم لما أحسنوا قال لسان الحال: أعطوهم ماطلبوا، فانهم يطلبون أجرة ماعملوا.

ولولا عزة الفهم ماتكبر متكبر على جنسه ولكان كل كامل خائفاً محتقراً لعمله حذراً من التقصير في شكر ما انعم عليه. وفهم هذا المشروح ينكس رأس الكبر، ويوجب مساكنة الذل. فتأمله فانه اصل عظيم.

٢٨٩ ـ لاتسكن إلى توبتك ولو قُبلت

ينبغي للعاقل أن يكون على خوف من ذنوبه وان تاب منها

---

(١) مقتضى الحديث فيه مدح لهم على مافعلوا ـ وفيه جواز توسل المرء بعمله الصالح، ومن جاء الحديث بمدحه ليس لنا ان نذمه بآرائنا، وكيف يقبل مايقول المؤلف، وحديث السبعة الذين يظلهم الله بظل العرش معروف، ومن هؤلاء السبعة ذاك الذي دعته امرأة حتى تمكن منها .. ثم ذكر العقوبة فقام عنها!

وبكى عليها . واني رأيت اكثر النـاس قد سكنوا الى قبول التوبة ، وكأنهم قد قطعوا على ذلك ، وهذا أمر غائب . ثم لو غفرت بقي الخجل من فعلها . ويؤيد الخوف بعد التوبة أنه في الصحاح : أن الناس يأتون الى آدم عليه السلام فيقولون : اشفع لنا فيقول : ذنبي . والى نوح عليه السلام فيقول : ذنبي . والى ابراهيم . والى موسى . والى عيسى صلوات الله وسلامه عليهم فهؤلاء اذا اعتبرت ذنوبهم لم تكن اكثرها ذنوبا حقيقة . ثم ان كانت فقد تابوا منها واعتذروا وهم بعد على خوف منها . ثم ان الخجل بعد قبول التوبة لايرتفع . وما أحسن ماقـال الفضيل بن عياض رحمه الله : واسوأتاه منك وان عفوت . فأفٍّ والله لمختـار الذنوب ومؤثر لذة لحظة تبقى حسرة لاتزول عن قلب المؤمن وان غفر له[1] .

فالحذر الحذر من كل مايوجب خجلا . وهذا أمر قل أن ينظر فيه تائب أو زاهد ، لانه يرى أن العفو قـد غمر الذنب بالتوبة الصادقة ، وماذكرته يوجب دوام الحذر والخجل .

٢٩٠ ـ تفسير حديث

نعوذ بالله من سوء الفهم وخصوصاً من المتّسمين بالعلم .

---

(١) التائب من الذنب كمن لاذنب له ـ بل ربما كانت التوبة في ذاتها حسنة من أكبر الحسنات . والوقوف عند النصوص اولى من تحكيم الرأي .

روى أحمد في مسنده أنه تنازع أبو عبد الرحمن السلمي[١] وحيان بن عبد الله . فقال أبو عبد الرحمن لحيان :

قد علمت ما الذي حدا صاحبك (يعني علياً)

قال : ماهو ؟

قال : قول النبي ﷺ : لعل الله اطّلع الى أهل بدر فقال ، اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم .

وهذا سوء فهم من أبي عبد الرحمن حين ظن أن عليا قاتل وقتل اعتماداً على أنه قد غفر له . وينبغي أن يعلم إنما معناه (لتكن أعمالكم المتقدمة ما كانت فقد غفرت لكم) . فاما غفران ما سيأتي فلا يتضمنه ذلك . أتراه لو وقع من أهل بدر (وحاشاهم) الشرك اذ ليسوا بمعصومين ، أما كانوا يؤاخذون به ؟ فكذلك المعاصي .

ثم لو قلنا : أنه يتضمن غفران ماسيأتي ، فالمعنى أن مآلكم الى الغفران .

ثم دعنا من معنى الحديث ، كيف يحل لمسلم أن يظن في أمير المؤمنين علي رضي الله عنه أنه فعل مالا يجوز اعتمادا على أنه سيغفر له ؟

---

(١) هو عبد الله بن حبيب كان استاذ عصره في قراءة القرآن توفي سنة ٨٥

حرضني من هذا . وانما قاتل بالدليل المضطر له الى القتال فكان على الحق . ولايختلف العلماء أن عليا رضي الله عنه لم يقاتل احدا الا والحق مع علي[١] . كيف وقد قال رسول الله ﷺ : اللهم ادر معه الحق كيفما دار .

فقد غلط أبو عبد الرحمن غلطاً قبيحاً ، حمله عليه أنه كان عثمانياً .

٢٩١ ـ زهاد مراؤون

تاملت على متزهدي زماننا اشياء تدل على النفاق والرياء وهم يدعون الاخلاص . منها أنهم يلزمون زاوية فلا يزورون صديقاً، ولايعودون مريضاً ، ويدعون أنهم يريدون الانقطاع عن الناس اشتغالا بالعبادة . وانما هي اقامة نواميس[٢] ليشار اليهم بالانقطاع . اذ لو مشوا بين الناس زالت هيبتهم . وما كان الناس كذلك . كان رسول الله ﷺ يعود المريض ، ويشتري الحاجة من السوق . وابو بكر رضي الله عنه يتجر في البر[٣] . وابو عبيدة

(١) افكان الباطل اذن مع عائشة ؟ مالنا ولهذا الكلام ؟ أليس أسلم لنا الا نخوض فيه ؟ على ان الحقيقة انه لم يكن احد من الطرفين ينوي القتال ـ وقد باتا على ود وسلام ـ وما أثار القتال إلا المجرمون الذين قتلوا عثمان .

(٢) اي الحرص على المظاهر .

(٣) الصحيح انه كان يتجر بالبز اي القماش

ابن الجراح يحفر القبور ، وابو طلحة ايضا . وابن سيرين يغسل الموتى (١) وما كان عند القوم اقامة ناموس . واصحابنا يلزمون الصمت بين الناس والتخشع والتماوت ، وهذا هو النفاق . فقد كان ابن سيرين يضحك بالنهار وبين الناس ويبكي بالليل ، وقد رأيت من المتزهدين من يلزم المسجد ويصلي فيجتمع النـــاس فيصلون بصلاته ليلا ونهاراً ، وقـد شاع هذا له فتقوى نفسه عليه بحب المحمدة .

والنبي ﷺ قال في صلاه التطوع : اجعلوا هذه في البيوت ، وفي اصحابنا من يظهر الصوم الدائم ، ويتقوت بقول الناس : فلان مايفطر اصلا .

وهذا الابله مايدري أنه لاجل الناس يفعل ذلك ، ولولا هذا كان يفطر والنـاس يرونه يومين أو ثلاثة حتى يذهب عنه ذلك الاسم ثم يعود الى الصوم ، وقد كان ابراهيم بن أدهم اذا مرض يترك عنده من الطعـام مايأكله الاصحاء . ورأيت في زهادنا من يصلي الفجر يوم الجمعة بالناس ويقرأ المعوذتين والمعنى قد ختمت ، فان هذه الاعمال هي صريحة في النفاق والرياء .

وفيهم من يأخذ الصدقات وهو غني ، ولايبـالي أخذ من

---

(٢) انظر كتاب « صناعات الاشراف »

الظلمة أو من أهل الخير ، ويمشي الى الامراء يسألهم ، وهو يدري من أين حصلت اموالهم[1].

فالله الله في اصلاح النيات فان جمهور هذه الاعمال مردودة. قال مالك بن دينار :

وقولوا لمن لم يكن صادقاً لايتعنى . وليعلم المرائي ان الذي يقصده يفوته ، وهو التفات القلوب اليه ، فانه متى لم يخلص حرم محبته في القلوب ، ولم يلتفت اليه . والمخلص محبوب . فلو علم المرائي ان قلوب الذين يرائيهم بيد من يعصيه لمافعل .

وكم من قد رأينا من يلبس الصوف ، ويظهر النسك ، لايلتفت اليه . وآخر يلبس جيد الثياب ويتبسم والقلوب تحبه .

نسأل الله عز وجل اخلاصاً يخلصنا ، ونستعيذ به من رياء يبطل اعمالنا انه قادر .

٢٩٢ ـ الحكمة في عدم إجابة الدعاء

من الجهل أن يخفى على الانسان مراد التكليف فانه موضوع على عكس الاغراض ، فينبغي للعاقل أن يأنس بانعكاس الاغراض ، فان دعا وسأل بلوغ غرض تعبد بالدعاء ، فان أعطيَ مراده شكر ، وان لم ينل مراده فلا ينبغي أن يلح في الطلب ، لان الدنيا ليست لبلوغ الاغراض ، وليقل لنفسه « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم » ومن اعظم الجهل

(١) اي يدري بكونها حصلت من حرام .

أن يتنغص في باطنه لانعكاس اغراضه ، وربما اعترض في الباطن ، وربما قال : حصول غرضي لا يضر ، ودعائي لم يستجب .

وهذا كله دليل على جهله ، وقلة ايمانه ، وعدم تسليمه للحكمة . ومن الذي حصل له غرض ثم لم يكدر ؟ هذا آدم طاب عيشه في الجنة واخرج منها ، ونوح سأل في ابنه فلم يعط مراده ، والخليل ابتلي بالنار ، واسحاق بالذبح [1] ، ويعقوب بفقد الولد ، ويوسف بمجاهدة الهوى ، وأيوب بالبلاء ، وداود وسليمان بالفتنة . وجميع الانبياء على هذا . ومالقي نبينا محمد ﷺ من الجوع والاذى وكدر العيش فمعلوم .

فالدنيا وضعت للبلاء فينبغي للعاقل أن يوطن نفسه على الصبر ، وان يعلم ان ماحصل من المراد فلطف ، ومالم يحصل فعلى أصل الخلق والجبلة للدنيا كما قيل :

طبعت على كدر وأنت تريدها صفوا من الاقذاء والاكدار [2]
ومكلف الايام ضد طباعها متطلب في الماء جذوة نار

وهاهنا يتبين قوة الايمان وضعفه . فليستعمل المؤمن من أدوية هذا المرض التسليم للمالك ، والتحكيم لحكمته ، وليقل ،

---

(١) الذبيح هو اسماعيل لا اسحاق

(٢) للتهامي وأول القصيدة :

حكم المنية في البرية جاري ماهذه الدنيا بدار قرار

وهي من اجود مراثي العرب

قد قيل لسيد الكل « ليس لك من الامر شيء » ثم ليسلّ نفسه بان المنع ليس عن بخل ، وانما هو لمصلحة لايعلمها ، وليؤجرَ الصابر عن أغراضه ، وليعلم الله الذين سلّموا ورضوا ، وان زمن الابتلاء مقدار يسير ، والاغراض مدخرة تلقى بعد قليل ، وكأنه بالظلمة قد انجلت ، وبفجر الاجر قد طلع .

ومتى ارتقى فهمه الى أن ماجرى مراد الحق سبحانه ، اقتضى ايمانه ان يريد مايريد ، ويرضى بما يقدر ، اذ لو لم يكن كذلك كان خارجاً عن حقيقة العبودية في المعنى .

وهذا أصل ينبغي أن يتأمل ويعمل عليه في كل غرض انعكس .

٢٩٣ـ مخالطة العلماء للسلاطين وضررها

رأيت خلقاً من العلماء والقُصّاص تضيق عليهم الدنيا فيفزعون الى مخالطة السلاطين لينالوا من أموالهم ، وهم يعلمون ان السلاطين لايكادون يأخذون الدنيا من وجهها ، ولايخرجونها في حقها . فان اكثرهم اذا حصل له خراج ينبغي أن يصرف الى المصالح وهبه لشاعر ، وربما كان معه جندي يصلح أن تكون مشاهرته عشرة دنانير فاعطاه عشرة آلاف ، وربما غزا فاخذ ماينبغي أن يقسم على الجيش فاصطفاه لنفسه ، هذا غير مايجري من الظلم في المعاملات .

وأول مايجري على ذاك العالم انه قد حرم النفع بعلمه . وقد رأى بعض الصالحين رجلا عـالماً يخرج من دار يحيى بن خالد البرمكي فقـال : أعوذ بالله من عـــلم لاينفع ، ألم ير المنكرات ولاينكر ؟ ويتناول من طعامهم الذي لايكاد يحصل الا بظلم فينطمس قلبه ، ويحرم لذة المعـــاملة للحق سبحانه ، ولايقدر اه أن يهتدي به أحد؟ بل ربما كان فعله هذا سببا لإضلال الناس في الاقتداء به ، فهو يؤذي نفسه ويؤذي أميره ، لانه يقول لولا اني على صواب ماصحبني هذا ومماانكر علي . ويؤذي العوام تارة بان يروا أن مافي الامير صواب وأن الدخول والسكوت عن الانـكار جائز . ويحبب اليهـم الدنيا . ولاخير والله في سعه من الدنيا ضيقت طريق الآخرة .

وأنا افدي أقواماً صابروا عطش الدنيا في هجير الشهوات زمان العمر حتى رووا يوم الموت من شراب الرضى ، وبقيت أذكارهم تُروَى فتروي صداالقلوب وتجملوا صداها .

هذا الامام أحمد يحتاج فيخرج الى اللقاط [١] ولايقبل مال سلطان ، وهذا ابراهيم الحربي [٢] يتغذى بالبقل ويرد على المعتصم [٣]

---

(١) اي للعمل في الحقول يوم الحصاد

(٢) المحدث الزاهد الفقيه العلم كان من اصحاب احمد توفي سنة ٢٨٥ ه

(٣) الصحيح انه ردّها على المعتضد.واين المعتضد من المعتصم؟

الف دينار . هذا بشر الحافي يشكو الجوع فيقال له : يصنع لك حساءً من دقيق فيقول : اخاف أن يقول لي هذا الدقيق من أين لك[1]؟

بقيت والله أذكار القوم ، وما كان الصبر الا غفوة نوم ، ومضت لذات المرخصين وبليت الابدان ، ووهن الدين فالصبر الصبر يامن وفق . ولا تغبطن من اتسع له أمر الدنيـــا ، فانك إذا تأملت تلك السعة رأيتها ضيقاً في باب الدين . ولا ترخص لنفسك في تأويل ، فعمرك في الدنيا قليل :

وسواء اذا انقضى يوم كسرى　　في سرور ويوم صابر كسرةٍ

ومتى ضجت النفس لقلة الصبر فاتل عليها اخبار الزهاد ، فانها ترعوى وتستحي وتنكسر ان كانت لها همة او فيها يقظة ومثل لها بين ترخص علي بن المديني وقبوله مال ابن أبي دواد ، وصبر احمد . وكم بين الرجلين والذكرين . وانظر مايروى عن كل واحد منها ومايذكران به وسيندم ابن المديني اذا قال احمد سلم ديني[2] .

٢٩٤ ـ اكثر الناس على غير الجادة

تأملت أحوال الناس فرأيت جمهورهم منسلا من ربقـــة

---

(١) مر من كلام المؤلف ماينكر فيه على من يصنع مثل هذا

(٢) من جاءه شيء من هذا المال بلا طلب ولا استشراف نفس فليأخذه . هذا ماجاءت به السنة

العبودية ، فان تعبدوا فعادة او فيا لاينافي أغراضهم منافاة تؤذي القلوب . فاكثر السلاطين يحصلون الاموال من وجوه ردية وينفقونها في وجوه لاتصلح ، وكأنهم قد تملكوها وليست مال الله . اذا غزا احدهم فغنم الاموال اصطفاها لنفسه ، واعطاها اصحابه كيف اشتهى . والعلماء لقوة فقرهم وشدة شرههم ، يوافقون الامراء وينخرطون في سلكهم . والتجار على العقود الفاسدة . والعوام في المعاصي والاهمال لجانب الشريعة . فان فات بعض أغراضهم فربما قالوا: مانريد نصلي . لاصلى الله عليهم .

وقد منعوا الزكاة وتركوا الامر بالمعروف . فمن الناس من يغره تأخير العقوبة . ومنهم من كان يقطع بالعفو واكثرهم متزلزل الايمان . فنسأل الله أن يميتنا مسلمين .

٢٩٥ ـ العالم الفقير بين اللئام

من العجيب سلامة دين ذي العيال اذا ضاق به الكسب . فما مثله الا كمثل الماء اذا ضرب في وجهه سكر[١] فانه يعمل باطنه ويبالغ حتى يفتح فتحة . فكذلك صاحب العيال اذا ضاق به الامر لايزال يحتال ، فاذا لم يقدر على الحلال ترخص في تناول الشبهات ، فان ضعف دينه مدّ يده الى الحرام . فالمؤمن اذا

(١) السكر : سدّ الماء . والكلمة مستعملة في الشام الى اليوم .

علم ضعفه عن الكسب اجتهد في التعفف عن النكاح ، وتقليل النفقة اذا حصل الاولاد ، والقناعة باليسير . فاما من ليس له كسب كالعلماء والمتزهدين ، فسلامتهم ظريفة[١] ، إذ قد انقطعت مواد السلاطين ومراعاة العوام ، فاذا كثرت عائلتهم لم يؤمن عليهم شر مما يجري على الجهال . فمن قدر منهم على كسب بالنسخ وغيره فليجتهد فيه مع تقليل النفقة والقناعة باليسير ، فان من ترخص منهم اليوم أكل الحرام ، لانه يأخذ من الظلمة خصوصاً إن اخذ بحجة التنمّس والتزهد . ومن كان له منهم مال فليجتهد في تنميته وحفظه ، فما بقي من يؤثر ولا من يقرض . وقد صار الجمهور بل الكل[٢] كانهم يعبدون المال ، فمن حفظه حفظ دينه . ولا يلتفت الى قول الجهلة الذين يأمرون باخراج المال ، فما هذا وقته .

واعلم أنه إذا لم يجتمع الهم ، لم يحصل العلم ولا العمل ولا التشاغل بالفكر في عظمة الله وقد كان هم القدماء يجتمع باشياء جمهورها[٣] انه كان لهم من بيت المال نصيب في كل عام ، وكان يصلهم فيفضل عنهم ، وفيهم من كان له مال يتجر به

(١) اي عجيبة

(٢) تقدم ان « غير » لايدخلها « الـ » التعريف ابداً ، وان « كل » و « بعض » ملحقان بها في ذلك عند بعض أهل اللغة

(٣) اي معظمها : معظم هذه الاشياء

كسعيد بن المسيب وسفيان وابن المبارك وكان همه مجتمعاً ، فقال سفيان : لولاك ابهدلوني[1] وفقدت بضاعة لابن المبارك فبكى، وقال : هو قوام ديني .

وكان جماعة يسكنون إلى عطاء الاخوان الذين لايمنّون . وكان ابن المبارك يبعث الى الفضيل وغيره . وكان الليث بن سعد يتفقد الا كابر ، فبعث الى مالك الف دينار ، والى ابن لهيعة[2] الف دينار ، وأعطى منصور بن عمار الف دينار وجارية بثلاثمئة دينار .

ومازال الزمان على هذا إلى أن آل الامر على انمحاق ذلك ، فقلت عطايا السلاطين ، وقل من يؤثر من الاخوان ، إلا أنه كان في ذلك التقليل مايدفع الزمان . فاما زماننا هذا ففد انقبضت الايدي كلها ، حتى قل من يخرج الزكاة الواجبة ، فكيف يجتمع همّ من يريد من العلماء والزهاد أن يعمل همه ليلا ونهاراً في وجوه الكسب وليس من شأنه ولايهتدى له . فقد رأينا الامر احوج إلى التعرض للسلاطين والترخص في أخذ مالايصلح ، وأخرج المتزهدين إلى التصنع لتحصيل الدنيا .

---

(١) كذا وهو تحريف وصواب قوله « لتمندلوا بي » وقد تقدم شرحه

(٢) كان الليث وابن لهيعة محدثي مصر وفقيهيها انظر الكلام عن الليث في كتابي « رجال من التاريخ »

فالله الله يامن يريد حفظ دينه ، قد كررت عليك الوصية بالتقليل جهدك ، وخفف العلائق مهما أمكنك ، واحتفظ بدرهم يكون معك فانه دينك . وافهم ماقد شرحته ، فان ضجت النفس لمراداتها فقل لها : ان كان عندك ايمان فاصبري ، وان اردت التحصيل لما يفني ببذل الدين فما نفعك . فتفكري في العلماء الذين جمعوا من غير وجهه وفي المتمسين[1] الذين ذهب دينهم ، وزالت دنياهم . وتفكري في العلماء الصادقين كاحمد وبشر ، اندفعت الايام وبقي لهم حسن الذكر . وفي الجملة « من يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب » ورزق الله تارة بايعاد[2] الصبر على البلاء والايام تندفع ، وعاقبة الصبر الجميل جميلة .

٢٩٦ ـ كيف تعامل زوجة لاتحبها

شكا رجل من بغضه لزوجتـــه وقال : ماأقدر على فراقها لأمور منها كثرة دينها عليّ وصبري قليل ، ولا اكاد أسلم من فلتات لساني في الشكوى ، وفي كلمات تعلم بغضي لها .

فقلت له : هذا لاينفع وانما تؤتى البيوت من أبوابها ،

---

(١) اي الملبسين ـ المدجلين ـ الذين يأكلون الدنيا بالدين وماأكثرهم.

(٢) كذا

فينبغي أن تخلو بنفسك فتعلم أنهـــا إنما سلطت عليك بذنوبك فتبالغ في الاعتذار والتوبة ، فأما التضجر والاذى لها فما ينفع كما قال الحسن بن الحجاج : عقوبة من الله لكم فلا تقـــابلوا عقوبته بالسيف وقابلوها بالاستغفار .

واعلم أنك في مقام مبتلى ولك اجر بالصبر « وعسى ان تكرهوا شيئاً وهو خير لكم » فعامل الله سبحانه بالصبر على ماقضى واساله الفرج .

فاذا جمعت بين الاستغفار وبين التوبة من الذنوب والصبر على القضاء وسؤال الفرج ، حصلت ثلاثة فنون من العبادة تثاب على كل منها . ولاتضيع الزمان بشيء لاينفع ، ولاتحتل[1] ظناً منك أنك تدفع ماقدر : « وان يمسك الله بضر فـلا كاشف له إلا هو » .

وقد روينا ان جنديا نزل يوماً في دار ابي يزيد[2] ، فجاء ابو يزيد فرآه فوقف وقال لبعض أصحابه : ادخل الى المـكان الفلاني فاقلع الطين الطري فانه من وجـــه فيه شبهة فقلعه ، فخرج الجندي .

وأما أذاك للمرأة فلا وجه له لانها مسلطة فليكن شغلك

---

(١) لا بل يحتال ان يتخذ الوسائل كلها ، ثم يرضى بما يكون : اعقلها وتوكل
(٢) اي البسطامي

بغير هذا . وقد روي عن بعض السلف ان رجلا شتمه فوضع خده على الارض وقال اللهم اغفر لي الذنب الذي سلطت هذا به علي[١].

قال الرجل : وهذه المرأة تحبني زائداً في الحد ، وتبالغ في خدمتي ، غير أن البغض لها مركوز في طبعي .

قلت له : فعامل الله سبحانه بالصبر عليها فانك تثاب . وقد قيل لابي عثمان النيسابوري : ما ارجى عملك عندك ؟

قال : كنت في صبوتي يجتهد أهلي أن اتزوج فأبى فجاءتني امرأة فقالت : ياأبا عثمان اني قد هويتك ، وأنا أسألك بالله ان تتزوجني .

فأحضرت أباها وكان فقيراً فزوجني وفرح بذلك . فلما دخلت اليّ رأيتها عوراء عرجاء مشوهة ، وكانت لمحبتها لي تمنعني من الخروج فأقعد حفظاً لقلبها ولا أظهر لها من البغض شيئاً ، وكأني على جمر الغضا من بغضها .

فبقيت هكذا خمس عشرة سنة حتى ماتت فما من عملي هو أرجى عندي من حفظي قلبها .

قلت له : فهذا عمل الرجال . وأي شيء ينفع ضجيج

---

(١) هذا من ادب النصرانية ، من ضربك على خدك ... أما في الاسلام فإما ان ترد العدوان بمثله واما ان تعرض وتعفو ، أما هذا الفعل فما قرأنا مثله لأحد من الصدر الاول .

المبتلى بالتضجر باظهار البغض ؟ وإنما طريقه ماذكرته لك من التوبة والصبر وسؤال الفرج . وتذكر ذنوباً كانت هذه عقوبتها فإن وقع فرج في الحساب ، وإلا فاستعمال الصبر على القضاء عبادة ، وتكلف اظهار المودة لها وان لم يكن في قلبك تثبت على هذا ، وليس للقيد ذنب فيلام ، انما ينبغي التشاغل مع من قيّده والسلام .

٢٩٧ـ على المؤمن أن يجمع همه ويعتزل الناس

لاريب أن القلب المؤمن بالإله سبحانه وبأوامره يحتاج الى الانعكاف على ذكره وطاعته ، وامتثال أوامره ، وهذا يفتقر الى جمع الهم ، وكفى بما وضع في الطبع من المنازعة الى الشهوات مشتتاً للهم المجتمع . فينبغي للانسان أن يجتهد في جمع همه لينفرد همه بذكر الله سبحانه وتعالى وأوامره والتهيؤ للقائه . وذلك إنما يحصل بقطع القواطع والامتناع عن الشواغل. وما يمكن قطع القواطع جملة ، فينبغي ان يقطع مايمكن .

ومارأيت مشتتاً للهم مبدداً للقلب مثل شيئين : أحدهما ان تطاع النفس في طلب كل شيء تشتهيه وذلك لايوقف على حد فيه ، فيذهب الدين والدنيا ولا ينال كل المراد ، مثل

ان تكون الهمة في المستحسنات [١] أو في جمع المال أو في طلب الرياسة وبمايشبه هذه الاشياء . فياله من شتات لا جامع له ، يذهب العمر ولا ينال بعض المراد .

والثاني مخالطة الناس خصوصاً العوام والمشي في الاسواق فإن الطبع يتقاضى الشهوات وينسى الرحيل عن الدنيا ، ويحب الكسل عن الطاعة والبطالة والغفلة والراحة فيثقل على من ألف مخالطة الناس التشاغل بالعلم أو بالعبادة . ولا يزال يخالطهم حتى تهون عليه الغيبة ، وتضيع الساعات في غير شيء . فمن أراد اجتماع همه فعليه بالعزلة بحيث لايسمع صوت أحد ، فحينئذ يخلو القلب بمعارفه ولا تجد النفس رفيقاً مثل الهوى يذكرها ماتشتهي ، فاذا اضطر الى المخالطة كان معها على وفاق ، كما تَتَنَهوّى [٢] الضفدع لحظة ثم تعود الى الماء فهذه طريق السلامة ، فتأمل فوائدها تطب لك .

٢٩٨ ـ لاتسبوا الدهر فإن الله هو الدهر

مارأت عيني مصيبة نزلت بالخلق أعظم من سبهم الزمان وعيبهم للدهر . وقد كان هذا في الجاهلية . ونهى رسول الله ﷺ عن ذلك فقال : لاتسبوا الدهر فان الله هو الدهر .

---

(١) يقصد بالمستحسنات كلما قالها النساء الجميلات

(٢) يريد انها تطلب الهواء

ومعناه أنتم تسبون من فرق شملكم وأمات أهاليكم ، وتنسبونه الى الدهر ، والله تعالى هو الفاعل لذلك . فتعجبت كيف أعلم اهل الاسقام بهذه الحال وهم على ما كان أهل الجاهلية عليه ، ما يتغيرون ، حتى ربما اجتمع الفطناء الادباء الظراف على زعمهم فلم يكن لهم شغل الاذم الدهر وربما جعلوا الله الدنيا ويقولون فعلت وصنعت حتى رأيت لابي القاسم الحريري يقول :

ولما تعامى الدهر وهو ابو الردى عن الرشد في انحائه ومقاصده
تعاميت حتى قيل اني اخو عمى ولاغروان يحذو الفتى حذو والده

وقد رأيت خلقاً يعتقدون أنهم فقهاء وفهماء ولا يتحاشون من هذا . وهؤلاء إنما أرادوا بالدهر مرور الزمان ، فذاك لااختيار له ولامراد ولايعرف رشداً من ضلال ، ولاينبغي أن يلام ، فانه زمان مدبّر لامدّبر فيتُصرف فيه ولايتصرف . ومايظن بعاقل أنه يشير الى أن المذموم المعرض عن الرشد السيء الحكم هو الزمان . فلم يبق الا أن القوم خرجوا عن ربقة الاسلام ، ونسبوا هذه القبائح الى الصانع ، فاعتقدوا فيه قصور الحكمة وفعل مـــالايصح ، كما اعتقده ابليس في تفضيل آدم . وهؤلاء لاينفعهم مع هذا اعتقاد اسلام ، ولافعل صلاة ، بل هم شر من الكفار ، لاأصلح لهم شأنا ، ولاهداهم الى رشاد .

٢٩٩ ـ اغتنم ساعات عمرك

من عجائب ما أرى من نفسي ومن الخلق كلهم الميل الى الغفلة عما في ايدينا مع العلم بقصر العمر ، وان زيادة الثواب هناك بقدر العمل ههنا .

فياقصير العمر اغتنم يَوْمي مِنى ، وانتظر ساعة النَّفْر ، واياك ان تشغل قلبك بغير ماخلق له ، واحمل نفسك على المر واقمعها اذا ابت ، ولاتسرح لها في الطِّوَل[١] ، فما أنت إلا في مرعى ، وقبيح بمن كان بين الصفين[٢] إذا تشاغل بغير ماهو فيه .

٣٠٠ ـ احفظ سرك واحترز من الناس

قد كررت هذا المعنى في هذا الكتاب . وهو الامر بحفظ السر والحذر من الانبساط فيما لايصلح بين يدي الناس . فرب منبسط بين يدي من يظنه صديقا بقول في صديق أو في سلطان لايتهم في ذلك فيكون سبب هلاك ذاك . فأوصي السليم الصدر الذي يظن في الناس الخير ان يحترز من الناس ، وان لايقول في الخلق كلمة لاتصلح للخلق . ولايغتر بمن يظهر الصداقة أو التدين فقد عم الخبث .

---

(١) اي لاتمدّ لها الرسن (٢) اي في ساحة المعركة

٣٠١ ـ التفكير في عظمة الخالق تسبيح المتيقظين

تأملت على اكثر الناس[١] عباداتهم فاذا هي عادات . فأما أرباب اليقظة فعادتهم عبادة حقيقة . فان الغافل يقول (سبحان الله) عادة والمتيقظ لا يزال فكره في عجايب المخلوقات أو في عظمة الخالق ، فيحركه الفكر في ذلك فيقول : سبحان الله .

ولو أن انسانا تفكر في رمانة فنظر في تصفيف حبها وحفظه بالاغشية لئلا يتضاءل ، واقامة الماء على عظم العَجَم[٢] ، وجعل الغشاء عليه يحفظه . وتصوير الفرخ في بطن البيضة ، والآدمي في حشا الام ، الى غير ذلك من المخلوقات ، ازعجه[٣] هذا الفكر الى تعظيم الخالق ، فقال : سبحان الله ، وكان هذا التسبيح ثمرة الفكر . فهذا تسبيح المتيقظين . ومازال أفكارهم تجول فتقع عباداتهم بالتسبيحات محققة . وكذلك يتفكرون في قبائح ذنوب قد تقدمت فيوجب ذلك الفكر حركة الباطن وقلق القلب وندم النفس ، فيثمر ذلك أن يقول قائلهم : أستغفر الله ، فهذا هو التسبيح والاستغفار . فأما الغافلون فيقولون ذلك عادة وشتان مابين الفريقين .

---

(١) تأمل على كذا من غير الفصيح

(٢) العجم « بفتح الجيم » النوى والبذر (٣) اي دفعة

٣٠٢ ـ مخالطة الناس تظلم القلب

لايصفو التعبد والتزهد والاشتغال بالآخرة إلا بالانقطاع الكلي عن الخلق ، بحيث لايبصرهم ولايسمع كلامهم إلا في في وقت ضرورة كصلاة جمعة أو جماعة [1] . ويحترز في تلك الساعات منهم . وإن كان عالماً يريد نفعهم وعدهم وقتاً معروفاً واحترز في الكلام . وأما من يمشي في الاسواق اليوم ويبيع ويشتري مع هذا العالم المظلم ، ويرى المنكرات والمستهجنات فما يعود الى البيت إلا وقد أظلم القلب . فلاينبغي للمريد أن يكون خروجه إلا الى الصحراء والمقابر . وقد كان جماعة من السلف يبيعون ويشترون ويحترزون ، ومع هذا ماصفا لصافيهم وقت حتى قاطع الخلق . قال ابو الدرداء : زاولت العبادة والتجارة فلم يجتمعا فاخترت العبادة .

وقد جاء في الحديث : الاسواق تلهي وتلغى [2] فمن قدر على الحمية النافعة واضطر الى المخالطة والكسب العائلة ، فليحترز احتراز الماشي في الشوك . وبعيد سلامته .

---

(١) مرّ من كلامه مايقبح فيه الذي يحسنه هنا

(٢) راجع « ثبت الاحاديث » وتعليق الاستاذ الشيخ ناصر الالباني عليها

٣٠٣ ـ وجوب الورع عن الشبهات لتبقى لذة التقوى

من رزق قلباً طيبا ولذة مناجاة فليراع حاله وليحذر من التغير ، وإنما تدوم له حاله بدوام التقوى . وكنت قد رزقت قلباً طيباً ، ومناجاة خلوة ، فأحضرني بعض ارباب المناصب الى طعامه ، فما أمكن خلافه ، فتناولت واكلت منه فلقيت الشدائد ، ورأيت العقوبة في الحال ، واستمرت مدة ، وغضبت على قلبي[١] ، وفقدت كل ما كنت اجده فقلت :

واعجبا كنت في هذا كالمكره . فتفكرت ، واذا به قد يمكن مداراة الامر بلقيمات يسيرة . وإنما التأويل تناول بشهوة اكثر مما يدفع المداراة .

فقالت النفس : ومن أين لي ان عين هذا حرام ؟

فقالت اليقظة : واين الورع عن الشبهات ؟

فلما تناولت بالتأويل لقمة استحليتها بالطبع فلقد لقيت الامرين بفقد القلب . فاعتبروا يا أولي الابصار .

٣٠٤ ـ المؤمن دائم اليقظة

همة المؤمن متعلقة بالآخرة فكل مافي الدنيا يحركه الى

---

(١) كذا وفي الجملة تحريف

ذكر الآخرة . وكل من شغله شيء فهمته شغله .

الا ترى أنــه لو دخل ارباب الصنائع الى دار معمورة رأيت البزاز ينظر الى الفرش ويحزر قيمتـه ، والنجار الى السقف ، والبناء الى الحيطان ، والحائك الى نسج الثياب . والمؤمن اذا رأى ظلمة ذكر ظلمة القبر . وان رأى مؤلمة ذكر العقاب . وان سمع صوتا فظيعاً ذكر نفخـة الصور . وان رأى الناس نياماً ذكر الموتى في القبور . وان رأى لذة ذكر الجنة فهمته متعلقة بما ثَمَّ وذلك يشغله عن كل ما ثَم.

واعظم ما عنده انه يتخايل دوام البقاء في الجنة ، وان بقاءه لاينقطع ولايزول ولايعتريه نغصة ، فيكاد اذا تخايل نفسه متقلبا في تلك اللذات الدائمة التي لاتفنى يطيش فرحاً ويسهل عليه مافي الطريق اليها من ألم ومرض ، وابتلاء ، وفقــد محبوب ، وهجوم الموت ، ومعالجة غصصه ، فان المشتاق الى الكعبة يهون عليه رمل زروه ، والتائق الى العافيـة لايبالي بمرارة الدواء ، ويعلم ان جودة الثمر ثَم ، على مقدار جودة البذر ههنا ، فهو يتخير الاجود ، ويغتنم الزرع في تشرين العمر من غير فتور .

ثم يتخايل المؤمن دخول النـار والعقوبة فيتنغص عيشه ويقوى قلقه ، فعنده بالحالين شغل عن الدنيا ومافيها ، فقلبه

هائم في بيداء الشوق تارة وفي صحراء الخوف أخرى ، فمايرى البنيان ، فاذا نازله الموت قوى ظنّـه الملائكة بالسلامة ، ورجا لنفسه النجاة فيهون عليه ، فاذا نزل الى القبر وجاءه الملائكة يسألونه ، قال بعضهم لبعض : دعوه فما استراح الا الساعة.

نسأل الله عز وجل يقظة تامة تحركنا الى طلب الفضائل ، وتمنعنا من اختيار الرذائل ، فانه ان وفق ، والا فلانافع .

٣٠٥ ـ لايختار الله عز وجل لمحبّته الا الكاملين

لقد اعتبرت على مولاي سبحانه وتعالى أمراً عجيباً وهو أنه تعالى لايختار لمحبته والقرب منه الا الكامل صورة ومعنى . ولست أعني حسن التخاطيط وانما كمال الصورة اعتدالها ، والمعتدلة ماتخلو من حسن ، فتتبعها حسن الصورة الباطنة ، وهو كمال الاخلاق وزوال الاكدار ، ولايرى في باطنه خبثاً ولا كدراً ، بل قد حسن باطنه كما حسن ظاهره . وقد كان موسى عليه السلام كل من رآه يحبه . وكان نبينا ﷺ كالقمر ليلة البدر . وقد يكون الولي أسود اللون ، لكنه حسن الصورة لطيف المعاني . فعلى قدرما عند الانسان من التمام في كمال الخلق والخلق ، يكون عمله[1] ، ويكون تقريبه الى

---

(١) مر من المؤلف هذا المعنى . وهو حكم لايصح اطلاقه بدليل من النقل ولا من العقل

الحضرة بحسب ذلك . فمنهم كالخادم على الباب ، ومنهم حاجب ، ومنهم مقرب ، ويندر من يتم له الكمال . ولعله لايوجد في مئة سنة منهم غير واحد .

وهذه حكاية ماتحصل بالاجتهاد ، بل الاجتهاد يحصل منها . لانه اذا وقع تمام حث على الجد على قدر نقصانه . وهذا لاحيلة في أصله ، انما هو جبلة . واذا أرادك لأمر هيأك له .

٣٠٦ ـ الرد على الذين يعترضون على حكمة الخالق

تأملت على قوم يدّعون العقول ، يعترضون على حكمة الخالق . فينبغي أن يقال لهم هذا الفهم الذي دلكم على رد حكمته أليس هو من منحه ؟ أفأعطاكم الكمال ورضي لنفسه بالنقص ؟ هذا هو الكفر المحض الذي يزيد في القبح على الجحد .

فأول القوم ابليس ، فإنه رأى بعقله أن جوهر النار أشرف من جوهر الطين فرد حكمة الخالق ، ومر على هذا خلق كثير من المعترضين ، مثل ابن الراوندي والبقري وهذا المعري اللعين يقول : كيف يعاب ابن الحجاج بالسخف[1] والدهر أقبح فعلا منه .

---

(١) كذا . ولعلها «بالسيف» ولا اعرف للمعري قولا كهذا . وان كان له شر منه

أترى يعني به الزمان ؟ كلا . فان بمر الاوقات لايفعل شيئاً وإنما هو تسقيف[١] . وكان يستعجل الموت ظناً منه انه يستريح ، وكان يوصي بترك النكاح والنسك ، ولا يرى في الايجاد حكمة إلا العناء والتعب ومصير الابدان الى البلى . وهذا لو كان كما ظن كان الايجاد عبثاً ، والحق منزه عن العبث . قال تعالى (وَمَا خلقْنا السماوات والارضَ وَما بَينهما باطلاً) فاذا كان ماخلق لنا لم يخلق عبثاً . أفنكون نحن ، ونحن مواطن معرفته ومحال تكليفه ، قد وجدنا عبثاً . ومثل هذا الجهل انما يصدر ممن ينظر في قضايا العقول التي يحكم بها على الظواهر ، مثل ان يرى مبنيا ينقض ، والعقل بمجرده لايرى ذلك حكمة ، ولو كشفت له حكمة ذلك لعلم أنه صواب . كما كشف لموسى مراد الخضر في خرق السفينة وقتل الغلام.

ومعلوم ان ذبح الحيوان وتقطيع الرغيف ومضغ الطعام لايظهر له فائدة سوى الاطلاق [١] فاذا علم انه غذاء لبدن من هو اشرف بدنا من المذبوح حسن ذلك الفعل .

واعجبا أو ماتقتضي العقول بوجوب طاعة الحكيم الذي يعجز عن معرفة حكم مخلوقاته ؟ فكيف يعارضه في افعاله ؟ نعوذ بالله من الخذلان .

---

(١) كذا ولعل الكلمة محرفة

٣٠٧ - يجب على من يعظ السلطان ان يتلطف به

ينبغي لمن وعظ سلطاناً أن يبالغ في التلطف ولا يواجهه بما يقتضى انه ظالم ، فان السلاطين حظهم التفرد بالقهر والغلبة فاذا جرى نوع توبيخ لهم كان اذلالاً وهم لايحتملون ذلك . وانما ينبغي أن يمزج وعظه بذكر شرف الولاية ، وحصول الثواب في رعاية الرعايا ، وذكر سير العادلين من أسلافهم . ثم لينظر الواعظ في حال الموعوظ قبل وعظه ، فان كانت سيرته حميدة كما كان منصور بن عمار وغيره يعظون الرشيد وهو يبكي . وقصده الخير زاد في وعظه ووصيته . وان رآه ظالماً لايلتفت الى الخير ، وقد غلب عليه الجهل ، اجتهد في ان لايراه ولا يعظه لأنه ان وعظه خاطر بنفسه ، وان مدحه كان مداهنا ، فان اضطر الى موعظته كانت كالاشارة .

وقد كان اقوام من السلاطين يلينون عند الموعظة ويحتملون الواعظين . حتى أنه قد كان المنصور يواجه بأنك ظالم فيصبر .

وقد تغير الزمان ، وفسد أكثر الولاة وداهنهم العلماء ، ومن لايداهن لايجد قبولاً الصواب فيكست .

وقد كانت الولايات لايصلها إلا من أحكمته العلوم ، وثقفته التجارب ، فصار أكثر الولاة يتساوون في الجهل فتأتي

الولاية على من ليس من أهلها . ومثل هؤلاء ينبغي الحذر منهم والبعد عنهم . فمن ابتلي بوعظهم فليكن على غاية التحرز فيما يقول ، ولا ينبغي ان يغتر بقولهم : عظنا . فانه لو قال كلمة لاتوافق أغراضهم ثارت حزازاتهم .

وليحذر مذكر السلطان ان يعرّض له بارباب الولايات فانهم اذا سمعوا بذلك صار الواعظ مقصوداً لهم بالاهلاك خوفاً من ان يعتبر السلطان أحوالهم فتفسد أمورهم . والبعد في هذا الزمان عنهم اصلح ، والسكوت عن المواعظ لهم أسلم ، فمن اضطر تلطف غاية التلطف ، وجعل وعظه للعوام وهم يسمعون ولايعيّنهم منه بشيء . والله الموفق .

٣٠٨ ـ أخبار عن بعض من ادّعوا النبوة

الحق لايشتبه بباطل . انما يموه الباطل عند من لافهم له . وهذا في حق من يدعي النبوات ، وفي حق من يدعي الكرامات .

أما النبوات فانه قد ادعاها خلق كثير ظهرت قبائحهم ، وبانت فضائحهم . ومنها مايوجبه خسة الهمـــة والتهتك في الشهوات ، والتهافت في الاقوال والافعـال حتى افتضحوا . فمنهم الاسود العنسي ، ادعى النبوة ولقب نفسه ذا الحمارة لأنه كان يقول يأتيني ذو الحمار ، وكان أول أمره كاهنا يشعوذ فيظهر الاعاجيب .

فخرج في أواخر حياة النبي ﷺ فكاتبته مذحج ونجران واخرجوا عمرو بن حزم وخالد بن سعيد صاحبي رسول الله ﷺ ، وصفا له اليمن ، وقاتل شهر بن باذام فقتله وتزوج بنته فأعانت على قتله فهلك في حياة رسول الله ﷺ . وبان للعقلاء أنه كان يشعبذ .

ومنهم مسيلمة ، ادعى النبوة وتسمى رحمان اليمامة لانه كان يقول : الذي يأتيني رحمان . فآمن برسول الله ﷺ وادعى أنه قد أشرك معه . فالعجب أنه يؤمن برسول ويقول انه كذاب . ثم جاء بقرآن يضحك الناس ، مثل قوله : ياضفدع بنت ضفدعين نقّي ماتنقين ، اعلاك في الماء وأسفلك في الطين ، ومن العجائب شاة سوداء تحلب لبناً أبيض .

فانهتك ستره في هذه الفصاحة . ثم مسح بيده على رأس صبي فذهب شعره ، وبصق في بئر فيبست ، وتزوج سجاح التي ادعت النبوة . فقالوا : لابد لها من مهر .

فقال : مهرها اني قد اسقطت عنكم صلاتي الفجر والعتمة[1] .

وكانت سجاح هذه قد ادعت النبوة بعد موت رسول الله ﷺ ، فاستجاب لها جماعة . فقالت : اعدوا الركاب ، واستعدوا للنهاب ، ثم اعبروا على الرباب ، فليس دونهم حجاب .

فقاتلوهم . ثم قصدت اليمامة فهابها مسيلمة فراسلها وأهدى لها فحضرت عنده فقالت :

---

(١) اي العشاء

اقرأ عليّ ما يأتيك به جبريل .

فقال : انكن معشر النساء خلقتن افواجاً ، وجعلتن لنا ازواجا ، نولجه فيكن ايلاجا .

فقالت : صدقت انت نبي .

فقال لها : ألا قومي إلى المخدع ، فقد هيىء لك المضجع ، فان شئت فملقاة ، وان شئت على أربع ، وان شئت بثلثيه ، وان شئت به اجمع .(١)

فقالت : بل به أجمع فهو للشمل أجمع .

فافتضحت عند العقلاء من أصحابها ، فقال منهم عطارد ابن حاجب :

اضحت نبيتنا انثى يطاف بها   واصبحت انبياء الناس ذكرانا
فلعنة الله رب الناس كلهم   على سجاح ومن بالافك اغوانا
اعني مسيلمة الكذاب لاسقيت   اصداؤه من رعيث حيثما كانا (٢)

ثم انها رجعت عن غيها وأسلمت ، ومازالت تبين فضائح مسيلمة حتى قتل .

ومنهم طليحة بن خويلد ، خرج بعد دعوى مسيلمة النبوة وتبعه اقوام ونزل سميرا ، فتسمى بذي النون ، يقول : ان الذي يأتيه يقال له ذو النون ، وكان من كلامه :

---

(١) هذا رجز موزون   (٢) روى البيت الاول فقط ، راجع الطبري ، والبيتان الآخران مصنوعان اثر الصنعة والضعف ظاهر فيها .

ان الله لايصنع بتعفير وجوهكم ولاقبح أدباركم شيئاً[١] فاذكروا الله أعفة قياما .

ومن قرآنه : والحمام واليمام ، والصرد الصوام ، ليبلغن ملكنا العراق والشام . وتبعه عيينة بن حصين ، فقاتله خالد بن الوليد فجاء عيينة الى طليحة فقال : ويحك أجاءك الملك ؟ قال: لا فارجع فقاتِل .فقاتل ثم عاد ، فقال :أجاءك ؟ فقال لا . فعاد فقاتل فقال: أجاءك قال نعم .قال: ماقال لك ؟ قال : ان لك جيشاً لاتنساه .

فصاح عيينة : الرجل والله كذاب .

فانصرف الناس منهزمين .وهرب طليحة الى الشام . ثم أسلم وصح اسلامه وقتل بنها وند .

وذكر الواقدي : أن رجلا من بني يربوع يقال له جندب بن كلثوم ، كان يلقب (كرداناً) ادعى النبوة على عهد رسول الله ﷺ . وكان يزعم ان دليله على نبوته انه يسرج مسامير الحديد والطين . وهذا لانه كان يطلي ذلك بدهن البيلسان فتعمل فيه النار .

وقد تنبأ رجل يقال له كهمش الكلابي ، وكان يزعم ان الله تعالى اوحى اليه : ياأيها الجائع اشرب لبناً تشبع ، ولاتضرب الذي لاينفع ، فانه ليس بمقنع . وزعم أن دليله على

---

(١) اي حين السجود

نبوته أنه يطرح بين السباع الضارية فلا تأكله . وحيلته في ذلك أنه يأخذ دهن الغار وحجر البرسان وقنفذاً محروقاً وزبد البحر وصدفاً محرقاً مسحوقاً وشيئاً من الصبر والحبط فيطلي به جسمه ، فاذا قربت منه السباع فشمت تلك الارياح وزفورتها نفرت .

وتنبأ بالطائف رجل يقال له أبو جعرانة العامري ، وزعم أن دليله أنه يطرح النار في القطن فلا يحترق . وهذا لانه يدهنه بدهن معروف .

ومنهم هذيل بن يعفور من بني سعد بن زهير ، حكى عنه الاصمعي أنه عارض سورة الاخلاص فقال : قل هو الله أحد ، اله كالاسد ، جالس على الرصد ، لايفوته أحد .

ومنهم هذيل بن واسع كان يزعم انه من ولد النابغة الذبياني ، عارض سورة الكوثر فقال له رجل : ماقلت :

فقال : انا اعطيناك الجواهر ، فصل لربك وجاهر ، فما يردك الا كل فاجر .

فظهر عليه السنوي فقتله وصلبه على العمود .

فعبر عليه الرجل فقال : إنا اعطيناك العمود ، فصل لربك من قعود ، بلا ركوع ولاسجود ، فما اراك تعود .

ومن ظهر فادعى انه يوحى اليه المختار بن ابي عبيد ، وكان متخبطا في دعواه ، وقتل خلقا كثيرا وكان يزعم أنه ينصر الحسين رضوان الله عليه ثم قتل .

ومنهم حنظلة بن يزيد الكوفي ، كان يزعم ان دليله انه يدخل البيضة في القنينة ويخرجها منها صحيحة . وذاك انه كان ينقع البيضة في الخل الحامض فيباين قشرها ثم يصب ماء في قنينة ، ثم يدس البيضة فيها ، فاذا لقيت الماء صلبت .

وقد تنبأ اقوام قبل نبينا ﷺ كزرادشت [1] وماني ، وافتضحوا ، ومامن المدعين الامن خذل .

وقد جاءت القرامطة بحيل عجيبة . وقد ذكرت جمهور هؤلاء وحيلهم في كتابي التاريخ المسمى بالمنتظم . ومافيهم من يتم له الامر الا ويفتضح . ودليل صحة نبينا ﷺ اجلى من الشمس . فانه ظهر فقيراً والخلق أعداؤه فوعد بالملك فملك . واخبر بما سيكون فكان . وصين من زمن النبوة عن الشره وخساسة الهمة والكذب والكبر . وايد بالثقة والامانة والنزاهة والعفة . وظهرت معجزاته للبعيد والقريب . وانزل عليه الكتاب العزيز الذي حارت فيه عقول الفصحاء . ولم يقدروا

---

(١) لم يثبت ان زرادشت ادعى النبوة وما يدرى ماحقيقته ، وأصل مذهبه التوحيد ثم خلطه اتباعه بالكفر : وكتابه « زندانا فستا »

على الاتيان بآية تشبهه فضلا عن سورة . وقد قال قائلهم وافتصح . ثم أخبر أنه لايعارض فيه فكان كما قال . وذلك قوله تعالى « فأتوا بسورة » . ثم قال « فان لم تفعلوا ولن تفعلوا » . وكذلك قوله « فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ولن يتمنونه » فما تمناه أحد إذ لوقال قائل قد تمنيته لبطلت دعواه.

وكان يقول ليلة غزاة بدر : غدا مصرع فلان ههنا فلايتعداه.

وقال : اذا هلك كسرى فلا كسرى بعده . واذا هلك قيصر فلا قيصر بعده[1] فماملك بعدهما من له كبير قدر ، ولا من استتب له حال .

ومن اعظم دليل على صدقه انه لم يرد الدنيا ، فكان يبيت جائعا ، ويؤثر اذا وجد ، ويلبس الصوف ويقوم الليل . وإنما تطلب النواميس لاجتلاب الشهوات ، فلما لم يردها دل على أنه يدل عل الآخرة التي هي حق . ثم لم يزل دينه يعلو حتى عم الدنيا . وان كان الكفر في زوايا الارض الا انه مخذول . وصار في تابعيه من امته الفقهاء الذين لو سمع كلامهم الانبياء القدماء تحيروا[2] في حسن استخراجهم ، والزهاد الذين

---

(١) انظر ثبت الاحاديث في آخر الكتاب .

(٢) انا لا استحسن من المؤلف هذه الجرأة على الانبياء ، ولا احسبها تحسن في الشرع

لو رآهم الرهبان تحيروا في صدق زهدهم . والفطناء الذين لانظير لهم في القدماء .

أوليس قوم موسى يعبدون بقرة ، ويتوقفون في ذبح بقرة ، ويعبرون البحر ، ثم يقولون : اجعل لنا الها

وقوم عيسى يدخرون من المائدة وقد نهوا .

والمعتدون في السبت يعصون الله لاجل الحيتان .

وامتنا بحمد الله تعالى سليمة من هذه الاشياء ، وانما في بعضها ميل الى الشهوات المنهي عنها . وذلك في الفروع لا في الاصول . فاذا ذكروا بكوا وندموا على تفريطهم .

فنحمد الله على هذا الدين وعلى أننا من أمة هذا الرسول ﷺ . وقد كان جماعة من المتصنعين بالزهد مالوا الى طلب الدنيا والرياسة . فاستغواهم الهوى فخرقوا[1] باظهار مايشبه الكرامات كالحلاج وابن الشاش وغيرهما بمن ذكرت حال تلبيسه في كتاب تلبيس ابليس . وانما فعلوا ذلك لاختلاف أغراضهم . ولم يزل الله ينشىء في هذا الدين من الفقهاء من يظهر ماستره المتعلمون ، كما ينشىء من علماء الحديث من يهتك ما أخفاه الواضعون ، حفظاً لهذا الدين ، ودفعاً للشبهات عنه .

---

(١) الخرقة التدجيل والشعوذة

فلا يزال الفقيه والمحدث يظهران عوار كل ملبس بوضع حديث أو باظهار دعوى تزهد وتنميس ، فلا يؤثر ما ادعياه الا عند جاهل بعيد من العلم والعمل « ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره الكافرون » .

٣٠٩ ـ عمرك قصير فاغتنم ساعاته

واعجبا من موجود لايفهم معنى الوجود ، فان فهم لم يعمل بمقتضى فهمه ، يعلم أن العمر قصير ، وهو يضيعه بالنوم والبطالة والحديث الفارغ وطلب اللذات . وإنما أيامه أيام عمل لازمان فراغ . وقد كلف بذل المال بمخالفة الطبع من الشرع فبخل به الى أن تضايق الخناق فيقول حينئذ : فرقوا عني بعد موتي وافعلوا كذا ، فاين يقع هذا لو فعل ، وبعيد أن يفعل ، وإنما يراد بانفاقك في صحتك مخالفة الطبع في تكلف مشاق الاخراج في زمن السلامة ، فافرق بين الحالتين ان كان لك فهم .

فالسعيد من انتبه بنفسه وعمل بمقتضى عقله ، واغتنم زمنا نهايته الزمن[١] وانتهب عمرا ياقرب انقطاعه .

ويحك ماتصنع بادخار مال لايؤثر حسنة في صحيفة ولامكرمة في تاريخ . اما سمعت بانفاق أبي بكر وبخل ثعلبة

(١) كذا

اما رأيت تأثير مدح حاتم وبخل الحباحب ! ويحك لو ابتلاك في مالك فقل" لاستغثت ، أو في بدنك ليلة بمرض لشكوت . فانت تستوفي مطلوباتك منه ، ولا تستوفي حقه عليك « ويل للمطففين » ولتعلم أن هذا القدر المفرّط فيه يحل الخلود الدائم في ثواب العمل فيه .

فسبحان من منّ على أقوام فهموا المراد فأتعبوا الاجساد وغطى على قلوب آخرين فوجودهم كالعدم . وكيف لايتعب العاقل بدنه اتعاب البُدْنِ[1] والمقصود مِني . أترى ما بال الحق متجلياً في ايجادك أيها العبد ! بلى . والله ان وجودك دليل وجوده . وان نعمه عليك دليل جوده . فكما قدمك على سائر الحيوانات . فقدمه في قلبك على كل المطلوبات . واخيبة من جَهِلَه ، وافَقْرَ من اعرض عنه ، واذُلّ من اعتز بغيره ، واحسرَةَ من اشتغل بغير خدمته .

٣١٠ـ وجوب الاستعداد للموت

اني أعجب من عاقل يرى استيــــلاء الموت على اقرانه وجيرانه كيف يطيب عيشه ، خصوصاً إذا علت سنه . واعجبا لمن يرى الافاعي تدب اليه وهو لاينزعج . أما يرى الشيخ دبيب الموت في أعضائه ، قد اخرج سكين القوى وانزل

(١) جمع بدنة وهي الناقة

متغشرم الضعف [1] ، وقلب السواد بياضا ، ثم في كل يوم يزيد الناقص . ففي نظر العاقل الى نفسه مايشغله عن النظر الى خراب الدنيا وفراق الاخوان وان كان ذلك مزعجا . ولكن شغل من احترق بيته بنقل متاعه يلهيه عن ذكر بيوت الجيران . وانه لما يسلي عن الدنيا ويهون فراقها استبدال المعارف بمن تنكره [1] فقد رأينا أغنياء كانوا يؤثرون ، وفقراء كانوا يصبرون ، ومحاسبين لانفسهم يتورعون ، فاستبدل السفهاء عن العقلاء ، والبخلاء عن الكرماء . فياسهولة الرحيل ، لعل النفس تلقى من فقدت ، فتلحق بمن أحبت .

٣١١ـ سجود الجمادات لله عزوجل واستثناء بعض العقلاء منه

نظرت في قول الله تعالى « ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الارض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب » ثم قال « وكثير من الناس » فرأيت الجمادات كلها قد وصفت بالسجود ، واستثني من العقلاء . فذكرت قول بعضهم :

ماجحد الصامت من أنشاه ومن ذوي النطق أتى هذا الجحود

---

(١) كذا

فقلت : ان هذه لقدرة عظيمة ، يوهب عقل الشخص ثم يسلب فائدته ، وان هذا لأقوى دليل على قادر قاهر ، وإلا فكيف يحسن من عاقل ألا يعرف بوجوده وجود من أوجده ؟ وكيف ينحت صنما بيده ثم يعبده ؟

غير أن الحق سبحانه وتعالى وهب لأقوام من العقل مايثبت عليهم الحجة ، وأعمى قلوبهم كما شاء عن المحجة [1] .

٣١٢ - وجوب العزلة وذم الصوفية

مارأيت أكثر أذى للمؤمن من مخالطة من لايصلح ، فان الطبع يسرق ، فان لم يتشبه بهم ، ولم يسرق منهم ، فتر عن عمله . فان رؤية الدنيا تحث على طلبها . وقد رأى رسول الله ﷺ ستراً على بابه فهتكه وقال : مالي وللدنيا ؟ ولبس ثوبا له طراز فرماه وقال : شغلتني أعلامه . ولبس خاتما ثم رماه وقال : نظرت اليكم ونظرت اليه .

وكذلك رؤية أرباب الدنيا ودورهم واحوالهم ، خصوصاً لمن له نفس تطلب الرفعة وكذا سماع الاغاني ، ومخالطة الصوفية اليوم الذين لانظر لهم في الرزق الحاصل ، بل لو كان من اين كان قبلوه ، ولايتورعون أن يأخذوا من ظالم ، وليس عندهم

---

(١) المحبة الطريق

خوف كما كان أوائلهم . فقد كان سري السقطي يبكي طول الليل ، وكان يبالغ في الورع ، ولا لهم تعبد الجنيد ، وانما ثَمَّ[١] أكل ورقص وبطالة وسماع اغانٍ من المردان ، حتى قال بعض من يعتبر قوله حضرت مع رجل كبير يوماً اليه من مشايخ الرُبط[٢] ومغنيهم أمرد ، فقام الشيخ ونقطه بدينار على خده .

وادعاؤهم ان سماع هـذه الاشياء تدعو الى الآخرة فوق الكذب . وليس العجب منهم ، انما العجب من جهال يَنْفَقون عليهم فيُنفِقون عليهم . ولقد كان جماعة من القدماء يرون أوائل الصوفية يتعبدون ويتورعون فيعجبهم حالهم ، وهم معذورون في اعجابهم بهم ، وان كان اكثر القوم في تعبدهم على غير الجادة ، كما ذكرت في كتابي المسمى بتلبيس ابليس . فأما اليوم فقد برح الخفاء . أحدهم يتردد الى الظَّلَمة ويأكل اموالهم ، ويصافحهم بقميص ليس فيه طراز ، وهذا هو التصوف فحسب . أو لا يستحي من الله من زهد في رفيع الاثواب لاجل الخلائق لا لأجل الحق ، ولايزهد في مطعم ولا في شبهة .

فالبعد عن هؤلاء لازم . وينبغي للمنفرد لطاعة الله تعالى عن الخلق ان لايخرج الى سوقٍ جُهْدَه ، فان خرج ضرورة غض بصره . وان لايزور صاحب منصب ولايلقاه ، فان اضطر داري الامر . ولايخالط عامياً إلا لضرورة مع التحرز . ولا

---

(١) ثم وثمة : هناك (٢) جمع رباط : تكية او زاوية اي دار الكسالى

يفتح على نفسة باب التزوج[١] بل يقنع بامرأة فيهـــا دين فقد قال الشاعر :

والمرء مادام ذا عين يقلّبها في أعين العين موقوف على الخطر
يسر مقلته ماضر مهجتـــه لا مرحباً بسرور عاد بالضرر

فإن كان يغلب عليه العلم انفرد بدراسته ، واحـترز عن الاتباع للمتعلمين . وان غلبت عليه العبادة ، زاد في احترازه. وليجعل خلوته أنيسه . والنظر في سير السلف جليسه . وليكن له وظيفة من زيارة قبور الصالحين[٢] والخلوة بها . وينبغي ألاّ يفوته ورد قيام الليل ، وليكن بعد النصف الاول . فليطل مها قدر ، فانه زمان بعيد المثل[٣] . وليمثل رحيله عن قرب ليقصر أمله . وليتزود في الطريق على قدر طول السفر .

نسأل الله عز وجل يقظة من فضله . واقبالاً على خدمته . وان لايخذلنا بالالتفات عنه . انه قريب مجيب .

٣١٣ ـ الله عز وجل غنيّ عن طاعتنا ولأنفسنا نعمل

كلما نظرت في تواصل النعم عليّ تحيرت في شكرهـــا . وأعلمُ أن الشكر من النعم فكيف أشكر[٤] ، لكني معترف

---

(١) اي تكراره والاكثار منه
(٢) اي الزيارة المشروعة لالسؤال من فيها واعتقاد انه يضر وينفع
(٣) اي قليل النظير
(٤) اي كيف يشكر الله على ان انعم عليه فوفقه للشكر

بالتقصير . وأرجو أن يكون إعترافي قائماً ببعض الحقوق . وعندي خلة ارجو بها كل خير ، وهي أن من يصوم أو يصلي يرى أنه تعبد ، ويخدم كأنه يقضي حق المخدوم . وأنا أرى أني اذا صليت ركعتين فانما قمت اكدى[1] فلنفسي أعمل ، اذا المخدوم غني عن طاعتي .

وكان بعض المشايخ يقول : جاء في الحديث : الدعاء عبادة . وانا أقول : العبادة دعاء[2] . فالعجب ممن يقف للخدمة يسأل حظ نفسه ، كيف يرى أنه قد فعل شيئا . انما أنت في حاجتك ، ومنة من أيقظك لاتقاومها خدمتك فأنا أقول كما قال الاول :

يامنتهى الآمال أنت كفلتني وحفظتني
وعدا الزمان عليّ كي يجتاحني فمنعتني
فانقاد لي متخشعا لما رآك نصرتني
وكسوتني ثوب الغنى ومن المطالب صنتني
فاذا سكت بدأتني واذا سألت اجبتني
واذا شكرتك زدتني فمنحتني وبهرتني
أو إن أجد بالمال فا لاموال أنت أفدتني

---

(١) اي استجدي (٢) أيظن الاحق انه جاء باحسن من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والا فاله يعارضه؟

٣١٤ - نقائض العلماء

رأيت أكثر العلماء يتشاغلون بصورة العلم . فهمّ الفقيه التدريس ، وهم الواعظ الوعظ . فهذا يرعى درسه فيفرح بكثرة من يسمعه ، ويقدح في كلام من يخالفه ، ويمضي زمانه في التفكر في المناقضات ، ليقهر من يجادله ، وعينه الى التصدر والارتفاع في المجالس . وربما كانت همته جمع الحطام ، ومخالطة السلاطين . والواعظ همته مايزوّق به كلامه ويكثر جمعه ويجلب به قلوب الناس الى تعظيمه ، فان كان له نظير في شغله أخذ يطعن فيه . وهذه قلوب غافلة عن الله عز وجل ، اذ لو كانت لها به معرفة لاشتغلت به ، وكان انسها بمناجاته ، وايثارها لطاعاته ، واقبالها على الخلوة به ، لكنها لما خلت من هذا تشاغلت بالدنيا وذاك دنيا مثلها . فاذا خلت بخدمة الله تعالى لم تجد لها طعما ، وكان جمع الناس أحب اليها ، وزيارة الخلق لها آثر عندها . وهذه علامة الخذلان . وعلى ضد هذا متى كان العالم مقبلا على الله سبحانه مشغولا بطاعته ، كان أصعب الاشياء عنده لقاء الخلق ومحادثتهم ، واحب الاشياء اليه الخلوة . وكان عنده شغل عن القدح في النُظَراء أو عن طلب الرياسة ، فانّ ماعلّق به همته من الاخرة اعلى من ذلك . والنفس لابد لها مما تشاغل به . فمن اشتغل لخدمة الخلق أعرض عن

الحق ، فانما يرى رياسته ، وذلك يوجب الاعراض عن الحق وماجعل الله لرجل من قلبين في جوفه .

٣١٥ـ اكثر الناس لايرون الاشياء كما هي

قد جاء في الاثر ، اللهم أرنا الاشياء كما هي . وهذا كلام حسن غاية . واكثر الناس لايرون الاشياء بعينها ، فانهم يرون الفاني كأنه باق ، ولايكادون يتخايلون زوال ماهم فيه وان علموا ذلك . إلا ان عين الحسّ مشغولة بالنظر الى الحاضر ، ترى زوال اللذة وبقاء اثمها . ولو رأى اللص قطع يده هان عنده المسروق . فمن جمع الاموال ولم ينفقها فما رآها بعينها ، اذ هي آلة لتحصيل الاغراض ، لاتراد لذاتها . ومن رأى المعصية بعين الشهوة فما رآها ، اذ فيها من العيوب ماشئت ، ثم غرتها عقوبة آجلة ، وفضيحة عاجلة .

وانظر الى اكبر شهوات الحس وهو الوطء فان الماء لايحصل الا بعد مطعم ومشرب ، ومن تفكر في المطعم نظر الى حرث الارض ، وانها تفتقر الى بقر الحراثة عليهن المحراث ، وهو حديد ومعه خشب ويتعلق به حبال ، فمن تفكر في عمل الحبالَ نظر في زرع القنب وتسريحه وفتله والحديد وجلبه وضربه ، والخشب ونباته ونجارته ، ودوران الدولاب وعمله ،

ثم استحصاد الزرع وحصده وتذريته وطحنه وعجنه وخبزه ، ومن عمل التنور وجلب الشوك . ومن هذا الجنس اذا نظر فيه كثر جداً حتى قالوا لاتنال لقمة الا وقد عمل فيها ثلاثمئة نفس أو نحوهم . فـــاذا أكل تلك اللقمة فليفكر في خلق الاسنان لقطعها ، والاضراس لطحنها ، وعذوبة ماء الفم لخلطها ، واللسان ليقلبها ، وعضلات الفم يصعد منها شيء ويبقى شيء حتى يصلح البلع . ثم يتناولها المِعى فيوصلها الى الكبد فيقوم طابخاً لها ، فاذا صارت دما نفت رسوبها الى الطحال ، ومائيتها الى المثانة ، واستخلصت من أخلص الدم وأصفاه الكبد والدماغ والقلب ، وأخذت أجود ذلك فحدرته الى الانثيين معدّاً لخلق آدمي . فاذا تحركت نيران الشهوة برزت تلك النطفة ، وقد حكم الشرع بطهارتها[1] ، وحكم لها بطهارة الرحم والمحل الذي يباشره الذكر ، فيخلق منها الآدمي الموحد .

فما جاء هذا الشخص الا باغلى الغلاء وبعد عجائب أشرنا اليها ، لا أنا عددناها . أفمن فهم هذا يحسن منه أن يبدد تلك النطفة في حرام ، وان يطأ في محل نجس فتضيع ؟ فكم يتعلق بالزنا من محن لايفي معشار عشرها بلذة لحظة . منهـــا

---

(١) الذي ورد في الشرع وعليه مذهبنا «الحنفي» حديث : اغسليه رطبـــاً وافركيه يابسا . فلوكان طاهرا فلماذا تغسله او تفركه ؟

هتك العرض بين الناس ، وكشف العورات المحرمة ، وخيانة الاخ المسلم في زوجته إن كانت متزوجة ، وفضيحة المزني بها وهي كأخت أو بنت ، فان علقت منه ولها زوج الحقته بذلك الزوج، وكان هذا الزاني سبباً في ميراث من لايستحق ومنع من يستحق ثم يتسلسل ذلك من ولد الى ولد . وأما سخط الحق سبحانه فمعلوم قال تعالى « ولاتقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلا »وقال ﷺ : مامن ذنب بعد الشرك اعظم عند الله تعالى من نطفة وضعها رجل في رحم لاتحل له .

ومن له فهم فهو يعلم أن المراد من النطفة ايجاد الموحدين ولو لا تركيب الشهوة لم يقع الوطء ، لانه التقاء عضوين غير مستحسنين ولا صورتها حسنة ولاريحها طيب ، وانما الشهوة تغطي عين الناظر ليحصل الولد اصلا فهي عارض فمن طلب الشهوة ونسي جنايته بالزنا فما رأى الاشياء على ماهي [١] . وقس على هذا المطعمَ والمشربَ وجمعَ المال وغير ذلك .

٣١٦ - الفائدة في خلق ما يؤذي

إن قال قائل أي فائدة في خلق مايؤذي ؟ فالجواب انه

---

(١) صحيح والله - فليبتعد الشاب عن الزنا بالابتعاد عن دواعيه وهي النظر الى الاجنبيات والاختلاط بهن ومماشرة من يسهل الطريق اليهن .

قد ثبتت حكمة الخالق فاذا خفيت وجب التسليم . ثم لمف المستحسنات في الجملة انموذج ما أعد من الثواب ، والمؤذيات انموذج مـا أعد من العقاب . وما خلق شيء يضر الا وفيه منفعة . قيل لبعض الاطباء : إن فلانا يقول انا كالعقرب أضر ولا أنفع .

فقال : ما أقل علمه . انها لتنفع إذا شق بطنها ثم شدت على موضع اللسعة . وقد توضع في جوف فخار مسدود الرأس مطبق الجوانب ، ثم يوضع الفخار في تنور فاذا صارت رماداً سقى من ذلك الرماد مقدار نصف دانق أو أكثر من به الحصاة فيفتتها من غير أن يضر بشيء من سائر الاعضاء[1]. وقد تلسع العقرب من به حمى عتيقة فتزول ولسعت رجلا مفلوجا فزال عنه الفالج . وقد تلقى في الدهن حتى يجتذب قواها فيزيل ذلك الدهن الاورام الغليظة ، ومثل هذا كثير. فالجاهل عدو لما جهله . وأكبر الحماقة رد الجاهل على العالم .

٣١٧ ـ كلما ازداد الايمان قويت محبة الخالق

كلما اوغلت الفهوم في معروفة الخالق فشاهدت عظمتـه ولطفه ورفعته ، تاهت في محبتـه فخرجت عن حد الثبوت .

---

(١) فما رأي الاطباء ؟

وقد كان خلق من الناس غلبت عليهم محبته فلم يقدروا على مخالطة الخلق . ومنهم من لم يقدر على السكوت عن الذكر ، وفيهم من لم ينم الا غلبة ، وفيهم من هام في البراري ، وفيهم من احترق في بدنه . فياحسن مخمورهم ما ألذ سكره ، ويا عيش قلقهم ما احسن وجده .

كان ابو عبيدة الخواص قد غلبه الوجد فكان يمشي في الاسواق ويقول : واشوقاه الى من يراني ولا أراه . وكان فتح بن سخرف يقول : قد طال شوقي اليك ، فعجل قدومي عليك[1] . وكان قيس بن الربيع كأنه مخمور من غير شراب وكان ابن عقيل يقول : ان التبذل فيه سبحانه احسن من التجمل في غيره . هل رأيت قط عراة احسن من المحرمين ؟ هل رأيت للمتزينين برياش الدنيا كأثواب الصالحين ؟ هل رأيت خمارا أحسن من نعاس المتهجدين ؟ هل رأيت سكراً أحسن من صعق الواجدين ؟ هل شاهدت ماء صافياً اصفى من دموع المتأسفين ؟ هل رأيت رؤوساً مائلة كرؤوس المنكسرين ؟ هل لصق بالارض أحسن من جباه المصلين ؟ هل حرك نسيم

(١) السنة ان يقول : اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي وأمتني ان كان الموت خيراً لي .

الاسحار أوراق الاشجار فبلغ مبلغ تحريكه اذيال المتهجدين ؟ هل ارتفعت اكف وانبسطت أيدٍ فضاهت أكف الراغبين ؟ هل حرك القلوب صوت ترجيـــع لحن أو رنة وَتَر كما حرك حنين المشتاقين ؟ وإنما يحسن التبذل في تحصيل أوفى الاغراض فلذلك حسن التبذل في خدمة المنعم .

٣١٨ ـ فساد أولي الامر

في سبب تبذير الولاة . اكثرهم لايعرف ولا يتأدب بآدابه بمرة . يتفق له قلة العقل في أصل الوضع ، ثم ذلك القليل لايعاون بل يعان عليه . وذاك أن الجارحة إذا دام تعطلها عن عملها الذي هيئت له تعطلت وخمدت ، ولهذا تنقص أبصار النساخ والرفائين [١] وتحتد أبصار أهل البوادي ، لانه لاصادم لأبصارهم . وشغل العقل التفكر والنظر في عواقب الاحوال والاستدلال بالشاهد على الغائب . وهم يمتلئون من الطعام دائماً وذلك يؤذي العقل . ثم يطيلون النوم ، فاذا انتبهوا شربوا المسكر فاتفق للعقل تعطيل وتغطية فساء التدبير .

---

(١) المثـــال لايطابق المقال، فابصار النساخ انما كلت من كثرة العمل لا من قلته .

٣١٩ ـ لاتحدثوا العوام بمالاتحتمله عقولهم

من المخاطرات العظيمة تحديث العوام بمالاتحتمله قلوبهم ، أو بما قد رسخ في نفوسهم ضده . مثاله أن قوماً قد رسخ في قلوبهم التشبيه ، وأن ذات الخالق سبحانه ملاصقه للعرش ، وهي بقدر العرش ، ويفضل من العرش أربع أصابع ، وسمعوا مثل هذا من أشياخهم ، وثبت عندهم أنه إذ نزل انتقل الى السماء الدنيا ، فخلت منه ست سموات ، فاذا دعى أحدهم الى التنزيه وقيل له ليس كما خطر لك ، إنما ينبغي أن تمر الاحاديث كما جاءت من غير مساكنة ماتوهمه ، صعب هذا عليه لوجهين :

أحدهما لغلبة الحس عليه والحس على العوام أغلب . والثاني لما قد سمعه من ذلك من الاشياخ الذين كانوا أجهل منه . فالمخاطب لهذا مخاطر بنفسه . ولقد بلغني عن بعض من كان يتدين أنه ممن قد رسخ في قلبه التشبيه أنه سمع من بعض العلماء شيئاً من التنزيه فقال : والله لو قدرت عليه لقتلته . فالله الله أن تحدث مخلوقاً من العوام بما لايحتمله [١] ، فانه

---

(١) ماذا يريد ان يقول ؟ هل ندع العامي المشبه على تشبيهه لانبين له ؟ ولم لا ؟ او لم يبين الرسول صلى الله عليه وسلم التوحيد لمن رسخ في نفسه الشرك ؟

لايزول مافي نفسه ، ويخاطر المحدث له بنفسه فكذلك كل مايتعلق بالاصول .

٣٢٠ - حفظ الحدود واخلاص العمل هما ميزان المؤمن

لايغرك من الرجل طنطنته وماتراه يفعل من صلاة وصوم وصدقة وعزلة عن الخلق . إنما الرجل هو الذي يراعي شيئين ، حفظ الحدود ، واخلاص العمل .

فكم قد رأينا متعبداً يخرق الحدود بالغيبة وفعل مالايجوز مما يوافق هواه . وكم قد اعتبرنا على صاحب دين أنه يقصد بفعله غير الله تعالى . وهذه الآفة تزيد وتنقص في الخلق . فالرجل كل الرجل هو الذي يراعي حدود الله ، وهي مافرض عليه وألزم به ولايتعداها الى هواه ويحسن القصد ، فيكون عمله وقوله خالصاً لله تعالى ، لايريد به الخلق ولاتعظيمهم له .

فرب خاشعٍ ليقال ناسك ، وصامتٍ ليقال خائف ، وتاركٍ للدنيا ليقال زاهد . وعلامة المخلص أن يكون في جلوته كخلوته . وربما تكلف بين الناس التبسم والانبساط لينمحي عنه اسم زاهد . فقد كان ابن سيرين يضحك بالنهار فاذا جَن الليل فكأنه قتل أهل القرية .

واعلم أن المعمول معه[1] لايريد الشركاء . فالمخلص مفرد له

(١) اي الله سبحانه وتعالى .

بالقصد ، والمرائي قد أشرك ليحصل له مدح الناس ، وذلك ينقلب . لأن قلوبهم بيدمن أشرك معه ، فهو يقلبها عليه لااليه .

فالموفق من كانت معاملته باطنة واعماله خالصة ، وذاك الذي تحبه الناس وان كرهوا ، كما يمقتون المرائي وان زاد تعبده . ثم ان الرجل الموصوف بهـذه الخصال لايتناهى عن كمال العلوم ولايقسر عن طلب الفضائل ، فملأ الزمان أكثر مما يسعه من الخير ، وقلبه لايفتر عن العمل القلبي . الى أن يصير شغله بالحق سبحانه وتعالى .

٣٢١ ـ الدفن في مقبرة احمد بن حنبل

رأيت خلقاً يفرّطون في أديانهم ثم يقولون : احملونا اذا متنا الى مقبرة أحمد . أتراهم ماسمعوا أن رسول الله ﷺ امتنع من الصلاة على من عليه دينٌ وعلى الغالّ[1] وقال : ماينفعه صلاتي عليه . ولقد رأيت أقواماً من العلماء حملهم حب الصيت على أن استخرجوا اذنا من السلطان فدفنوا في دكة أحمد بن حنبل وهم يعلمون أن هناك خلقاً بعضهم على بعض ، ومافيهم الامن يعلم أنه مايستحق القرب من مثل ذلك فاين احتقار النفوس؟ أما سمعوا أن عمر بن عبـــد العزيز قيل له تدفن في الحجرة

(١) الغلول السرقة من الغنيمة ، ولعل منه اخذ اموال الدولة بلا حق

فقال : لأن القى الله بكل ذنب ماخلا الشرك أحب اليّ من ان أرى نفسي أهلا لذلك . لكن العادات وحب الرياسة غلبت على هؤلاء ، فبقي العلم يجري على الألسن عادة لا للعمل به ، ثم آل الامر الى جماعـــة خالطوا السلاطين ، وباشروا الظلم ، يزاحمون على الدفن بمقبرة أحمد ، ويوصون بذلك ، فليتهم أوصوا بالدفن في موضع فارغ ، إنمـــا يدفنون على موتى ، ويخرج غظام اولئك فيحشرون على ما ألفوا من الظلم حتى في موتهم ، وينسون أنهم كانوا من أعوان الظلمة . اترى ماعلموا أن مساعد الظالم ظالم ؟ وفي الحديث : كفى بالمرء خيانة أن يكون أميناً للخونة .

قال السجان لاحمد بن حنبل : هل أنا من أعوان الظلمة ؟

فقال : لا أنت من الظلمة . إنما أعوان الظلمة من أعانك في أمر .

٣٣٢ ـ الحسد في طبيعة ابن آدم ولكن عليه أن لا يعمل به

رأيت الناس يذمون الحاسد ويبالغون ويقولون : لا يحسد إلا شرير يعادي نعمة الله ، ولا يرضى بقضائه ، ويبخل على أخيه المسلم . فنظرت في هذا فما رأيته كما يقولون . وذاك ان الانسان لا يحب أن يرتفع عليه أحد ، فاذا رأى صديقه قد علا عليه تأثر هو ولم يحب أن يرتفع عليه ، ووه أن لو

لم ينل صديقه ما ينال ، أو أن ينال هو مانال ذاك لئــلا يرتفع عليه . وهذا معجون في الطين . ولا لوم على ذلك ، إنما اللوم أن يعمل بمقتضـاه من قول أو فعل . وكنت أظن أن هذا قد وقع لي عن سرّي وفحصي ، فرأيت الحديث عن الحسن البصري قد سبقني إليه .

قال أخبرنا عبد الخالق بن عبد الصمد قال أخبرنا ابن النقود قال أخبرنا المخلص[1] قال حدثنا البغوي قال حدثنا أبو روح قال حدثنا مخلد بن الحسين عن هشام عن الحسن ، قال : ليس من ولد آدم أحــد إلا وقد خلق معه الحسـد ، فمن لم يجاوز ذلك بقول ولا بفعل لم يتبعه شيء .

٣٢٣ـ كثرة النساء مضرة على المرء

من أعظم الضرر الداخل على الانسان كثرة النساء ، وانه أولاً يتشتت همه في محبتهن ، ومداراتهن وغيرتهن ، والانفاق عليهن ، ولا يأمن إحداهن أن تكرهه وتريد غيره ، فــلا تتخلص إلا بقتله ، ولو سلم من جميع ذلك لم يسلم في الكسب لهن ، فان سلم لم ينج من السآمة لهن أو لبعضهن ، ويطلب مالا يقدر عليه من غيرهن ، حتى أنه لو قدر على نساء بغداد كلهن ، فقدمت امرأة مستترة من غير البلد ، ظن أنه يجـد

(١) لم أحقق هذه الاسماء ومماأدري لعل فيها تحريفاً .

عندها ماليس عندهن . ولعمري إن في الجدة لذة ، ولكن رب مستور اذا انكشف افتضح ، واذا سلم من كل أذى يتعلق بمن انهك بدنه في الجماع ، فيكون طلبه للالتذاذ مانعاً من دوام الالتذاذ ، ورب لقمة منعت لقمات ، ورب لذة كانت سبباً في انقطاع لذات . والعاقل من يقتصر على الواحدة اذا وافقت غرضه ، ولا بد أن يكون فيها شيء لايوافق ، انما العمل على الغالب . فتوهب الخلة الردية للجيدة[1] ، وينبغي أن يكون النظر الى باب الدين قبل النظر الى الحسن ، فإنه اذا قل الدين لم ينتفع ذو مروءة بتلك المرأة .

ومما يهلك الشيخ سريعاً الجماع ، فلا يغتر بما يرى من انبساط الآلة وحصول الشهوة ، فان ذلك مستخرج من قوته مالا يعود مثله ، فلا ينبغي أن يغتر بحركة وشهوة ولا يقرب من النساء ان كان له رأي في البقاء .

٣٢٤- لايرجى خير من قليل العقل

اذا رأيت قليل العقل في أصل الوضع فلا ترج خيره . فاما ان كان وافر العقل لكنه يغلب عليه الهوى فارجه . وعلامة ذلك أنه يدبر أمره في جهله فيستتر من الناس اذا أتى فاحشة ، ويراقب في بعض الاحوال ، ويبكي عند الموعظة ،

(١) اي يغتفر لها الصفة السيئة فيها من اهل الصفة الحسنة .

ويحترم أهل الدين ، فهذا عاقل مغلوب بالهوى . فاذا انتبه بالندم خنس شيطان الهوى ، وجـاء ملك العقل . فاما اذا كان قليل العقل في الوضع ، وعلامته أن لاينظر في عاقبة عاجلة ولا آجلة ولا يستحي من الناس أن يروه على فاحشة ، ولا يدبر أمر دنياه ، فذاك بعيد الرجاء . وقد يندر من هؤلاء من يفلح ، ويكون السبب فيه خميرة من العقل غطى عليها كثرة الهوى . فمثلهم كمثل مصروع أفاق .

٣٢٥ ـ يجب الاحتراز مما يجوز ان يقع

ينبغي الاحتراز من كل ما يجوز أن يكون ، ولا ينبغي أن يقال : الغالب السلامة . وقد رأينا من نزل مع الخيل في سفينة فاضطربت فغرق من في السفينة وان كان الغالب السلامة وكذا ينبغي أن يقدر الانسان في نفقته وان رأى الدنيا مقبلة لجواز ان تنقطع تلك الاسباب. وحاجة النفس لابد من قضائها، فاذا بذّر وقت السعة فجـاء وقت الضيق لم يأمن أن يدخل في مداخل سوء ، وان يتعرض بالطلب من الناس . وكذلك ينبغي للمعافى أن يعد للمرض ، وللقوي ان يتهيأ للهرم .

وفي الجمله فالنظر في العواقب وفيما يجوز أن يقع شأن العقلاء . فاما النظر في الحالة الراهنة فحسب فحالة الجهلة الحمقى

مثل أن يرى نفسه معافى وينسى المرض ، أو غنيـاً وينسى الفقر ، أو يرى لذة عاجلة وينسى ما تجني عواقبهـا ، وليس للعقل شغل إلا النظر في العواقب ، وهو يشير بالصواب من أين يقبل .

٣٢٦ ـ اصبر على البلاء وتعبّد بالدعاء

يبين ايمان المؤمن عند الابتلاء ، فهو يبالغ في الدعاء ولا يرى أثراً للاجابة ، ولا يتغير أمله ورجاؤه ولو قويت أسباب اليأس ، لعلمه أن الحق[1] أعلم بالمصالح ، او لأن المراد منـــه الصبر أو الايمان فانه لم يحـكم عليه بذلك إلا وهو يريد من القلب التسليم لينظر كيف صــبره ، أو يريد كثرة اللّجء والدعاء . فاما من يريد تعجيل الاجابة ويتذمر إن لم تتعجل فذاك ضعيف الايمان . يرى أن له حقاً في الاجابة ، وكأنه يتقاضى اجرة عمله . أما سمعت قصة يعقوب عليه السلام ؟ بقي ثمانين سنة في البلاء ورجاؤه لايتغير فلما ضم الى فقد يوسف فقد بنيامين لم يتغير أمله[2] وقال : «عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً » .

وقد كشف هذا المعنى قوله تعالى « أمْ حسبتم انْ تَدخلوا

---

(١) الله عز وجل (٢) انظر الفصل « ١٠١ »

الجنّة وَلما يَأتكم مَثل الذينَ خلوا منْ قبلكمْ مَسَّتهم البأساءُ والضّراء وزُلزلوا حتى يَقولَ الرسول وَالذينَ آمنوا معهُ مَتى نصْرُ اللهِ ألا إنْ نصْرَ اللهِ قريب) .

ومعلوم ان هذا لايصدر من الرسول والمؤمنين إلا بعد طول البلاء وقرب اليأس من الفرج .

ومن هذا قول رسول الله ﷺ : « لايزال العبد بخير مالم يستعجل » .

قيل له : وما يستعجل ؟

قال : يقول ، دعوت فلم يستجب لي .

فاياك إياك ان تستطيل زمان البلاء ، وتضجر من كثرة الدعاء ، فانك مبتلى بالبلاء ، متعبد بالصبر والدعاء ، ولا تيأس من روح الله وان طال البلاء .

٣٢٧ ـ لذات الدنيا منغصة ولا تفي بعواقبها في الآخرة

تفكرت في سبب دخول جهنم فاذا هو المعاصي ، فنظرت في المعاصي فاذا هي حاصلة من طلب اللذات ، فنظرت في اللذات فرأيتها خدعاً ليست بشيء ، وفي ضمنها من الاكدار ما يصيّرها نغصاً فتخرج عن كونها لذات ، فكيف يتبع العاقل نفسه ويرضى بجهنم لأجل هذه الاكدار ؟ فمن اللذات

الزنا ، فان كان المراد اراقة الماء فقد يراق في حلال ، وان كان في معشوق فمراد النفس دوام البقاء مع المعشوق ، فاذا كان ملكك فالمملوك مملوك ، وان هو قاربه ساعة ثم فارقه فحسرة الفراق تربي على لذة القرب . وان كان ولد من الزنا فالفضيحة الدائمة. والعقوبة التامة ، وتنكيس الرأس عند الخالق والمخلوق .

وأما الجـاهل فيرى لذته في بلوغ ذلك الغرض ، وينسى ما يجني مما يكدر عيش الدنيا والآخرة .

ومن ذلك شرب الخمر ، فانه تنجيس للفم والثوب ، وابعاد للعقل ، وتأثيراته معلومة عند الخالق والمخلوق . فالعجب ممن يؤثر لذة ساعة تجني عقاباً وذهاب جاه . وربما خرج بالعربدة الى القتل .

وعلى هذا فقس جميع المذوقات ، فان لذاتهـا اذا وزنت بميزان العقل لا تفي بمعشار عُشَيْر عواقبها القباح في لذة الدنيـا والآخرة . ثم هي نفسها ليست بكبـير شيء . فكيف تباع الآخرة بمثل هذا ؟

سبحان من أنعم على أقوام كلما لاحت لهـم لذة نصبوا ميزان العقل ونظروا فيما يجني وتلمحوا ما يؤثر تركها فرجحوا الاصلح . وطمس على قلوب فهي ترى صورة الشيء وتنسى جناياته .

ثم العجب انا نرى من يبعد عن زوجته وهو شاب ليعدو

في الطريق فيقال : ساعٍ[1] .

فيغلّب هواه لطلب ماهو أعلى وهو المدح . كيف لايترك محرماً ليمدح في الدنيا والاخرى ؟

ثم قدّر[2] حصول ماطلبتَ من اللذات وذهابها ، واحسب انها قد كانت وقد هانت وتخلصت من محنها . وأين تعب عالم قد درس العلم خمسين سنة ؟ ذهب التعب وحصل العلم . وأين لذة البطال ؟ ذهبت الراحة واعقبت الندم .

٣٢٨ ـ اعمل بمقتضى عقلك لا بمجرد الحسّ

من وقف على موجب الحس هلك ، ومن تبع العقل سلم. لأن مجرد الحس لايرى إلا الحاضر وهو الدنيا . وأما العقل فانه ينظر الى المخلوقات ، فيعلم وجود خالق قد منح وأباح وأطلق وحظر ، وأخبر : أني سائلكم ومبتليكم ليظهر دليل وجودي عندكم بترك ماتشتهون طاعة لي . واني قد بنيت لكم دارا غير هذه لاثابة من يطيع ، وعقوبة من يخالف .

ثم لو ترك الحس ومـا يشتهي مع أغراضه قرب الامر ، إنمـا يزني فيجلد . ويشرب الخمر فيعاقب . ويسرق فيقطع

---

(١) اي عداء : بطل في العدو (٢) اي افرض

ويفعل زلة فيفضح بين الخلق . ويعرض عن العلم الى البطالة فيقع الندم عند حصول الجهل .

ثم انا نرى الكثير ممن عمل بمقتضى عقله قد سلمت دنياه وآخرته . ومُيز بين الخلق بالتعظيم . وكان عيشه في لذاته (غالباً) خيراً من عيش موافق للهوى . فليعتبر ذو الفهم بماقلت وليعمل بمقتضى الدليل وقد سلم .

٣٢٩ ـ العاقل من حفظ دينه بترك الحرام

العجب لمؤثر شهوات الدنيا ألا يتدبر أمرها بالعقل قبل ان يصير إلى منقولات الشرع ؟

إن أعظم لذات الحس الوطء فالمرأة المستحسنة إنما يكون حال كمالها من وقت بلوغها الى الثلاثين فاذا بلغتها أثر فيها ، وربما ابيضت شعرات من رأسها فينفر الانسان منها . وقد يقع الملل قبل ذلك ، وطول الصحبة يكشف العيوب . وما عِيبَ نساء الدنيا بابلغ من قوله تعالى « لهم فيها أزواج مطهرة » . فلو تفكر الانسان في جسد مملوء بالنجاسة ماطاب له ضَمُّه [١] ، غير أن الشهوة تغطي عين الفكر . فالعاقل من حفظ دينه ومروءته بترك الحرام ، وحفظ قوّته في الحلال فأنفقها في طلب الفضائل من علم أو عمل ، ولم يسع في افناء عمره وتشتيت قلبه في شيء لاتحسن عاقبته :

---

(١) جسد الفتاة الفتانة ، كيس من الحرير الناعم ، فيه الدم وبقايا الطعام والاقذار ... فمن تصور ماذا فيه ،لم تفتنه نعومة الكيس .

مافي مرادجكم من مهجتي عوض   إن مت شوقا ولا فيها لها ثمن

وعموم من رأينا من الكبار غلبت عليهم شهوة الوطء فانهدمت اعمارهم ، ورحلوا سريعا . وقد رأينا من العقلاء من زجر نفسه عن هذه المحنة ولم يستعملها الا وقت الحاجة ، فبقي لهم سواد شعورهم وقوتهم حتى تمتعوا بها في الحياة وحصلوا المناقب، وعرفت منهم النفوس قوة العزيمة فلم تطالبهم بما يؤذي .

٣٣٠ - رؤية النبي عليه السلام في المنام وكيفيتها

قد أشكل على بعض الناس رؤية النبي ﷺ وقوله : من رآني في المنام فقد رآني . فقال : ظاهر الحديث انه يراه حقيقة ، وفي الناس من يراه شيخاً وشاباً ومريضاً ومعافى .

فالجواب انه من ظن أن جسد رسول الله ﷺ المودع في المدينة خرج من القبر وحضر في المكان الذي رآه فيه فهذا جهل لاجهل يشبهه . فقد يراه في وقت واحد الف شخص في الف مكان على صور مختلفة ، فكيف يتصور بهذا في شخص واحد ! وإنما الذي يُرى مثاله لاشخصه . فيبقى « من رآني فقد رآني » معناه قد رأى مثالي الذي يعرفه الصواب وتحصل به الفائدة المطلوبة .

فان قيل : فما تقولون في رؤية الحق سبحانه ؟ فنقول :

يرى مثالا لا مثلا . والمثال لايفتقر الى المساواة والمشابهة كما قال تعالى « أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرهـــا » فضربه مثالا للقرآن وانتفاع الخلق به . ويوضح هذا أنه إنما يرى من رأى الحق سبحانه وتعالى على هيئة مخصوصة والحق سبحانه وتعالى منزه قد توحّد فوضح ماقلنا [١] .

٣٣١ ـ ماذا يجب أن يدرس طالب العلم

هذافصلغزيرالفائدة . اعلم أنه لو اتسع العمرلم أمنع من الايغال في كل علم الى منتهاه . غير أن العمر قصير ، والعلم كثير . فينبغي للانسان أن يقتصر من القراءات اذا حفظ القرآن على العشر [١]. ومن الحديث على الصحاح ، والسنن والمسانيد المصنفة . فان علوم الحديث قد انبسطت زائدة في الحد ، وما في هذا الجزء ، وإنما الطرق تختلف ، وعلم الحديث يتعلق بعضه ببعض وهو مشتهى ، والفقهاء يسمونه علم الكسالى ، لانهم يتشاغلون بكتابته وسماعه ، ولايكادون يعانون حفظه ، ويفوتهم المهم وهو الفقه .

وقد كان المحدثون قديماً هم الفقهاء ، ثم صـــار الفقهاء

---

(١) اما في العقل فالرؤية مستحيلة ، اما في النصوص ففيها « الى ربها ناظرة » وفيها « لاتدركه الابصار » وامور الآخرة لاتقاس على امور الدنيا .

(١) ومازاد عن العشر شاذ

لايعرفون الحديث ، والمحدثون لايعرفون الفقه ، فمن كان ذاهمة ونصح نفسه تشاغل بالمهم من كل علم ، وجعل جل شغله الفقه ، فهو أعظم العلوم وأهمها . وقد قال أبو زرعة[١] :

كتب إلي أبو ثور[٢] : فان هذا الحديث قد رواه ثمانية وتسعون رجلا عن رسول الله ﷺ ، والذي صح منه طرق يسيرة ، فالتشاغل بغير ماصح يمنع التشاغل بما هو أهم ، ولواتسع العمر كان استيفاء كل الطرق في كل الاحاديث غاية في الجودة ، لكن العمر قصير .

ولما تشاغل بالطرق مثل يحيى بن معين فاته من الفقه كثير ، حتى أنه سئل عن الحائض أيجوز أن تغسل الموتى ؟ فلم يعلم ، حتى جاء ابو ثور فقال : يجوز ، لأن عائشة رضي الله عنها قالت : كنت أرجّل رأس رسول الله ﷺ وانا حائض . فيحيى أعلم بالحديث منه ، ولكن لم يتشاغل بفهمه[٣]. فأنا أنهى أهل الحديث أن يشغلهم كثرة الطرق .

ومن أقبح الاشياء أن تجرى حادثة يسأل عنها شيخ قد كتب الحديث ستين سنة فلايعرف حكم الله عزوجل فيها[٤] .

---

(١) هما اثنان من اعلام المحدثين : الرازي والدمشقي

(٢) ابراهيم بن خالد احد ائمة الفقه والحديث توفي سنة ٢٤٠

(٣) المحدثين صيادلة والفقهاء اطباء

(٤) واقبح منه ان يفتي بلا علم .

وكذلك انهى من يتشاغل بالتزهد والانقطاع عن الناس ان يعرض عن العلم . بل ينبغي أن يجعل لنفسه منه حظا ليعلم انه زل كيف يتخلص .

٢٣٢ ـ التقلل من الطعام وليس من الدين

معرفة الله سبحـــانه لاتحصل إلا لـكامل العقل ، صحيح المزاج . والترقي الى محبته بذلك يكون . وان أقواماً قلت عقولهم وفسدت أمزجتهم ، فساءت مطاعمهم ، وقلّت ، فتخايلت لهم الخيالات الفاسدة ، فادعوا معرفة الحق ومحبته ، ولم يكن عندهم من العلم مايصدهم عما ادعوا فهلكوا .

وليعلم ان في المأكولات افساد العقل ، وفيهـا ما يزيد في السوداء ، فيوجب الماليخوليا ، فترى صاحبها يحب الخـــلوة ، ويهرب من الناس ، ويقلل المطعم ، فيقوى مرضه فيتخايل له خيالات يظنها حقاً .

فمنهم من يقول : اني رأيت الملائكة .

وفيهم من يخرجه الامر الى دعوى محبة الحق والوله فيه ولايكون ذلك عن أصل معتمد عليه . وانما العاقل العالم يسير في الطريق بين الرفيقين العلم والعقل . فان تقلل من الطعـام فبعقل . وحدّ التقلل ترك فضول المطعم ، ومايخاف شره ، من

شبهة أو شهوة ، بحذر تعودها ، وأما زيادة التقلل مع القدرة فليس لعقل ولا شرع ، إلا أن يكون الفقر عم فيتقلل ضرورة.

ومن تأمل حال رسول الله ﷺ واصحابه ، وجدهم يأخذون بمقدار ، ولا يتركون حظوظ النفس التي تصلحها . وأحسن الامر وأعدله قول رسول الله ﷺ : ثلث طعام ، وثلث شراب ، وثلث نَفَس .

وقد قال لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو مريض : أصب من هذا الطعام فهو أوفق لك من هذا .

وكان ﷺ يشاور الاطباء ويحتجم ويحث على التداوي ويقول : ما أنزل الله داء إلا وأنزل له شفاء فتداووا .

فجاء أقوام جهلوا العلم والحكمة في بنيان الابدان . فمنهم من أقام في الجبال يأكل البلوط فأصابه القولنج . ومنهم من قلل المطعم الى أن ضعفت قواه . ومنهم من اقتصر على نبات الصحراء . ومنهم من كان لا يتقوت الا الباقلاء والشعير . فأوجبت هذه الافعال أمراضاً في البدن ، وترقت الى إفساد العقل . واتفق لهم قلة العلم ، إذ لو علموا لفهموا ان الحكمة تنهى عن مثل هذا ، فان البدن مبني على اخلاط اذا اعتدلت وقعت السلامة ، وإذا زاد بعضها وقع المرض . وأكثر هؤلاء مرضوا وتعجل لهم الموت .

وفيهم من خرج إلى التسَوْدُن [١] . وفيهم من لاحت له لوائح فادعى رؤية الملائكة إلى غير ذلك .

فأما أهل العلم والعقل فهربهم من الخلق لخوف المعاصي ورؤية المنكر . وفيهم من قويت معرفته فشغلته معرفة الحق ومحبته عن ملاقاة الخلق .

فهذه هي الخلوات الصافية ، لانها تصدر عن علم وعقل فتحفظ البدن ، لأنه ناقة توصل . ولا ينبغي أن يتهاون بالمأكولات ، خصوصاً من لم يعتده ، ولايلبس الصوف على البدن من لم يعتده . ولينظر في طريق رسول الله ﷺ وصحابته ، فانهم القدوة . ولايلتفت الى بنيات الطريق ، فيقال: فلان الزاهد قد أكل الطين ، وفلان كان يمشي حافيا ، وفلان بقي شهراً ما اكل ، فان المحققين من هؤلاء المخلصين لله تعالى على غير الجاده ، لأن الجادة اتباع رسول الله ﷺ وأصحابه وما كانوا يفعلون . هذا ولعمري انه قد كان فيهم من يقنع بالمذقة من اللبن ، ويصبر الايام عن الطعام . ولكن اما لضرورة، أو لانه معتاد لذلك ، كما يعتاد البدوي شرب اللبن وحده ولايؤذيه ذلك . وفي الحديث : « عودوا كل بدن مااعتاد » وفي المتزهدين من أخرج ماله كله عن يده زهداً . ومعلوم أن

(١) كلمة عامية عباصية لاتزال مستعملة في عامية الشام .

الحاجات لاتنقضي ، فلما احتاج تعرّض الطلب ، وافتقر الى اخذ مال من يد من يعلم أنه ظالم وبذل وجهه . وقـد كانت الصحابة تتجر وتحفظ المال . وجهال المتزهدين يرون جمع المال ينافي الزهد . فَمَمْخضة هذا الفصل أن أقول :

ينبغي لمن رزق فهما أن يسعى في صلاح بدنه ، ولايحمل عليه مايؤذيه ، ولا يناوله من القوت ما لا يوافقه ، ولايضيع ماله ، وليجتهد في استثماره لئلا يحتاج ، فانه مانافق زاهد إلا لأجل الدنيا .

ولينظر في سير الكاملين من السلف وليتشاغل بالعلم ، فانه الدليل . فحينئذ يحمله الامر على الخلوة بربه ، والاشتغال بحبه ، فيكون ماظهر منه ثمرة نضجة لافجة . والله الموفق .

٣٣٣ ـ لاتضق صدراً بقلة المال، وعليك بالصبر

مارأيت أظرف [1] من لعب الدنيا بالعقول . وقـد سمعنا ورأينا جماعة من الفطناء الكاملي العقل لعبت بهم الدنيا حتى صاروا كالمجانين . فولوا الولايات فخرجوا الى القتل والضرب والحبس والشتم وذهاب الدين ، والمباشرة للظلم كله لأجل دنيا تذهب سريعاً . وهي في مدة اقامتها معجونة بالنغص .

فيا أيها المرزوق عقلا لاتبخسه حقه ، ولاتطفىء نوره ،

(١) يريد : اعجب واغرب

واسمع مانشير به ، ولا تلتفت الى بكاء طفل الطبع لفوات غرضه ، فانك ان رحمت بكاءه لم تقدر على فطامه ، ولم يمكنك تأديبه ، فيبلغ جاهلا فقيراً :

لاتسه عن أدب الصغيـــر ولو شكا ألم التعب
ودع الكبير لشأنه كَبُر الكبير عن الادب

واعلم أن زمان الابتلاء ضيف قراه الصبر ، كما قال أحمد ابن حنبل : إنما هو طعام دون طعام ، ولباس دون لباس ، وانها أيام قلائل .

فلا تنظر الى لذة المترفين ، وتلمح عواقبهم ، ولاتضق صدراً بضيق المعاش ، وعلل الناقة بالحَدْوِ تَسِرْ :

طاولْ بها الليلَ مال النجم أم جنحا وماطلِ النوم ضنّ الجفن أم سمحا
فان تشكت فعللها المجرّة من ضوء الصباح وعدها بالرواح ضحى

وقد كان اهدي الى أحمد بن حنبل هدية فردها ، ثم قال بعد سنة لاولاده : لو كنا قبلناها كانت قد ذهبت .

ومر بشر على بئر فقال له صاحبه : أنا عطشان . فقال : البئرَ الاخرى . فمرّ عليها فقال له : الاخرى .

ثم قال : كذا تقطع الدنيا .

ودخلوا الى بشر الحافي وليس في داره حصير ، فقيل له : ألا بذا تؤذى . فقال : هذا امر ينقضي . وكان لداود الطائي

داريأوي اليها، فوقع سقف فانتقل الى سقف، الى أن مات في الدهليز. فهؤلاء الذين نظروا في عواقب الامور . وبعد هذا فلا اطالبك بهذه الرتبة ، بل أقول لك : إن حصل لك شيء من المباح لامنّ فيه ولا أذى ، ولانلته بسؤال ، ولا من يد ظالم تعلم أن ماله حرام أو شبهة ، فافسح لنفسك في مباحاتها بمقدار ماتحتاج اليه . وكن مقدراً للنفقة غير مبذر . فان الحلال لايحتمل السرف ، ومتى أسرفت احتجت الى التعرض للخلق والتناول من الاكدار . وان ضاق بك أمر فاصبر ، فان ضعف الصبر فسل فاتح الابواب ، فهو الكريم وعنده مفاتيح الغيب .

واياك أن تبذل دينك بتصنع للخلق ، أو بتقرب الى الامراء وتستعطي أموالهم . واذكر طريق السلف . كان ابن سمعون[1] له ثياب يجلس فيها للناس ثم يطويها الى المجلس الآخر ورثها عن أبيه بقيت أربعين سنة . وكانت ميمونة بنت شاقولة[2] تعظ الناس ولها ثياب قد بقيت أربعين سنة .

ومن صفا نظره وتهذب لفظه ، نفع وعظه ، ومن كدر كُدّر عليه . والحالة العالية في هـــذا اقبال القلب على الله

---

(١) وفي نسخة ابن مسعود وهو غلط . وابن سمعون هو محمد بن احمد مولده ووفاته ببغداد كان يضرب به المثل فيقال : اوعظ من ابن سمعون توفي سنة ٣٨٧

(٢) او ساقولة واعظة مشهورة توفيت سنة ٣٩٣

عز وجل ، والتوكل عليه والنظر اليه ، والتفات القلب عن الخلق ، فان احتجت فاسأله ، وان ضعفت فارغب اليه . ومتى ساكنت الاسباب انقطعت عنــــه ، ومتى استقام باطنك استقامت لك الامور .

٣٣٤ ـ لاتحسن الظن بالاصدقاء وعلق قلبك بالله

رأيت نفسي تأنس بخلطاء نسميهم أصدقاء فبحثت التجارب عنهم فاذا أكثرهم حساد على النعم ، واعداء لايسترون زلة ، ولايعرفون لجليس حقاً ، ولايواسون من مالهم صديقـــاً . فتأملت الامر ، فاذا الحق سبحانه يغار على قلب المؤمن أن يجعل له شيئاً يأنس به ، فهو يكدر عليه الدنيا وأهلهاليكون انسه به . فينبغي أن يعد الخلق كلهم معارف ليس فيهم صديق بل تحسبهم اعداء . ولاتظهر سرك لمخلوق منهم ، ولا تُعِدَّنَّ من يصلح لشدة لا ولداً ولا أخاً ولا صديقاً ، بل عاملهـــم بالظاهر ، ولاتخالطهم إلا حالة الضرورة بالتوقي لحظة ثم انفر عنهم وأقبل على شأنك متوكلا على خالقك ، فانه لايجلب الخير سواه ، ولايصرف السوء إلا إياه ، فليكن جليسك وأنيسك وموضع توكلـــك وشكواك ، فــــان ضعـــف بصرك فاستغث به ، وإن قـــل يقينك فســـله القـــوة ،

وإياك أن تميل الى غيره ، فانه غيور ، وان تشكو من اقداره ، فربما لم يحتمل[١] . أوحى الله عز وجل الى يوسف عليه السلام : من خلصك من الجب ؟ من فعل مافعل ؟

قال : انت .

قال : فلم ذكرت غيري . فلأطيلن حبسك ، أو كما قال.

هذا وإنما تعرض يوسف عليه السلام بسبب مباح « اذكرني عند ربك » « ويوم حنين اذ اعجبتكم كثرتكم » وماأعرف العيش إلا لمن يعرفه ، ويعيش معه ، ويتأدب بين يديه ، في حركاته وكلماته كأنه يراه ، ويقف على باب طرفه حارسا من نظرة لا تصلح . وعلى باب لسانه حافظا له من كلمة لاتحسن وعلي باب قلبه حماية لمسكنه من دخول الاغيار. ويستوحش من الخلق شغلا به . وهذا يكون على سيرة الروحانيين . فاما المخلّط فالكدر غالب عليه . والمحق لايطلب إلا الارفع قال القائل :

الا لاأحب السير إلا مصاعداً ولا البرق إلا ان يكون يمانيا

٣٣٥ ـ انظر الى المقصود من العلم لا الى صورته فحسب

رأيت اكثر العلماء مشتغلين بصورة العلم دون فهم حقيقته ومقصوده . فالقارىء مشغول بالروايات ، عاكف على الشواذ

---

(١) الذي اعرفه انه لايجوز ان يسمى الله او يوصف الا بما وصف به نفسه فان سمى نفسه حكيماً لم نسمه عاقلا ، وان كانت الحكمة عندنا هي العقل .

يرى أن المقصود نفس التلاوة ، ولا يلمح عظمة المتكلم ، ولا زجر القرآن ووعده وربما ظن أن حفظ القرآن يدفع عنه ، فتراه يترخص في الذنوب ، ولو فهم لعلم ان الحجة عليه أقوى ممن لم يقرأ .

والمحدث يجمع الطرق ، ويحفظ الاسانيد ، ولا يتأمل مقصود المنقول ، ويرى أنه قد حفظ على الناس الاحاديث . فهو يرجو بذلك السلامة . وربما ترخص في الخطايا ظنا منه ان مافعل في الشريعة يدفع عنه .

والفقيه قد وقع له أنه بما قد عرف من الجدال الذي يقوّي به خصامه ، والمسائل التي قد عرف فيها المذهب قد حصل بما يفتي به الناس ما يرفع قدره ، ويمحو ذنبه ، فربما هجم على الخطايا ظنا منه ان ذلك يدفع عنه ، وربما لم يحفظ القرآن ولم يعرف الحديث وانهما ينهيان عن الفواحش بزجر ورفق ، وينضاف إليه مع الجهل بهما حب الرياسة ، وايثار الغلبة في الجدل ، فتزيد قسوة قلبه . وعلى هذا اكثر الناس، صور العلم عندهم صناعة ، فهي تكسبهم الكبر والحماقة .

وقد حكى بعض المعتبرين عن شيخ افنى عمره في علوم كثيرة ، أنه فتن في آخر عمره بفسق اصر عليه ، وبارز الله به ، وكانت حاله تعطي بمضمونها ان علمي يدفع عني شر ماأنا

فيه ولا يبقى له أثر . وكان كأنه قد قطع لنفسه بالنجـاة ، فلا يرى عنده أثر الخوف ، ولا ندم على ذنب .

قال : فتغير في آخر عمره ولازمـه الفقر ، فـكان يلقى الشـدائد ولا ينتهي عن قبـح حاله ، الى ان جمعت له يوما قراريط على وجه الكدية فاستحيا من ذلك وقال : يارب الى هذا الحد ؟

قال الحاكي[1] : فتعجبت من غفلتـه كيف نسي الله عز وجل ، وأراد منه حسن التدبير له والصيانة وسعة الرزق ، وكأنه ماسمع قوله تعالى « وأن لو استقاموا على الطريقـــة لاسقيناهم ماء غدقا » ، ولا علم ان المعاصي تسد أبواب الرزق، وان من ضيع امر الله ضيعه الله . فما رأيت علماً ما افاد كعلم هذا ، لان العالم إذا زل انكسر ، وهذا مصرّ لاتؤلمه معصية، وكأنه يجوز له مايفعل ، أو كأن له التصرف في الدين تحليلا وتحريماً . فمرض عاجلا ومات على أقبح حال .

قال الحاكي : ورأيت شخصاً آخر حصل صور علم فمـا أفادته . كان أي فسق أمكنه لم يتحاش منـه ، وأي أمر لم يعجبـه من القدر عارضه بالاعتراض على المقدِر واللوم .

---

(١) اظنه يعني نفسه

فعاش اكدر عيش ، وعلى أقبح اعتقاد حتى درج . وهؤلاء لم يفهموا معنى العلم ، وليس العلم صور الالفاظ ، انما المقصود فهم المراد منه ، وذاك يورث الخشية والخوف ، ويرى المنة للمنعم بالعلم ، وقوة الحجة له على المتعلم . نسأل الله عزوجل يقظة تفهمنا المقصود ، وتعرفنا المعبود .

ونعوذ بالله من سبيل رعاع يتسمّون بالعلماء لاينهاهم مايحملون ، ويعلمون ولايعملون ، ويتكبرون على الناس بما لايعملون ، ويأخذون عرض الادنى وقد نهوا عما يأخذون، غلبتهم طباعهم ، وماراضتهم علومهم التي يدرسون ، فهم أخس حالا من العوام الذين يجهلون « يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون »

٣٣٦ ـ على الفقيه أن يأخذ من كل علم بطرف

للفقيه أن يطالع من كل فن طرفا من تاريخ وحديث ولغة وغير ذلك . فان الفقه يحتاج الى جميع العلوم . فليأخذ من كل شيء منها مهمّاً .

ولقد رأيت بعض الفقهاء يقول : اجتمع الشبلي وشُريك القاضي [1] فاستعجبت له كيف لايدري بعد مابينهما .

«١» القاضي العالم ولي قضاء الكوفة للمهدي ، وله الحادثة المشهورة مع عيسى ابن موسى الوالي ، وهو احد من نبغ من قبيلة النخع .

وقال آخر في مناظرة : كانت الزوجية بين فاطمة وعلي رضي الله عنهما غير منقطعة الحكم ، فلهذا غسلها فقلت له : ويحك فقد تزوج أمامة بنت زينب وهي بنت اختها فانقطع .

ورأيت في كتاب إحياء علوم الدين للغزالي من هذا مايدهش من التخليط في الاحاديث والتواريخ فجمعت من اغاليطه في كتاب .

وقد ذكر في كتاب له سماه المستظهري وعرضه على المستظهر بالله أن سليمان بن عبد الملك بعث الى أبي حازم فقال له : ابعث لي من فطورك ، فبعث اليه نخالة مقلوة فأفطر عليها ، ثم جامع زوجته فجاءت بعبد العزيز . ثم ولد له عمر وهذا تخليط قبيح ، فانه جعل عمر بن عبد العزيز ابن سليمان بن عبد الملك ، فجعل سليمان جده ، وانما هو ابن عمه .

وقد ذكر أبو المعالي الجويني في أواخر كتاب الشامل في الاصول . قال : قد ذكرت طائفة من الثقات المعتنين بالبحث عن البواطن ان الحلاج والجبائي القرمطي وابن المقنع تواصوا على قلب الدول وافساد المملكة ، واستعطاف القلوب وارتاد كل منهم قطراً . فقطن الجبائي في الاحساء ، وتوغل ابن المقنع في اطراف بلاد الترك ، وقطن الحلاج ببغداد فحكم عليه صاحباه بالهلكة والقصور عن بلوغ الامنية لبعد أهل بغداد عن الانخداع ، وتوفر فطنهم وصدق فراستهم .

قلت : ولو أن هذا الرجل أو من حكى عنه عرف التاريخ لعلم ان الحلاج لم يدرك ابن المقنع ، فان ابن المقنع[1] أمر بقتله المنصور فقتل في سنة أربع وأربعين ومائة . وابو سعيد الجبائي القرمطي ظهر في سنة ست وثمانين ومائتين . والحلاج قتل سنة تسع وثلاثمائة . فزمان القرمطي والحلاج متقاربان . فاما ابن المقفع فـكلا . فينبغي لكل ذي علم ان يساهم بباقي العلوم فيطالع منها طرفا . إذ لكل علم بعلم تعلق ، وماأقبح بمحدث يُسأل عن حادثة فلا يدري ، وقد شغله منها جمع طرق الاحاديث .

وقبيح بالفقيه أن يقال له : مامعنى قول رسول الله ﷺ كذا ؟ فلا يدري صحة الحديث ولامعناه . نسأل الله عزوجل همة عالية لاترضى بالنقائص بمنه ولطفه .

٣٣٧ ـ القدماء اصحاب همم عليّة لكثرة مصنفاتهم

كانت همم القدماء من العلماء عليه ، تدل عليها تصانيفهم التي هي زبدة أعمارهم الا أن اكثر تصانيفهم دثرت ، لان همم الطلاب ضعفت فصاروا يطلبون المختصرات ، ولاينشطون للمطولات . ثم اقتصروا على مايدرسون به من بعضها ،

(١) ابن المقفع الكاتب وابن المقنع الذي توغل في بلاد الترك غيره ، ذكره الطبري ، فالتخليط من المؤلف لامن الجويني !

فدثرت الكتب ولم تنسخ . فسبيل طالب الكمال في طلب العلم الاطلاع على الكتب التي قد تخلفت من المصنفات ، فليكثر من المطالعــة فانه يرى من علوم القوم وعلو هممهم ما يشحذ خاطره ، ويحرك عزيمته للجد ، وما يخلو كتاب من فائدة . وأعوذ بالله من سير هؤلاء الذين نعاشرهم . لانرى فيهم ذاهمة عالية فيقتدي بها المبتدي . ولا صاحب ورع فيستفيد منه الزاهد .

فالله الله عليكم بملاحظة سير السلف ، ومطالعة تصانيفهم واخبارهم . فالاستكثار من مطالعة كتبهم رؤية لهم كما قال :

فاتني أن ارى الديار بطرفي فلعلي أرى الديار بسمعي [١]

واني اخبر عن حالي ، ماأشبع من مطالعة الكتب . واذا رأيت كتابا لم أره فكأنني وقعت على كنز . ولقد نظرت في ثبت الكتب الموقوفة في المدرسة النظاميــة [٢] فاذا به يحتوي على نحــو ستة آلاف مجــلد . وفي ثبت كتب أبي حنيفة وكتب الحميــدي [٣] وكتب شيخنــا عبد

---

(١) لسيد شعراء الغزل العذري : الشريف الرضي ، انظر ما كتبته عنه في كتابي «رجال من التاريخ» .

(٢) اندثرت المدرسة النظامية في بغداد وكان موضعها في ظني في محــل جامع مرجان عند مدخل سوق الشورجة .

(٣) الحميدي الذي يقصده هو محمد بن فتوح محدث اندلسي الاصل رحل الى بغداد وتوفي فيها سنة ٤٨٨ وله تصانيف .

الوهاب [١] وابن ناصر وكتب أبي محمد بن الخشاب [٢] وكانت احمالاً وغير ذلك من كل كتاب اقدر عليه . ولو قلت : اني طالعت عشرين ألف مجلد [٣] كان أكثر وانا بعد في الطلب . فاستفدت بالنظر فيها من ملاحظة سير القوم ، وقدر هممهم ، وحفظهم وعباداتهم وغرائب علومهم ، مالا يعرفه من لم يطالع فصرت أستزري ماالنـاس فيه ، واحتقر همم الطلاب . ولله الحمد .

٣٣٨- من العجب تعريض المرء نفسه للهلاك فيما لا يفيد

ليس للآدمي أعز من نفسه ، وقد عجبت ممن يخاطر بها ويعرضها للهلاك . والسبب في ذلك قلة العقل ، وسوء النظر .

فمنهم من يعرضها للتلف ليمدح بزعمه . مثل قوم يخرجون الى قتل السبع .

ومنهم من يصعد الى ايوان كسرى ليقال : مناظر . وساع يمشي ثلاثين فرسخاً . وهؤلاء اذا تلفوا حملوا الى النار . فان هلك ذهبت النفس التي يراد المال لأجلها .

---

(١) الانماطي محدث بغداد في عصره المتوفى سنة ٥٣٨ وقد تقدم ذكره في هذا الكتاب

(٢) عبد الله بن احمد من علماء العربية وقف مكتبته على طلبة العلم توفي في بغداد سنة ٥٦٧

(٣) يقصد بالمجلد الكتاب

وأعجب من الكل من يخاطر بنفسه في الهلاك ولا يدري، مثل ان يغضب فيقتل المسلم فيشفى غيظه بالتعذيب في جهنم .

وأظرف[١] من هذا اليهود والنصارى ، فان أحدهم يبلـغ فيجب عليه ان ينظر في نبوة نبينا ﷺ فاذا فرّط فمات فله الخلود في جهنم . ولقد قلت لبعضهم : ويحك تخاطر بنفسك في عذاب الابد ، نحن نؤمن بنبيكم فنقول ، لو أن مسلماً آمن بنبينا وكذب بنبيكم أو بالتوراة خلد في النار ، فما بيننـــا وبينكم خلاف ، إذ نحن مؤمنون بصدقه وكتابه ، فلو لقيناه لم نخجل ولو عاتبنا مثلا، وقال : هل قمتم بسبب بالسبت؟ والسبت من الفروع والفروع لايعاقب عليها بالخلود . فقال لي رئيس القوم : مانطلبـكم بهذا لان السبت إنما يلزم بني امرائيل فقلت : فقد سلمنا باجماعكم وأنتم هالكون ، لانـكم تخاطرون بأرواحكم في العذاب الدائم .

والعجب بمن يهمل النظر فيما اذا توانى فيه أوجب الخلود في العقاب الدائم . وأعجب من الكل جاحد الخالق وهو يرى أحـكام الصنعة ويقول : لاصانع !

والسبب في هـذه الاشياء كلها قلة العقل وترك إعماله في النظر والاستدلال .

---

(١) اي اعجب واغرب .

٣٣٩ ـ وجوب كتمان السر

لاينبغي للعاقل أن يظهر سراً حتى يعلم أنه إذا ظهر لايتأذى بظهوره . ومعلوم أن السبب في بث السر طلب الاستراحة ببثه ، وذلك ألم قريب فليصبر عليه ، فرب مظهر سراً لزوجته فاذا طلقت بثته وهلك ، أو لصديقه فيظهره عليه حسداً له إذا كان مماثلا ، وإن كان عاميا فالعامي أحمق . ورب سر أظهر فكان سبب الهلاك .

٣٤٠ ـ دعوة العالم الفقير الى الصبر

مايتناهى في طلب العلم إلا عاشق العلم . والعاشق ينبغي أن يصبر على المكاره ، ومن ضرورة المتشاغل به البعد عن الكسب . ومذ فقد الفقد لهم من الامراء ومن الاخوان لازمهم الفقر ضرورة . والفضائل تنادي « هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديداً » فكلما خافت من ابتلاء قالت :

لاتحسب المجد تمراً أنت آكله لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

ولما آثر أحمد بن حنبل رضي الله عنه طلب العلم وكان فقيراً ، بقي أربعين سنة يتشاغل به ولايتزوج . فينبغي الفقير أن يصابر فقره كما فعل أحمد ، ومن يطيق ما أطاق ؟ فقد

رد من المال خمسين الفا وكان يأكل الكامخ ويتأدم بالملح ، فما شاع له الذكر الجميل جزافاً ، ولا ترددت الاقدام الى قبره الا لمعنى عجيب . فياله ثناء ملأ الآفاق ، وجمالا زين الوجود، وعزاً نسخ كل ذل . هذا في العاجل ، وثواب الآجل لا يوصف، وتلمح قبور أكثر العلماء لاتعرف ولاتزار . ترخصوا وتأولوا ، وخالطوا السلاطين وذهبت بركة العلم ، ومحى الجاه ، ووردوا عند الموت حياض الندم ، فيالها حسرات لاتتلافى ، وخسراناً لاينجبر ، كان صحبة اللذات طرفة عين ، ولازم الاسف دائماً .

فالصبر الصبر أيها الطالب للفضائل . فان لذة الراحة بالهوى أو بالبطالة تذهب ويبقى الاسى . وقال الشافعي رضي الله تعالى عنه :

يانفس ماهو إلا صبر أيام ... كأن مدتها أضغاث أحلام
يانفس جوزي عن الدنيا مبادرة ... وخلي عنها فان العيش قدامي

ثم أيها العالم الفقير . أيسرك ملك سلطان من السلاطين ، وان ماتعلمه من العلم لاتعلمه ؟

كلا ما أظن بالمتيقظ ان يؤثر هذا . ثم أنت اذا وقع لك خاطر مستحسن ، أو معنى عجيب ، تجد لذة لايجدها ملتذ باللذات الحسية ، فقد حرم من رزق الشهوات ما قد رزقت ، وقد شاركتهم في قوام العيش ، ولم يبق إلا الفضول الذي إذا أخذ لم يكد يضر .

ثم هم علي المخاطرة في باب الآخرة غالباً . وأنت على السلامة في الاغلب .

فتلمح يا أخي عواقب الاحوال ، واقمع الكسل المثبط عن الفضائل ، فان كثيراً من العلماء الذين ماتوا مفرّطين يتقلبون في حسرات وأسف . رأى رجل شيخنا ابن الزاغوني[1] في المنام ، فقال له الشيخ : أكثر ما عندكم الغفلة ، وأكثر ماعندنا الندامة . فاهرب وفقك الله قبل الحبس ، وافسخ عقد الهوى على الغبن الفاحش . واعلم أن الفضائل لاتنال بالهوينى ، وان يسير التفريط يشين وجه المحاسن . فالبدار البدار ونفَس النفس يتردد ، وملك الموت غائب ماقدم بعد ، وانهض بعزيمة عازم :

إذا همّ ألقى بين عينيه عزمه ونكّب عن ذكر الحوادث جانبا
ولم يستشر في أمره غير نفسه ولم يرض إلا قائم السيف صاحبا

وارفض في هذه العزيمة الدنيا واربابها . فبارك الله لاهل الدنيا في دنياهم ، فنحن الاغنياء وهم الفقراء . كما قال ابراهيم بن أدهم : لو علم الملوك مانحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف .

فابناء الدنيا أحدهم لايكاد يأكل لقمة إلا حراماً أو شبهة

---

(١) على بن عبيد الله المؤرخ الفقيه الحنبلي له مصنفات كثيرة توفي سنة ٥٢٧

وهو وإن لم يؤثر ذلك فو كيله يفعله ، ولايبالي هو بقلة دين وكيله . وان عمروا داراً سخّروا الفعلة ، وان جمعوا مالا فمن وجوه لاتصلح . ثم كل منهم خائف أن يقتل أو يعزل أو يشتم ، فعيشهم نغص . ونحن نأكل ما ظاهر الشرع يشهد له بالاباحة ، ولانخاف من عدو ، ولا ولايتنا تقبل العزل . والعز في الدنيا لنا لا لهم . وإقبال الخلق علينـــا ، وتقبيل أيدينا وتعظيمنا عندهم كثير . وفي الآخرة بيننا وبينهم تفاوت إن شاء الله تعالى فان لفت ارباب الدنيا اعناقهم يعلمون قدر مزيتنا ، وإن غُلت أيديهم عن اعطائنا فلذة العفاف اطيب ، ومرارة المنن لاتفي بالمأخوذ ، وإنما هو طعام دون طعـام ، ولباس دون لباس ، وانها أيام قلائل . والعجب لمن شرفت نفسه حتى طلبت العلم ، إذ لايطلبه الا ذو نفس شريفة كيف يذل لبذل من لاعزه الا بالدنانير ، ولا مفخره له الا بالمكنة . ولقد أنشدني أبو يعلى العلوي :

رب قوم في خلائقهـــم   عرر قـــد صيروا غررا
ستر المال القبيح لهـــم   ستَرى إن زال ماستَرا

أيقظنا الله من رقدة الغافلين ، ورزقنا فكر المتيقظين ، ووفقنا العمل بمقتضى العلم والعقل ، إنه قريب مجيب .

٣٤١ - وجوب التلطف بالبدن ليقوى على الطاعة

لاينبغي للانسان أن يحمل على بدنه مالا يطيق فان البدن كالراحلة ان لم يرفق بها لم تصل بالراكب. فترى في الناس من يتزهد وقد ربى جسده على الترف، فيعرض عما ألفه، فيتجدد له الامراض، فتقطعه عن كثير من العبادات. وقد قيل: «عودوا كل بدن ما اعتاد»، وقد قرّب إلى رسول الله ﷺ ضب فقال: أجدني أعافه لانه ليس بارض قومي.

وفي حديث الهجرة: ان أبا بكر رضي الله عنه طلب لرسول الله ﷺ الظل، وفرش له فروة، وصب على القدح الذي فيه ابن ماء حتى برد.

وجاء رسول الله ﷺ على قوم فقال: ان كان عندكم ماء بات في شن وإلا كرعنا.

وكان ﷺ يأكل لحم الدجاج.

وفي الصحيح: أنه كان يحب الحلوى والعسل. وكان إذا لم يقدر أكل ماحضر[1]. ولعمري أن في العرب وأهل السواد من لايؤثر عنده التخشن في المطعم والملبس، وذاك اذا جرى بعد توبته على عادته لم يستضر. فأما من قد ألف اللطف فانه اذا غير حالته تغير بدنه، وقلت عبادته. وقد كان الحسن يديم

(١) كل هذه المعاني تكررت من قبل

أكل اللحم ويقول : لارغيفي مالك ولاصحني فرقد[١] . وكان ابن سيرين[٢] لايخلي منزله من حلوى . وكان سفيان الثوري يسافر وفي سفرته الحَمَل المشوي ، والفالوذج .

وقالت رابعة[٣] : ماأرى لبدن يراد به العمل لله اذا أكل الفالوذج عيباً . فمن ألف الترف فينبغي أن يتلطف بنفسه اذا امكنه . وقد عرفت هذا من نفسي ، فاني ربيت في ترف فلما ابتدأت في التقلّل وهجر المشتهى ، أثر معي مرضاً قطعني عن كثير من التعبد ، حتى أني قرأت في أيام كل يوم خمسة أجزاء من القرآن ، فتناولت يوماً مالايصلح فلم أقدر في ذلك اليوم على قراءتها ، فقلت : ان لقمة تؤثر قراءة خمسة أجزاء بكل حرف عشر حسنات انّ تناولها لَطاعة عظيمة ، وانّ مطعماً يؤذي البدن فيفوته فعل خير ينبغي أن يهجر .

وقد رأى رسول الله ﷺ رجلا من أصحابه حضر عنده وقد تغير من التقشف فقال له : من أمرك بهذا ؟

فالعاقل يعطي بدنه من الغذاء مايوافقه كما ينقي الغازي

---

(١) ذكر هذا من قبل وشرحناه

(٢) هما اثنان محمد والحسن والمراد عند الاطلاق الاول

(٣) توفيت سنة ١٣٥ كما روى المؤلف في كتابه شذور العقود وعند ابن خلكان وغيره سنة ١٨٥

شعير الدابة . ولاتظنن أني آمر بأكل الشهوات ، ولا بالاكثار من الملذوذ ، انما آمر بتناول مايحفظ النفس ، وأنهى عما يؤذي البدن . فأما التوسع في المطاعم ، فانه سبب النوم . والشبع يعمى القلب ، ويرهل البدن ويضعفه . فافهم ماأشرت اليه ، فالطريق هي الوسطى .

٣٤٢ - كمال الفطنة بكمال العقل

إذا تكامل العقل قوى الذكاء والفطنة . والذكي يتخلص اذا وقع في آفة . كما قال الحسن : اذا كان اللص ظريفاً لم يُقطع . فاما المغفل فيجنى على نفسه المحن .

هؤلاء اخوة يوسف عليهم السلام ، أبعدوه عن أبيه ليتقدموا عنده ، وماعلموا أن حزنه عليه يشغله عنهم ، وتهمته إياهم تُبَغضهم اليه . ثم رموه في الجب فقالوا : يلتقطه بعض السيارة وليس بطفل ، إنما هو صبي كبير . وماعلموا أنه إذا التُقط يحدّث بحاله ، فيبلغ الخبر إلى أبيه ، وهذا تغفيل .

ثم إنهم قالوا : أكله الذئب ، وجاؤا بقميصه صحيحاً ، ولو خرقوه احتمل الامر . ثم لما مضوا اليه يمتارون قال : «ائتوني بأخ لكم » فلو فطنوا علموا أن ملك مصر لا غرض له في أخيهم . ثم حبسه بحجة ، ثم قال : هذا الصواع يخبرني أنه كان كذا وكذا .

هذا كله ومايفطنون . فلما أحس بهذه الاشياء يعقوب عليه السلام قال « اذهبوا فتحسسوا من يوسف » وكان يوسف عليه السلام قد نُهِيَ بالوحي أن يعلم أباه بوجوده . ولهذا لما التقيا قال له : هلا كتبت إليّ ؟

فقال : ان جبريل عليه السلام منعني .

فلما نهي أن يعرّفه خبره لينفذ البلاء كان مافعل باخيه تنبيهاً. فصار كأنه يعرّض بخطبة المعتدة[1] ، وعلى فهم يوسف والله بكى يعقوب لاعلى مجرد صورته .

٣٤٣ ـ قلّل علائقك وتزود فالعمر قصير

الآدمي موضوع على مطلوبات تشتت الهم . العين تطلب المنظور ، واللسان يطلب الكلام ، والبطن يطلب المأكول ، والفرج المنكوح ، والطبع يحب جمع المال . وقد أمرنا بجمع الهم لذكر الآخرة والهوى يشتته . فكيف اذا اجتمعت اليه حاجات لازمة من طلب قوت البدن وقوت العيال . وهذا يبكر الى دكانه ويفتكر في التحصيل ، ويستعمل آلة الفهم في نيل ما لابد منه ، فأيّ همٍّ يجتمع منه خصوصاً ان اخذه الشرَهُ في ثَوْره فيمضي العمر ، فينهض من الدكان الى القبر .

---

(١) ذلك ان المتدي لاتكتب تصريحاً وتخطب لمريضاً

فكيف يحصل العلم أو العمل أو اخلاص القصد أو طلب الفضائل؟ فمن رزق يقظة ، فينبغي أن يصابر لنيل الفضائل . فان كان متزهداً بغير عائلة فقد كان السبتي (١) يعمل يوم السبت فيكتفي به طول الاسبوع .

فان كان له مال باضع به من يكفيه بدينه ، وثقته أن يتم هو ، وان كان له عائلة جمع همه في نية الكسب عليهم فيكون متعبداً . أو أن يكون قنية مال كعقار ناصفه في نفقته ليكفيه دخله . وليقلل الهم على مقدار مايمكنه من حذف العلائق جهده ليجمع الهم في ذكر الآخرة فان لم يفعل أخذ في غفلته ، وندم في حفرته .

وأقبح الاحوال حال عالم فقيه كلما جمع همه لذكر الآخرة شتته طلب القوت للعائلة ، وربما احتاج الى التعرض بالظلمة وأخذ الشبهات وبذل الوجه . فيلزم هذا التقدير في النفقة . واذا حصل له شيء من وجه دبر فيه . ولاينبغي أن يحمله قصر الامل على اخراج مافي يده . فقد قال ﷺ : لأن تترك ورثتك أغنياء خير من أن تتركهم عالة يتكففون الناس .

وأذل من كل ذلك التعرض للبخلاء والامراء . فليدبر أمره،

---

(١) كان من ابناء هارون الرشيد تزهد وتخلى ولقب بالسبتي لأنه كان يشتغل يوم السبت ويتفرغ سائر الاسبوع للعبادة .

ويقلل العلائق ، ويحفظ جاهه ، فالايام قلائل . وقد بُعث الى أحمد بن حنبل مال فسأله ابنه قبوله فقال : ياصالح صُنّي[1] . ثم قال : أستخير الله ، فاصبح فقال :

يابنيّ قد عزم لي ألاّ أقبله ، هذا وكان العطاء هنيـــاً ، وجاءه من وجوه فانعكس الامر اليوم .

٣٤٤ ـ كيف تعامل صديقك وحاسدك

العزلة عن الخلق سبب طيب العيش ، ولا بد من مخالطة بمقدار . فدارِ العدوّ واستحلّه ، فربمـــا كادك فأهلكك . وأحسن الى من أساء إليك ، واستعن على أمورك بالكتمان ، ولتكن الناس عندك معارف . فأما أصدقاء فلا ، لأن أعز[2] الاشياء وجود صديق ، لأن الصديق يجب ان يكون في مرتبة مماثل . فان صادقته عامياً لم تنتفع به لسوء أخلاقه وقلة علمه وأدبه . وان صادقت مماثلاً او مقارباً حسدك . واذا كان لك يقظة تلمحت من أفعاله وأقواله مايدل عـــلى حسدك « ولتعرفنهم في لحن القول » واذا أردت تأكيد ذلك فضع عليه من يضعك[3] عنده ، فلا يخرج إليه بما في قلبه .

---

(١) فعل أمر من « صانه »   (٢) اي اندر واقل

(٣) اي يذمك

فان أردت العيش فابعد عن الحسود ، لأنه يرى نعمتك . فربما أصابها بالعين ، فان اضطررت الى مخالطة فلا تفش له سرك ولا تشاوره ، ولا يغرنك تملقه لك ، ولا مايظهره من الدين والتعبد ، فان الحسد يغلب الدين .

وقد عرفت أن قابيل أخرجه الحسد الى القتل . وأن إخوة يوسف باعوه بثمن بخس . وكان أبو عامر الراهب من المتعبدين العقلاء وعبد الله بن أبيّ من الرؤساء . أخرجهما حسد رسول الله ﷺ الى النفاق وترك الصواب . ولا ينبغي أن تطلب لحاسدك عقوبة أكثر مما هو فيه ، فانه أمر عظيم متصل لايرضيه إلا زوال نعمتك . وكلما امتدت امتد عذابه ، فلا عيش له ، وما طاب عيش أهل الجنة إلا حين نزع الحسد والغل من صدورهم ، ولولا أنه نُزع تحاسدوا ونغص عيشهم.

٣٤٥ـ الاقبال على اللذات وضرره في الدارين

من سار مع العقل ، وخالف طريق الهوى ، ونظر الى العواقب ، أمكنه أن يتمتع من الدنيا والذكر الجميل ، ويكون ذلك سبباً لفوات مراده من اللذات .

وبيان هذا من وجهين : أحدهما ان مال الى شهوات النكاح وأكثر منها قل التذاذه ، وفنيت حرارته ، وكان ذلك

سبباً في عدم مطلوبه منها . ومن استعمل ذلك بمقدار مايجيزه العقل ويحتمله كان التـــذاذه أكثر ، لبعد مابين الجماعين ، وأمكنه التردد لبقاء الحرارة .

وكذلك من غش في معاملته أو خـان ، فانه لا يعامل فيفوته ربح المعـاملة الدائمة لخيانته مرة ، ولو عرف بالثقـة دامت معاملة الناس له فزاد ربحه .

والثاني أنه من اتقى الله وتشاغل بالعلم أو تحقيق الزهد ، فتح له من المباحات مايلتذ به كثيراً . ومن تقاعد به الكسل من العلم أو الهوى عن تحقيق الزهد لم يحصل إلا اليسير من مراده . قال عز وجل (وَأَنْ لو اسْتَقـاموا عَلى الطَّريقةِ لأَسْقَيْناهمْ مَاءً غَدَقاً) .

٣٤٦ ـ اعمل لترضي الله ولو أسخطت الناس

ينبغي أن يكون العمل كله لله ، ومعه ، ومن أجله . وقد كفاك كلَّ مخلوق وجلب لك كلَّ خـير . وإياك أن تميل عنه بموافقـــة هوى وارضاء مخلوق ، فانه يعكس عليك الحال ، ويفوتك المقصود . وفي الحديث : من أرضى الناس بسخط الله عاد حامده من النـاس ذاماً وأطيب العيـش من يعيش مع الخالق سبحانه ، فان قيل : كيف يعيش معه ؟

قلت : بامتثال أمره ، واجتناب نهيه ، ومراعاة حدوده ، والرضى بقضائه ، وحسن الادب في الخلوة ، وكثرة ذكره ، وسلامة القلب من الاعتراض في أقداره ، فإن احتجت سألته ، فان أعطى وإلا رضيت بالمنع ، وعلمت أنه لم يمنع بخلاً ، انما نظر لك . ولا تنقطع عن السؤال لأنك تتعبد به ، ومتى دمت على ذلك رزقك محبته وصدق التوكل عليه ، فصارت المحبة تدلك على المقصود ، وأثمرت لك محبته اياك ، فحينئذ تعيش عيش الصديقين . ولا خير في عيش ان لم يكن كذا فان أكثر الناس مخبّط في عيشه ، يداري الاسباب ويميل اليها بقلبه ، ويتعب في تحصيل الرزق بحرص زائد على الحد ، ويرغبه الى الخلق ، ويعترض عند انكسار الأغراض ، والقدر يجري ولا يبالي بسخط ، ولا يحصل له إلا ماقدر ، وقد فاته القرب من الحق والمحبة له والتأدب معه ، فذلك العيش عيش البهائم .

٣٤٧ ـ حكمة الطعام والشراب ووجوب الاقتصاد في تناولهما

نظرت في حكمة المطعم والمشرب والملبس والمنكح ، فرايت أن الآدميّ لما خلق من أصول تتحلل ، وهي الماء والتراب والنار والهواء ، وبقاؤه انما يكون بالحرارة والرطوبة والحرارة تحلل الرطوبة دائماً ، فلم يكن له بد من شيء يخلف

مابطل ، ولما كان اللحم لاينوب عنه إلا اللحم ، اباح ذبح الحيوان ليتقوى به من هو أشرف منه . ولمـــا كان بدنه يحتاج الى كسوة وله قـدره تميز ، وقدرة يصنع بها مايقيه الاذى من القطن والصوف ، لم يجعل على جلده مايقيه خلقه ، بخلاف الحيوان البهيم ، فانه لما لم يكن له قدرة على مايغطي جلده عوضه بالريش والشعر والوبر . ولما لم يكن بد من فناء الآدمي والحيوان هيج شهوة الجماع لتُخلف النسل . فمقتضى العقل الذي حرك على طلب هذه المصالح أن يكون التناول للمطعم والمشرب مقدار الحاجة والمصلحة ، ليقع الالتذاذ بالعافيـة . ومن البلية طلب الالتذاذ بالمطعم وان كان غير صالح والاكثار منه والشره في تناولة ، وكذلك الكسوة والنكاح .

ومن الحزم جمع المال وادخاره لعارض حاجة من ذلك . ومن التغفيل انفاق الحاصل ، فربما عرضت حاجة فلم يقدرعليها فاثر عدمها في البدن أو في العرض بطلبها من الانذال . ومن اقبح الامور الانهماك في النكاح طلبا لصور اللذة ناسيا مايجني ذلك من انحلال القوة ويزيد في الحرام بالعقوبة . فمن مال الى تدبير العقل سلم في دنيـــاه وآخرته . ومن أعرض عن مشاورته أو عن القبول منه تعجل عطبه .

فليفهم مقصود الموضوعات وحكمها والمراد منها ، فمن لم يفهم ولم يعمل بمقتضى ما فهم كان كأجهل العوام . وان كان عالما .

٣٤٨ ـ ضرر مخالطة الامراء

في مخالطة الامراء . العجب ممن له مسكة من عقل أو عنده قليل من دين كيف يؤثر مخالطتهم . فانه بالمخالطة لهم أو العمل معهم يكون خائفاً من عزل أو قتل أو سم ، ولا يمكنه أن يعمل إلا بمقتضى أوامرهم . فان أمروا بما لا يجوز لم يقدر أن يراجع فقد باع دينه قطعاً بدنياه ، فمنعه بالخوف ولم يبق بيده إلا عاجل التعظيم وان يقال بين يديه بسم الله[1] ، وان ينفذ أوامره وذلك بعيد من السلامة في باب الدين وما يلتذ به منه في الدنيا ممزوج بخوف العزل والقتل .

٣٤٩ ـ احسن الى الناس ولا تظهر العداوة لأحد

من الغلط العظيم أن يتكلم في حق معزول بما لا يصلح فانه لا يؤمن أن يلي فينتقم . وفي الجملة لا ينبغي أن يظهر العداوة لأحد أصلا ، فقد يرتفع المحتقر وقد لا يتمكن من لا يعدّ ، بل ينبغي أن يكتم ما في النفوس على الاعداء ، فان

---

(١) كانوا يقولونها بين يدى الامراء تنبيهاً على وصولهم او دخولهم ليقام لهم ويحتفل باستقبالهم .

أمكن الانتقام منهم كان العفو انتقاما لانه يذلهم . وينبغي أن يحسن الى كل أحد ، خصوصاً من يجوز أن يكون له ولاية ، وان يخدم المعزول ، فربما نفع في ولايته[١] . وقد روينا أن رجلا استأذن على قاضي القضاة ابن أبي دواد[٢] وقال : قولوا له ابو جعفر بالباب فلما سمع هشّ وقال : إئذنوا له .

فدخل فقام وتلقاه واكرمه وأعطاه خمسة آلاف وودعه .

فقيل له : رجل من العوام فعلت به هذا ؟

قال : اني كنت فقيراً ، وكان هذا صديقاً فجئته يوماً فقلت له : أنا جائع . فقال : اجلس .

وخرج فجاء بشواء وحلوى وخبز فقال : كل .

فقلت : كل معي .

قال : لا . قلت : والله لا آكل حتى تأكل معي .

فأكل فجعل الدم يجري من فمه :

فقلت : ما هـذا ؟ فقال : مرض .

فقلت : والله لابد أن تخبرني .

فقال : انك لما جئتني لم اكن املك شيئاً ، وكانت اسناني

---

(١) هذه المعاني كلها اعادها مراراً

(٢) انظر الكلام عنه في كتابي « رجال من التاريخ »

مُضَبَّبَة بشريط من ذهب ، فنزعته واشتريت به . فهل ا كافى مثل هذا ؟

وعلى عكس هذه الاشياء كان ابن الزيات وزير الواثق وكان يضع من المتوكل ، فلما ولى عذبه بانواع العذاب . وكذلك ابن الجزري كان لايوقر المسترشد قبل الولاية فجرت عليه الآفات لما ولى .

فالعاقل من تأمل العواقب وراعاها ، وصور كل مايجوز أن يقع فعمل بمقتضى الحزم .

وابلغ من هذا تصوير وجود الموت عاجلا ، لانه يجوز أن يأتي بغتة من غير مرض . فالحازم من استعد له وعمل عمل من لايندم اذا جاءه ، وحذر من الذنوب فانها كعدو مراصد بالجزاء ، وادخر لنفسه صالح الاعمال فانها كصديق صديق ينفع وقت الشدة .

وابلغ من كل شيء أن يعلم المؤمن انه كلما زاد عمله في الفضائل علت مرتبته في الجنة ، وان نقص نقصت ، فهو وان دخل الجنة مايجد في نقص بالاضافة الى كمال غيره ، غير انه قد رضى به ولايشعر بذلك فرحم الله من تلمح العواقب ، وعمل بمقتضى التلمح . والله تعالى الموفق .

٣٥٠ ـ تلاعب الدنيا بالامراء والزهاد وغيرهم

لما جمعت كتابي المسمى بالمنتظم ، في تاريخ الملوك والامم ، اطلعت على سير الخلق من الملوك والوزراء والعلماء والادباء والفقهاء والمحدثين والزهاد وغيرهم ، فرأيت الدنيا قد تلاعبت بالاكثرين تلاعباً أذهب أديانهم ، حتى كانوا لايؤمنون بالعقاب . فمن الامراء من يقتل ويصادر ويقطع ويحبس بغير حق ، ثم ينخرط في سلك المعاصي ، كأن الامر اليه ، أو قد جاءه الأمن من العقاب . فربما تخايل : أن حفظي الرعايا يردّ عني ؟ وينسى أنه قد قيل لرسول الله ﷺ : « قل اني أخاف ان عصيت ربي عذاب يوم عظيم » .

وقد انخرط جماعة ممن يتسم بالعلم في سلك المعاصي لتحصيل أغراضهم العاجلة فما نفعهم العلم . ورأينا خلقاً من المتزهدين خالفوا لنيل أغراضهم . وهذا لأن الدنيا فخ والناس كعصافير ، والعصفور يريد الحبة وينسى الخنق ، قد نسي أكثر الخلق ما لهم ميلا الى عاجل لذاتهم ، فاقبلوا يسامرون الهوى ولايلتفتون الى مشاورة العقل ، فلقد باعوا بلذة يسيرة خيراً كثيراً ، واستحقوا بشهوات مرذولة عذابا عظيما ، فاذا نزل بأحدهم الموت قال : ليتني لم أكن ، ليتني كنت تراباً . فيقال له : آلآن ؟

فوا أسفى لفائت لايمكن استدراكه ، ولمرتهن لايصح فكاكه ولندم لاينقطع زمانه ، ولمعذب عز عليه ايمانه بالله[١] .

مانفعت العقول إلا لمن يلتفت اليها ويعول عليها ، ولايمكن قبول مشاورها الا بعزيمة الصبر عما يشتهي . فتأمل في الامراء عمر بن الخطاب وابن عبد العزيز رضي الله عنهما ، وفي العلماء أحمد ابن حنبل رحمة الله عليه . وفي الزهاد أويس القرني[٢] . لقد أعطوا الجد حقه وفهموا مقصود الوجود . وماهلك الهالكون الا لقلة الصبر عن المشتهى ، وربما كان فيهم من لايؤمن بالبعث والعقاب . وليس العجب من ذاك انما العجب من مؤمن يوقن ، ولاينفعه يقينه . ويعقل العواقب ، ولا ينفعه عقله .

٣٥١ ـ صاحب الهمة العالية في تعب دائم

من رزق همة عالية يعذب بمقدار علوها كما قال الشاعر :

واذا كانت النفوس كبارا تعبت في مرادها الاجسام

وقال الآخر :

ولكل جسم في النحول بلية وبلاء جسمي من تفاوت همتي

وبيان هذا أن من علت همته طلب العلوم كلها ولم يقتصر

---

(١) كذا (٢) توفي سنة ٣٧ للهجرة

على بعضها وطلب من كل علم نهايته ، وهذا لايحتمله البدن ـ ثم يرى أن المراد العمل فيجتهد في قيام الليل وصيام النهار ، والجمع بين ذلك وبين العلم صعب . ثم يرى ترك الدنيا ويحتاج الى مالابد منه ، ويحب الايثار ولايقدر على البخل ، ويتقاضاه الكرم البذل ، ويمنعه عز النفس عن الكسب ، فان هو جرى على طبعه من الكرم ، احتاج وافتقر وتأثر بدنه وعائلته ، وان أمسك فطبعه يأبى ذلك [١] . وفي الجملة يحتاج إلى معاناة وجمع بين أضداد ، فهـــو أبداً في نصَب لاينقضي ، وتعب لايفرغ . ثم اذا حقق الاخلاص في الاعمال زاد تعبه وقوي وصَبُهُ .

فأين هو ومن دنت همته . ان كان فقيهاً فسئل عن حديث قال : ماأعرفه . وان كان محدّثا فسئل عن مسألة فقهية قال : ماأدري . ولا يبالي إن قيل عنه : مقصر . والعالي الهمة يرى التقصير في بعض العلوم فضيحة قد كشفت عيبه ، وقد رأت الناس عورته ، والقصير الهمة لايبالي بمن الناس ، ولايستقبح سؤالهم ، ولا يأنف من رد ، والعـــالي الهمة لايحمل ذلك ، ولكن تعب العالي الهمة راحة في المعنى ، وراحة القصير الهمة تعب وشين ، ان كان ثَمّ فهم . والدنيا دار سباق الى أعالي

---

(١) اعاد هذه المعاني كلها مراراً

المعالي . فينبغي لذي الهمة أن لايقصر في شوطه ، فان سبق فهو المقصود . وان كبا بجواده مع اجتهاد لم يُلَم .

٣٥٢ - رضى الانسان عن نفسه مصيبة

المصيبة العظمى رضى الانسان عن نفسه واقتناعه بعلمه . وهذه محنة قد عمت أكثر الخلق فترى اليهودي والنصراني يرى أنه على صواب ، ولا يبحث ولا ينظر في دليل نبوة نبينا ﷺ ، واذا سمع ما يلين قلبه مثل القرآن المعجز هرب لئلا يسمع . وكذلك كل ذي هوى يثبت عليه ، إما لانه مذهب أبيه واهله ، أو لانه نظر نظراً أول فرآه صواباً ، ولم ينظر فيما يناقضه ، ولم يباحث العلماء ليبينوا له خطأه . ومن هذا حال الخوارج على أمير المؤمنين علي رضي الله تعالى عنه فانهم استحسنوا ماوقع لهم ولم يرجعوا الى من يعلم . ولما لقيهم عبد الله بن عباس رضي الله عنهما فبين لهم خطأهم رجع عن مذهبه منهم ألفان ، وممن لم يرجع عن هواه ابن ملجم ، فرأى مذهبه هو الحق ، فاستحل قتل أمير المؤمنين رضي الله تعالى عنه ورآه ديناً ، حتى أنه لما قطعت أعضاؤه لم يمانع ، فلما طلب لسانه ليقطع انزعج وقال : كيف أبقى ساعة في الدنيا لا أذكر الله ؟

ومثل هذا ماله دواء ، وكذلك كان الحجاج يقول : والله مأرجو الخير إلا بعد الموت . هذا قوله وكم قد قتل من لايحل قتله ، منهم سعيد بن جبير . وقد أخبرنا عبد الوهاب وابن ناصر الحافظ قالا أخبرنا المبارك بن عبد الجبار قال أخبرنا الحسين بن محمد النصيبي قال اخبرنا اسماعيل بن سعيد قال حدثنا ابو بكر بن الانباري قال حدثنا أبو عيسى الختلي قال حدثنا ابو يعلى قال حدثنا الاصمعي قال حدثنا أبو عاصم عن عباد بن كثير عن قحذم قال : وجد في سجن الحجاج ثلاثة وثلاثون ألفاً ، مايجب على واحد منهم قطع ولا قتل ولا صلب .

قلت : وعموم السلاطين يقتلون ويقطعون ظناً منهم جواز ذلك ، ولو سألوا العلماء بينوا لهم . وعموم العوام يبارزون بالذنوب اعتماداً على العفو وينسون العقاب . ومنهم من يعتمد: أني من أهل السنة ، أو أن لي حسنات قد تنفع ، وكل هذا لقوة الجهل .

فينبغي للانسان أن يبالغ في معرفة الدليل ولا يساكن شبهته ، ولايثق بعلم نفسه . نسأل الله السلامة من جميع الآفات .

٣٥٣ - عقوبة المذنب واقعة ولو بعد حين

فصل ينبغي تأمله - إعلم أن الجزاء بالمرصاد ان كانت حسنة أو كانت سيئة . ومن الاغترار أن يظن المذنب إذا لم يرِ عقوبة أنه قد سومح . وربما جاءت العقوبة بعد مدة ، وقلّ من فعل ذنباً إلا وقوبل عليه . قال عز وجل « من يعمل سوءاً يجز به » . هذا آدم عليه السلام أكل لقمة فقد عرفتم ماجرى عليه . قال وهب بن منبه : أوحى الله تعالى اليه : ألم اصطنعك لنفسي وأحللتك داري ، واسجدت لك ملائكتي ، فعصيت امري ونسيت عهدي ، وعزتي لو ملأت الارض كلهم مثلك يعبدون ويسبحون في الليل والنهار ثم عصوني ، لانزلتهم منازل العاصين . فنزع جبريل التاج عن رأسه ، وحل ميكاييل الاكليل عن جبينه ، وجذب بناصيته فأهبط . فبكى آدم ثلاثمئة عام على جبل الهند تجري دموعه في أودية جبالها ، فنبتت بتلك المدامع أشجار طيبكم هذا . وكذلك داود عليه السلام ، نظرة فأوجبت عتابه وبكاءه الدائم حتى نبت العشب من دموعه . وأما سليمان عليه السلام فان قوما اختصموا اليه ، فكان هواه مع أحد الخصمين فعوقب وتغير في أعين

الناس . وكان يقول : « اطعموني » فلا يطعم . وأما يعقوب عليه السلام ، فانه يقال أنه ذبح عجلا بين يدي أمه . فعوقب بفراق يوسف . وأما يوسف عليه السلام فأوخذ بالهم . وكل واحد من إخوته ولد له اثنا عشر ولدا ، ونقص هو ولدا لتلك الهمة . وأما أيوب عليه السلام فانه قصر في الانكار على ملك ظالم لاجل خيل كانت في ناحيته فابتلي . وأما يونس عليه السلام فخرج عن قومه بغير اذن فالتقمه الحوت . وأوحى الله عز وجل الى ارميا : ان قومك تركوا الامر الذي أكرمت به آباءهم ، وعزتي لاهيجن عليهم جنوداً لايرحمون بكاءهم ، فقال : يارب هم ولد خليلك ابراهيم ، وأمة صفيك موسى ، وقوم نبيك داود فأوحى الله تعالى اليه : إنما اكرمت ابراهيم وموسى وداود بطاعتي ، ولو عصوني لأنزلتهم منازل العاصين [١] .

ونظر بعض العباد شخصاً مستحسناً فقال له شيخه : ماهذا النظر ؟ ستجد غبه . فنسي القرآن بعد اربعين سنه .

وقال آخر : عبت شخصاً قد ذهب بعض اسنانه فانتثرت أسناني . ونظرت الى امرأة لاتحل لي فنظر الى زوجتي من لا أريد .

---

(١) هذه كلها اسرائيليات لم يصح بها خبر

وكان بعض العاقيّن ضرب أباه وسحبه الى مكان ، فقال له الاب : حسبك ، الى هنا سحبت أبي . وقال ابن سيرين : عيرت رجلا بالافلاس فأفلست . ومثل هذا كثير .

ومن أعجب ماسمعت فيه عن الوزير ابن حصير الملقب بالنظام أن المقتفى غضب عليه وأمر بان يؤخذ منه عشرة آلاف دينار ، فدخل عليه أهله محزونين وقالوا له : من أين لك عشرة آلاف دينار ؟

فقال : مايؤخذ مني عشرة ولا خمسة ولا أربعة .

قالوا : من أين لك ؟

قال : اني ظلمت رجلا فالزمته ثلاثة آلاف فما يؤخذ مني أكثر منها . فلما أدى ثلاثة آلاف دينار وقع الخليفة باطلاقه ومسامحته في الباقي .

وأنا أقول عن نفسي . مانزلت بي آفة أو غم أو ضيق صدر إلا بزلل أعرفه حتى يمكنني أن أقول ، هذا بالشيء الفلاني ، وربما تأولت فيه بعد ، فأرى العقوبة . فينبغي للانسان أن يترقب جزاء الذنوب فقل أن يسلم منه . وليجتهد في التوبة ، فقد روي في الحديث : « ما من شيء أسرع لحاقاً بشيء من حسنة حديثة لذنب قديم . »

ومع التوبة يكون خائفا من المؤاخذة متوقعاً لها ، فان

الله تعالى قد تاب على الانبياء عليهم السلام ، وفي حديث الشفاعة : يقول آدم ذنبي ويقول ابراهيم وموسى ذنبي .

فان قال قائل : قوله تعالى « من يعمل سوءاً يجزبه » خبر فهو يقتضي أن لايجاوز عن مذنب ، وقد عرفنا قبول التوبة والصفح عن الخاطئين . فالجواب من وجهين :

أحدهما أن يحمل على من مات مصراً ولم يتب ، فان التوبة تجب ماقبلها .

والثاني أنه على اطلاقه . فهو الذي اختاره أنا وأستدل بالنقل والمعنى . أما النقل ، فانه لما نزلت هذه الآية قال أبو بكر : يارسول الله أو نجازى بكل مانعمل ؟

فقال : ألست تمرض ؟ ألست تحزن ؟ أليس يصيبك اللأواء ؟ فذلك ماتجزون به .

وأما المعنى فان المؤمن اذا تاب وندم كان أسفه على ذنبه في كل وقت أقوى من كل عقوبة . فالويل لمن عرف مرارة الجزاء الدائمة وآثر لذة المعصية لحظة .

٣٥٤ - المؤلف يناجي ربه ويحاسب نفسه

تفكرت في نفسي يوماً تفكر محقق ، فحاسبتها قبل أن تحاسب ، ووزنتها قبل أن توزن ، فرأيت اللطف الرباني ، فمنذ الطفولة والى الآن أرى لطفاً بعد لطف ، وستراً على قبيح

وعفواً عما يوجب عقوبة ، وما أرى لذلك شكراً إلا باللسان ولقد تفكرت في خطايا لو عوقبت ببعضها لهلكت سريعاً ، ولو كشف للناس بعضها لاستحييت . ولا يعتقد معتقد عند سماع هذا أنها من كبائر الذنوب ، حتى يظن فيّ ما يظن في الفساق ، بل هي ذنوب قبيحة في حق مثلي ، وقعت بتأويلات فاسدة . فصرت اذا دعوت اقول : اللهم بحمدك وسترك علي اغفر لي . ثم طالبت نفسي بالشكر على ذلك فما وجدته كما ينبغي . ثم أنا أتقاضى القدر مراداتي ولا أتقاضى نفسي بصبر على مكروه ، ولا بشكر على نعمة ، فأخذت أنوح على تقصيري في شكر المنعم . وكوني أتلذذ بإيراد العلم من غير تحقيق عمل به . وقد كنت أرجو مقامات الكبار ، فذهب العمر وماحصل المقصود . فوجدت أبا الوفاء بن عقيل[1] قد ناح نحو مانحت فاعجبتني نياحته فكتبتها ههنا . قال لنفسه :

يارعناء تقوّمين الالفاظ ليقال : مُناظر . وثمرة هذا (يامناظر) كما يقال للمصارع : الغارةَ .

ضيعتِ أعز الاشياء وانفسها عند العقلاء ، وهي أيام العمر حتى شاع لك بين من يموت غداً اسم مُناظر ، ويُنسى الذاكر والمذكور إذا درست القلوب . هذا ان تأخر الامر الى موتك

---

(١) علي بن محمد المتوفى سنة ٥١٤

بل ربما نشأ شاب أفره منك فموّهوا له وصار الاسم له . والعقلاء عن الله تشاغلوا بما إذا انطووا نَشرَهم وهو العمل بالعلم ، والنظر الخالص لنفوسهم . افٍ لنفسي وقد سطرت عدة مجلدات في فنون العلوم وما عبق بها فضيلة . ان نوظرتْ شمختْ ، وان نوصحت تعجرفت ، وان لاحت الدنيا طارت اليها طيران الرخم ، وسقوط الغراب على الجيف ، فليتها أخذت أخذ المضطر من الميتة . توفر في المخالطة عيوبا تبلى ولاتحتشم نظر الحق اليها . وان انكسر لها غرض تضجرت ، فان أمدّت بالنعم اشتغلت عن المنعم .

افٍ والله مني اليوم على وجه الارض وغداً تحتها ، والله انّ نتن جسدي بعد ثلاثْ تحت التراب أقل من نتن خلائقي وأنا بين الاصحاب . والله انني قد أبهرني حلم هذا الكريم عني كيف يسترني وانا أنهتك ؟ ويجمعني وأنا أتشتت ؟

وغداً يقال : مات الحبر العالم الصالح . ولو عرفوني حق معرفتي بنفسي ما دفنوني . والله لأنادين على نفسي نداء المكشفين معايب الاعداء ، ولأنوحن نوح الثاكلين للابناء إذ لانائح لي ينوح عليّ لهذه المصائب المكتومة ، والخلال المغطاة التي قد سترها من خبرها وغطاها من علمها .

والله ما أجد لنفسي خلة استحسن أن أقول متوسلا بها : اللهم اغفر لي كذا بكذا .

والله ما التفت قط الا وجدت منه سبحانه براً يكفيني ووقاية تحميني ، مع تسلط الاعداء . ولا عرضت حاجة فمددت يدي الا قضاها .

هذا فعله معي وهو رب غني عني ، وهذا فعلي وأنا عبد فقير اليه . ولا عذر لي فاقول مادريت أو سهوت . والله لقد خلقني خلقاً صحيحاً سليماً ، ونور قلبي بالفطنة ، حتى ان الغائبات والمكتومات تنكشف لفهمي .

فوا حسرتاه على عمر انقضى فيما لايطابق الرضى . واحرماني لمقامات الرجال الفطناء . ياحسرتي على ما فرطت في جنب الله وشماتة العدو بي . واخيبة من أحسن الظن بي اذا شهدت الجوارح عليّ ، واخذلاني عند اقامة الحجة . سخر والله مني الشيطان وأنا الفطن .

اللهم توبة خالصة من هذه الاقذار ، ونهضة صادقة لتصفية مابقي من الاكدار ، وقد جئتك بعد الخمسين وانا من خَلَق المتاع . وأبى العلم إلا أن يأخذ بيدي الى معدن الكرم . وليس لي وسيلة إلا التأسف والندم ، فوالله ماعصيتك جاهلا بمقدار نعمك ، ولاناسياً لما أسلفت من كرمك فاغفر لي سالف فعلي .

٣٥٥ ـ تحمل عداوة اقربائك وتواضع لهم

عداوة الاقارب صعبة . وربما دامت كحرب بكر وتغلب ابني وائل ، وعبس وذبيان ابني بغيض ، والاوس والخزرج ابني قيله . قال الجاحظ : تعدت هذه الحرب اربعين عاماً[1] .

والسبب في هذا أن كل واحد من الاقارب يكره أن يفوقه قريبه فيقع التحاسد . فينبغي لمن فضل على أقاربه أن يتواضع لهم ويرفعهم جهده ، ويرفق بهـــم لعله يسلم . قال رجل لرسول الله ﷺ : لي اقارب أصلهم فيقطعوني .

فقال : فكأنما تُسِفهم الملّ[2] ، ولن يزال معك من الله ظهير مادمت على ذلك .

٣٥٦ ـ المؤمن لايلتفت الى حاسده

رأيت كلاب الصيد اذا مرت بكلاب المحلة نبحتها وبالغت وأسرعت خلفها ، وكأنها تراها مكرمة مجللة فتحسدها على ذلك ورأيت كلاب الصيد حينئذ لاتلتفت اليها ولا تعيرها الطرْف ، ولاتعدّ نباحها شيئاً ، فرأيت أن كلاب الصيد كأنها ليست

---

(١) تلك حرب البسوس « التي بين بكر وتغلب ». وقد وقعت فيها كلها بضع معارك فقط ، وقتل فيها كلها بضع مئات !

(٢) اي انهم في ايذائهم انفسهم بهذا كمن يسف الرماد

من جنس تلك الكلاب ، لان تلك غليظة البدن ، كثيفة الاعضاء ، لا أمانة لها ، وهذه لطيفة دقيقة الخلقة ، ومعها آداب قد ناسبت خلقتها اللطيفة ، وأنها تحبس الصيد على مالكها خوفاً من عقابه ، أو مراعاة لشكر نعمته عليها . فرأيت أن الادب وحسن العشرة يتبع لطافة البدن وصفاء الروح. وهكذا المؤمن العاقل لايلتفت الى حاسده ولايعده شيئاً ، اذ هو في واد وذاك في واد . ذاك يحسده على الدنيا ، وهذا همته الآخرة فيا بُعد مابين الواديين .

٣٥٧ ـ الحكمة الالهية لاتظهر دائماً فعليك بالتسليم

هذا فصل ملاحظته من أهم الاشياء ينبغي لمن آمن بالله تعالى أن يسلم له في افعاله ، ويعلم أنه حكيم ومالك ، وانه لايغيب . فان خفيت عليه حكمة فعله نسب الجهل الى نفسه ، وسلم للحكيم المالك . فاذا طالبه العقل بحكمة الفعل قال : مابانت لي ، فيجب عليّ تسليم الامر لمالكه . وان اقواماً نظروا بمجرد العقل الى كثير من أفعال الحق سبحانه فرأوها لوصدرت من مخلوق نسب فيها الى ضد الحكمة ، فنسبوا الخالق الى ذلك . وهذا الكفر المحض ، والجنون البارد .

والواجب نسبة الجهل الى النفوس . فان العقول قاصرة

من مطالعة حكمته . وأول من فعل ذلك ابليس فانه قد رآه قد فضل طيناً على نار[1] ، والعقل يرى النار أفضل فعاب حكمته، وعمت هذه المحنة خلقاً ممن ينسب الى العلم وكثيراً من العوام فكم قد رأينا عالماً يعترض وعامياً يرد فيكفر .

وهذه محنة قد شملت أكثر الخلق ، يرون عالماً يضيّق عليه وفاسقاً وسّع عليه . فيقولون : هذا لايليق بالحكمة . وقد علم العلماء أن الله تعالى قد فرض الزكوات والخراج والجزية والغنائم والكفارات ليستغني بها الفقراء ، فاختص بذلك الظلمة ، وصانع من تجب عليه الزكاة باخراج بعضها ، فجاع الفقير .

فينبغي أن نذم هؤلاء الظلمة ولانعترض على من قدّر الكفاية للفقراء . وقد حصل في ضمن هذا عقوبة الظالمين في حبسهم الحقوق ، وابتلاء الفقراء بصبرهم عن حظوظهم .

وأكثر هؤلاء المعترضين لايكادون يسلمون وقت خروج الروح من اعتراض يخرج الى الكفر ، فتخرج النفس كافرة . فكم عامي يقول : فلان قد ابتلي وما يستحق . ومعناه أنه قد فعل به مالا يليق بالصواب وقد قال بعض الخلعاء :

أيارب تخلق أقمار ليل ... وأغصان بانٍ وكثبان رملِ

---

(١) كرر هذه المعاني غير مرة

وتنهى عبادك أن يعشقوا   أيا حاكم العدل ذا حكم عدل ؟

ومثل هذا ينشده جماعة من العلماء ويستحسنونه ، وهو كفر محض .

وما فهم القائلون لهذا، أنه مانهى عن العشق وانما نهى عن العمل بمقتضى العشق من الاشياء المحرمة كالنظر واللمس والفعل القبيح ، والامتناع عن المشتهى دليل على وجود الناهي ، كصبر العطشان في رمضان عن الماء . فانه دليل على الايمان بوجود من أمر بالصوم . وتسليم النفوس إلى القتل والجهاد دليل على اليقين بالجزاء . ثم المستحسن انموذج ماقد أعد ،فأين العقل المتأمل ؟ كلا ، لو تأمل وصبر قليلا لربح كثيراً .

ولو ذهبت أذكر ماقد عرفت من اعتراض العلماء والعوام لطال . ومن أحسن الناس حالا في ذلك ، مايحكى عن ابن الراوندي أنه جاع يوماً واشتد جوعه فجلس على الجسر وقد أمضّه الجوع ، فمرت خيل مزينة بالحرير والديباج . فقال : لمن هذه ؟

فقالوا : لعليّ بن بلتق غلام الخليفة .

فمرت جوار مستحسنات فقال : لمن هذه ؟

فقالوا : لعلي بن بلتق .

فمر به رجل فرآه وعليه أثر الضر فرمى إليه رغيفين فأخذهما ورمى بهما ، وقال : هذه لعلي بن بلتق[1] .

ونسي الجاهل الاحمق مايقول ويعترض ويفعل[2] قبل هذه المجاعة .

فيا معترضين وهم في غاية النقص على من لاعيب في فعله . انتم في البداية من ماء وطين ، وفي الثاني من ماء مهين ، ثم تحملون الانجاس على الدوام . ولو حبس عنكم الهواء لصرتم جيفا . ولو أليق[3] منكم أهلككم . وكم من رأي يراه حازمكم فاذا عرضه على غيره تبين له قبح رأيه .

ثم المعاصي منكم زايدة في الحد ! فما فيكم إلا الاعتراض على المالك الحكيم . ولو لم يكن في هذه البلاوي إلا أن يراد التسليم . ولو أنه أنشأ الخلق ليدلوا على وجوده ثم أهلكهم ولم يُعِدهم كان ذلك له ، لانه مالك ، لكنه بفضله وعد بالاعادة والجزاء والبقاء الدائم في النعيم . فمتى ماجرى أمر لاتعرف علته فانسب ذلك الى قصور علمك . وقد ترى مقتولا ظلماً وكم قد قَتل وظَلم حتى قوبل ببعضه . وقل أن يجري لاحد

---

(١) مرت هذه القصة من قبل

(٢) بياض بالاصل

(٣) كذا

آفة الا ويستحقها غير أن تلك الآفات المجازي بها غائبة عنا ورأينا الجزاء .

فسلم تسلم ، واحذر كلمة اعتراض أو إضمار ، فربما أخرجتك من دائرة الاسلام .

٣٥٨ ـ الناس في الآخرة ، مثل الناس يوم العيد في الدنيا

رأيت الناس يوم العيد فشبهت الحال بالقيامة فانهم لما انتبهوا من نومهم خرجوا الى عيدهم كخروج الموتى من قبورهم الى حشرهم ، فمنهم من زينته الغاية ومركبه النهاية ، ومنهم المتوسط ، ومنهم المرذول ، وعلى هذا أحوال الناس يوم القيامة . قال تعالى « يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا » أي ركبانا « ونسوق المجرمين الى جهنم وردا » أي عطاشا . وقال عليه الصلاة والسلام : يحشرون ركبانا ومشاة وعلى وجوههم.

ومن الناس من يداس في زحمة العيد ، وكذلك الظلمة يطؤهم الناس بأقدامهم في القيامة . ومن الناس يوم العيد الغني المتصدق ، كذلك يوم القيامة أهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة . ومنهم الفقير السائل فقد يعطى « أعددت شفاعتي لاهل الكبائر » . ومنهم من لايعطف عليه « فما لنا من شافعين ولا صديق حميم »

والاعلام منشورة في العيد . كذلك أعلام المتقين في القيامة والبوق يضرب ، كذلك يخبر بحال العبد فيقال : يا أهل الموقف ان فلانا قد سعد سعادة لاشقاوة بعدها ، وان فلانا قد شقي شقاوة لاسعادة بعدها .

ثم يرجعون من العيد بالخواص الى باب الحجرة يخبرون بامتثال الاوامر « اولئك المقربون » ، فيخرج التوقيع اليهم « وكان سعيهم مشكوراً » ، ومن هو دونهم يختلف حاله ، فمنهم من يرجع الى بيت عامر « بما أسلفتم في الايام الخالية » ومنهم متوسط . ومنهم من يعود الى بيت قفر « فاعتبروا يا أولي الالباب » .

٣٥٩ ـ نصيحة للعلماء والزهاد

ياقوم قد علمتم أن الاعمال بالنيات . وقد فهمتم قوله تعالى « ألا لله الدين الخالص » وقد سمعتم عن السلف انهم كانوا لا يعملون ولا يقولون حتى تتقدم النية وتصح . أيذهب زمانكم يافقهاء في الجدل والصياح ؟ وترتفع اصواتكم عند اجتماع العوام تقصدون المغالبة ؟ أو ما سمعتم : من طلب العلم ليباهي به العلماء ، أو ليماري به السفهاء ، او ليصرف به وجوه الناس

اليه ، لم يرح رائحة الجنة ؟ ثم يقدم أحدكم على الفتوى وليس من أهلها ، وقد كان السلف يتدافعونها .

ويامعشر المتزهدين انه يعلم السر وأخفى أتظهرون الفقر في لباسكم وانتم تستوفون شهوات النفوس ؟ وتظهرون التخاشع والبكاء في الجلوات دون الخلوات ؟ كان ابن سيرين يضحك ويقهقه فاذا خلا بكى أكثر الليل . وقال سفيان لصاحبه : ما أوقحك تصلي والناس يرونك .

أفدي ظباء فلاة ماعرفن بها   مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب

آه للمرائي من يوم « وحصل مافي الصدور » وهي النيات. فأفيقوا من سكركم ، وتوبوا من زللكم ، واستقيموا على الجادة « ان تقول نفس ياحسرتا على ما فرطت في جنب الله »

٣٦٠ـ اكثر الناس حائدون عن الشريعة وكذلك العلماء والزهاد

رأيت جمهور الناس حائدين عن الشريعة جارين على ماألفوا من العادة . وقد يخلص منهم فريقان علماء وعبّاد فتأملت جمهور العلماء فرأيتهم في تخليط :

منهم من يقتصر على علم معاملات الدنيا ويعرض عن معاملات الآخرة ، إما لجهله بها ، أو لثقل امرها عليه ، فهو يجري على مايثقل عليه مما يوجبه العلم ، ويتبع في الباقي العادات

وربما تخايل انه يسامح في الخطايا لكونه عالماً ، وقد نسي أن العلم حجة عليه .

ومنهم من هو واقف مع صورة العلم ، غافل عن المقصود بالعلم .

وفيهم من يخالط السلطان ؟ فيتأذى المخالط بما يرى من الذنوب والظلم ولا يمكنه الانكار ، وربما مدح . ويتأذى السلطان فيقول : لو لا اني على صواب ما جالسني هذا . ويتأذى العوام فيقولون : لولا أن أمر السلطان قريب ما خالطه هذا العالم[1] ورأيت الاشراف يثقون بشفاعة آبائهم وينسون أن اليهود من بني اسرائيل .

وأما الفريق الثاني وهم العبّاد فرأيت أكثرهم في تخليط . أما الصحيحو القصد منهم فعلى غير الجادة في اكثر عملهم ، قد وضع لهم جماعة من المتقدمين كتباً فيها دفاين قبيحة ، واحاديث غير صحيحة ، ويأمرون فيها باشياء تخالف الشريعة ، مثل كتب الحارث المحاسبي ، وأبي عبد الله الترمذي ، وقوت القلوب لابي طالب المكي ، وكتاب الاحياء لابي حامد الطوسي[2]

---

(١) مرت هذه المعاني كلها من قبل

(٢) في هذه الكتب احاديث لم تصح وفيها شيء مما قال ، ولكن فيها خيراً كثيراً وفيها تهذيب للنفس ، وفيها دلالة على الله ، ولولا ان الاحياء كتاب لانظير له ما عني المؤلف نفسه واتبعها باختصاره في كتابه « منهاج القاصدين »

فاذا فتح المبتدي عينه وهمّ بسلوك الطريق بهذه الكتب فحملته الى الخطايا ، لانهم قد بنوا على احاديث محالة ويذمون الدنيا ولايدرون ما المذموم منها ، فيتصور المبتدي ذم ذات الدنيا ، فيهرب المنقطع الى الجبل ، وربما فاتته الجماعة والجمعة ، ويقتصر على البلوط والكمثرى فيورثه القولنج ، ويقنع بعضهم بشرب اللبن فينحل الطبع ، أو يأكل الباقلاء والعدس فيحدث له قراقر .

وانما ينبغي لقاصد الحج أن يرفق اولا بالناقة ليصل . الا ترى الفطن من الاتراك يهتم بفرسه قبل تحصيل قوت نفسه وربما تصدى القاصّ لشرح احوال قوم من السلف والمتزهدين فيتبعهم المريد فيتأذى بذلك . ومتى رددنا ذلك المنقول وبينا خطأ فاعله قال الجهال : أترد على الزهاد ؟ وانما ينبغي اتباع الصواب ولاينظر الى أسماء المعظمين في النفوس .

فانا نقول : قال ابو حنيفة ثم يخالفه الشافعي وانما ينبغي ان يتبع الدليل .

قال المروزى : مدح احمد بن حنبل النكاح فقلت له قد قال ابراهيم بن أدهم : فصاح وقال : وقعنا في بنيات الطريق عليك بما كان عليه رسول الله ﷺ واصحابه .

وتكلم احمد في الحارث المحاسبي ورد على سري السقطي

حين قال : لما خلق الله الحروف وقف الالف وسجدت الياء . فقال : نفّروا الناس عنه .

فالحق لاينبغي أن يحابى فانه جد ، واني ارى أكثر الناس قد حادوا عن الشريعة ، وصار كلام المتزهدين كأنه شريعة لهم ، فيقال : قال أبو طالب المكي ، كان من السلف من يزن قوته بكَرَبَة فينقص كل يوم .

وهذا شيء ماعرفه رسول الله ﷺ ولا أصحابه وانما كانوا يأكلون دون الشبع . فأما الحمل على النفس بالجوع فمنهيٌ عنه . ويقول قال داود الطائي لسفيان : اذا كنت تشرب الماء البارد متى تحب الموت ؟

وكان ماؤه في دن . وماعلم أن للنفس حظاً ، وان شرب الماء الحار يرهّل المعدة ويؤذي ، وان رسول الله ﷺ كان يبرد الماء ، ويقول آخر منهم : منذ خمسين سنة أشتهي الشواء ماصفا لي درهمه . ويقول آخر : أشتهي أن أغمِس جزرة في دبس فما صح لي .

أتراهم ارادوا حبة منذ خرجت من المعدن مادخلت في شبهة ؛ هذا شيء مانظر فيه رسول الله ﷺ وان كان الورع حسناً . ولكن لاعلى حمل المشاق الشديدة . وهذا بشر الحافي يقول : لاأحدث لاني أشتهي أن احدث . وهذا تعليل لايصلح ، لان الانسان مأمور بالنكاح ، وهو من أكبر المشتهى .

وكان بشر حافياً حتى قيل له الحافي ، ولو ستر أمره بنعلين كان أصلح ، والحفا يؤذي العين ، وليس من أمر الدنيا في شيء . فقد كان لرسول الله ﷺ نعلان وما كانت سيرة رسول الله ﷺ واصحابه على ماالمتزهدون عليه اليوم . فقد كان رسول الله ﷺ يضحك ويمزح ويختار المستحسنات ويسابق عائشة رضي الله عنها . وكان يأكل اللحم ، ويحب الحلوى ، ويُستعذب له الماء . وعلى هذا كان طريقة أصحابه . فأظهر المتزهدون طرائق كأنها ابتداء شريعة ، وكلها على غير الجادة . ويحتجون بقول المحاسبي والمكي ، ولايحتج أحد منهم بصحابي ولا تابعي ولاباِمام من أئمة الاسلام فان رأوا عـالماً لبس ثوبا جميلا أو تزوج مستحسنة ، أو أفطر بالنهار ، أو ضحك ، عابوه . فينبغي أن يعلم أن اكثر من صح قصده منهم على غير الجادة لقلة علمهم ، حتى أن بعضهم يقول : منذ ثمانين سنة ماضطجعت . ويقول آخر : حلفت لاأشرب الماء سنة . وهؤلاء على غير الصواب ، فان للنفس حقاً ، فأما من ساء قصده ممن نافق وراءى لاجتلاب الدنيا وتقبيل الايدي فـلا كلام معه ، وهم جمهور المتصوفة ، فانهم رقّعوا الثياب الملونة ليراهم النـاس بعين الترك للزينة ، وماممهم احسن من السفلاطون[1] ، وإنما رقع القدماء للفقر .

---

(١) كذا

فهم في اللذات وجمع المـــال واخذ الشبهات واستعمال الراحة واللعب ومخالطة السلاطين . وهؤلاء قـد كشفوا القناع وباينوا زهد أوائلهم ، بلي ، أعجب منهم من يَنْفق هذا عليه .

٣٦١ ـ تشبيه أحوال الآدمي بأطوار القمر ودود القز

ان الله عزوجل جعل احوال الآدمي امثلة ليعتبر بها . فمن أمثلة احواله القمر الذي يبتدىء صغيراً ثم يتـكامل بدراً ، ثم يتناقص بانمحاق . وقد يطرأ عليه مايفسده كالكسوف . فكذلك الآدمي أوله نطفة ، ثم يترقى من الفساد الى الصلاح . فاذا تم كان بمنزلة البدر الـكامل ، ثم تتناقص احواله بالضعف فربما هجم الموت قبل ذلك هجوم الكسوف على القمر . قال الشاعر :

والمرء مثل هلال عند طلعته ... يبدو ضئيلاً لطيفاً ثم يتّسق
يزداد حتى اذا مـاتم أعقبه ... كرالجديدين نقصاً ثم ينمحق

ومن أمثلة حاله ، دود القز فانه يكون حياً الى أن يبتدىء نبات قوته وهو ورق الفرصاد[1] ، فـاذا اخضر الورق دبت الروح فيه ثم ينتقل من حال الى حال كانتقال الطفل . ثم يرقد كغفلة الآدمي عن النظر في العواقب ، ثم ينتبه فيحرص على

---

(١) التوت

الاكل كحرص الشره على تحصيل الدنيا ، ثم يسدّ على نفسه كما يحطب الآدمي الاوزار على دينه ، فيرتهن في ذلك الحبس كما يرتهن الميت في قبره . ثم يقرض فيخرج خلقـا آخر كما تنشر الموتى غرْلاً بُهماً ، وقد دله على البعث تكوّن النطفة كالميت، ثم تصير آدمياً ، وإلقاء الحب تحت الارض فيفسد ثم يهتز خضراً .

اذا المرء كانت له فكرة ففي كل شيء له عبرة

٣٦٢ ـ المذنب لاينظر في العواقب لقلة عقله

انما فضل العقل بتأمل العواقب . فأما القليل العقل فانه يرى الحال الحاضرة ، ولا ينظر الى عاقبتها ، فان اللص يرى أخذ المال وينسى قطع اليد . والبطال يرى لذة الراحة وينسى ماتجني من فوات العلم وكسب المال . فاذا كبر فسئل عن علم لم يدر ، واذا احتاج سأل فذل ، فقد أربى ماحصل له من التأسف على لذة البطالة . ثمّ يفوته ثواب الآخرة بترك العمل في الدنيـا . وكذلك شارب الخمـــر ، يلتذ تلك الساعة وينسى مايجني من الآفات في الدنيا والآخرة . وكذلك الزنا ، فان الانسان يرى قضاء الشهوة ، وينسى مايجني منه فضيحة الدنيا والحد[1] ، وربما كان للمرأة زوج فألحقت الحمل من هذا به وتسلسل الامر .

---

(١) اعاد هذه المعاني مراراً

فقس على هـذه النبذة وانتبه للعواقب ، ولاتؤثر لذة تفوّت خيراً كثيراً ، وصابر مشقة تحصل ربحاً وافراً .

٣٦٣ - على العالم والزاهد القناعة بالكفاف

ليس في الدنيا عيش إلا لعالم أو زاهد . بلى ، قد يقع في صفاء حالهما كدر . وهو أن العالم يشتغل بالعلم أو بالانقطاع عن الكسب ، وقد يكون له عائلة ، فربما تعرّض بالسلطان [١] ففسد حاله . وكذلك الزاهد . فينبغي للعالم والعابد أن يحوكا في معاش كنسخ بأجرة ، أو عمل الخوص ، أو إن فتح له بشيء واقتنع باليسير ، فلا يستعبده أحد . كما كان أحمد بن حنبل له اجرة [٢] لعلها لاتبلغ ديناراً يتقوت بها . ومتى لم يقنع أفسدت مخالطة السلاطين والعوام دينه .

وفي الناس من يريد التوسع في المطاعم . ومنهم من لا يوافقه خشن العيش . وهيهات أن يصح الدين مع تحصيل اللذات . واذا قنع العالم والزاهد بما يكفي ، لم يتبذل للسلطان ، ولم يستخدم بالتردد الى بابه ، ولم يحتج الزاهد إلى تصنع ، والعيش اللذيذ للمنقطع الذي لايتبذل به ولايحمل منة .

---

(١) تعرض له (٢) من دار له يؤجرها

٣٦٤ ـ التفاوت في الفهم والتفكير

ما أكثرَ تفاوتَ الناس في الفهوم ، حتى العلماء يتفاوتون التفاوت الكثير في الاصول والفروع ، فترى أقواماً يسمعون أخبار الصفات فيحملونها على مايقتضيه الحسّ كقول قائلهم : ينزل بذاته الى السماء وينتقل . وهذا فهم رديء ، لان المنتقل يكون من مكان الى مكان ويوجب ذلك كون المكان اكبر منه ويلزم منه الحركة وكل ذلك محال على الحق عز وجل.

واما في الفروع فكما يروى عن داود أنه قال في قوله : لايبولن أحدكم في الماء الدائم ثم يتوضأ منه .

فقال : ان بال غيره جاز [١] فما يفهم المراد من التنجيس بل يأخذ بمجرد اللفظ وكذلك يقول : لحم الخنزير حرام لاجلده.

نعوذ بالله من سوء الفهم

---

(١) داود امام الظاهرية والظاهرية « ومنهم ابن حزم ـ ومنهم من يتسمى في زماننا بأهل الحديث » هم اضيق الناس نظراً وأبعدهم عن فهم علل التشريع ، وعن حقيقة الفقه ، حتى بلغ الامر بابن حزم ان ألف كتاباً في ابطال القياس بزعمه ، ولو بطل القياس لبطلت تسعة اعشار احكام الشرع ، لان المعاملات كلها مبنية احكامها على القياس ، وبذلك كان الاسلام ديناً مرناً يصلح لكل زمان ومكان وهذه من مزايا الاسلام .

وكذلك يتفـــاوت الشعراء الذين شغلهم التفطن لدقائق الاحوال كقول قائلهم :

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى ... واسيافنا يقطرن من نجدة دما

والجفنات عدد يسير فلو قال الجِفان لـكان أبلغ . ولوقال بالدجى لـكان أحسن ، ويقطرن دليل على القـلة وكـذلك قول القائل :

همها العطر والفراش ويعلو ... ها لجين ولؤلـــؤ منظوم

وهذا قاصر ، فانه لوفعلت هذا سوداء لحسنها . إنما المادح هو القائل :

ألم تر اني كلما جئت طارقاً ... وجدت بها طيباً وان لم تطيّب

وكذا قول القائل :

أدعو الى هجرها قلبي فيتبعني ... حتى اذا قلت هذا صادق نزعا

ولو كان صادقاً في المحبة لما كان له قلب يخاطبـه . واذا خاطبه في الهجر لم يوافقه . انما المحب الصادق هو القائل :

يقولون لوعاتبت قلبك لارعوى ... فقلت : وهل للعاشقين قلوب؟

ومثل هذا اذا نوقش كثير . فأقل موجود في النـــاس الفهم والغوص على دقائق المعاني .

٣٦٥ ـ لذات الدنيا غير صافية

من تأمل الدنيا علم أنه ليس فيها لذة أصلاً ، فان وجدت لذة شيبت بالنغص التي تزيد على اللذة أضعافاً .

فمن اللذات النساء فربما لم تثبت المستحسنة ، وربما لم تحب الزوج ، فمتى علم ذلك تعزل عنها ، وربما خانت ، وذلك الهلاكُ . فان تمت المرادات فذكر الفراق زائد في التألم على الالتذاذ .

ومن اللذات الولد ومقاساة البنت الى ان تتزوج ، وما تلقى من زوجها وخوف عارها محن قبيحة . والابن ان مرض ذاب الفؤاد ، وان خرج عن حد الصلاح زاد الاسف ، وان كان عدواً فمراده هلاك الاب ، ثم إن تم المراد فذكر فراقه يذيب القلوب . ولو أن فاسقاً أحب بعض المرد انتهك عرضه في الدنيا وذهبَ دينه ، ثم لايلبث ان تتغير حليته فيصير مبغوضاً مع ما سبق من الهتكة والاثم .

وكم قد غلبت شهوة رجل وطىء الجواري السود فجاء الولد أسود فبقي عاراً عليه .

ومن هذا الجنس الالتذاذ بالمال ، وفي تحصيله آثام ، وفراقه حسرة ، وذهاب العمر فيه غبينة . وهذا أنموذج لما

لم يذكر . فينبغي لمن وفقه الله سبحانه أن يأخذ الضروري الذي يميل الى سلامة الدين والبدن والعافية ، ويهجر الهوى الذي نُغَصُهُ تتضاعف على لذته ، ومن صبر على مايكره قصدَ النفعِ في العاقبة التذ أضعافاً ، كطالب العلم فانه يتعب يسيراً ، وينال خير الدارين ، مع سلامة العاقبة . ولذة البطالة تعقب عدم العلم والعمل فيزيد الاسى على اللذة أضعافاً فالله الله أن يغلبك هواك العاجل . ومتى هم الهوى بالتوثب فامنعه وزن عاجله بآجله . وما يتذكر إلا أولوا الالباب .

٣٦٦ ـ الرد على المتكلمين والمعتزلة والمبتدعة

رأيت ابليس قد احتال بفنون الحيل على الخلق ، وأمال أكثرهم عن العلم الذي هو مصباح السالك ، فتركهم يتخبطون في ظلمات الجهل ، وشغلهم بأمور الحسّ ، فهم يحسّنون ما يحسّنه الحسّ ولا يلتفتون الى مشورة العقل . فاذا ضاق بأحدهم عيشه أو نكب اعترض فكفر .

فمنهم من ينسب ذلك الى الدهر . ومنهم من يسب الدنيا وهذا تسقيف[1] لان الدهر والدنيا لايفعلان وانما هو عيب للمقدر.

---

(١) كذا ، وماعرفت لهامعنىهنا ولعلهامن عامية زمانه او لعلها مما حرف النساخ.

ومنهم من يخرجه الامر الى جحد الحكمة ، فيقول : أي فائدة في نقض المبنى ؟ وزعم بعضهم أنه لايتصور عود المنقوض، وأنكروا البعث . ويقولون : ما جاء من ثَمّ أحد ! ونسوا أن الوجود ما انتهى بعدُ ولو حلفت لصار الايمان بالغيب عياناً ولا يصلح أن يدل على الاحياء بالاحياء .

ثم نظر ابليس فرأى في المسلمين قوماً فيهم فطنة فأراهم أن الوقوف على ظواهر الشريعة حالة يشاركهم فيها العوام . فحسن لهم علوم الكلام وصاروا يحتجون بقول بقراط وجالينوس وفيثاغورس[1] ، وهؤلاء ليسوا بمتشرعين ولا تبعوا نبينا ﷺ . انما قالوا بمقتضى ما سولت لهم أنفسهم .

وقد كان السلف اذا نشأ لأحدهم ولد شغله بحفظ القرآن وسماع الحديث ، فيثبت الايمان في قلبه . فقد توانى الناس عن هذا فصار الولد الفطن يتشاغل بعلوم الاوائل[2] وينبذ أحاديث الرسول ﷺ . ويقول أخبار آحاد . وأصحاب الحديث عندهم يسمون حشوية[3] . ويعتقد هؤلاء ان العلم الدقيق علم الطفرة

---

(١) كاحتجاج شباب اليوم بديكارت وداروين وبركسون ، يردون الحق ان جاء على لسان شيخ او فقيه ، ويقبلون الباطل ان جاء على لسان مستر او مسيو.

(٢) وربما عمد الاب المسلم في ايامنا الى تسليم ولده او بنته الى الرهبان والراهبات

(٣) الحشوية في اصطلاح علمائنا الذين يقفون في العقائد عند ظواهر الادلة ـ

والهيولى والجزء الذي لايتجزأ ، ثم يتصاعدون الى الكلام في صفات الخالق ، فيدفعون ماصح عن رسول الله ﷺ بواقعاتهم ، فيقول المعتزلة إن الله لا يُرى لأن المرئيّ يكون في جهة ، ويخالفون قول رسول الله ﷺ : انكم ترون ربكم كما ترون القمر لا تضامون في رؤيته [1] . فأوجب هذا الحديث إيثار رؤيته وان عجزنا عن فهم كيفيتها .

وقد عُزل هؤلاء الاغبياء عن التشاغل بالقرآن ، وقالوا : مخلوق ، فزالت حرمته من القلوب . وعن السنة قالوا : أخبار آحاد . وانما مذاهبهم السرقة من بقراط وجالينوس .

وقد استفاد من تبع الفلاسفة أنه يرفه نفسه عن تعب

ـ فيشبهون ويقولون ان الله في السماء حقيقة وان له يداً حقيقية وامثال هذا مما يكثر المؤلف الردّ عليه هنا وفي كتابه « دفع شبهة التشبيه » اما ان يقال لاهل الحديث جميعاً « حشوية » فمعاذ الله، ولولا اهل الحديث ماحفظ الدين ، ولا نقلت السنة ، ولا عرف حلال من حرام .

(١) الحديث أولاً حديث آحاد ، يعمل بمثله بغلبة الظن ولكن لايفيد العلم ولا تثبت بمثله عقيدة لأنه لايقطع بأنه صلى الله عليه وسلم قاله ، والله لايرى مثل رؤيتنا هذه،لأن الرؤية ارتسام صورة الجسم على شبكية العين والله ليس بجسم ، اما ان كانت الرؤية على شكل آخر ، وهــذا هو المراد ان صح الحديث «لان امور الآخرة لاتقاس على امور الدنيا » فلا ننازع فيه ، ونؤمن به من غير بحث عن كيفيته وحقيقته .

الصلاة والصوم ، وقد كان كبار العلماء يذمون علم الكلام ، حتى قال الشافعي : حكمي فيهم ان يركبوا على البغال ويشهروا ويقال : هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة واشتغل بالكلام .

وقد آل بهم الامر الى أن اعتقدوا أن من لم يعرف تحرير دليل التوحيد فليس بمسلم .[١]

فالله الله من مخالطة المبتدعة . وعليكم بالكتاب والسنة ترشدوا .

٣٦٧ ـ الزمان أشرف من أن يضيع فيما لا ينفع

رأيت العادات قد غلبت الناس في تضييع الزمان وكان القدماء يحذرون من ذلك ، قال الفضيل : أعرف من يعدّ كلامه من الجمعة الى الجمعة .

ودخلوا على رجل من السلف فقالوا : لعلنا شغلناك فقال : أصدقكم كنت أقرأ فتركت القراءة لاجلكم . وجاء رجل من المتعبدين الى سريّ السقطي فرأى عنده جماعة فقال : صرتَ مناخ البطالين ، ثم مضى ولم يجلس .

ومتى لان المزور طمع فيه الزائر ، فأطال الجلوس فلم يسلم من أذى . وقد كان جماعة قعوداً عند معروف فأطالوا فقال : ان ملَك الشمس لايفتر في سوقها أفما تريدون القيام ؟

(١) المؤلف نفسه قال هذا في الفصل « ٢٢١ » ورددت عليه في الحاشية

وممن كان يحفظ اللحظات عامر بن عبد قيس ، قال له رجل قف أكلمك ، قال : فأمسك الشمس . وقيل لكُرز ابن وبرة : لو خرجت الى الصحراء ، فقال : يبطل الزوجار[١] وكان داود الطائي يستف الفتيت ويقول : بين سف الفتيت وأكل الخبز قراءة خمسين آية . وكان عثمان الباقلاوي دائم الذكر لله تعالى ، فقال : اني وقت الافطار أحس بروحي كأنها تخرج لاجل اشتغالي بالاكل عن الذكر[٢] .

وأوصى بعض السلف أصحابه فقال : اذا خرجتم من عندي فتفرقوا لعل أحدكم يقرأ القرآن في طريقه ، ومتى اجتمعتم تحدثتم . واعلم ان الزمان أشرف من أن يضيّع منه لحظة ، فان في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : من قال سبحان الله العظيم وبحمده غرست له بها نخلة في الجنة . فكم يضيع الآدمي من ساعات يفوته فيها الثواب الجزيل . وهذه الايام مثل المزرعة ، فكأنه قيل للانسان : كلما بذرت حبة أخرجنا لك ألف كرّ . فهل يجوز للعاقل ان يتوقف في البذر ويتوانى ؟

والذي يعين على اغتنام الزمان الانفراد والعزلة مهما أمكن،

---

(١) كذا ولم اعرف ماهو

(٢) اذا نوى بالاكل التقوى على الطاعة ولحظ حمد الله عليه كان اكله ذكراً

والاختصار على السلام أو حاجة مهمة لمن يلقى ، وقلة الاكل فان كثرته سبب النوم الطويل وضياع الليل . ومن نظر في سير السلف وآمن بالجزاء بان له ماذكرته .

٣٦٨ - كيف يجب ان تعاشر النساء

ينبغي للعاقل ان يتخير امرأة صالحة من بيت صالح يغلب عليه الفقر لترى ما يأتيها به كثيراً . وليتزوج من يقاربه في السن . فأما الشيخ فانه اذا تزوج صبيةآذاها ، وربمافجرت أو قتلته أو طلبت الطلاق وهو يحبها فيتأذى . وليتمم نقصه بحسن الاخلاق وكثرة النفقة . ولا ينبغي للمرأة أن تقرب من زوجها كثيراً فتمل ، ولا تبعد عنه فينساها . ولتكن وقت قربها اليه كاملة النظافة متحسنة ، ولتحذر أن يرى فرجها أو جسمها كله فان جسم الانسان ليس بمستحسن[1] . وكذلك ينبغي له أن لايريها جسمه وانما الجماع في الفراش .

ورأى كسرى يوماً كيف يسلخ الحيوان ويطبخ فتقلبت نفسه ونفى اللحم . فذكر ذلك لوزيره ، فقال : أيها الملك ، الطبيخ على المائدة، والمرأة في الفراش . ومعناه لاتفتش عن ذلك .

قالت عائشة رضي الله عنها : مارأيته من رسول الله ﷺ

---

(١) من قال هذا ؟

ولاراَه مني ، وقام ليلة عريانا فما رأيت جسمه قبلها . وهذا الحزم . وكذلك يعجب الرجل بالمرأة لأنه لم ير عيوبها . وليكن للمرأة فراش وله فراش ، فلايجتمعان إلا في حال الكمال. ومن الناس من يستهين بهذه الاشياء فيرى المرأة متبذلة تقول : هذا أبو أولادي . ويتبذل هو . فيرى كل واحد من الآخر مالا يشتهي فينفر القلب وتبقى المعاشرة بغير المحبة . وهذا فصل ينبغي تأمله والعمل به فانه أصل عظيم .

٣٦٩ ـ فائدة القناعة للعالم والزاهد

لاعيش في الدنيا الا للقنوع باليسير ، فانه كلما زاد الحرص على فضول العيش زاد الهم وتشتت القلب ، واستعبد العبد . وأما القنوع فلايحتاج الى مخالطة من فوقه ولا يبالي بمن هو مثله ، اذ عنده ماعنده . وان أقواما لم يقنعوا وطلبوا لذيذ العيش فأزروا بدينهم وذلوا لغيرهم ، وخصوصاً أرباب العلم فانهم ترددوا الى الامراء فاستعبدوهم ، ورأوا المنكرات فلم يقدروا على انكارها ، وربما مدحوا الظالم اتقاء لشره . فالذي نالهم من الذل وقلة الدين اضعاف ما نالوا من الدنيا . ومن أقبح الناس حالا من تعرض للقضاء والشهادة ولقد كانتا مرتبتين حسنتين ، وكان عبد الحميد القاضي لايحابي . فبعث الى المعتضد ،

وقال له : قد استأجرت وقوفاً فأد أجرتها ففعل . وقال له المعتضد : قد مات فلان ولنا عليه مال.

فقال : أنت تذكر لما وليتني قلت لي ، قد أخرجت هذا الامر من عنقي ووضعته في عنقك ولا أقبل هذا إلا بشاهدين.

وكذلك كان الشهود ، دخل جماعة على بعض الخلفاء فقال الخادم : اشهدوا على مولانا بكذا فشهدوا ، فتقدم الجذوعي الى الستر فقال : ياأمير المؤمنين أشهد عليك بما في هذا الكتاب فقال : اشهد ، قال : انه لايكفي في ذلك ، لا أشهد حتى تقول : نعم [١].

قال : نعم

فأما في زماننا فتغيرت تلك القواعد من الكل ، خصوصاً من يتقرب بالمال ليستشهد فتراه يُسحب ليشهد على مالايرى .

قال لي أبو المعالي بن شافع : كنت أحمل الى بعض أهل السواد وهو محبوس وأشهد عليه ، وأعلم أنه لولا انه مكره لجاء الي بقدميه . وأنا استغفر الله من ذلك . وليس للشهود جراية فيحملون ذلك لاجلها ، وانما الذي يحصل جر الطيلسان ، وظرق الباب ، وقول المعرّف : حرس الله نعمتك شهادة .

---

(١) قوله « اشهد » ادل على القصد واصرح من قوله « نعم »

ولما قيل لابراهيم النخعي : تكون قاضيا لبس قميصاً أحمر وجلس في السوق ، فقالوا : هذا لايصلح .

ودخل بعض الكبار على الرشيد وقد أحضره ليوليه القضاء فسلم وقال له : كيف أنت وكيف الصبيان ؟ فقيل : هذا مجنون . فيالله جنون هو العقل . وماأظن الايمان بالآخرة الا متزلزلا في اكثر القلوب . نسأل الله سبحانه سلامة الدين فانه قادر .

٣٧٠ - مع كل فرحة في الدنيا ترحة

قد تكرر معناه في هذا الكتاب ، إلا أن اعادته على النفوس مهمة لئلا يُغفل عن مثله . ينبغي للمؤمن أن يعلم أن الله سبحانه مالك حكيم لايعبث . وهذا العلم يوجب نفي الاعتراض على القدر . وقد لهج خلق بالاعتراض قدحا في الحكمة ، وذلك كفر . وأولهم ابليس في قوله : « خلقتني من نار وخلقته من طين » ومعنى قوله أن تفضيلك الطين على النار ليس بحكمة . وقد رأيت من كان فقيها دأبه الأعتراض ، وهذا لان المعترض ينظر الى صورة الفعل ولو أن صورة الفعل صدرت من مخلوق مثلنا حسن ان يعترض عليه ، فاما من نقصت الافهام عن مطالعة حكمته فاعتراض الناقص الجاهل عليه جنون . فاما

اعتراض الخلعاء فدائم ، لانهم يريدون جريان الامور على أغراضهم ، فمتى انكسر لاحدهم غرض اعترض . وفيهم من يتعدى الى ذكر الموت فيقول : « بنى ونقض ! » وكان لنا رفيق قرأ القرآن والقراءات وسمع الحديث الكثير ، ثم وقع في الذنوب وعاش أكثر من سبعين سنة ، فلما نزل به الموت ذُكر لي أنه قال : قد ضاقت الدنيا إلا من روحي .

ومن هذا الجنس سمعت شخصاً يقول عند الموت : ربي يظلمني . وهذا كثير .

ويكره أن يحكى كلام الخلعاء في جنونهم واعتراضاتهم الباردة . ولو فهموا أن الدنيا ميدان مسابقة ، ومارستان[1] صبر ليبين بذلك أثر الخالق لما اعترضوا . والذي طلبوه من السلامة وبلوغ الاغراض امامهم لو فهموا[2] فهم كالزوورجاري يتلوث بالطين فاذا فرغ لبس ثياب النظافة . ولما أريد نقض هذا البدن الذي لايصلح البقاء نحيت عنه النفس الشريفة ثم بني بناء يقبل الدوام . وبعد هذا فقل للمعترض : « فليمدد بسبب الى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده مايغيظ » قل له : إن اعترض لم يمنع ذلك جريان القدر وإن سلم جرى

(١) مارستان « بيمارستان » بمعنى مستشفى وعند العامةاليوم « دار المجانين »
(٢) اي ان السلامة وبلوغ الاغراض انما تكون يوم القيامة

القدر ، فلأن يجرى وهو مأجور خير من ان يجري وهو مأزور . وما احسن سكوت وضاح اليمن لما اختبأ في صندوق فقال السلطان : أيها الصندوق ان كان فيك مانظن فقد محونا أثرك ، وان لم يكن فليس بدفن خشب من جناح ، فلو أنه صاح ما انتفع بشيء ، ولربما أخرج فقتل أقبح قتلة[1] .

٣٧١ ـ افراح الدنيا لا تصفو من الاكدار

من تلمح أحوال الدنيا علم أن مراد الحق سبحانه وتعالى اجتنابها . فمن مال الى مباحها ليلتذ وجد مع كل فرحة ترحة ، والى جانب كل راحة تعباً ، وآخر كل لذة نغصاً يزيد عليها ، ومارفع شيء من الدنيا إلا ووضع ، أحب الرسول ﷺ عائشة رضي الله عنها فجاء حديث الافك ، ثم يكفي أنه اذا حصل محبوبه فعين العقل ترى فراقه فيتنغص عند وجوده كما قال الشاعر :

أتم الحزن عندي في سرور   تيقن عنه صاحبه انتقالا

فيعلم العاقل ان مراد الحق بهذا التكدير التنفير عن الدنيا ، فيبقى أخذ البلغة منها ضرورة ، وترك الشواغل ، فيجتمع الهم في خدمة الحق ، ومن عدل عن ذلك ندم على الفوات .

---

(١) قصة وضاح اليمن قصة خبيثة مكذوبة وضعت للطعن في العرب والمسلمين .

٣٧٢ ـ احفظ مالك وتوسط في الانفاق واكتم امر معيشتك

العاقل يدبر بعقله عيشته في الدنيا ، فان كان فقيرا اجتهد في كسب وصناعة تكفه عن الذل للخلق ، وقلل العلائق واستعمل القناعة فعاش سليما من منن الناس عزيزاً بينهم ، وان كان غنيا فينبغي له أن يدبر في نفقته خوف أن يفتقر فيحتاج الى الذل للخلق ، ومن البلية أن يبذر في النفقة ويباهي بها ليكمد الاعداء كأنه يتعرض بذلك (إن اكثر) لاصابته بالعين ، وينبغي التوسط في الاحوال ، وكتمان ما يصلح كتمانه ، ولقد وجد بعض الغسالين مالا فاكثر النفقة فعلم به فأخذ منه المال، وعاد الى الفقر ، وانما التدبير حفظ المال ، والتوسط في الانفاق، وكتمان مالا يصلح اظهاره ، ومن الغلط اطلاع الزوجة على قدر المال ، فانه ان كان قليلا هان عندها الزوج ، وان كان كثيرا طلبت زيادة الكسوة والحلي ، قال الله عز وجل : « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم » ، وكذلك الولد ، وكذلك الاسرار ، ينبغي أن تحفظ منها ومن الصديق ، فربما انقلب فقد قال الشاعر :

احذر عدوك مرة واحذر صديقك الف مرة

فلربما انقلب الصديق فكان اعلم بالمضرة

بحمد الله تعالى قد نجز ماتوخاه الفكر الفاتر من تقييد ماجمعه القلم من صيد الخاطر ، مقتصراً فيه على مابه التخلي من الامراض النفسية والتحلي بالآداب الشرعية ، والاخلاق المرضية ، جعله الله خير هاد على منبر الوعظ والارشاد ، وانفع كتاب تجلى في مرايا الظهور لهداية العباد .

والحمد لله اولاً وآخراً وصلى الله على سيدنا محمد
وعلى آله وصحبه وسلم

الفهارس

١ ـ الأعلام
٢ ـ الأمكنة
٣ ـ الأحاديث الشريفة
٤ ـ الأشعار
٥ ـ الموضوعات

فهرس الاعلام
(الأرقـــام للفصول)

(ب)

(ت)

(خ)

(د)

(ش)

(ص)

(غ)

(ف)

(ق)

فهرس الأمكنة

فهرس الاحاديث الشريفة

وقد علم عليها الاستاذ الشيخ ناصر الالباني (وهو المرجع اليوم في رواية الحديث في البلاد الشامية) مشيراً الى مافيها من الصحة او الضعف معتمداً في ذلك على حفظه ومالم يعلم عليه منها يكون قد توقف فية

اذا أملقتم فتاجروا الله بالصدقة (٢٩)
قال لكعب بن مالك : أمسك عليك بعض مالك (٣٤) صحيح
قال لسعد : لأن تترك ورثتك أغنياء خير من أن تتركهم عالة يتكففون الناس (٣٤) (٤١) صحيح
كفى بالمرء اثماً أن يضيع من يقوت (٣٤) صحيح
كل عمل ليس عليه أمرنا فهو ردّ (٣٦) صحيح
لايزال العبد في خير مالم يستعجل يقول دعوت فلم يستجب لي (٣٨) صحيح
ما زالت أكلة خيبر تعاودني حتى الآن قطعت أبهري(٤١)صحيح
ما نفعني مال كمال ابي بكر (٤١) صحيح
ان الموت يذبح بين الجنة والنار (٤٩)صحيح
ما انزل الله داء الا وانزل له دواء فتداووا (٥١) صحيح
قال عليه الصلاة والسلام لعلي بن أبي طالب : كُل من هذا فانه أوفق لك من هذا (٥١) صحيح
يدخل الجنة سبعون الفاً بلا حساب لايكتوون ولايسترقون ولايتطيرون وعلى ربهم يتوكلون (٥١) صحيح
يرفع يديه حتى تبين عفرة إبطية وكان ساقه ربما انكشف فكأنها جمارة وكان لايفارقه السواك وكان يكره أن يشم منه ريح ليست طيبة (٥٢) صحيح
وفي حديث أنس : ما شانه الله ببيضاء (٥٢) صحيح

مالـكم تدخلون عليّ "قلحاً ؟ استاكوا (٥٢)

أفي شك أنت ياعمر ؟ ألا ترضى ان تكون لنـــا الآخرة ولهم الدنيا ؟ (٥٤) صحيح

لو أن الدنيا تساوي عند الله جناح بعوضة ماسقى كافراً منها شربة ماء (٥٤) صحيح

لايزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبّه ، فاذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به (٥٥) رواه البخاري

لاتسافروا بالقرآن الى أرض العدوّ (٦١) صحيح

لايزيد المؤمن عمره إلا خيراً (٦٦)

ان من السعادة ان يطول عمر العبـــد ويرزقه الله عز وجل الانابة (٦٦)

أبى الله ان يرزق عبده المؤمن إلا من حيث لايحتسب (٦٧)

حديث الثلاثة الذين دخلوا الغار (٧٠) صحيح

تركتكم على بيضاء نقية (٧١) صحيح

ينزل الله الى السماء الدنيا ويبسط يده لمسيء الليل والنهار ويضحك ويغضب (٧١) صحيح

لاتسافروا بالقرآن الى أرض العدوّ (٧١) صحيح

اذا ضرب أحدكم فليجتنب الوجه ولا يقل قبّح الله وجهك ولا وجهاً أشبه وجهك (٧١) صحيح

ان آخر وطأة وطئها الله بوج (٧١)
اللهم اشدد وطأتك على مضر (٧١) صحيح
ان الله لايمل حتى تملّوا (٧١) صحيح
الرحمة شجنة من الرحمن تتعلق بحقوي الرحمن (٧١) صحيح
نهى أن يبيت الرجل وحده (٨٢) صحيح
لأن يهدي الله بك رجلاً خير لك مما طلعت عليه الشمس (٨٢)
من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين (٨٥) ضعيف
نعم المال الصالح للرجل الصالح (١٠١) صحيح
ما نفعني مال كمال أبي بكر (١٠١) صحيح
نهى عن اضاعة المال (١٠١) صحيح
اليد العليا خير من اليد السفلى (١٠١) صحيح
ضاق البلد بمواشي ابراهيم ولوط عليهما السلام فافترقا (١٠١) لا اعرفه
وهل كانت فتنة داود الا من النظر ؟ (حين أجلس الشاب الذي وفد عليه من وراء ظهره) (١٠١) ضعيف
ان رجلا كان يسأل الله عزوجل أن يرزقه الجهاد فهتف به هاتف انك ان غزوت أسرت وإن أسرت تنصرت (١٠٥)
مامن مسلم دعا الله تعالى الا وأجابه فامّا أن يعجلها وإمّا أن يؤخرها وإمّا أن يدّخرها له في الآخرة فاذا رأى يوم القيامة أن ما أجيب فيه قد ذهب ومالم يجب فيه قد بقي ثوابه قال ليتك لم تجب لي دعوة قط (١٠٥) ضعيف .

كان يعرف مجيئه بريح الطيب (١٠٨) صحيح
عليكم من العمل بما تطيقون (١١٨) صحيح
انه كان لعبد المطلب مفرش في الحجر فكان النبي ﷺ يأتيه وهو طفل فيجلس عليه فيقول عبد المطلب إن لابني هذا شأناً(١٢٠)
من أتى الجمعة فليغتسل (١٤٦) صحيح
ان لنفسك عليك حقاً (١٥٢) صحيح
(ان أبا بكر رضي الله عنه لما حلب له الراعي في طريق الهجرة صب الماء على القدح حتى برد اسفله ثم سقى رسول الله ﷺ وفرش له في ظل صخرة)، صحيح (وكان يستعذب لرسول الله ﷺ الماء) صحيح (وقال ان كان عندكم ماء بات في شن والا كرعنا) (١٥٢، ٣٤١) صحيح . «تنبيه» : هذه ثلاثة احاديث فتفرد عن بعضها
قال لعبد الله بن عمر : صم يوماً وافطر يوماً فقال أريد أفضل من ذلك قال لا أفضل (١٦١) صحيح

قم ونم (١٦١) صحيح
ان هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق، فان المنبت لا ارضاً قطع ولا ظهراً أبقى (١٧٠) ضعيف
بلّغوا عني (١٨١) صحيح
استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان (١٨٥) ضعيف
يقال الرجل : اقرأ وارق، فمنزلك عند آخر آية تقرؤها (١٩٢) صحيح
انما نفس المؤمن طائر تعلق في شجر الجنة حتى يرده الله عز رجل

الى جسده يوم بعثه (١٩٥)صحيح

ان لنفسك عليك حقاً ، وإن لزوجك عليك حقاً فصم وأفطر ، وقم ونم (١٩٩) صحيح

كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت (١٩٩) صحيح

إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده (٢٠٠) صحيح

من حديث ابن مسعود قال قلت يارسول الله أيما ذنب أعظم ؟ قال أن تجعل لله نداً وهو خلقك ، قلت ثم أي ؟ قال أن تقتل ولدك من أجل أن يطعم معك قلت ثم أي ؟ قال أن تزاني حليلة جارك (٢٠١) صحيح

لان يزني الرجل بعشر نسوة أيسر من ان يزني بامرأة جاره ، ولأن يسرق من عشرة أبيات أيسر عليه من ان يسرق من بيت جاره (٢٠١) صحيح

ان الله يبغض الشيخ الزاني (٢٠١) صحيح

من ظن أنه خير من غيره فقد تكبر (٢٠٢) لاأعرفه

إني عبد الله ولن يضيعنى (٢١٤)

مالي وللدنيا (٢١٤) صحيح

اللهم اهد قومي فانهم لايعلمون (٢١٤) ضعيف

اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً (٢١٤) (٢٣١) صحيح

أيما امرىء مسلم اشتهى شهوة فرد شهوته وآثر على نفسه غفر له (٢١٧) حديث موضوع

قدّم له أدمان فقال : أدمان في قدح ؟ لاحاجة لي فيه ، اكره أن يسألني الله عن فضول الدنيا (٢١٧) لم يصحّ

أكل البطيخ بالرطب (٢١٧) صحيح

رحم الله من أظهر من نفسه الجلد (٢٢٢)

لاخير في دين ليس فيه ركوع ولاسجود (٢٢٧)

ان من عباد الله من لو أقسم على الله لأبرّه (٢٢٨) صحيح

يشيب ابن آدم وتشب معه خصلتان : الحرص والامل (٢٤٣) صحيح

قال لمالك بن فضلة وقد رآه أشعث الهيئة : أمالك مال ؟ قال : بلى ، من كل المال آتاني الله عز وجل قال : فان الله عز وجل ، اذا انعم على عبد نعمة أحب ان ترى عليه (٢٤٧) انظر (٢٠٠) صحيح

كان يتوشح عائشة ويقبّلها ويمصّ لسانها (٢٥٥) صحيح الاالمصّ

صلاةَ مودّع (٢٥٨) صحيح

لبس الخاتم ثم رمى به وقال : شغلني نظري اليكم ونظري اليه (٢٥٩) صحيح

هذا رجل يتبختر في حلة مرجلاً جمّته خسف به الارض فهو يتجلجل فيها الى يوم القيامة (٢٥٩) صحيح

لبست عائشه درعاً لها فأعجبت به فقال لها : ان الله لاينظر اليك في حالتك هذه (٢٥٩) لا اعرفه

ولما لبس خميصة لها أعلام قال: ألهتني هذه عن صلاتي (٢٥٩) صحيح

من اكتسب مالاً من مأثم فوصل رحماً أو تصدّق به او انفقه في سبيل الله جمع ذلك جميعاً فقذف به في جهنم (٢٦٧) ضعيف

لو أن احدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوّة لخرج للناس كائنا ما كان (٢٦٨) ضعيف

من يؤويني ؟ من ينصرني ؟ (٢٧٠) صحيح

بينا رجل يتبختر في بردته خسف به (٢٨٠) صحيح

ما منكم من ينجيه عمله ، قالوا : ولا أنت ؟ قال ولا انا إلا ان يتغمدني الله برحمته (٢٨٨) صحيح

لعل الله اطلع الى اهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم (٢٩٠) صحيح

اللهم أدرْ معه (مع عليّ) الحق كيفما دار (٢٩٠)

قال في صلاة التطوع : اجعلوا هذه في البيوت (٢٩١) صحيح

لا تسبّوا الدهر فان الله هو الدهر (٢٩٨) صحيح

الاسواق تلهي وتلغي (٣٠٢) لا اعرفه

(رأى ستراً على بابه فهتكه وقال: مالي والدنيا)، (ولبس ثوبا له طراز فرماه وقال شغلتني اعلامه)، صحيح (ولبس خاتما ثم رماه وقال نظرت اليكم ونظرت اليه) ٣١٢ صحيح «تنبيه» هذه ثلاثة احاديث

الدعاء عبادة (٣١٣) صحيح

مامن ذنب بعد الشرك اعظم عندالله تعالى من نطفة وضعها رجل في رحم لاتحلّ له (٣١٥)

امتنع من الصلاة على من عليه دين ،صحيح، وعلى الغالّ وقال : ماينفعه صلاتي عليه (٣٢١) ضعيف

كفى بالمرء خيانة أن يكون أمينا للخونة (٣٢١) لا اعرفه

لايزال العبد بخير مالم يستعجل ، قيل له : ومايستعجل ؟ قال : يقول دعوت فلم يستجب لي (٣٢٦) صحيح

من رآني في المنام فقد رآني (٣٣٠) صحيح

ثلث طعام وثلث شراب وثلث نفس (٣٣٢) صحيح

وقال لعلي رضي الله عنه وهو مريض: أصب من هذا الطعام فهو أوفق لك من هذا (٣٣٢) (٥١) صحيح

ما أنزل الله داء الاّ وأنزل له شفاء فتداووا (٣٣٢) صحيح

عوّدوا كل بدن ماعتاد (٣٣٢) ضعيف

قرّب اليه ضبّ فقال : أجدني أعافه لانه ليس بارض قومي (٣٤١) صحيح

جاء على قوم فقال : ان كان عندكم ماء في شنّ وإلا كرعنا (٣٤١، ١٥٢) صحيح

كان يأكل لحم الدجاج ،صحيح، وكان يحب الحلوى والعسل صحيح ،وكان اذا لم يقدر أكل ماحضر (٣٤١) صحيح المعنى

رأى رجلاً من أصحابه حضر عنده وقد تغيّر من التقشف فقال له

له : من أمرك بهذا ؟ (٣٤١)

لأن تترك ورثتك أغنياء خير من ان تتركهم عالة يتكففون الناس (٣٤٣) صحيح

مامن شيء أسرع لحاقاً بشيء من حسنة حديثة لذنب قديم (٣٥٣) لا اعرفه

يقول آدم : ذنبي ، ويقول ابراهيم وموسى : ذنبي (٣٥٣) صحيح

قال له رجل : لي أقارب أصلهم فيقطعوني . فقال فكأنما تسفّهم المل ، ولن يزال معك من الله ظهير مادمت على ذلك (٣٥٥) صحيح

يحشرون ركباناً ومشاة وعلى وجوههم (٣٥٨) صحيح

انكم ترون ربكم كما ترون القمر ، لاتضامون في رؤيته (٣٦٦) صحيح

من قال سبحان الله العظيم وبحمده غرست له بها نخلة في الجنة (٣٦٧) صحيح

فهرس الأشعار

كأنك لم تسمع بأخبار من مضى ولم تر في البـاقين مايصنع الدهر
فإن كنتَ لاتدري فتلك ديارهم محاها مجال الريح بعدك والقبر
(من بحر الطويل) فصل (٤)
وكيف تنام العين وهي قريرة ولم تدر من أي المحلين تنزل
(من بحر الطويل) فصل(٤)
فتبصر ولا تشـم كل برق رب برق فيه صواعق حين
واغضض الطرف تسترح من غرام تكتسي فيه ثوب ذل وشين
فبـلاء الفتى موافقة النفـــس وبدء الهوى طموح العين
(من بحر الخفيف) فصل (٥)
ولم أر في عيوب الناس عيباً كنقص القـادرين على التمام
(من الوافر) فصل (٧) و (١٠٨) و (٢٢٤)
قد مات قوم وهم في الناس أحياء
(من البسيط) فصل (١٤)
ألقاه في الماء مكتوفاً وقال له إياك إياك ان تبتلّ بالماء
(من البسيط) فصل (٢١)
واحسرتي كم أداري فيك تعثيري مثل الاسير بلا حبل ولا سير

ما حيلتي في الهوى قد ضاع تدبيري لما شكلت جناحي قلت لي طيري

(من البسيط) فصل (٢١)

أحب شيء الى الانسان ما منعا

(من البسيط) فصل (٢٣)

إن الليالي والايام حاملة وليس يعلم غير الله ما تلد

(من البسيط) فصل (٣١)

وخذ لك منك على مهلة ومقبل عيشك لم يدبر
وخف هجمة لا تُقيل العثا ر وتطوي الورود على المصدر
ومثل لنفسك أي الرعيل يضمّك في حلبة المحشر

(من المتقارب) فصل (٤٠) و (١٣٢)

اذا هبط الحجاج أرضاً مريضة تتبع أقصى دائها فشفاها
شفاها من الداء العضال الذي بها غلام اذا هزّ القناة شفاها

(من الطويل) فصل (٤٩)

ان كان رضاكم في سهري فسلام الله على وسني

(من المحدث) فصل (٥٤) و (٢٣٠)

عذابه فيك عذب وبعده فيك قرب
وأنت عندي كروحي بل أنت منها أحب
حسبي من الحب أني لما تحب أحب

(من المجتث) فصل (٥٥)

ويقبح من سواك الفعل عندي فتفعله فيحسن منك ذاكا

(من الوافر) فصل (٥٥)

اذا طالبوني بعلم الورق برزت عليهم بعلم الخرق

(من المتقارب) فصل (٥٨)

فان تشكّت فعلّلها المجرّة من ضوء الصباح وعدها بالرواح ضحى

(من البسيط) فصل (٥٩)

الناس في غفلة والموت يوقظهم وما يفيقون حتى ينفد العمر

يشيّعون أهاليهم بجمعهم وينظرون الى مافيه قد قبروا

ويرجعون الى أحلام غفلتهم كأنهم مارأوا شيئاً ولا نظروا

(من البسيط) فصل (٦٢)

أحب حبيباً لا أعاب بحبّه وأحببتم من في هواه عيوبه

(من الطويل) فصل (٦٣)

لو فكر العاشق في منتهى حسن الذي يسبيه لم يسبه

(من السريع) فصل (٦٣)

جلبت مني هذيل بخرق لاتملّ الشر حتى يملوا

(من المديد) فصل (٧١)

أمستوحش انت مما جنيت فاحسن إذا شئت واستانس

(من المتقارب) فصل (٧٧)

احفظ لسانك لاتبح بثلاثة سنّ ومال ماستطعت ومذهب

فعلى الثلاثة تُبتــلى بثلاثة بمموّهٍ ومخرقٍ ومكذّب

فصل (٧٨ ، ٢٥٢)

(من الكامل)

فإن تكلمت لم أنطق بغيركم وإن سكتّ فانتم عقد إضماري

فصل (٨٨)

(من البسيط)

أبكي وما يدريكِ مايبكيني أبكي حذاراً أن تفارقيني

وتقطعي حبلي وتهجريني

فصل (٩٨)

(من الرجز)

غسلت له طول الليــل فركت له طول النهار

خرج يعــاين غيري زلق وقع في الطــين

فصل (٩٨)

(من المواليا)

كم كنت بالله أقلْ لك لذا التواني غائـــله

والقبيـــح خميره تبين بعـــد قليـل

فصل (٩٨)

(من المواليا)

ولم أر في عيوب الناس عيباً كنقص القادرين على التمام

فصل (٧) و (١٠٨)

(من الوافر)

فكن رجل رجله في الثرى وهامـة همتـــه في الثريا

فصل (١٠٨)

(من المتقارب)

ليس لي مال سوى كرمي فيه أمني من العـــدم

قنعت نفسي بمـــا رزقت وتمطت في العـــلا هممي

فصل (١٠٨)

ينام باحدي مقلتيه ويتقي	بأخرى الاعادي فهو يقظان هاجع
(من الطويل)	فصل (١١٢)
كدودة القزّ ماتبنيه يهدمها	وغيرها بالذي تبنيه ينتفع
(من البسيط)	فصل (١١٤)
زوامل للأخبار لاعلم عندها	بمتقنها الا كعلم الاباعر
لعمرك مايدري البعيد اذا غدا	بأوساقه أرواح مافي الغرائر
(من الطويل)	فصل (١١٤)
أبلغن أهلنا ولا تُخف عنهم	مالقينا في البرزخ الخفاق
قد سئلنا عن كل ماقد فعلنا	فارحموا وحشتي وماقدألاقي
(من الخفيف)	فصل (١١٩)
فلو أنا إذا متنا تركنا	لكان الموت راحة كل حيّ
ولكنا إذا متنا بعثنا	ونسأل بعدها عن كل شيّ
(من الوافر)	فصل(١١٩)
وخذلك منك على مهلة	ومقبل عيشك لم يدبر
وخف هجمة لاتقيل العثار	وتطوي الورودعلى المصدر
ومثل لنفسك أي الرعيل	يضمّك في حلبة المحشر
(من المتقارب)	فصل(٤٠ ، ١٣٢)
ومن كان في سخطه محسناً	فكيف يكون إذا مارضي
(من المتقارب)	فصل (١٣٤)

ولا انثنى عزمي عن بابكم   الا تعثرت باذيالي

(من السريع)   فصل (١٣٧)

صبرت ولا والله مابي جلادة   على الحب لكني صبرت على الرغم

(من الطويل)   فصل (١٣٨)

ما كنت أرجوه إذ كنت ابن عشرينا

ملكته بعد أن جاوزت سبعينا

تطيف بي من بني الاتراك اغزلة   مثل الغصون على كثبان يبرينا

وخرّد من بنات الروم رائعة   يحكين بالحسن حور الجنة العينا

يغمزنني بأساريع منعمة   تكاد تعقد من أطرافها لينا

يردن إحياء ميت لاحراك به   وكيف يحيين ميتاً صار مدفونا

قالوا إنينك طول الليل يسهرنا   فما الذي تشتكي قلت الثمانينا

(من البسيط)   فصل (١٥٨)

لقد أتعبت نفسي في مشيبي   فكيف تحبني الخرد الكعاب

(من الوافر)   فصل (١٥٨)

ومن لم يعشق الدنيا قديماً   ولكن لا سبيل الى الوصال

(من الوافر)   فصل (١٦٠)

أهتز عند تمني وصلها طرباً   وربّ أمنية احلى من الظفر

(من البسيط)   فصل (١٦٧)

جزى الله المسير اليه خيراً   وان ترك المطايا كالمزاد

(من الوافر)   فصل (١٦٧)

لاتبر عودا أنت ريّشته حاشا لباني الجود ان ينقضا
لاتعطش الزرع الذي نبته بصوب انعامك قد روضا

(من السريع) فصل (١٦٧)

ومافي الارض أشقى من محبّ وانْ وجد الهوى عذب المذاق
تراه باكياً في كل وقت مخـــافة فرقة أو لاشتياق
فيبكي ان نأوا شوقاً اليهم ويبكي ان دنوا خوف الفراق
فتسخن عينه عنـــد التداني وتسخن عينه عنـد الفراق

(من الوافر) فصل (١٦٨) ص ٣٣٣

ولكل جسم في النحول بلية وبلاء جسمي من تفاوت همني

ص ٣٣٤

وفي الناس من يرضى بميسور عيشه
ومركوبه رجلاه والثوب جـلده
ولكن قلباً بين جنبيّ مـــاله
مدىً ينتهي بي في مراد أحدّه
ترى جسمه يكسى شفوفاً تربّه
فيختار أن يكسى دروعاً تهدّه

(من الطويل) فصل (١٦٩)

فاكذب النفس اذا حدّثتها إنّصدق النفس يزري بالامل

(من الرمل) فصل (١٧٠)

كأن الفتى يرقى من العمر سلماً   الى ان يجوز الاربعين وينحطا

(من الطويل)   فصل (١٨٨)

رأى منك مالا يشتهى فتزندقا

(من الطويل)   فصل (١٩١)

لولا المشقة ساد الناس كلهم   الجود يفقر والاقدام قتال

(من البسيط)   فصل (١٩٢)

أفدي ظباء فلاة ما عرفن بها   مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب

(من البسيط)   فصل (٢٠٠)

حسبي من الدهر ما كفاني   يصون عرضي عن الهوان

مخافة ان يقول قوم   فضل فلان على فلان

(من مخلع البسيط)   فصل (٢٢١)

وتجلدي للشامتين أريهم   أني لريب الدهر لا اتضعضع

واذا المنية أنشبت أظفارها   ألفيت كل تميمة لا تنفع

(من الكامل)   فصل (٢٢٢)

ولكل جسم في النحول بلية   وبلاء جسمي من تفاوت همّي

(من الكامل)   فصل (٢٢٤)

ان كان رضاكم في سهري   فسلام الله على وسني

(من المحدث)   فصل (٥٤) و (٢٣٠)

مابيننا إلا تصرّم   هذه السبع البواقي

حتى يطول حديثنا بصنوف ما كنا نلاقي

(من مجزوء الكامل) فصل (٢٣٠)

والمرء مادام ذا عين يقلبهـا في أعين الناس موقوف على الخطر
يسر مقلتـه ماضر مهجتـه لا مرحبـاً بسرور عاد بالضرر

(من البسيط) فصل (٢٣٥)

انمـا الحب قبلة وغمز كف وعضد
انما العشق كذا ان نكح الحب فسد

(من مجزوء الرجز) فصل (٢٣٥)

أفق يافؤادي من غرامي واستمع مقالة محزون عليك شفيق
علقت فتـاة قلبها متعلق بغيرك فاستوثقت غير وثيق
واصبحت موثوقاً وراحت طليقة فكم بين موثوق وبين طليق

(من الطويل) فصل (٢٤٤)

لاتضهرن مودة لحبيب فترى بعينك منه كل عجيب
اظهرت يوماً للحبيب مودتي فأخذت من هجرانه بنصيب

(من الكامن) فصل (٢٥٢)

احـذر عـدوك مرة واحذر صديقك الف مرة
فلربما انقلب الصديق فكان ادرى بالمضرة

ص ٤٧٨ فصل (١١٢) و (١٨٥) و (٢٥٦)

تفضل على من شئت واعن بأمره فأنت ولو كان الامير اميره

وكن ذا غني عمن تشاء من الورى ولو كان سلطاناً فأنت نظيره
ومن كنت محتاجاً إليه وواقفاً على طمـــع منه فأنت اسيره

(من الطويل) فصل (٢٥٤)

ماتوا وغيّب في التراب شخوصهم والنشر مسك والعظام رمـيم

(من الكامل) فصل (٢٦٣)

مافي الديار اخو وجد نطارحه حديث نجـد ولا خل نجاريه

(من البسيط) فصل (٢٧٢)

نحب القدود ونهوى الخدود ونعـــلم انا نحب المنونا

(من المتقارب) فصل (٢٨٧)

طبعت على كدر وانت تريدها صفواً من الاقذار والاكدار
ومكلف الأيام ضد طباعهـا متطلب في المـــاء جذوة نار

(من الكامل) فصل (٢٩٢) ص ٥٣٥

وسواء إذا انقضن يوم كسرى في سرور يوم صابر كسرة

« من الخفيف » فصل (٢٩٣)

ولما تعامى الدهر وهو أبو الردى عن الرشد في انحائه ومقاصده
تعاميت حتى قيل اني أمو عمى ولا غرو أن يحذو الفتى حذو والداه

« من الطويل » فصل (٢٩٨)

اضحت بنيتنا انثى يطاف بها وأصبحت أنبياء الناس ذكرانا
فلعنة الله رب الناس كلهـــم على سماح ومن بالافك اغوانا

اعني مسيلمة الكذاب لاسقيت اصداؤه من رعيث حيثما كانا

« من البسيط » فصل (٣٠٨)

والمرير مادام ذاعين يقلبها في أعين العين موقوف على الخطر
يسر مقلتــه ماضر مهجتــه لامرحباً بسرور عاد بالضرر

« من البسيط » فصل (٣١٢)

يامنتهى الآمال أنت كفلتني وحفظتني
وعدا الزمان علي كي يجتاحني فمنعتــني
فانقاد لي متخشعاً لما رآك نصرتـــني
وكسوتني ثوب الغنى ومن المطالب صنتني
فاذا سكت بدأتني واذا سألت أجبتني
وإذا شكرتني زدتني فمنعتني ومهرتـــني
أو ان اجد بالمال فالاموال أنت أفدتني

« من مجزوء الكامل » فصل (٣١٣)

مافي هو ادجكم من مهجتي عوض ان مت شوقاً ولا فيها لها ثمن

« من البسيط » فصل (٣٢٩)ص٥٩١

لاتسه عن أدب الصغـــير ولو شكا ألم التعب
ودع الكبير لشأنه جلر الكبير عن الادب

« من مجزوء الكامل » فصل (٣٣٣) ص ٥٧٨

طاول بها الليل مال النجم أم جنى وما طل النوم ضن الجفن ام سمي

فان تشكت فعلها المجرة من	ضوء الصباح وعدها بالروح ضحى
« من البسيط »	فصل (٣٣٣)
الالا احب السير الا مصاعداً	ولا البرق إلا ان يكون يمانياً
« من الطويل »	فصل (٣٣٤)
فاتني ان ارى الديار بطرفي	فلعلي أرى الديار بسمعي
« من الخفيف »	فصل (٣٣٧)

فهرس الموضوعات

الارقام للفصول

الجزء الثاني

الجزء الثالث

استدراك

ذكر ابن رجب ان ابن الجوزي استُفتي في رجل من الفقهاء قال: ان عائشة قاتلت علياً ، فصارت من البغاة . فأجاب :

« هذا رجل ليس له علم بالنقل ، وقد سمع أنه قد جرى قتال ، ولعمري أنه قد جرى قتال ، ولكن ماقصدته عائشة ولا عليّ ، انما اثار الحرب سفهاء الفريقين ولولا علمنا بالسِّيَر لقلنا مثل الذي قال »

ولقد كنت علقت على كلام المؤلف في ذيل الصفحة « ٥٣٢ » بمثل هذا ، ولم اكن رأيت هذه الفتوى ، فلما رأيتها فرحتُ اذ وافقتُ بتعليقي عليه ماأفتى به .

ومن فتاواه فتوى قال فيها :

« وقد رأيت من يقوم بالليل على المنارة ، فيعظ ويذكّر ، أو يقرأ سورة من القرآن بصوت مرتفع ، فيمنع الناس من نومهم ، ويخلط على المتهجدين قراءتهم ، وكل ذلك من المنكرات »



دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر

دمشق : هاتف ١١٠٤١ - ص.ب ٩٦٢

وكلاء التوزيع
في القاهرة : مكتبة دار العروبة
في بغداد : مكتبة المثنى

٣٠٠ مليم